



جامعة قناة السويس

مجلة
كلية الآداب

العدد ٩ السنة ١٩٨٩



مجلة كلية الآداب

جامعة قناة السويس

العدد ٩

السن ١٩٨٩



مجلة كلية الآداب

جامعة صنعاء
مجلة علمية محكمة

هيئة التحرير

الدكتور أحمد محمد شجاع

عميد كلية الآداب

الدكتور شاکر خصباك

الدكتور مزید نعیم

الدكتور إبراهيم السامرائي

الدكتور محمد الزعبي

الدكتور محمود عبد الرازق

رئيس التحرير:

مدير التحرير:

أمين التحرير:

مستشارو التحرير:

شروط النشر:

- أن يكون البحث جديداً لم يسبق نشره في أية دورية علمية.
- يشار في النص إلى الحواشي بأرقام صغيرة متسلسلة يحال بها إلى المراجع والمصادر في آخر البحث.
- تُقدّم الخرائط والأشكال - إن وجدت - مرسومة بالحبر الأسود على ورقة مستقلة لا تتجاوز مساحتها مساحة صفحة المجلة. وفي أماكنها المناسبة من البحث.
- تعبر الأبحاث المنشورة عن آراء أصحابها.
- تقبل المجلة الأبحاث المرسلة إليها من داخل جامعة صنعاء وخارجها والمجلة غير ملزمة بإعادة ما لم ينشر إلى أصحابه.

المحتويات

٦	هيئة التحرير	الافتتاحية
٧	الدكتور إبراهيم السامرائي	لغة تميم مادتها وخصائصها
٤٥	الدكتور محمد عمر السماوي	متصور الخطأ في اللسانيات
٨١	الدكتور حسن عثمان دهب	نظرية المعرفة عند كانط
١٠٣	الدكتور علاء حمروش	موجز تاريخ الفلسفة الأرمنية في العصور الوسطى
١١٩	الدكتور أبو بكر السقاف	تشارس ساندرس بيرس أبو البراجماتية
١٤٩	الدكتور محمد الزعبي	الظاهرة السكانية بين قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع
١٧٣	الدكتور أحمد قايد الصائدي	البعثة الملكية الدينامكية إلى (العربية السعيدة)
٢٢١	الدكتور محمود عامر	نهر دجلة والفرات في العهد العثماني
٢٤٧	الدكتور محمود عبد الرازق	تاريخ العمارة في مصر القديمة
٣٠٩		مراجعة العدد الماضي
٣١٢		ملف المجلة: قيام الجمعية الجغرافية اليمنية

1-18 Abdelrahman A. Abdrabou: East and West in Contemporary Arabic Fiction:
The Crosscultural Impasse

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الافتتاحية

ها هوذا العدد التاسع من مجلّة كلیّة الآداب، نُطلّ به على أبناء هذه اللغة حافلاً بالبحوث العلمية المتنوعة التي يجد فيها القارئ زاداً وثيراً من ألوان الفكر والثقافة.

والكلية بذلك تحاول أن تستمر في مسيرتها الثقافية، لتحقيق هدفاً من أهدافها، وهو نشر ورعاية هذا الجهد المتميز الذي يقدمه الأساتذة المختصون بمختلف علوم المعرفة.

وقد أفسحت المجلة صدرها لكل من يرغب في الكتابة فيها من أعضاء هيئة التدريس في داخل الكلية وخارجها.

والكلية ما فتئت تعمل جاهدة من أجل نشر العلم والمعرفة، وكان من بواعث الرجاء أن نظمت كلیّة الآداب في بداية هذا العام الدراسي أسبوعاً ثقافياً من ١٨ - ٢٥ أكتوبر، وقد حقق هذا الأسبوع نتائج طيبة. وإننا إذ نقدم إليكم هذا العدد لندرجو أن نكون قد وفقنا فيما هدفنا إليه.

ونسأل الله أن يسدّد خطانا، ويوفقنا للخير والرشاد.

هيئة التحرير

لغة تميم مادتها وخصائصها

الدكتور إبراهيم السامرائي
قسم اللغة العربية

بين يدي البحث

إن البحث في لغة قديمة مسألة تاريخية، ذلك أن الدارس ليس له إلا ما هو مثبت في المصادر القديمة. ومن هذا لا يمكن لهذا الدرس أن يتعد عن استقراء المادة القديمة بعجزها وبجرها.

أقول: بعجزها وبجرها لأنه ليس في وسع الدارس أن يستوفي عناصر البحث. إن الدرس العلمي في المادة اللغوية يتطلب معرفة الأصوات معرفة جيدة ليصل منها إلى ضبط الظواهر الصوتية، وما يتأتى منها في الأبنية اللغوية. إن علم الأصوات علم عملي لا بد أن يكون له أثر واضح في التركيب اللغوي، وهذا هو الغرض الوحيد من الدرس الصوتي، وما عدا هذه الناحية العملية التطبيقية يبقى من علم الأصوات رصد الظواهر الصوتية التي تتصل بطبيعة الأصوات، والتي تختلف فيها لغة طائفة من الناس عن لغة طائفة أخرى في البلد الواحد أو في بلدان مختلفة.

ومن أين للباحث في عصرنا أن يضبط هذه الخصائص اللغوية للغة قديمة لم يبق من آثارها إلا القليل القليل الذي اختلط بغيره من العناصر اللغوية.

وإنني لأرى أن ما يدرج به قوم في سلوكهم اللغوي هو لغة برأسها وإن أدرجت مع غيرها لا تختلف كثيراً عنها في نظام واحد. وهذا يعني أنني أذهب إلى

رفض تسميتها بـ (لهجة)، وإن تعارف الدارسون في عصرنا على تسميتها (لهجة). وكيف لي أن أدعو السلوك اللغوي الذي ينتظم بلداً كاملاً (لهجة)، فأقول مثلاً: «اللهجات العربية» القديمة والحديثة. إن الألسن الدارجة العامية هي لغات لها نظامها الصرفي ونظامها النحوي، ولها أصواتها الخاصة، وكلّ منها يختلف عن الآخر في هذه الأجزاء. ولك أن تدرك هذا في موازنة اللسان المصري في عصرنا مع اللسان الجزائري مثلاً. ولنا أن نعكس الأمر على اللغات القديمة فنقول: إن عربية كل من الحجاز وتميم عربية خاصة تختلف عن لغات القبائل الأخرى.

وقد يكون لي أن أذهب إلى أبعد من هذا فأثبت أن الرقعة الواسعة التي كان يسكنها أهل الحجاز وجمهرة تميم في العصور القديمة قد عرض لها بعض الاختلاف والتغير، وهذا يعني أن أهل الجهات الشمالية من هاتين المجموعتين لهم طريقة خاصة فيما يدرجون فيه من وجوه القول تختلف عنها في الجهات الجنوبية. وقل مثل هذا لدى أهل الأجزاء الشرقية من هاتين المجموعتين الذين لا بدّ أن يكون لهم طريقة تختلف عنها في الأجزاء الغربية.

وعلى هذا ليس لي أن أتوسّع في لغة تميم، وهي مادة تاريخية لا أدرك من أمرها إلاّ الذي قال به علماء اللغة في عصور متقدمة.

ثم إن الذي ذكره علماء اللغة على قيمته التاريخية لا يمكن أن يكون مادة يُطمأن إليها بلبّة أن تكون كافية تفي بحاجة الدرس الجاد.

ومن هنا لم يبق لي إلاّ أن أجمع هذه المخلفات المتناثرة في كتب اللغة، والنحو القديم، فأصنّفها بحسب ما يقتضي الدرس اللغوي الحديث.

وقد رأيت أن أقصر جهدي على لغة الحجاز ولغة تميم، ذلك أن الحجاز على سعته يمثل غرب بلاد العرب، وتمدّم في مواطنها الفسيحة تمثّل شرق هذه البلاد. ولا أرى حاجة أن أتوسّع في باب ما يدعوه المعاصرون (باللهجات). ولا أدري كيف أحتفل هؤلاء بشذرات لغوية نسبت إلى قبائل مختلفة، واختلف أهل العلم في نسبتها أي اختلاف، وسنجد من هذا الكثير الذي نسب إلى غير قبيلة واحدة.

ولا أدري كيف عدّ المعاصرون هذه الشذرات المتناثرة لهجات، وهي لم تنسب إلى قوم بأعيانهم، وقد عدت (لغات مذمومة) لدى علماء اللغة؟ (واللهجات)

في اصطلاح هؤلاء الدارسين (لغات)، وهي تتصل بألفاظ بأعيانها وردت في عامة مصادرنا القديمة ولم يختلف فيها مصدر عن آخر.

ولم يشقّ المعاصرون في هذا الأمر، بل أقاموا من هذه (المخلفات) المتناثرة هيكلًا في بنائهم، وقد شقوا في تجميع مواد هذا البناء. وكأنهم سعوا وراء الجديد، وسعيهم وراء الجديد كان على حساب العلم.

ولعلّ أوائل المستشرقين في القرن المنصرم قد أدركوا حقيقة هذا الأمر، فلم يروا في هذه المخلفات ما يعين على الوقوف على (لهجات) يتضح فيها ما يعين على البحث من نظام معجمي ونظام صوتي. وسأبدأ كلامي على لغة تميم ذلك أن المادة فيها أقلّ مما هي في لغة أهل الحجاز. وستكون لي دراسة وافية للغة أهل الحجاز.

مقدمة

تقابل لغة الحجاز في تاريخ العربية لغة تميم، نلاحظ هذا في كتب النحو واللغة. وتميم جمهرة كبيرة من العرب استوطنت بلاداً تمتد من الشمال إلى الجنوب في شرقي بلاد العرب، في حين أن كلمة (الحجاز) في التاريخ اللغوي تتجاوز المعروف من الحجاز في العلم الجغرافي. ومن هنا كانت (الحجاز) في الأطلس اللغوي القديم تشمل على نجد وما جاورها.

لقد أغفل النحويون واللغويون في هذا التقسيم الواسع الحقائق اللغوية التي تبرز بخصوصياتها في هذين الشطرين، فليس من المعقول ولا من العلم أن تكون لغة تميم واحدة وهي في هذه الرقعة الفسيحة، كما أن مما لا يقبل أن يكون أهل هذه البلاد الواسعة التي أطلق عليها الحجاز واحدة. ومن العلم أن نثق أن عربية كل من الحجاز وتميم كانت تشمل على ألوان عدة تتصل بالنظام الصوتي، وتتجاوزه إلى الأبنية، ثم لا نعدم أن نجد في كل منها خصوصيات تتصل بالنحو وأخرى ذات علاقة بالمعجم القديم.

وليس أدلّ على هذا مما نصادف في كتب النحو واللغة من الإشارات التي تثبت أن الخلاف في أجزاء كلّ شطر من هذين الشطرين واضح. إن هذا كلّه ليضطر الدارس أن يكتفي باستقراءه مفيداً فيه إلى ما يجعله يضع شيئاً يسيراً يتصل بالأجزاء الضرورية من العلم اللغوي. إنّ هذا الشيء اليسير الذي يخرج عن الاستقراء الوافي لا يمكن أن يفي بوضع بناء مكتمل يستجيب لما تفرضه عناصر البحث الوافي في عصرنا.

ومن هنا كانت كتب النحو القديم دون ما كان ينبغي أن تكون عليه في معرفة الخصوصيات التي حفلت بها العربية في مجالها الواسع. إن الباحث لا يظفر فيها بشيء ذي قيمة يتصل بطبيعة الأصوات في مختلف الأجزاء التي عاشت فيها

جمهرة التميميين، كما لا يظفر بنظير ذلك مما يتصل بالخصوصيات اللغوية في البيئة الحجازية.

ولا بدّ لي أن أضع بين يدي القارئ خارطة لبلاد العرب أثبت فيها مواقع تميم بحسب ما أفادت المصادر التاريخية الجغرافية، ويحسن أن أثبت ما قيل في تميم ومواطنها، على أن هذا الذي أثبته من مواطنها لا يشير إلى هذا الموضوع إشارة دقيقة، ذلك أن حركة القبائل عامة كانت دائمة ولا بدّ من تقارب بين مواطن القبائل المختلفة.

تميم وما قيل فيها

تؤلف (تميم) تجمُّعاً كبيراً للعرب، فقد كانت قبائل عدة تنتمي إليها، وهي: كعب بن سعد بن زيد مناة، وحنظلة بن مالك بن زيد مناة، وهم البراجم، وبنو دارم، وبنو زرارة بن عدس، وبنو أسيد، وعمر بن تميم. وقد امتلأت منهم البلاد، وكانوا أهل منعة وعدد وبأس ونجدة، وأصحاب فصاحة وشعر. (١) وقيم تنسب إلى أد بن طابخة بن إلياس بن مضر. (٢) ومن هنا قال فيهم ابن حزم: أكبر قواعد العرب. (٣) ولعلّ هذا التجمع الكبير من العرب الذي يضم جمهرة من القبائل دليل على أنها أفادت هذا الشمل على تراخي العصور والأحقاب.

سكنت تميم المواطن الشرقية من أرض نجد، وهي تمتد فيها من الشمال إلى الجنوب، وجلّها مفاوز وصحارى لا يهتدي لمشاكلها، وماؤها من الآبار كما يستفاد من تاريخ الطبري. (٤) وقد أفادنا في هذا القلقشندي فأثبت: أن بلادهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليامة، وامتدّت إلى العذيب من أرض الكوفة. (٥) وقال البكري: «ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجر، ونزلوا ما بينها وبين اليامة، ووقعت طائفة منهم إلى عمان، وخالطوا عامر بن عبد القيس في بلادهم قطر، وامتدّت منازلهم إلى البحرين، فالأحساء حيث نفذ بنو سعد بن زيد مناة بن تميم». (٦)

وقد كانت تميم كلّها بأسرها في اليامة حين جاء الإسلام. (٧)

وتؤلف تميم تجمُّعاً بدوياً في عاداته وتقاليده. (٨) ومن هنا عرف بينهم (الوآد)، وكانهم بذلك يتفون مما يمكن أن يجلبه السبي عليهم من العار في معاركهم مع القبائل الأخرى. (٩)

وقد أثبت الألوسي في (بلوغ الأرب): أن الوآد كثر في بني تميم، وكان السبب في ذلك أن بني تميم منعوا الملك ضريبة الإتاوة التي كانت عليهم فجرد

إليهم النعمان أخاه مع دوسر (كتيبة) وكان أكثر رجاله من بكر بن وائل، فاستاق نعمهم، وسبى ذراريمهم... ثم وفدت وفود بني تميم على النعمان وكلموه في ذلك، فحكم أن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء، فأية امرأة اختارت زوجها رذت عليه، فاختلفن في الخيار، وكانت فيهن بنت القيس بن عاصم فاختارت سايبها على زوجها فنذر قيس بن عاصم أن يدس كل بنت تولد في التراب، غير أن الفقر الذي عرفته البيئة العربية والقسوة التي صاحبتة كان كل ذلك دافعاً على الوأد، وقد ذهبت الآية الكريمة إلى هذا فقال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾^(١١)

ولعل ما ورد في كتب الأدب القديم يثبت أن (الوَأد) كان بسبب الفقر والحاجة.

وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بإشارات تدل على مكانة تميم بين العرب في الجاهلية والإسلام. لقد بَوَّأ العرب تميماً المكانة العالية فكان منهم حكام الأسواق،^(١٢) ومن هؤلاء مخاشن بن معاوية بن شريف وابنه ربيعة، وأكثم بن صيفي، وحاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، وضمرة بن أبي ضمرة.^(١٣) وكان العرب لا يرحون (منى) في الحج حتى يجوز صاحب الموسم من تميم.^(١٤) إن صاحب الموسم هذا الذي له الإجازة في الحج سعد بن زيد مناة، ومازن بن مالك ابن عمرو، ومعاوية بن شريف بن جررة، وصلصل بن أوس بن مخاش، وصفوان بن شحنة بن عطارد،^(١٥) وإلى هذا أشار جرير:

ومنا من يُجيز حجيج جمعٍ وإن خاطبت عركم خطاباً^(١٦)
وليس شيئاً أقل من هذه المكانة الاجتماعية الجانب الأدبي، ذلك أن تميماً في الجاهلية كان فيها من الشعراء غير واحد من المشاهير، وفيهم أوس بن حجر، شاعر مضر في الجاهلية،^(١٧) وعبد بن الطيب،^(١٨) وعلقمة الفحل،^(١٩) وسلامة بن جندل،^(٢٠) ومالك ومتمم ابنا نويرة،^(٢١) والسُّليك بن السلكة^(٢٢) والعجاج وابنه رؤبة،^(٢٣) والفرزدق وجرير.^(٢٤)

وقال أبو عبيدة: ليس الإسلام مثل حظ تميم في الشعر، وأشعر تميم جرير والفرزدق.^(٢٥)

وإذا كان هذا حظ تميم فإن حظهم في الخطابة واللسن لا يقل عنه، فمن خطبائهم: أكثم بن صيفي،^(٢٦) وحاجب بن زرارة،^(٢٧) والأقرع بن حابس،^(٢٨) والأحنف بن قيس.^(٢٩)

وهي مع كل هذا مشهود لها بالفصاحة بين العرب، ذكر المبرد في (الفاضل):
«أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورد عليه الوفود فأقرأ الأحماس كل خمس
على لغته، فكان أعرب القوم تميم»^(٣٠) وقال أبو عمر وابن العلاء: «أفصح العرب:
عليا هوازن، وسفلى تميم»^(٣١) ومن أجل هذا كانوا ممن «نقلت العربية عنهم، وبهم
اقتدي وعليهم أتكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف»^(٣٢).

أقول: بعد هذا العرض لمكانة تميم في التاريخ وحضورها في الأدب القديم
شعراً ونثراً، أود أن أثبت شيئاً يتنكر إلى حماسة الشادين بالقول باللهجات الذين
يחסبون أن للقبيلة عربية خاصة، وأنت تخلص فيما مضوا فيه إلى أن هذه العربية
الخاصة تختلف عن عربية القبيلة الأخرى.

ومما لاشك فيه أن لتميم صلات ودية أو غير ودية مع القبائل الأخرى، ومن
هذه بكر بن وائل، قبيلة كبيرة، لعلها مثل تميم في كثرة العدد. وكان بينها وبين
تميم صراع شديد في الجاهلية، وما كان للإسلام أن يأتي على كثير من هذا
الصراع، إذ سرعان ما بدا في عصر بني أمية^(٣٣).

ومن مشاهد هذا الصراع ما كان في أيام العرب^(٣٤).

وقد كان مثل هذا بين تميم وقيس، والأحداث بينها معروفة في كتب الأدب
والتاريخ^(٣٥). ولم لا يكون هذا وللبيئة الجاهلية تقاليداً في الغزو والسلب والنهب،
وما يتأتى عن ذلك من قتل وسفك دماء، ثم ما يكون بعد ذلك من الثأر للقتل.
وقد كان شيء من ذلك بين بطون تميم وأقسامها التي احتلت رقعة فسيحة في شرقي
 نجد من الشمال إلى الجنوب كما بينا آنفاً.

وأود أن أختتم هذه (المقدمة) فأقول:

لو أن هذا الانتفاء إلى القبيلة يفترض فيه أن تكون لكل قبيلة عربية خاصة
فهلا كان لنا أن نواجهها في شعرهم؟ لم يكن شيء من هذا لدى أولئك الشعراء
الذين انتسبوا إلى تميم، والشعراء الذين انتسبوا إلى غير تميم من القبائل العربية. لم
 نجد هذه الخصائص التي تؤسس عربية خاصة لدى الشعراء الذين ينتسبون إلى بكر
ابن وائل، ولا لدى الشعراء الذين ينتسبون إلى قيس، ذلك أن عامة هؤلاء وعامة
أولئك قد مضوا في إعرابهم على المشهور المتفق عليه من خصائص لغة مشتركة.

وإذا كانت تميم قد توزعت بطوناً فتفرقت في موطنها الفسيح الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب، ومن شرقي نجد إلى اليمامة وأطرافها حتى اتصل بهجر، وشارف البصرة، وامتد إلى العذيب من أرض الكوفة^(٣٦)؛ فكيف يتهاى لنا أن نفترض أن هذا الجمهور التميمي الذي يسكن بلاداً مترامية الأطراف يعرب في لغة واحدة؟ لا بد أن يكون هذا الجمهور مختلفاً في إعرابه أصواتاً ومعجماً. غير أن (العربية المشتركة) كان لها حضور. والدليل على هذا ما ورثنا من أدب أهل الجاهلية، فهل اختلف شعر امرئ القيس عن شعر الأعشى، وكل منهما ينتمي إلى قبيلة تبتعد في مواطنها عن القبيلة الأخرى.

ونعود إلى لغة التنزيل العزيز فنجد أنها كانت من عوامل تثبيت العربية العامة المشتركة، وإذا كانت هذه اللغة الشريفة قد نزلت في حاضرتي الحجاز مكة والمدينة، فإن ذلك يعني أن الخصائص اللغوية التي أثبتتها اللغويون والنحاة في لغة الحجاز واضحة فيها، فأين هي؟

لم نعرف في لغة التنزيل مانذعه بتسهيل الهمزة التي أثبتتها أهل اللغة على أنها من خصائص لغة الحجازيين، ولم نجد أشياء أخرى غيرها، وسنعرض لها في إثبات الفروق بين الحجاز و تميم.

لا أنكر أن العربية كانت متوزعة في لغات عدة، ولا أدعوها (لهجات) لأن ما ندعوه (لهجة) في عصرنا شيء افتعلناه، وليس من ملاك (اللهجة) اشتغالها على الخصائص اللغوية الواسعة التي يعرب بها جماعة عن آخرين^(٣٧).

أقول: لا أنكر وجود (اللغات)، وقد عرفنا من ذلك (لغات القرآن)، التي بقيت من مواد القراءات، على اختلاف درجاتها في العلو، كما عرفنا من ذلك الشواذ من القراءات، وما اجتمع فيها من خصائص تتصل بالعربية الخاصة التي ابتعد عنها المعربون في شعرهم.

ومثل الشعر ما كان من العربية التي وصلت إلينا في خطب الجاهليين والإسلاميين، والعربية التي وقفنا عليها في أمثالهم، وكلها جاءت متسقة متشابهة، لا نرى بينها أي خلاف، ولم يبق لنا إلا أن نقول: إننا لم نقف على الغرائب التي تتصل بالعربية الخاصة المنسوبة إلى القبائل إلا في الشواهد، اللغوية، والشواهد

النحوية، وهي نماذج فريدة تتردد في كتب النحو وكتب اللغة، وهي يتيمة لا نجد لها نظائر في أشعارهم وخطبهم^(٢).

ولا أشك أن تكون لغة تميم قد اختلفت بعض الاختلاف في أصواتها، وفيما ندعوه في عصرنا بـ (النبر)، عن لغة قبيلة أخرى من القبائل العربية، كما أني لا أستطيع أن أدرك أن فروع تميم، وقد استوطنت بلاداً شتى، قد احتفظت بخصائص لغوية واحدة في الأصوات والنبر والدلالات.

اللغات العربية القديمة:

جاء في (الصاحبي) لابن فارس: «... فحدثنا علي بن إبراهيم عن المعداني عن أبيه عن أبي معاذ معروف بن حسان عن الليث عن الخليل، قال: إن النحارير ربّما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيث.

قال ابن فارس: «قلنا فليتنحز أخذ اللغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة والثقة والصدق والعدالة فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا...»^(٣٩).

ابتدأت بقول الخليل الذي قدمت لأشير إلى أن الوضع والكذب قد فشا في العربية، ولا أدري لم لم يعرض المعاصرون إلى هذا، وصرخوا همهم إلى الانتحال في الشعر، كما انصرف نقاد الحديث الشريف إلى الموضوع المصنوع على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم!

وقد قرأنا في الأثر قول أبي عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاء علم وشعر كثير^(٤٠)».

وكان دأب الناس في العصور المتقدمة، وأهل العلم والأدب والشعراء أن تسود العربية المهذبة البعيدة عما هو خاص باللغات الغريبة. ومن هنا نجد أهل العلم ينعنون عنعنة تميم وكشكشه أسد، وكسكسة ربيعة وغير ذلك مما هو شنشنة وفحفحة هذيل باللغات المذمومة^(٤١).

وقد يكون عامة الشعر القديم الجاهلي والإسلامي قد درج في الفصيحة

المشهورة، ولم نجد هذه المواد الغريبة إلا في شواهد لغوية سجلها اللغويون وذكرها النحاة، وهي عندهم من العيوب التي ينبغي ألا تكون في العربية المشهورة.

لقد طلب عمر بن الخطاب من عبدالله بن مسعود ألا يقرأ بلسانه الهذلي، وذلك لأنه بلغه أن عبدالله بن مسعود قرأ: «وَلْيُسَجِّنْ عَتَى حِينَ» بدلاً من ﴿حَتَى حِينَ﴾^(٤٢).

وكان لعمر أقوال معروفة حث فيها على تعلم العربية^(٤٣).

وقد نخلص من هذا إلى أن مصادرنا لا تشير إلى ما يتصل باللغات الخاصة لأنها أمر مرغوب عنه، وأن الذي بقي منها إشارات قليلة لا تمكن الدارس أن يقف منها على شيء ذي بال.

لعل من المفيد أن أشير أن الشاعر قد يلتزم بشيء من هذه الظواهر اللغوية مسوقاً بالضرورة أو الحاجة إلى الوفاء بمطلب من مطالب النظم، ومن هذا نقراً قول الأخطل:

أبني كليبٍ إن عَمِّي اللذا قتلًا الملوك وفككًا الأغلال

فقد جاء في البيت (اللذا) اسماً موصولاً حذف النون منه على ما قيل إن بني أسد^(٤٤) يحدفونها في (لغتهم) لقد اضطر الشاعر إلى هذا لإقامة الوزن، وإلا أين هو من بني أسد؟ والبيت شاهد لغوي في حذف النون هذه. وقد يكون قريباً من هذا قول ذي الرمة:

أَعْنِ تَوَسَّمَتْ مِنْ خَرَقَاءَ مَنْزِلَةً مَاءَ الصَّبَابَةِ مِنْ عَيْنِكَ مَسْجُومٌ^(٤٥)

وموطن الشاهد (أعن) وهي (أن) وتميم وأسد يدلون الهمزة عيناً، فهل نقول إن ذا الرمة جرى على (لغته) الخاصة، وهي لغة تميم، لا لن أقول ذلك، بل أذهب أنه هَرَبَ من اجتماع النظيرين، أي الهمزتين لما في ذلك من ثقل. ثم لو أن ذا الرمة جرى على هذه (اللغة) وهي العننة لكان لنا أن نرى (العين) في كل كلمة كانت الهمزة بعض أصولها. لم يكن شيء من هذا.

ومن المفيد أيضاً أن نتعقب هذه الفوائد وهي فرائد يتيمة، فنقرأ قول أبي

ذؤيب الهذلي:

شربن بماء البحر حتى ترفعت (متى) لجاجٍ خضر لهنّ نثيجُ

أي: (من لجج)، ومثل هذا قول صخر الغي:
متى ما تنكروها تعرفوها (متى) أفتارها علق نفيث
أي (من أفتارها). وهذان الشاهدان وردا في أن (متى) بمعنى (من) على لغة
هذيل^(٤٦).

وعلى حين لم يأذن أهل العلم ولا الحاكمون لهذه المخلفات اللغوية أن يكون لها
حضور في روائع النظم والنثر، بل قل اهتم اللغويون والنحويون اهتماماً خاصاً بها،
وكأنهم أرادوا الوفاء بالناحية التاريخية، فقد سارعوا إلى تسجيل هذه النماذج، وربما
وضعوها واصطنعوها، وحملوها على الشعراء كذباً كما سنرى.
لقد استشهد النحاة على مجيء اللام في خبر (لكن) فجاءوا بما نسب إلى
المجنون وهو قوله:

يلوموني في حبّ ليلي عواذلي ولكنني من حبّها لعميد
وقد أشار الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ناشر (شرح ابن عقيل) إلى
أنّ من المحتمل أن يكون الشارح (ابن عقيل) قد وضعه...^(٤٧)

وفي صدر البيت قوله (يلوموني) مع وجود الفاعل، وهي (اللغة) التي
وسمت بلغة (أكلوني البراغيث) أو لغة بلحارث بن كعب، والبيت كلّه مما نسب إلى
المجنون، ويجتمع فيما نسب إلى المجنون الصحيح والموضوع ومما أنشد المفضل الضبيّ
ما أنشده أبو الغول الطهويّ لبعض أهل اليمن:
أيّ قلوصلٍ ركبٍ تراها طاروا عليهن فسلّ علاها
واشدّد بمثنيّ حَقَب حَقواها ناجيةً وناجياً أباهَا
إن أباهَا وأبا أباهَا قد بلغا في المجد غايتها
قال أبو عبيدة لأبي حاتم: إنّها من صنعة المفضل الضبيّ نفسه.^(٤٨)

ومما وضعه حماد الراوية ونحله زهير بن أبي سلمى ما استشهد به الكوفيون
على جواز استعمال (من) لابتداء الغاية في الزمان قوله:

لكن الديارُ بقنّة الحَجْرِ أقوينَ من حججٍ ومن دهر^(٤٩)

وإذا كان حماد هذا قد اشتهر بالوضع، فإن الأمر قد تجاوز هذا الحد إلى
آخرين عرفوا بالضبط والصحة فهذا أبو عمرو بن العلاء يقول: «الله ما كذبت

فيا رويته حرفاً، ولا زدت فيه شيئاً إلا بيتاً في شعر الأعشى، فإني زدته فقلت:
وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا
فألحقه الناس في شعر الأعشى. (٥٠) وقد أورده القالي في (نوادره) (٥١) منسوباً إلى
الأعشى، وكذلك فعل المرزباني في (الموشح). (٥٢)

وقد يكون لي أن أختتم هذه الألاعب التي جرت إليها حماسة اللغويين
والنحاة في السعي وراء الغريب ما ورد في الأثر وهو قول الجرمي:

سألت أبا عبيدة عن قول الراجز:

أهْدَمُوا بَيْتَكَ لَا أَبَا لَكَ وَأَنَا أَمْشِي الدَّأَلَى سَوَالِكَا

فقلت: لكن هذا الشعر فقال: هذا ما يقوله الضبُّ للجِسل أيام كانت الأشياء
تتكلم. (٥٣) والبيت من شواهد الكتاب. (٥٤)

ومن هذه الشواهد التي تكلموا في أنها موضوعة الرجز المشهور:

أعرف منها الجيد والعينانا ومنخرين أشبها ظبياناً (٥٥)

وعلى استشهدهم به قالوا: إنه مصنوع. وذكر السيوطي في (الاقتراح) (٥٦) عن
المرزباني أن المولدين قد وضعوا أشعاراً ودسوها على الأئمة، فاحتجوا بها ظناً منهم
أنها للعرب، ثم ذكر البيت.

على أي لا أنكر أن جمهرة شواهدهم عدا هذه المناكير، كان من الكلام الجيد
الصحيح وما لا يشك في نسبه إلى قائله.

وإننا لنجد طائفة من الشواهد قد نسبت إلى القبائل، ولكن هذه النسبة لا

توحي بالثبوت والصدق. وكأن الأشعار إلى هذه (اللغات) التي خرجت عن العربية

العامة التي يحسن تسميتها (مشتركة) وردت في تأييد قراءة من القراءات النادرة. في

آية من الآيات على أن صاحب القراءة من المعدودين بين أهل القراءات العالمة.

ومن ذلك قراءة حمزة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمَصْرُخِي﴾ (٥٧) بكسر الياء، وقرأ

كذلك يحيى بن وثاب وسليمان بن مهران، ومُحمر بن أعين وجماعة من التابعين. (٥٨)

ونقل قطرب أنها (لغة) بني يربوع وأنشد:

ماضٍ إذا ما همَّ بالماضي قال لها: هل لك ياتا في

قالت له: ما أنت بالمرضي (٥٩)

وقالوا في الفعل (يشس) بمعنى (علم) في قوله تعالى: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾^(٦١)، وقالوا: ومنه قول سحيم بن وثيل اليربوعي:
أقول لهم بالشَّعبِ إذ يأسروني ألم تياسوا أي ابن فارس زَهَدَمِ
وقالوا: هي لغة النخع وهوازن.^(٦١)

أقول: إذ كان سحيم يربوعياً فلمَ جاء شي من (لغة) النخع وهوازن في شعره. ليس هذا من المحال البعيد، ولكنه غريب يستوقف النظر.

ومن ذلك (ذو) و(ذات) بمعنى الذي والتي في لغة طيء. حكى الفراء
«بالفضل ذو فضلكم الله به والكرامة ذات أكرمكم الله بها».^(٦٢)

ومن ذلك قولهم إن قبيلة هذيل يقلبون الألف في آخر الكلمة ياء عند إضافة
الكلمة إلى ياء المتكلم، واستشهدوا على هذا بقول أبي ذؤيب:

سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهمو فتخرموا، ولكل جنب مصرع^(٦٣)

أقول: إذا كان هذا في لغة هذيل فلمَ لا نجد في سائر أشعار أبي هذيل،
ولمَ لا نجد في شعر الهذليين الذي وصل إلينا منه طائفة كبيرة؟^(٦٤)

والذي أراه أن هذا من صنع اللغويين وتوشيتهم للنصوص التي وقعوا عليها.
وإذا كان أبو ذؤيب قد سلك هذه (اللغة) أفلا يكون نظير الشعراء الذين ملكوا
ناصية اللغة وزهوا بأنفسهم، فراحوا يرسلون القول فيذهب لغة ونصاً يعتدّ به
ويستشهد.

ومن هذا قول الفرزدق:

يا مَرُوءُ إنَّ مطيبي محبوسة ترجو الحياء وربها لم ييأس^(٦٥)

وقول أوس بن حجر:

تَنَكَّرتِ مَنَّا بعد معرفة لمي وبعد التصافي والشباب المكرم^(٦٦)

وقول عمر بن أبي ربيعة:

قفي فانظري با أسم هل تعرفينه وهذا المغيري الذي كان يذكر^(٦٧)

ومثله قول لبيد:

يا أسم صبراً على ما كان من حَدَثٍ إن الحوادث مَلْفِيٍّ ومنْتَظَرُ^(٦٨)

أقول: هذه الأبيات لا يمكن إلا أن ننسبها إلى سطوة الشعراء وتمكنهم، ولا أقول: إن الضرورة ألجأتهم فحذفوا من الاسم المنادى ما حذفوا، فجاء النحويون ووضعوا باب (الترخيم).

لا أريد أن أذهب إلى أن هذه (اللغات) التي اصطلح عليها المعاصرون (لهجات) غير صحيحة، ولكني أقول: إن ما عندنا من فوائد لغوية لا تعين على إقامة بناء لكل (لغة)، وسأعرض للمادة التي وصلت إلينا مما هو خاص بتميم.

وقد يكون السبب في هذا منذ البدء هو أن العرب نظروا في الأفصح والفصيح وغير الفصيح، ولنعرض لهذه البداية التاريخية.

ولنقف على الحديث المشهور الذي حظي بال العناية لدى أهل الحديث ولدى اللغويين على حد سواء، ذلك هو قول الرسول الكريم - صلوات الله عليه -: «نزل القرآن على سبعة أحرف، أو قال: سبع لغات»^(٦٩).

قال ابن فارس: خمس بلغة العجز من هوازن، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن، وهي خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف.

قال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء، بني سعد بن بكر، وذلك لقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «أنا أفصح العرب ميد^(٧٠) أني من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر»،^(٧١) وكان مسترضعاً فيهم. وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء: «أفصح العرب علياً هوازن وسفلى تميم»^(٧٢).

أقول: ومن هنا تدخل (لغة تميم السفلى) في القسم الأفصح من (اللغات).^(٧٣)

وأودّ أن أقف وقفة قصيرة على الحديث مفيداً من معنى (بيد) التي عرض لها شراح الحديث الشريف فقالوا هي (غير) فأقول:

كأن الرسول الكريم - صلوات الله عليه - أراد أن يقول: إنه أفصح العرب طراً لأنه نشأ في بني سعد بن بكر، وإن كان من (قريش).

وهذا يعني أن لغة قريش ليس لها الفصاحة العليا التي عرفت في بني (سعد ابن بكر).

وقد يكون هذا التأويل صحيحاً، ذلك أن لغة قريش ما كان لها أن تتصف بالنقاء والسلامة، لأن مجتمع قريش مجتمع مفتوح يندس فيه أقوام شتى يأتون حاجين أو قاصدين المنفعة. وليس لمجتمع كهذا أن يكون سليماً مما يعرض للغته وعاداته وسلوكه.

ثم إن الحديث الشريف الذي ذكرناه آنفاً وهو: «نزل القرآن على سبعة أحرف أو لغات» وقد ذكر الشراح ما المراد بالأحرف السبعة أو اللغات السبع، وليس في تلك الشروح ذكر لقريش.

إن تاريخ القرآن، وما ورد من قراءات يبعد بيسر أن تكون لغة القرآن لغة قريش وسنجد في الفروق بين الحجاز وتميم من الناحية اللغوية ما يؤيد ما ذهبنا إليه.

ما وصل إلينا من لغة تميم

وهذا هو القسم الذي يلي المقدمة التي سبقت هذا الذي سأجتهد في جمعه وتصنيفه، وهو من غير شك يتصل شيء منه بالأصوات، وشيء آخر ببناء الكلمة، ثم أعرض لما هو داخل في النحو وأختم هذا القسم بما يتصل بالدلالة.

على أنني في هذا القسم ليس لي أن أدعي أنني وصلت إلى لغة تميم على نحو ما يصنع المعاصرون الذين قعدت بهم مادة الدرس الناقصة، ولكنهم ساروا في الطريق الذي لم يوصلهم إلى ما خططوا. قلت بين يدي هذا البحث إن الدرس الجاد ينبغي أن تكون الشذرات التي وصلت إلينا مادة بحث تؤدي إلى تصوّر واف للمسألة.

قلت إن ما يدخل في لغة تميم شيء خاص بالأصوات، على أن هذه المادة بعيدة عن أن تكون كاملة مستوفية للناحية الصوتية، ولكننا سنستقرئ هذه المخلفات وندرجها في ما يلي هذه الأسطر فنقول:

١ - السكون والحركة:

جاء أن تميماً وربيعاً يسكنون العين في (الثلث) إلى (العُشر)، في حين أن أهل الحجاز وبني أسد يضمّون العين في هذه المواد. (٧٤)

وقال الأصمعي: الضبع (بضم العين) لغة قيس، وتميم تقول: الضُّبع بالإسكان. (٧٥)

ومنه أن تميماً وربيعاً يقولون (العُمر) بتسكين الميم، وأهل الحجاز يضمون الميم. (٧٦)

وكذلك في (عضد) فتميم تقول بتسكين الضاد، وأهل الحجاز يضمونها. (٧٧)

ومنه (العنق) بالإسكان لدى تميم، وكذلك ربيعة، وأهل الحجاز يضمون النون. (٧٨)

وليس لي أن أقول: إن سائر ما ورد على (فعل) من الأسماء كذا يكون لدى تميم، ولدى أهل الحجاز وأضيف إلى هذا أن مَنْ قرأ (عُرب) بإسكان الراء تبع تميمياً في هذا. (٧٩) وكذلك (رسل) بالإسكان^(٨٠).

٢ - الضم والكسر: *

وهذا يدخل في باب الأصوات الصائتة، وها نحن نستقره في لغة التنزيل فنسجل ما ورد منه في كتب القرآن والتفسير واللغة، والمراد بالضم والكسر ضم الفاء وكسرها، وإليك شيئاً من هذا:

أسوة: بالضم في لغة تميم وقرأ بها عاصم، وبالكسر في لغة أهل الحجاز ولغة بني أسد. (٨١)

رُحلة: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز. (٨٢)

ثُمرة: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز. (٨٣)

رضوان: بالضم في لغة تميم، وقرأ بها عاصم (آل عمران ١٦٢، ١٧٤)، والكسر لدى أهل الحجاز. (٨٤)

رُففة: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز. (٨٥)

رُغم: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز. (٨٦) في حين أن بعض تميم وبعض قيس يكسرون الزاي. (٨٧)

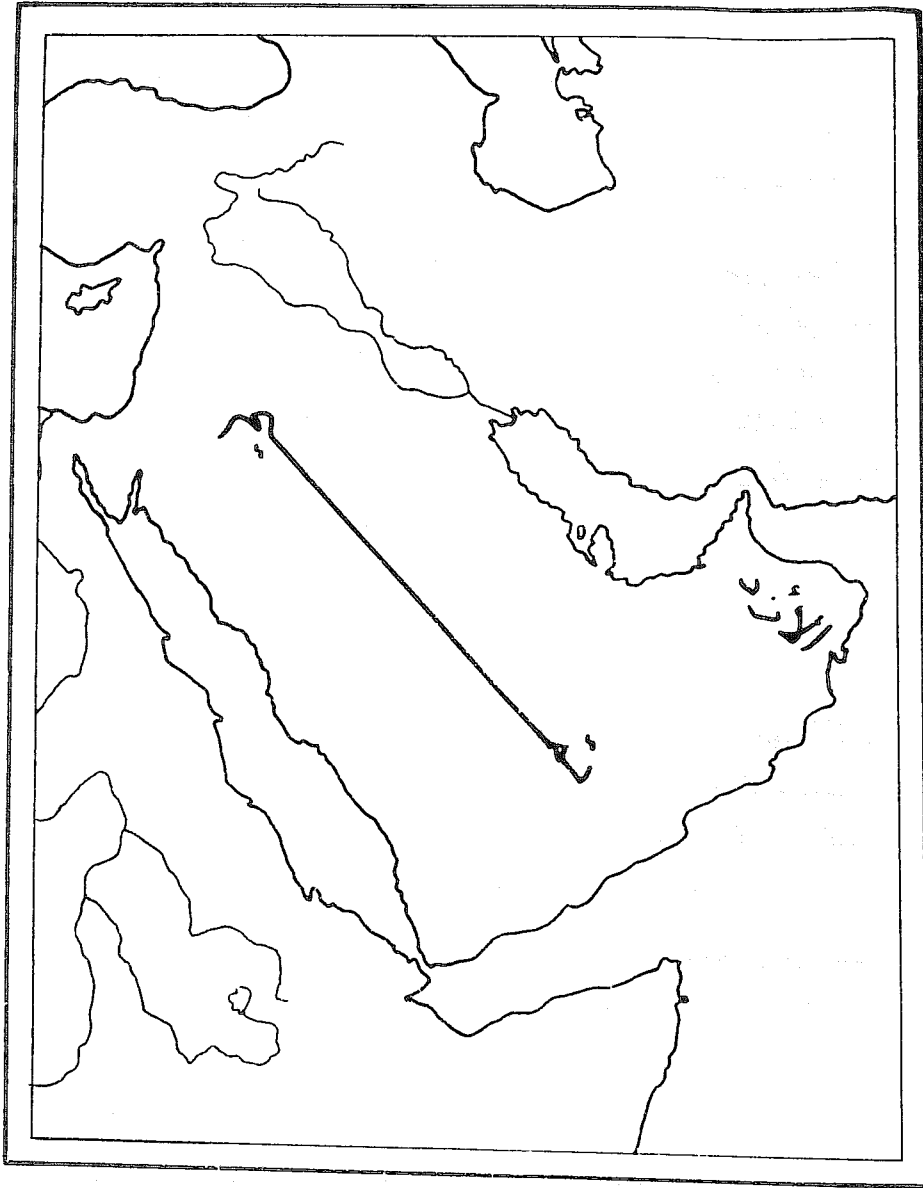
صُنوان: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز. (٨٨)

عُظلة: بالضم في لغة تميم، وقرأ بها أبو حيوة والسلمي وغيرهما، وبالكسر في لغة أهل الحجاز. (٨٩)

قُدوة: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز. (٩٠)

رُبَيون: بالضم في لغة تميم وقرأ بها عبد الله بن مسعود، (٩١) وبالكسر لدى أهل الحجاز.

(*) وبنو تميم قرأوا ﴿يعرشون﴾ بكسر الراء فجاءت على غير المشهور. انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٧٢/٧.



شكل رقم (١)

قُرح: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز^(٩٢)
عُشوة: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز^(٩٣)
مُرية: بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز^(٩٤)
قُناء: بالضم في لغة تميم وقرأ بها ابن مسعود، وبالكسر في لغة أهل
الحجاز^(٩٥).

على أن مما ينبغي أن يقال إن الضم في حركة الفاء الذي سبق الكلام عليه
لدى تميم ليس خاصاً بتميم، ومن هذا أن (رضوان) بكسر الراء لدى أهل الحجاز
هي مضمومة الراء لدى تميم وبكر وقيس^(٩٦). وأن إسكان العين فيما ورد على (فعل)
من الأسماء قد يعرض في الأفعال الثلاثية، وليس لي أن أقول: أنه يلاحظ في الكثير
منها، فالذي وقفت عليه أن (عَلِمَ) الفعل الثلاثي تسكن عينه لدى بكر بن وائل
وتميم، قرأ زيد بن علي ﴿بِمَا رَحِبْتَ﴾^(٩٧).

٣ - ظواهر لغوية أخرى: (٣)

أ - كسر حرف المضارعة:

وتكسر تميم وقبائل أخرى حرف المضارعة خلافاً لأهل الحجاز^(٩٩)، فهم
يقولون: أنا أعلم، ونحن نعلم، وانت تعلم، وكذا في المثال الأجوف والناقص إذا
كان على بناء (فعل) بكسر العين نحو: إيجل وإخال، وإشقى. وكذلك المضاعف
نحو إعض، وكذلك فيما أوله همزة وصل نحو: تستغفر وتجرنجم.

ب - ظاهر الاتباع وهو أن تتبع حركة الفاء حركة العين في الكلمة كما في (شهيق)
بكسر الشين، و(بعير) بكسر الباء، وهذا لم يختص بتميم وحدها بل إنه لغة قيس
أيضاً ولغة أسد^(١٠٠).

ج - أولئك:

لغة أهل الحجاز (أوليك بالياء)، وأهل نجد وربيعة وقيس وأسد يقولون
(أولئك) بهمزة. ولا بد لي أن أشير هنا إلى اضطراب المصادر في عزو الظواهر
اللغوية إلى أصحابها. لقد واجهنا كثيراً فيها أن لغة الحجاز تقابل لغة تميم ولاسيما
في الكتب النحوية، فهل لنا الآن أن نجعل نجداً في هذه الإشارة الجغرافية تعني
لغة تميم؟

إن تميماً كما عرفنا من المصادر قد استوطنت البلاد الواقعة شرقيّ نجد ممتدة إلى الشرق حتى اليمامة ومنبسطة من الشمال إلى الجنوب، وإذا كان هذا فليس كل نجد مواطن تميم. وكيف لي والحالة هذه أن أفهم على وجه من الضبط قول المصادر مثلاً:

لغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد^(١٠١) ولغة تميم وربيعة وأسد وجميع أهل نجد^(١٠٢) ولغة تميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون. ^(١٠٣) وقد نسمع قولهم: «لغة نجد وقيم خاصة» أو «لغة تميم وأهل نجد»^(١٠٤). وأقوال المصادر هذه تكشف عن صفحة من عدم العلم والضبط الذي يقتضيه في عزو المسائل اللغوية إلى أصحاب ومن هذا الاضطراب نجد أن لغة (نجد) تقابل لغة أهل الحجاز فيقال مثلاً:

أهل نجد يذكرون فيقولون: هذا بقر، وأهل الحجاز يؤثثونه فيقولون: هذه بقر، وكذلك كل جمع كان واحده بالهاء وجمعه بطرح الهاء^(١٠٥).

إن استعمال الشعراء للكلمة لا يعني أنهم التزموا بلغة قبيلتهم، ذلك أن الشاعر محكوم بالوزن فهو يلجأ إلى اللغة التي تميزها أية قبيلة كقول الفرزدق:
أبا حاضرٍ من يزنٍ يعرف زناؤه ومن يشرب الخراطوم يصبحُ مُسكرًا^(١٠٦)
وقوله:

اخضبتُ عودك للزناء ولم تكن يوم للقاء لتخضب الأبطالاً^(١٠٧)

أقول: لم يمدّ الفرزدق (الزناء) أخذاً بتميميته، ولكنه صار إليها لما يقتضيه الوزن، والدليل على ذلك أن (الزنا) بالقصر ورد في شعره وشعر جرير، والقصر لغة أهل الحجاز والقصر في الزنا أكثر، وبها لغة التنزيل، وإن وردت لغة المدّ فيها في طائفة من القراءات^(١٠٨).

ومن هذه الاضطراب أننا نرى قولهم: (لغة تميم وأهل نجد)^(١٠٩).
ومن هنا لا يمكن أن يأتي الدارس الجاد بشيء يفرضه علينا فيعنون كتاباً له مثلاً بـ (لغة قريش) أو (لغة الحجاز) أو (لغة بكر بن وائل) أو (لغة تميم).

ونعود إلى (أولى) فنرى كتب النحو تنسب إلى تميم القصر فيها^(١١٠).
واجترىء بالذي ذكرت مما يتصل بالأصوات الصائتة فأتحول إلى ما كان من

الأصوات الصامتة فأقول: ومن هذا أن السين تبدل صاداً مع الطاء والقاف والحاء والغين^(١١١) كما في صراط وصقر (أي سقر) وصخب ولصق وصغد وغير ذلك، في حين يبدل السين زائلاً لدى ربيعة كما في قولهم: لزق في لسق.

ومن ذلك ما عرف بـ (الكشكشة) التي عدت من اللغات المدمومة كما أشرنا في (المقدمة)، وهي لغة بني أسد أيضاً^(١١٢) وحد (الكشكشة) إبدال الكاف شيئاً فيقولون: «عليش» بمعنى «عليك»^(١١٣) وأنشدوا:
فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولوئش إلا أنها غير عاطل^(١١٤)
وقال آخرون: بل يصلون بالكاف شيئاً فيقولون: عليكش^(١١٥).

أقول: كأن ابن فارس لم يتأكد من حد ما يسمى بـ (الكشكشة)، والذي أراه أن الشين ليست شيئاً صريحاً بل هي المشوية ببعض الجيم على لغة العراقيين وأهل الخليج في عصرنا في كل كاف وليس كاف الخطاب وحدها.

ومن ذلك أيضاً ما يسمى (العنعة) من المواد التي جعلت من اللغات المدمومة، وهي لغة تميم وبني أسد^(١١٦) أيضاً، وتتلخص بقلبهم الهمزة عيناً في بعض كلامهم، يقولون: سمعت (عَنّ) فلاناً قال كذا ما يريدون: أن فلاناً...^(١١٧).

وروي في حديث قيلة «تحسب عني نائمة».

قال أبو عبيد: أرادت تحسب (أني)، وهي لغة تميم^(١١٨).

وقد مر بنا ظاهرة الاتباع كما في (بعير) بكسر الباء اتباعاً لكسرة العين، وأريد أن أقول هنا إن هذا الاتباع أكثر ما يظهر مع أصوات الحلق كما في (سعيد) و(رغيف)^(١١٩).

وللشبه الكبير في طبيعة أصوات الحلق وصفاتها وقرب أحيائها يتم بينها الإبدال، ومن إبدال العين حاءً كما في كلمة العرجلة (من ألفاظ الخيل) تكون (الرجلة) بلغة تميم^(١٢٠). وكذا إبدال العين من الحاء في قولهم: «عشمس قال أبو عمرو بن العلاء: أصله عب شمس أي: حبّ شمس، وهو ضوءها، والعين مبدلة من الحاء^(١٢١)». وإبدال الغين من العين في (لعلّ) فتكون (لَعَنَّ) ومنه قول الفرزدق:
هل أنتم عائجون بنا لغننا نرى العرصات أو أثر الخيام
وقد تقلب العين عند بني تميم همزة، والهاء حاءً نحو (أحدتُ إليه) أي

(عهدت إليه) وقد جاء قول الراعي:
بان الأحيبة بالأحد الذي أحدوا فلا تمالك عن أرض لها عمدوا
يريد بالعهد الذي عهدوا^(١٢٢).

أقول: إن قلب العين همزة في هذا الشاهد يخالف ما درج عليه بنو تميم في
هذا، والسبب في هذا أن الهمزة مقتضاة لتناسب الحاء الذي أصله الهاء.

ومن الظواهر الصوتية لدى تميم تحقيق الهمزة خلافاً للحجازيين وفيهم قريش،
فهم يحققون الهمزة في الألفاظ التي على وزن (فعل) إذا كان في موضع العين من
الفعل ألف ساكناً ما قبلها مفتوح نحو: رأس وفأس وكأس وراس وفأس وكأس، أو
ياء ساكنة ما قبلها مكسور نحو: ذئب وبئر في ذيب وبير، أو واو ساكنة ما قبلها
مضموم نحو: شؤم ولؤم في شوم ولوم^(١٢٣).

أقول: مما فات اللغويين الأقدمين أنهم جهلوا طبيعة المد في حركة الفتح أي
ما ندعوه ألفاً، وكذلك الياء والواو حرفي مد، وتحيلوا أنها ساكنة، ولم يدركوا أنها
أصوات مد، على أنهم قالوا: الفتحه بعض الألف، والياء بعض الكسرة، والواو
بعض الضمة^(١٢٤).

ثم إن تحقيق الهمزة في الألفاظ أنفة الذكر هو شيء مسموع في هذه الألفاظ،
وليس بقياس متلب وإنما يحفظ عن العرب كما قالوا^(١٢٥).

والهمز هو (النبر) وهو ما التزمت به العربية الفصيحة في الشعر القديم، ثم
في لغة التنزيل^(١٢٦) وقد يكون تحقيق الهمزة من عادات النطق لدى تميم، وليس لعله
صوتية، فقد عرف من رؤية الرجاز أنه كان يهمز (الثندوة) و(سثة) القوس،
والعرب لا تهمزهما^(١٢٧) كما روي أيضاً أن العجاج كان يكثر من الهمز ما لم يسمع
همزة نحو العالم والخاتم فيقول: العالم والخاتم^(١٢٨).

قلت: إن التحقيق من العادات اللغوية، ولولا العادة والدربة ما كان
للعجاج أن يركب هذا المركب الخشن.

وليس لنا أن نتمسك بتحقيق الهمزة لدى تميم دون أن يشار إلى سبب ذلك،
كما أن قلب الهمزة عيناً لم يكن في كل موضع، وإن كثرت الشواهد.

إن تحقيق الهمزة قد يأتي ابتعاداً من مقطع طويل يحدث ألف المد الذي يليه صامت ساكن (وهو ما يدعى خطأً التقاء الساكنين في مصادرنا اللغوية. ومن هنا قرئ في الفاتحة ﴿ولا الضَّالِّينَ﴾^(١٢٩) بالهمز، وهذا كقولهم في دابة وشابة (دابة) و (شابة)^(١٣٠) وقال أبو زيد: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ ﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾^(١٣١)، فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب: دابة وشابة^(١٣٢).
أقول: وليس من هذه القراءات ما سمع من صيرورة (افعال) افعالاً في الشعر كقول كثير عزة:

وأنت ابن ليلي خير قومك مشهداً إذا ما «احمَّرت» بالعبيط العوامل^(١٣٣)
وقول الفرزدق:

رأت كَمَرًا مثل الجلاميد فُتحت أحاليلها لما (اتمَّرت) جذورها^(١٣٤)
ومما أنشده الفراء:

قد بكرت مشبوة تزبئر تكسو استها لحماً وتقمطر
(المذكر والمؤنث ٦٠)

والذي دعا إلى هذا أن ما جاء على (افعال) من الأفعال، وما يشتق منها من الأبنية لا يمكن أن يدخل البناء الشعري إلا أن يكون من المتقارب الذي يمكن منه كما جاء ذلك في شواهد نادرة.

ومن تحقيق الهمزة في لغة تميم ذهابهم فيما كان أوله واو مكسورة مما كان على بناء (فعال) و (فعالة) إلى الهمزة، فقالوا: إسادة في وسادة، وإشاح في وشاح، وإعاء في وعاء^(١٣٥). وقد يبدو غريباً أن يكون في لغة تميم عظاية وعباية، وليس عظاءة وعباة^(١٣٦) ومن الغريب أن (العباءة) بالهمز، وهي الشائعة في الفصيحة المعاصرة هي عامية في الفصيحة القديمة كما في كتب اللغة.

ومن الأصوات الصامته الضاد والظاء، وقد اختلفت لغة تميم عن لغة الحجاز فيها، وعن الفراء قال أهل الحجاز وطيء يقولون: فاظت نفسه، وقضاعة وتميم وقيس يقولون: فاظت نفسه على مثل فاظت دمعته^(١٣٧).

وجاء في (لسان العرب): فاض يفيض فيضاً وفيوضاً أي مات، وفاظت نفسه فيضاً خرجت، لغة تميم وأنشد:

تَجْمَعُ النَّاسَ وَقَالُوا عَرَسَ
فَفَقَّتْ عَيْنَ وَفَاضَتْ نَفْسَ (١٣٨)

وقال المفضل: من العرب من يقول البصر، ويبدل الظاء ضاداً فيقول: قد اشتكى ضهري^(١٣٩) أقول: إن جملة هذه التحولات الصوتية تتصل بالفاظ بعينها فهي من مادة الإبدال، ولا تؤلف ظاهرة لغوية لطائفة من الناس في بيئة معينة. ويدخل في هذا قلب السين صاداً أو زائياً أو غيرها.

ولا أشك في أن من يقول (ودّ) في (وتد) نتيجة لإدغام التاء في الدال من تميم أو غيرها فقد يحصل هذا أو نظيره في جهات عدة لمن ألف الإدغام.

ومن هذه الفرائد مما ورد في لغة تميم أو زعم أنه فيها الإبدال بين الجيم والشين قولهم: أشياء بمعنى أجراء أي ألبأ،^(١٤٠) ومنه ما ورد في المثل «شرّ ما يشيثك إلى نخة عرقوب»^(١٤١) ومن هذا قول زهير بن ذؤيب:

فِيالِ تَمِيمٍ صَابَرُوا قَدْ أَشِئْتُمْ إِلَيْهِ وَكَوْنُوا كَالْمَجْرِبَةِ الْبُسْلِ (١٤٢)

أقول: (الشين) في هذه الشواهد ليست شيئاً فصيحة، ولكنها الشين المشوبة بالجيم أو هي كالجيم المعاصرة في بعض البلدان العربية كالبلاد الشامية، وهي الجيم القروية في جنوبي العراق وهذه الجيم المشوبة بالشين هي والجيم المعاصرة متحدة في المخرج والصفة، وهي ليست شيئاً وذلك لأن الجيم مجهورة والشين مهموسة^(١٤٣).

ومن هذه الأصوات ما كان بين الجيم والياء، فالجيم تبدل ياءً، ذكر الأزهري أنها لغة في تميم معروفة^(١٤٤) والذي جاء منها قولهم: صهري في صهريج،^(١٤٥) وقولهم شيرة، في شجرة^(١٤٦) أقول: إذا كان هذا كل ما ورد من إبدال الجيم ياءً فهل لي أن أقول إنها ظاهرة صوتية تتسم بها لغة ومثل هذا الإبدال عكسه، وهو إبدال الياء جيماً، وقد ذكر سيويوه^(١٤٧) وابن السراج^(١٤٨) أنه ينسب إلى بني سعد من تميم، وفي شرح الشافية للرضي: إنها لغة ناس من تميم،^(١٤٩) ويتم هذا في حال الوقف، والياء شديدة أو خفيفة تبدل جيماً^(١٥٠) وتعليل سيويوه يكون في خفاء الياء وقرب الجيم منها في المخرج كونها أظهر من الياء^(١٥١) فيقال في (تميمي) و(علي) تميمج وعلج، ومنه قول الراجز:

خالي عُويْفٌ وأبو عَلَجٍ المطعمان اللحم بالعشجِ
وبالغداة فَلَقَ البَرَئَجُ يُقَطِّعُ بالودِّ وبالصَّيْصَجِ

يريد عليّ والعشيّ والبرّيّ والصَّيْصِيّ. (١٥٢)

أقول: لم نر غير هذا الشاهد إلاّ ممثلاً بالرجز الذي روي روايتين مختلفتين.
وقد ذكر أن تميمياً تلحق القاف باللهاء حتى تغلظ فيقولون القوم بين الكاف
والقاف، وهذه لغة فيهم^(١٥٣) وهي بذلك تتعد عن الجهر الذي هو صفة القاف
وتقرب من الكاف المهموسة.

أقول: وهذا هو الشائع في عامية أهل العراق وأهل الخليج ونجد والسودان
وغيرهم في عصرنا. غير أنّ اللغويين لم يستشهدوا على هذه الظاهرة إلاّ بالبيت
الذي لم ينسبوه إلى قائل^(١٥٤) وأنشدوا:
ولا أكلول لِكدرِ الكرمِ كد نضجت ولا أكلول لباب الدار مكفول^(١٥٥)

أقول: وكأن هذا الشاهد لا يحمل على الاستيثاق منه، فقد روي روايات
مختلفة وهي:

ولا أكلول لقدر القوم قد غليت ولا أكلول لباب الدار مغلوق^(١٥٦)

وجاء في (الصحيح) للجوهريّ من الأقوال التميميّة قولهم: ما أدري أين
(بكَعَ) بمعنى بَقَعَ أي ذهب^(١٥٧) ومن هذا الإبدال الذي نسب شيء منه إلى تميم هو
ما كان بين الثاء والفاء فقد ذكروا جملة كلمات بالثاء في لغة تميم، وهي نفسها بالفاء
في لغة الحجازيين، ومن هذه اللثام^(١٥٨) والأثافي ومُعْثور (وهو ضرب من الكمأ) وثوم
في لغة تميم،^(١٥٩) وهي جميعها بالفاء في لغة أهل الحجاز.

أقول: وإذا كان هذا العدد القليل في لغة فهل يؤلف ظاهره لغوية؟ ولو
كانت كذلك لكان عامة الألفاظ التي فيها الفاء تكون ثاء في لغة تميم، ولم يقع شيء
من هذا.

ولا أدري كيف يتيسر لنا أن نواجه ما قيل من أن (الجدث بالثاء: القبر في
لغة أهل الحجاز، وهو الجدف بلغة تميم)!!

ومثل هذه الفرائد القليلة التي لا تؤلف ظاهرة لغوية ما كان من إبدال الميم

نوناً ومنه: الدِّمْدِم وهو الصِّلِيان المحيل في لغة بني أسد، وهو في لغة تميم
(الدِّدْن).
ومن هذا مما يدخل في الميم والنون: الأيم بمعنى الجان من الحيات في لغة

أهل الحجاز، وهي (الآين) بلغة تميم. (١٦٠)
كما أبدلوا اللام في إسرائيل نوناً، إسرائيلين^(١٦١) وكذلك (لَعَنَّك) في (لَعَلَّك)^(١٦٢)

كلمة أخيرة في هذه المخلفات اللغوية

أقول: ليس لنا أن نتخذ من هذه الشذرات فيما يتصل بالإبدال مادة تفي
بحاجة أهل العلم فنسبوا أمامهم مادة لغوية كافية في معرفة الجانب الصوتي في لغة
تميم، كما أنه ليس في طوقنا أن نضع شيئاً مماثلاً في لغة الحجازيين، مع علمنا أن
الخارطة اللغوية لدى كل من هؤلاء وأولئك غير معروفة وأن هذه الأقاليم الواسعة
تتضمن على لغات عدة، ولكن التاريخ اللغوي لم يذكر عنها ما فيه الكفاية.

ما يتصل بالأبنيّة:

تشدّد النون في الأسماء الموصولة وأسماء الإشارة في لغة تميم فقولون: اللذَانَّ
واللتانَّ وهذاَّ وهاتانَّ وتخفف في سائر لغات العرب (شرح التصريح لخالد الأزهري
١/١٣٢).

جاء في كتب اللغة والنحو أن تميمياً يقولون: مبيوع ومديون ومصوون^(١٦٣)
وهي جارية على القياس أكثر ممَّا درج عليه الحجازيون في قولهم: مبيع ومدين
ومصون. (١٦٤)

ومثل هذا ما كان لتميم في (هَلَمَّ) أصل ما كانت عليه (لَمَّ). (١٦٥)

وذكروا أن أهل الحجاز يقولون: فتنت الرجل وأنا فاتن، وهو مفتون، وتميم
وربيعة وأسد يقولون: أفتنت الرجل. (١٦٦)

و(العنق) مذكر لدى تميم وربيعه مع التخفيف، وهو مؤنث في لغة الحجاز مع
الثقيل. (١٦٧)

والذهب) مذكر لدى تميم وغيرهم فيقولون: هو الذهب، وأما الحجازيون فيؤنثون ويقولون: هي الذهب. (١٦٨)

والعُضد) مؤنث لدى تميم مع التخفيف، وغير تميم يقولون: (العُضد) ويذكرونها. (١٦٩)

و(عُدس) بضم الدال قبيلة لغة تميم، وفي سائر العرب بفتح الدال. (١٧٠)
و(يستحي) بياء واحدة لغة تميم، وسائر العرب يستحي بياءين. (١٧١)

وما يتصل بالإعراب

إن بني تميم افتقرت فرقتين في إعراب (أمس) فمنهم من أعربه بالضممة رفعاً وبالفتحة نصباً وجرّاً، قالوا: مضى أمس، واعتكفت أمس، وما رأيت مذ أمس، بالفتح، وقال الشاعر:

لقد رأيت عجباً مذ أمساً (١٧٢)

ومنهم من يعربه بالضممة رفعاً، وبينه على الكسر نصباً وجرّاً. (١٧٣)

وفي (ما) النافية التي تنفي المبتدأ والخبر يذهب بنو تميم إلى عدم إعمالها، ويذهب الحجازيون إلى إعمالها، وقد قرئ بلغة تميم ﴿ما هذا بشر﴾. (١٧٤)

ما يتصل بالدلالة:

(الكشاف) بكسر الكاف في لغة تميم وربيعة وأسد الإبل التي إذا نتجت ضربها الفحل بعد أيام فلقحت، وفي لغة كنانة وهذيل وخزاعة الإبل التي لم تحمل عامين. (١٧٥)

و(العُد) بلغة تميم الكثير، وبلغة بكر بن وائل الماء القليل. (١٧٦)
و(الأمّة) هي النسيان بلغة تميم وقيس عيلان (١٧٧) في قوله تعالى: ﴿واذكر بعد أمة﴾. (١٧٨)

و(البغي) هو الحسد بلغة تميم، (١٧٩) ومنه قوله تعالى: ﴿بغياً بينهم﴾. (١٨٠)
و(خَشَع) بمعنى اقشعرّ في لغة تميم (١٨١)، ومنه قوله تعالى: ﴿إنك ترى الأرض خاشعة﴾. (١٨٢)

و(خرص) بمعنى كذب في لغة تميم،^(١٨٣) ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾. ^(١٨٤)

كلمة في القرآن وقراءاته

لقد وقفنا في لغة التنزيل على مواد وافقت لغة تميم، ولكننا سنجد فيما يأتي مواد أخرى تقطع الطريق علينا في الوصول إلى ما نريد من استيضاح في لغة تميم. إن هذا يؤكد ما ذهبنا إليه أن الشذرات اللغوية لا تساعدنا على بسط شيء كاف في معرفة هذه اللغة، ومن هذه الشواهد:

١ - قرأ ابن مسعود ﴿قشطت﴾^(١٨٥) بالقاف بدلاً من الكاف، وهي لغة تميم كما تثبت المصادر.^(١٨٦) وقد كنا رأينا أن تميمياً تميل بالقاف إلى ما يقرؤها من الكاف، فكيف نوجه هذه القراءة، وكيف نظمئن إلى مصادرنا التي أوقفنا في التناقض.

ومثل هذا الأشكال قراءة عاصم وحمة: ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾^(١٨٧) بفتح الضاد في لغة تميم، وهي بالضم في غير لغة تميم.^(١٨٨) وقد رأينا ميل تميم إلى الضم في كثير من الألفاظ التي وردت في لغة التنزيل، ولكننا هنا نفاجاً بما يخرم هذه المسألة. ولنا أن نقف في قراءة عاصم وحمة على ﴿يحسب﴾ بفتح السين في قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾^(١٨٩) وهي لغة تميم،^(١٩٠) وتكسر السين في قراءات أخرى منسوبة إلى لغة أو غير منسوبة، ولا أقول: إن فتح السين ظاهرة لغوية في تميم، ذلك أنها لم تتكرر.

إن هذه الاختلافات بين القراء لا تحمل الدارس على وضع شيء ثابت يصدق في ألفاظ كثيرة، فالكسر والفتح والضم من مواضع الخلاف في القراءات، وليس لنا أن نفسر كل حالة، فإذا واجهنا طائفة من الألفاظ كانت لغة تميم فيها بضم الفاء، فإن ذلك لا يحملنا على جعله ظاهرة لغوية.

وإذا كان القارئ ملتزماً في لفظة بلغة تميم، فالأمر في ذلك أنه أخذها عنمن قرأ عليه واطمأن إلى قراءته فلا يعني هذا أن الكسائي مثلاً قد قرأ بلغة تميم التي لا نعرف من موادها إلا أشتاتاً، كما أن الكسائي لم يسع إلى هذا قاصداً.

قرأ الكسائي: ﴿جبرئيل﴾ فهمز وقرأ ﴿ميكائيل﴾ فهمز، وأثبت الياء في قوله

تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
لِلْكَافِرِينَ﴾^(١٩١)، وقد وافق تميمًا فيما قرأ^(١٩٢) ولا أطمئن أن تكون كلمة (الحج) بكسر
الكاف خاصة بتميم^(١٩٣) وهي قراءة الكسائي وحمزة، وغيره قرأ بفتحها وذلك في
قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(١٩٤).

وقرأ بلغة تميم في قوله تعالى: ﴿سَنَفِرُغْ لَكُمْ﴾^(١٩٥) فتادة والأعرج وأبو
السهال^(١٩٦).
وقرأ مجاهد وغيره بلغة تميم في قوله تعالى: ﴿فَنظَرْنَا﴾^(١٩٧) بفتح النون وإسكان
الظاء^(١٩٨).

ما نخلص إليه من القراءات والشعر

قد يعرض في أية قراءة ما يكون خاصاً بلغة تميم أو ما يمكن أن ينسب إلى
لغة غيرها، فإذا جاء لدى القارئ شيء من هذا، فليس لنا أن نعول عليه كثيراً.
وقد يكون القراء كالشعراء يفيدون مما يسمعون لا يبألون أن يكون هذا الذي
سمعوه موافقاً لما يلهج به قومهم أو مخالفاً له.

وإني لأرى أن العربية قد اكتسبت وحدتها، فتوحدت لغاتها قبل الإسلام،
وأية ذلك أن روائع الشعر الجاهلي في مطولاتها ومعلقاتها وغير ذلك قد اكتسبت
التوحيد، وأن ما قيل من أشعار القبائل لا يعدو أن يكون نسبة ليس غير. لقد
وصل إلينا مثلاً شعر كثير لشعراء عدة نسبوا إلى هذيل^(١٩٩) غير أن هذا الشعر
الهذلي لا يختلف في مادته عن شعر قبيلة أخرى، والاستقراء يؤيد هذا الذي ذهبنا
إليه.

وقد يقال: لم إذن خص النقاد ورواة الشعر هذه النماذج بهذيل، وتلك بقبيلة
أخرى، والجواب أن المجتمع الجاهلي مجتمع قبائل، والشعر مما تفخر به القبيلة،
فكان ذلك تسجيل لمفاخرهم ومآثرهم.

خاتمة:

وليس لي بعد هذا العرض إلا أن أقول: إن جملة ما وصل إلينا من

(شذرات) تاريخية تتصل بتراث تميم يعطي شيئاً من عربية تلك القبيلة الكبيرة ذات الفروع العديدة التي توزعت في رقاع متباعدة من الأرض وبقيت ماثلة على تراخي العصور.

إنّ البحث في لغة أيّ من القبائل يقتضينا الضبط العلمي بتحديد البلاد التي سكنت فيها القبيلة، وتحديد الحقبة.

وقد يكون من الخط والتزيد أن نواجه هذا الأمر من غير هذا التحديد.

الهوامش

- (١) تاريخ يعقوبي ٢٢٩/١.
- (٢) المصدر السابق.
- (٣) جمهرة أنساب العرب ٢٠٧.
- (٤) تاريخ الرسل والملوك ١٦٩/٢.
- (٥) صحح الأعشى ٣٤٧/١.
- (٦) معجم ما استعجم ٨٨/١.
- (٧) المصدر السابق ٩٠/١.
- (٨) المحبر ١٥٦ - ١٥٧.
- (٩) المستقصى في أمثال العرب ٢١٧/١.
- (١٠) بلوغ الأرب ٤٢/٣ - ٤٣.
- (١١) سورة الإسراء ٣١.
- (١٢) المحبر لابن حبيب ص ١٨٢.
- (١٣) المصدر السابق ص ١٣٤.
- (١٤) المصدر السابق ص ١٨٢ - ١٨٣.
- (١٥) المصدر السابق، وانظر جملة هذا كله وغيره في (لهجة تميم) لغالب المطليبي (رسالة ماجستير) ص ٩ - ١٦.
- (١٦) الديوان ص ٧٩.
- (١٧) الأغاني ٧٤/١١.
- (١٨) الشعر والشعراء ٦١٢/٢.
- (١٩) المصدر السابق ١٤٥/١.
- (٢٠) المصدر السابق ١٩٢/١.
- (٢١) المصدر السابق ٢٥٤/١.

- (٢٢) المصدر السابق ٢٨١/١ .
- (٢٣) المصدر السابق ٤٩٣/١ ، ٤٩٥ .
- (٢٤) المصدر السابق ٣٧٤/١ ، ٣٨١ .
- (٢٥) الأغاني ٣٠٩/٢١ .
- (٢٦) الإصابة ١١٠/١ - ١١١ .
- (٢٧) المصدر السابق ٢٧٣/١ .
- (٢٨) خزائن الأدب ٢١٩/٣ .
- (٢٩) طبقات ابن سعد ٩٣/٧ - ٩٧ .
- (٣٠) الفاضل ص ١١٣ .
- (٣١) الصحابي ص ٥٧ ، والمزهر ٢١١/١ ، وفي العمدة ٨٨/١ : أن أبا عمرو بن العلاء قال : «أفصح العرب علياً تميم وسفلى قيس» أقول : وهذا الاضطراب في المصادر يدعونا إلى التقليل من حماسنا في الاعتماد على هذه النقول .
- (٣٢) المزهر ١٢٨/١ .
- (٣٣) انظر الكامل لابن الأثير ١٣٦/٤ - ١٣٨ . . . و ٢٠٧/٤ .
- (٣٤) العقد الفريد ٥٣/٦ - ٥٩ .
- (٣٥) المصدر السابق ٦/٦ ، ٨ و ٣٥ - ٣٨ .
- (٣٦) صبح الأعشى ٣٤٧/١ .
- (٣٧) انظر مادة (لهج) في (لسان العرب) وهي : اللسان أو طرفه ، أو جرس الكلام . وقد جاء أيضاً أن (اللهجة) هي اللغة التي تُجبل عليها الإنسان فاعتادها ونشأ عليها ، أقول : وكون (اللهجة) هي اللغة كما في (لسان العرب) وغيره من المعجمات ، لم يرد في استعمال المعريين ، ذلك أن معنى (الجرس) هو المعروف ، فكان يقال : هو صادق اللهجة ، ولا يراد بهذا (اللغة) . وما تجرد الإشارة إليه أن كلمة (لغة) كانت كثيراً ما تدل على لغة جماعة قليلة أو كثيرة ، فقد قالوا مثلاً : لغة بني الحارث بن كعب قلب الباء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفاً يقولون : أخذت الدرهمان ، واشترت ثوبان ، والسلام علاكم (نوادير أبي زيد ص ٥٨) وعلى هذه اللغة قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [سورة طه ٦٣] قال أبو الحسن الأخفش : هي لغة بلحارث بن كعب (معاني القرآن للأخفش) . على أن (اللغة) في الأعم الأغلب : دلت على المعنى العام فقالوا : لغة العرب ولغة المعجم مثلاً .
- (٣٨) قلت : إن شواهد اللغويين والنحاة أبيات يتيمة يتبادلها جمهورهم ، فيتناقلونها في كتبهم . ومن هنا فهي عربية نادرة أو قل قديمة فإذا عرضوا لتحوّل الياء المشددة جيماً في النسب استشهدوا بقول الراجز الذي نجده في جميع مصادرهم وهو :
- خالي عُريّف وأبو عَلِجَّ المطعمان اللحم بالعشجَّ
وبالغداة فلق البرنَجَّ
- (الصحابي ت . أحمد صقر ص ٣٧)

- وأما في إبدال الجيم ياء نراهم ينشدون:
إذا لم يكن فيكَنَّ ظلُّ ولا جنئٌ فلا جادكن الله من شَيراتِ
(٣٩) الصاحبي ٤٨ .
(٤٠) طبقات فحول الشعراء (ط. دار المعارف ١٩٥٢م) وانظر الصاحبي ٥٨ ، والمزهر ٦٦/١ -
٧١ .
(٤١) الصاحبي ٣٥ .
(٤٢) كنز العمال ٢٨٤/١ ، وانظر الكشاف للزمخشري في تفسيره للآية ٣٥ من سورة يوسف .
(٤٣) انظر كنز العمال ٢٢٨/٥ ، وصبح الأعشى ١٦٨/١ .
(٤٤) المقاصد النحوية للعيني (على هامش الخزانة) ٤٢٣/١ ، وتُسبت في (شرح شواهد المغني) تعليق
محمد محمود الشنقيطي) ١٤٣/١ إلى الأخطل .
(٤٥) طبقات فحول الشعراء (ط. سنة ١٩٥٢م دار المعارف) ٤٧٧ - ٤٧٨ .
(٤٦) المقصور والممدود (ط. السعادة سنة ١٣٢٦هـ) ١٠٣/٢ .
(٤٧) شرح ابن عقيل (الكلام على دخول لام التوكيد على خبر لکنّ) .
(٤٨) نوادر أبي زيد ج ١٦٤ (ط الكاتوليكية ١٩٨٤م) .
(٤٩) الأغاني ١٧٣/٥ ، وخزانة الأدب ١٢٩/٤ .
(٥٠) مجاز القرآن ٢٩٣/١ ومراتب النحويين ١٤ ، ومجالس العلماء ٢٣٥ ، وبغية الوعاة ٢٣١/٢ .
وقد اجتهد الشيخ محمد الخضر حسين فنفي الخبر محتجاً بصلاح أبي عمرو (انظر نقض كتاب
في الشعر الجاهلي ٢٧٦ - ٢٧٧) .
(٥١) نوادر أبي علي القالي ١٩٨ .
(٥٢) الموشح ٥٣ .
(٥٣) الكامل للمبرد (مطبعة الاستقامة، القاهرة) ٣٥٦/١ .
(٥٤) الكتاب (سيبويه) ١٧٦/١ .
(٥٥) شرح ابن عقيل ٦٥/١ .
(٥٦) الاقتراح (ط دلهي ١٣١٤) ٢١ - ٢٢ .
(٥٧) سورة إبراهيم ٢٢ .
(٥٨) النشر في القراءات العشر ٢٩٩/٢ .
(٥٩) مجمع البيان للطبرسي (ط طهران) ٢١٢/١٣ ، خزانة الأدب ٢٥٩/٢ .
(٦٠) سورة الرعد ٣١ .
(٦١) قطر الندى (لابن هشام) ٦١ .
(٦٢) المصدر السابق ١٠٤ .
(٦٣) المصدر السابق ٢١٠ ، ومثل هذا ما جاء في شواهد الكتاب ٣١٨/١ : يا ابنة (عمّ) لا تلومي
واهيجي .
(٦٤) أنظر شرح أشعار هذيل، وديوان الهذليين .

- (٦٥) الكتاب ٣٣٧/١.
- (٦٦) المصدر السابق ٣٣٦/١.
- (٦٧) وهو من الرائية المشهورة (أمن آل ناعم...).
- (٦٨) الكتاب ٣٣٧/١.
- (٦٩) الصاحبي ص ٤١، المزهري ٢١٠ - ٢١١.
- (٧٠) الفائق (ط. الحلبي ١٣٦٦) ١/١٢٣، النهاية (ط. العثمانية) وفيه: «بيد» بمعنى غير.
- (٧١) الصاحبي ص ٤١.
- (٧٢) المصدر السابق.
- (٧٣) (اللغات) في هذا النص، والنصوص الأخرى في المصادر القديمة تنصرف إلى ما يدعو المعاصرون (لهجات). قال ابن دريد في الجمهرة (المقدمة ٤ - ٥): ومثل الحرف الذي بين القاف والكاف والجيم، وهي لغة سائرة في اليمن، مثل: (جمل) إذا اضطروا قالوا: (كمل).
- أقول: ربما لم يصب ابن دريد في قوله وقصّر، ذلك أنه أراد نطق القاف في عصرنا في اللغات المحكية في بلدان الخليج والسعودية والعراق والسودان وجهات أخرى، وهو نطق سامي قديم ثقيل كنطق الغربيين للحرف (G).
- (٧٤) تفسير القرطبي ٦٣/٥ - ٦٤.
- (٧٥) المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ٨١/١.
- (٧٦) لسان العرب.
- (٧٧) المذكر والمؤنث ٣٨٤/١.
- (٧٨) الأصول لابن السراج ٤٨٠/٢، وكذلك المذكر والمؤنث ٢٨٣/١.
- (٧٩) البحر المحيط ٢٠٧/٨ وهي قراءة أبي عمرو وحزمة وعاصم في قوله تعالى: ﴿عرباً أتراباً﴾ [سورة الواقعة ٣٧].
- (٨٠) الأصول لابن السراج ٤٨٠/٢.
- (٨١) زاد المسير لابن الجوزي (ط. المكتب الإسلامي سنة ١٩٦٤ - ١٩٦٧) ٣٦٧/٦.
- (٨٢) إصلاح المنطق ١١٥.
- (٨٣) اللغات في القرآن (رواية ابن حسنون... بيروت ١٩٧٣، ٢٤).
- (٨٤) البحر المحيط ٣٩٨/٣.
- (٨٥) إصلاح المنطق ١١٥.
- (٨٦) التهذيب، ١٥٨/٢.
- (٨٧) البحر المحيط ٢٢٧/٤.
- (٨٨) المصدر السابق ٢٥٧/٥، والكشاف ٥١٣/٢.
- (٨٩) إصلاح المنطق ١١٥.
- (٩٠) المزهري، ٢٧٧/٢.

- (٩١) تفسير الطبري، ١٢٩/٢ - ١٣٠، البحر المحيط ٥٣٣/١.
- (٩٢) اللغات في القرآن ٢١، وما ورد من لغات القبائل ٦٩/١.
- (٩٣) المزهري، ٢٧٧/٢.
- (٩٤) المصدر السابق ٢٨٧/٢.
- (٩٥) زاد المسير ٨٧/١.
- (٩٦) البحر المحيط ٣٩٨/٢، وتاج العروس (رضو).
- (٩٧) البحر المحيط ٢٤/٥. وقرأ أبو السمال (حَسَنَ) (النساء ٦٩) بلغة تميم. انظر البحر المحيط ٢٨٩/٣.
- (٩٨) أريد في هذه (الظواهر) ما اتصل بلغة تميم، وهذا يعني أن ما وافقت فيه تميم غيرها من القبائل ليس من قصدي أن أعرض له لأنه خارج عن نطاق البحث.
- (٩٩) الكتاب ٢٥٦/٢ - ٢٥٧، المخصص ٢١٦/١٤ - ٢١٨.
- (١٠٠) التهذيب ١٢٢/٧.
- (١٠١) زاد المسير ١١٩/١.
- (١٠٢) معاني القرآن للفراء ٢٩٤/٢، التهذيب ٢٩/١٤ (فتن)، فعل وافعل لأبي حاتم السجستاني ٣٦٣/٥.
- (١٠٣) المخصص ٢٤/١٧، تفسير الطبري ٤٤٦/٢، زاد المسير ٦٥/١.
- (١٠٤) إصلاح المنطق ٣٠، المخصص ٧٤/١٥، البارع ٢٤ البحر المحيط ٢٨٢/١.
- (١٠٥) التبيان في تفسير القرآن ٣٩٨/١، وهل لنا أن نفهم أن المراد بـ (نجد) هو لغة تميم كما يتضح ذلك مما ورد في البحر المحيط ٨٣/١ و ٥١١/٥، و ٣٨٠/٢، والتسهيل ٨٤، إن هذا كله يثبت اضطراب المصادر وعدم وضوح الرؤية الذي يؤدي إلى القول باعتباطاً
- (١٠٦) زاد المسير ٣١/٥ ولم أجد البيت في ديوان الفرزدق.
- (١٠٧) المصدر السابق ٣٢/٥، وليس البيت في الديوان.
- (١٠٨) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٧٧، وزاد المسير ٣١/٥.
- (١٠٩) إصلاح المنطق ٣٠، المخصص ٧٤/١٥، البارع ١٢٤، التسهيل ١٥٤، البحر المحيط ٢٨٢/١.
- (١١٠) قطر الندى لابن هشام ١٠٥.
- (١١١) التهذيب ٣٧١/٨ (لصق)، تاج العروس ٦١/٧ (لصق).
- (١١٢) الكتاب ٢٩٥/٢، شرح الكافية ٤٥٤/٢.
- (١١٣) الصاحبي ٣٥.
- (١١٤) البيت للمجنون كما في الجمهرة ٦/١، وغير منسوب في اللسان ٢٣٣/٨.
- (١١٥) الصاحبي ٣٥.
- (١١٦) التهذيب ١١١/١ - ١١٢ وانظر: سر صناعة الإعراب ٣٧/١، والمفصل للزمخشري ٢١١/٢ - ٢١٢.

(١١٧) هي قبيلة بنت مخزومة العنبرية الصحابية. انظر الإصابة ١٧١/٨ - ١٧٣، أسد الغابة ٥٣٥/٥ - ٥٣٦.

(١١٨) الصاحبي ٣٥.

(١١٩) الكتاب ٢/٢٥٥، الخصائص ٢/١٤٣.

(١٢٠) التهذيب ٣/٣٢٠ (ع.ج)، الصحاح ٥/١٧٦٣، التاج (حرجل).

(١٢١) الصحاح ٢/٩٣٨، اللسان (شمس)، المزهري ١/٤٨٤.

(١٢٢) المصدر السابق.

(١٢٣) الجمهرة ٣/٢٩٣، المخصص ١٤/١٣.

(١٢٤) انظر قول ابن جني الحركات أبعاض حروف المد في (الخصائص).

(١٢٥) المخصص ١٤/١٣.

(١٢٦) والنبر في لغة المعاصرين هو الضغط الذي ينتج عنه صوت يتأني من انطباق الوترين الصوتيين والغضروفين الهرميين في الحنجرة انطباقاً كاملاً وشديداً بحيث لا يسمح للهواء بالمرور مطلقاً فيحتبس داخل الحنجرة، ثم يسمح له بالخروج على صورة انفجار، ومن هنا فالهمزة صوت انفجاري يحتاج جهداً عضلياً كبيراً (القراءات القرآنية ٢٤) وقد اختلف في الهمزة أمجورة أم مهموسة، على حين أنها مجهورة لدى سيبويه وشديد (الكتاب ١/٤٠٥ - ٤٠٦).

(١٢٧) جوامع إصلاح المنطق ٧٧.

(١٢٨) سر صناعة الإعراب ١/١٠٢.

(١٢٩) سورة الفاتحة ٧.

(١٣٠) البحر المحيط ١/٣٠.

(١٣١) سورة الرحمن ٣٩.

(١٣٢) البحر المحيط ١/٣٠.

(١٣٣) الديوان ٢٩٤.

(١٣٤) النقااض ١/٥٢٧.

(١٣٥) البارع ٥١٠، اللسان ٧/٤٣٣.

(١٣٦) القلب والإبدال لابن السكيت ٥٦.

(١٣٧) التهذيب ١٤/٣٩٧ (فاظ).

(١٣٨) اللسان (فيض).

(١٣٩) التكملة ٢/٤٢.

(١٤٠) معاني القرآن للفراء ٢/١٦٤، والصحاح ١/٥٩، واللسان (جياً).

(١٤١) المصادر السابقة.

(١٤٢) الصحاح ١/٥٩.

(١٤٣) اللسان ٢/٢٠٥ (أول حرف الجيم)، وكذلك اللسان ٦/٢٦٣، (أول حرف الشين).

(١٤٤) التهذيب ١٣/٢٧٥ (مزى).

- (١٤٥) المخصص ٣٤/١٤، أمالي القاضي، ٢١٤/٢، الإبدال لأبي الطيب ٢٦١/١.
- (١٤٦) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩.
- (١٤٧) الكتاب ٢٨٨/٢.
- (١٤٨) الأصول ١٣٨/٢.
- (١٤٩) شرح الشافية ٢٨٧/٢.
- (١٥٠) الكتاب ٢٨٨/٢ وكذلك الأصول، وشرح الشافية.
- (١٥١) الكتاب ٢٨٨/٢، شرح الشافية ٢٨٧/٢.
- (١٥٢) الكتاب ٢٨٨/٢، سر صناعة الإعراب ١٩٢/١.
- (١٥٣) الجمهرة ٥/١، الصاحبي ٥١.
- (١٥٤) لم ينسب في كثير من المصادر كإصلاح المنطق ٢١٣، والصحاح ٢٤٤٨/٦، في حين جاء في لسان العرب أن الشاعر أبو الأسود، ولم أجده في ديوانه.
- (١٥٥) الجمهرة ٥/١.
- (١٥٦) فصيح ثعلب ٤٠.
- (١٥٧) الصحاح ١١٨٨/٢ (بكم).
- (١٥٨) الصحاح ٢٠٣١/٥، المخصص ٣٩/٤، اللسان ٥٣٣/١٢.
- أقول: لقد جاء في كتب اللغة هذه أن «اللفام ما كان على طرف الأنف، فإن كان على الفم فهو اللثام»، ولم يكن لنا أن نلمس هذا الفرق الدلالي في النصوص التي وصلت إلينا.
- (١٥٩) وقرأ عبد الله بن مسعود بالثناء، وهو هندي، وليس تميمياً، وحين اختلف القراء في قوله تعالى ﴿وفومها﴾ أو ﴿وثومها﴾ ذهب المفسرون مذهباً دلاليّاً فقالوا: الفوم حب يشبه العدس، وقالوا الحنطة، وقالوا شيئاً آخر، وكأنهم عدوا قراءة ابن مسعود بالثناء خارجة، أو هو إبدال ليس غير، ولم يرد اهتمامهم بنسبة القراءة إلى لغة تميم.
- (١٦٠) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٦٦/١، المخصص ١٠٩/٨.
- (١٦١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣١/١.
- (١٦٢) الصحاح ٢١٩٦/٦.
- (١٦٣) ليس للدارس أن يعتمد الشعر فيتخذ منه مادة لغوية تشير إلى الخارطة اللغوية التاريخية، فأتت تقرأ قول علقمة:
- حتى تذكّر بيضاتٍ وهيّجه يوم رذاذٌ عليه الريحُ (مغيوم)
- ولا يمكن أن نقول إن قوله (مغيوم) جرى فيه على لغة قومه تميم، ولكنها القافية ساقته إليه وليس له أن يقول: مغيوم على القياس المشهور. وسنوجز القول في هذا حين نعرض للشعر والرجز.
- (١٦٤) المتع في الصرف ٤٦٠/٢، تاج العروس ٢٦١/٩.
- (١٦٥) الخصائص ١٦٨/١. ويتبعها الضائر لدى تميم فيقولون: هلمّ وهلمّا وهلمّوا وهلممن (قطر الندى ٢٤).

- (١٦٦) معاني القرآن للفراء ٢/٣٩٤ ، التهذيب ١٤/٢٩٨ ، فعلت وأفعلت للسجستاني ١٩٩ .
- (١٦٧) الأصول لابن السراج ٢/٤٨٠ .
- (١٦٨) التهذيب ٦/٢٦٣ (ذهب) .
- (١٦٩) المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ٥٦ .
- (١٧٠) اللسان ٦/١٣٤ .
- (١٧١) الأشباه والنظائر ١/٤٠ - ٤١ .
- (١٧٢) الكتاب ٢/٤٤ .
- (١٧٣) قطر الندى ٩ - ١٠ .
- (١٧٤) سورة يوسف ٣١ .
- (١٧٥) خزنة الأدب ١/٤٤١ .
- (١٧٦) التهذيب ١/٨٨ (عدد) .
- (١٧٧) اللغات في القرآن لابن حسنون ٣٠ ، ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل (هامش تفسير الجلالين ط ٣) ١/٢١٧ .
- (١٧٨) سورة يوسف ٤٥ .
- (١٧٩) ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل ١/١٦ ، اللغات في القرآن ١٩ .
- (١٨٠) سورة البقرة ٢١٣ .
- (١٨١) ما ورد في القرآن من لغات القبائل ٢/١٧٤ ، اللغات في القرآن ٤١ .
- (١٨٢) سورة فصلت ٣٩ .
- (١٨٣) اللغات في القرآن ٤٢ .
- (١٨٤) سورة الزخرف ٢٠ .
- (١٨٥) سورة التكويد ١١ .
- (١٨٦) المحكم ٦/٩٥ (قشط) و ٦/٤٢٢ (كشط) وانظر المخصص ٣/٢٧٧ .
- (١٨٧) سورة الروم ٥٤ .
- (١٨٨) زاد المسير ٣/٣٧٨ ، البحر المحيط ٤/٥١٧ - ٥١٨ ، الجامع الأحكام القرآن ١٤/٤٦ .
- (١٨٩) سورة القيامة ٣ ، وانظر سورة البلد ٧،٥ ، وسورة الهمة ٣ .
- (١٩٠) البحر المحيط، ٢/٣٢٨ .
- (١٩١) سورة البقرة ٩٨ .
- (١٩٢) زاد المسير ١/١١٨ ، ١١٩ .
- (١٩٣) البحر المحيط ٣/١٠ .
- (١٩٤) سورة البقرة ١٨٩ .
- (١٩٥) سورة الرحمن ٣١ .
- (١٩٦) البحر المحيط ٨/١٩٤ .
- (١٩٧) سورة البقرة ٢٨٠ .
- (١٩٨) الجامع لأحكام القرآن ٣/٣٧٣ ، البحر المحيط ٢/٣٤٠ .

متصور الخطأ في اللسانيات

الدكتور محمد عمر السهاري
قسم اللغة العربية

I - الخطأ والصواب بين المعيار والوصف

يختلف مفهوم الخطأ والصواب باختلاف مفهوم المعيار من حيث تحديده تقنياً أو وصفاً. فالصواب في الرؤية التقنية يطلق على كل ظاهرة لغوية تستجيب لمقتضيات استعمالات مثالية يحددها النحو المعياري ويضفي عليها طابعاً مطلقاً فإذا هي ميزان الكلام.

والخطأ - في هذه الرؤية - كل ما خالف هذه الإستعمالات المثالية ولم يجر على سننها، فتعريف الخطأ في التصوير المعياري يقوم على الأحكام التقييمية وهو - لذلك - يعتبر مجاوزاً لسانياً - extra - linguistique - وهذا ما يجعله غير موضوعي. إنه مجانية للحق والطريق المستقيم فلا غرابة أن يتحدث النحاة عن (الخطأ الشائن)^(١) وعن (أقبح الأوهام وأشنع معائب الكلام)^(٢). ولا عجب أيضاً أن يعدد اللحن ذنباً، فقد «لحن أيوب السخيتاني في حرف فقال: أستغفر الله»^(٣)، بل إنه عندهم «أجدر بالوآد من البنات وأولى بالستر من السيئات»^(٤).

ولكن الخطأ والصواب لهما في الرؤية الوصفية معنى مغاير: فالصواب ما جرى على القوانين التي تحكم العرف اللغوي والخطأ هو العدول عن هذه القوانين. والفرق بين الرؤيتين أنها لئن جعلنا من متصور المعيار حجر الزاوية. فقد اختلفنا فيما يخص مفهوم هذا المعيار. فالنظرة الوصفية تعتبر المعيار عبارة عن الاستعمال العادي الشائع في مجموعة لغوية ما، فهو ما «اطرد في الاستعمال»^(٥) وهو «ما تداوله

الجمهور واستعمله الجَمّ الغفير» (٦). أما النظرة التقنيّة فإن معيارها استعمال خاص محدد لفئة خاصة محددة: إنه فصيح الكلام.

النظرة الأولى تنطلق من معطيات اللغة ومن المدونة اللغوية - corpus - لتحدد خصائص المعيار دون فرض لوجهة نظر ما، فهي تدرس الخطأ والصواب في ضوء هذه المدونة وتلك المعطيات وتنطلق النظرة الثانية من أفكار مسبقة تجعل من اللغة جهازاً له «عبقريته» وترتكز على مجموعة من القيم الذهنية والأخلاقية هي في حقيقة الأمر أثر من آثار القيم الاجتماعيّة المقنعة. معنى ذلك أن هذه النظرة تحكّم المقاييس الاجتماعيّة فيما هو لساني بحث وبذلك تختلط المناهج ويضميم بعضها بعضاً.

وإذا انطلق الباحث من اللغة والتزم بمعطياتها فإن الصواب الذي يحدده والخطأ لن يكونا إلا نسبيين، وبعبارة أخرى فإن الصواب المطلق والخطأ المطلق لا يوجدان. أما إذا ارتكز التفكير اللساني على ما تقول به النظرة التقنيّة، فإن المعيار اللغوي يكون مطلقاً لا ينكسر فهو فوق المكان وفوق الزمان. وسواء على اللغة أتطورت أم لم تتطور وعلى المتكلمين باللغة أهجروا تلك الإستعمالات القديمة أم لم يهجروها، وعلى الخطأ أشاع على ألسنتهم أم لم يشع، فإن معيار الفصاحة باق على الأيام والأزمان. معنى ذلك أن النظرة التقنيّة ترى «أن المعيار - وهو القانون أو القاعدة أو السنن أو النمط - هو سيد الإستعمال له عليه حق الطاعة، فإن لم يمثل فله عليه حق الزجر: فالإستعمال تابع والمعيار متبوع، والمعيار مستقر والإستعمال محمول حملاً على الإستقرار فإن انجذب إلى العدول عدّ ذلك انحرافاً» (٧). ذلك أن لكل من النظرتين فلسفة يرتكز عليها. فلسفة المعيار «فلسفة ماهية [تعتبر] أن للظاهرة حقيقة ما قبلية يسبق الجوهر فيها الوجود» (٨) وفلسفة الوصف «فلسفة وجودية بموجبها لا تتجدد للظاهرة حقيقتها إلا بعد إدراك كينونتها الإجرائية عبر تشكيلها المنجز» (٩).

II - الخطأ والوظيفة :

لا تعرف اللسانيات الوظيفية الصواب والخطأ انطلاقاً من مبدأ الجريان على سنن المعيار أو العدول عنه، ولكنها تحددهما نظراً للوظيفة التي يقوم بها أحدهما ولا يقوم بها الآخر.

يعرف جسرسن - Jespersen - الصواب بقوله:
أصوب الكلام ما فهم بأيسر سبيل وقد بُتَّ بأيسر سبيل^(١٠).

ويعرفه سوفاجو - Sauvageot - قائلاً:
إن أحسن اللغات هي التي تزودك بأكبر قدر من المعلومات
بأسرع ما تكون السرعة وأوضح ما يكون الوضوح^(١١).

فلا فضل لظاهرة لغوية على أخرى إلا بحسن تأديتها لوظيفتها، فهي صواب
ما أدت هذه الوظيفة وهي خطأ ما لم تؤدها، وعلى هذا الأساس يعرف هنري فراي
- Henri Frei - الخطأ بقوله:
الخطأ ما لا يلائم وظيفة [لغوية] ما^(١٢).

وهكذا يتخلص متصور الخطأ مما شابهه من أحكام ما قبلية تقوم على
الإفراض والتقييم ويتخذ طابعاً جديداً ذا قيمة وظيفية.

والنظرة الوظيفية تختلف عن النظرة التقنينية اختلافاً كبيراً. فإذا كان أهل
التقنين يقدسون اللغة ومعاييرها ويجعلونها فوق المتكلمين وفوق سنة التطور، فإن
أصحاب المدرسة الوظيفية يعتبرون «أن اللغة ليست غاية في ذاتها ولكنها وسيلة إلى
غايات أهم بالنسبة للإنسان والإنسانية. إن مثل هذا التقرير يمكن من [إقرار] نسبية
الدور الذي تقوم به السنة اللغوية، ومن ثم أهمية وجهة النظر المعيارية»^(١٣). إن
السنة اللغوية في الرؤية المعيارية لا تخضع للسياق أيّاً كان السياق وأيّاً كانت
الظروف الموضوعية التي تتم فيها عملية الخطاب أو الكتابة. إنها سنة المعيار ولن
تجد لسنة المعيار تبديلاً. وكل ما خالف هذه السنة فهو خطأ بقطع النظر عن
سياقه. أما من وجهة النظر الوظيفية. فإن هذه السنة إن هي إلا جانب من جوانب
الحدث اللساني، فالسنة تكتسب مفهوماً أوسع وأكثر ثراءً، إذ هي تأخذ بعين
الإعتبار لا الحدث اللساني فحسب، ولكن أيضاً ملاءمته لظروف التواصل
وللوظائف التي من شأنه أن يقوم بها. والحدث اللساني إذا هو أدى وظيفته وكان
ملائماً لها، فتلك علامة صحته وأمانة صوابه وليس عليه بعد ذلك أن يتبع
بالضرورة سنة المعيار.

ولا تعتمد الوظيفية في تحديد الصواب والخطأ على الأحكام التقييمية ولكن

على الأحكام التقريرية، فاللغة تضرب بجذورها في تاريخ الإنسان والمجتمع البشري وإن لهذا المجتمع ولذلك التاريخ سلطاناً على اللغة يقضي عليها بالتغيير والتطور ويجعل من مثاليتها مثلاً على خطأ المعيارية المنهجي في دراسة اللغة، ف«إن ما كان يعتبر - من زاوية النظام القديم - ضئيل القيمة أو ناقصاً، مرادفاً للهوية والزيف، أو مجرد مرادف للخطأ، كما أن ما كان يعتبر بدعة أو منحطاً أو لا قيمة له، يمكن أن يظهر، أو أن يتبنى في أفق نظام جديد»^(١٤).

وأن يرتبط الحدث اللساني بالوظيفة التي من شأنه أن يؤديها معناه أنه يخضع لجدلية لسانية عمادها أن الصواب صواب ما استجاب لمتطلبات وظيفة ما، وأن الخطأ خطأ ما فرط في هذه المتطلبات، وبذلك لا يوجد صواب في ذاته ولا خطأ في ذاته، والظاهرة اللغوية الواحدة يمكن أن تكون مرة صواباً وأن تكون مرة أخرى خطأ، وهذا لا يكون من وجهة النظر المعيارية إذ الخطأ لا يكون صواباً بحال.

والوظيفية لا تجعل من شيوع الظاهرة اللغوية شرطاً في صوابها أو قل إن هذا الشيوع ليس ضرورياً لصواب الظاهرة اللغوية، بل إن الوظيفية يمكن أن تصفها بالخطأ رغم شيوعها إن هي لم تكن مفيدة متميزة من حيث ملاءمتها لوظيفة معينة، ذلك أن صواب اللفظ لا يقود حتماً إلى صواب المعنى، فقد يكون الكلام صحيحاً ولكنه غير ذي معنى، أو أنه لا يخلو من إشكال يقود إلى اللبس، فيحتمل بذلك تأويلات كثيرة، ويكون ذلك كله على حساب الوظيفة التي يقوم بها. يقول الشاعر:

ويرغب أن يبني المعالي خالد
ويرغب أن يرضى صنيع الألائم

وهو بيت «يحتمل أن يكون مدحاً وأن يكون ذمّاً. فإن جعلت الرغبة الأولى مقدرة بـ (في) والثانية مقدرة بـ (عن) كان مدحاً، وإن جعلت الرغبة الأولى مقدرة بـ (عن) والثانية مقدرة بـ (في) كان ذمّاً»^(١٥). ومن ذلك أيضاً «قول خالد بن عبدالله القسري على المنبر: إن أمير المؤمنين كتب إلي أن ألعن علياً فالعنه لعنه الله، فأوهم أن الضمير راجع إلى علي وإنما هو عائد على الأمر له بلعنه، ولذلك أنكر على خالد ما جاء به من اللفظ المشترك»^(١٦). فالوظيفة تعالج مسألة الخطأ بكثير من المرونة، وهي تستعمل كلمة الخطأ استعمالاً حيادياً، يخلو من المعاني

الدينية والأخلاقية المصاحبة، ولذلك فهي لا تتحدث عن الخطأ - faute - ولكنها تستعمل عبارة أخرى هي - déficit - (نقص - عجز).

والوظيفية من الوجهة العلمية الخالصة - تقوم على مقاييس أكثر صرامة ومصداقية، فالوظائف اللغوية أساسها طبيعة اللسان البشري نفسها، فهي - كما يقول هنري فراي - «علة وجود اللسان - La raison d'être du langage -»^(١٧). فهي إذن تحكمها قوانين هذا اللسان ولا تخضع للقواعد النحوية ذات الطبيعة الإجتماعية والتي كتب عليها التغير والتطور بتغير المجتمع وتطوره، فالوظائف اللسانية أبقى من المعايير الإجتماعية، لأنها لصيقة بالقوانين الطبيعية التي يخضع لها كل جهاز من العلامات.

III - الخطأ والبنية اللغوية :

يتخذ بعض علماء اللسان من البنية - أو نظام اللغة - مقياساً لتحديد الخطأ أو الصواب. وهكذا يستبدلون متصور البنية بمتصور المعيار، أو قل: إن البنية تقوم مقام المعيار، ويكون لها وحدها حق الحكم على الظواهر اللغوية. ولئن كانت رؤية هؤلاء اللسانيين لا تنكر الخطأ وجوداً، فإنها تضيق من دائرته، وترى أنه ليس بعسير على الحدث الثوري أن يقرر تقريراً موضوعياً «أن الأخطاء التي يبقى علينا إصلاحها إنما هي الأخطاء التي تعرقل سير النظام [اللغوي] أي تلك التي تخفي حدث التواصل نفسه، وبذلك يصبح النظام هو المعيار الجديد»^(١٨). وانطلاقاً من هذا المنظور يتسنى لنا أن نصوغ تعريف كل من الصواب والخطأ بالشكل التالي:

الصواب ما كان مطابقاً لنظام اللغة
والخطأ ما خرق هذا النظام.

ولكن من علماء اللغة من يرى أن نظام اللغة لا يكفي لأن يكون فيصلاً في مسألة الخطأ والصواب، فسوفاجو يعززه بعنصر آخر له أهميته هو أيضاً وهو تاريخ اللغة. أما بيير قيرود - Pierre Guiraud - فينظر إلى الظواهر والإستعمالات اللغوية الجديدة من زاوية نظام اللغة والمردود الوظيفي لهذه الإستعمالات وتلك الظواهر. يقول سوفاجو:

إن الأخطاء يجب أن تحدد تبعاً لنظام اللغة وتاريخها. وما يقترح من إصلاح يجب أيضاً أن يسير على هدي من نظام اللغة وأن يتبصر فيما يحتمل أن ينشأ عنه بعد ذلك من انعكاسات على سير تقدمها^(١٩).

فالصواب - في هذه الحال - ما ساهم في تقدم اللغة والخطأ ما عاق هذا التقدم. ولكن ما التقدم في ميدان اللغة؟

إن مفهوم التقدم - كما يراه سوفاجو - «مفهوم نسبي، وعليه أن يحدد تبعاً للمهام التي يضطلع بها اللسان، فالابتكار الذي يمثل تقدماً في حالة ما، قد لا يكون في حالة أخرى غير عقبة إضافية»^(٢٠). فالظاهرة اللغوية الصحيحة إنما تعمل على تقدم اللغة لأن وظيفتها «أن تبلغ ما يراد إبلاغه في أقصر الأوقات، وأن تضمن في الآن نفسه ما يلزمها من شروط الوضوح والدقة»^(٢١). أما الظاهرة اللغوية الخاطئة فهي «كل ما يمثل تعقيداً لا طائل تحته»^(٢٢) وعلى هذا الأساس يتفق سوفاجو وقيرو في الرؤية إذ يعتبر قيرو هو أيضاً أن «كل استعمال مستحدث يجب أن يقيم في ضوء مردوده. أيكتسب [به] المتكلمون وسيلة من وسائل التعبير ناجعة أم غير ذات جدوى؟ أيتخلصون من قيمة قد أتى عليها العفاء، أم يفقدون وسيلة التعبير عن فارق من الفوارق الدقيقة؟ ثم إنه علينا ألا ننسى أن الإستعمال لا يمكن أن يقيم في ذاته، ولكنه يقيم في ضوء النتائج التي يؤدي إليها كل تغيير موضعي عبر النظام»^(٢٣). وهكذا فإننا إذا نظرنا إلى مسألة الخطأ بعين البنية اللغوية والمردود الوظيفي، تيسر لنا أن نرى أن «جل الأخطاء التي ترتكب في حق النحو ليست في الغالب إلا تبسيطات موفقة تنتهي المجموعة بإقرارها»^(٢٤).

IV - الخطأ والسياق:

تستعمل بعض التيارات اللسانية والأسلوبية متصور السياق من حيث هو مقياس صالح لتحديد الخطأ أو الصواب، وهذه التيارات لا تنفي وجود الخطأ أو الصواب، ولكنها تقترح تحديداً جديداً لكل من المتصورين. فرولان إيلوار 1W6,7,8 Roland Eluere - يعالج في (مدخل إلى اللسانيات) قضية الخطأ وعلاقته بالسياق، فإذا كان للمجتمع ونظمه وطبقاته أثر لا ينكر في اللغة

ومستوياتها، فإن لظروف التخاطب أيضاً دوراً ينبغي أن لا يغفل، فإن للغة أبعادها الاجتماعية ولها أبعادها السياقية أيضاً. ولنا في الشعراء - وهم أمراء الكلام - أسوة حسنة في هذا المقام «فقد أتيج للشاعر فكتور هيجو أحياناً أن يتخلى عن الريشة التي نظم بها ملحمته (أسطورة العصور) ليخط في مفكرته: المبلغ المستحق للحلواني في شهر تشرين هو: ٦، ١٠ فرنكاً»^(٢٥). وليس لنا والحال هذه أن نقصر الاحتكام في مسألة الأخطاء اللغوية على ما تقتضيه قواعد النحو، فإن لظروف التخاطب قواعدها أيضاً وهي مما يجب مراعاته.

يقول رولان إيلوار:

مدار البحث أن نميز بين الأخطاء المرتكبة بحق المنظومة اللغوية والأخطاء الناجمة عن التباين بين مستوى القول ومقتضى الحال. أما الأولى فتقتضي تصحيحاً لا يدع مجالاً للخيار بين متطلبات المنظومة المتفق عليها وبين العثرات الفردية الطارئة، بينما تقتضي الأخطاء الثانية أن نعمل الفكر حتى نتخير المستوى المناسب فلا نصدر على الصيغة المستعملة حكماً قاطعاً بأنها عامية أو مبتذلة أو محلية^(٢٦).

واللساني الفرنسي جونوفرياي - Genouvrier - ينادي بضرورة التمييز «بين ما نسميه المراقبة المجردة - censure abstraite - أي تلك التي تعمل على الملفوظ باعتباره معطى في ذاته دون أن تراعي ظروف إنجازه - والمراقبة الملموسة وهي التي تعمل على الملفوظ وقد ارتبط بأدائه»^(٢٧). ففي الحالة الأولى تقييم الجمل أو النصوص - من حيث مركباتها النحوية أو الصرفية أو الدلالية - بالرجوع إلى معايير قد حددت تحديداً نهائياً، وفي الحالة الثانية يكون لهذه النصوص ولتلك الجمل حق مشروع في أن تشتمل على ظواهر لغوية تختلف باختلاف المستويات التي تنتمي إليها ومنزلة المخاطبين والمخاطبين، فإن لكل مقام مقالاً: فإننا «لا نخاطب الطفل كما نخاطب الكهل ولا نتحدث إلى المثقف كما نتحدث إلى الجاهل... ولا نكلم من يفضلنا في الدرجة كما نكلم الند»^(٢٨).

إن هذه المراقبة المحسوسة هي التي يعود إليها وحدها أمر البت في قضية الصواب والخطأ. وهي تقوم عند جونوفرياي على مبدئين أساسيين: أولهما أن «نحو ملفوظ ما أو رصيده لا قيمة لهما إلا داخل هذا الملفوظ نفسه، وقد ارتبط بظرف

التواصل الذي يتنزل فيه»^(٢٩). وثانيهما يتعلق بدور اللغة، فهي «في جوهرها وسيلة من وسائل التواصل»^(٣٠)، بمعنى أنها كلام - parole - وممارسة لسانية قبل أن تكون شيئاً آخر. ويقترح جونوفرياي لذلك بأن «نستبدل مفهوم الملاءمة - convenance - بمفهوم الخطأ بمعناه المجرد»^(٣١) [وهي المطابقة لمقتضى الحال]. فالصيغ أو الكلمات أو التراكيب لا تقيم من وجهة نظر اللغة وإنما تقيم من وجهة نظر الكلام، أي تبعاً للسياق الذي وردت فيه. وهكذا يمكن لها أن توصف بالخطأ إذا لم تلائم السياق ولم تسر على سننه، وإن وصفها معيار المراقبة المجردة بأنها أصوب الصواب، أو أن تكون صحيحة إذا استجابت لمتطلبات الملاءمة وإن اعتبرها ذلك المعيار خطأ فاحشاً ولحناً شنيعاً.

ويضرب لنا اللساني الإنكليزي كريستل - David Crystal - مثلاً على ذلك: «القاعدة النحوية الإنكليزية التي تقول إنه ينبغي أن نستعمل Whom وليس who كاسم موصول - relative pronoun - في جملة مثل The man- I saw - was tall and dark [إن] مثل هذه القاعدة تنحرف عن واقع اللغة الإنكليزية لأن القضية ليست في أن استعمال Whom هو استعمال صحيح، أما استعمال who فاستعمال غير صحيح. الواقع أن كلاهما صحيح ولكن طبقاً لظروف وملابسات معينة وغير صحيح في ظروف وملابسات أخرى. والاختلاف يرجع أساساً إلى التزام الشكل - formality - لأن Whom في هذا السياق قد تكون أكثر فصاحة من who التي تكون أكثر عامية لأنه من غير اللائق أن ألتزم الفصاحة في حديث عامي هازل، كما أنه من غير اللائق أن ألتزم العامية في إحدى المناسبات الرسمية»^(٣٢).

ويرى كريستل أن القواعد التي تهمل اعتبار السياق (غير واقعية)^(٣٣) وهي إلى ذلك (قواعد مبسطة ومضللة أيضاً)^(٣٤) ويستشهد على ذلك بما يجري في امتحانات اللغة الإنكليزية وبتقرير لمجلس هذه الامتحانات يقول إن الممتحنين «كثيراً ما يطلبون من التلاميذ أن يحكموا على صحة استعمالات معينة دون الإشارة إلى السياق الذي استعملت فيه، وبذلك لا يتاح لهؤلاء التلاميذ أدنى فرصة لكي يقدروا الظروف والملابسات التي قد يكون هذا الاستعمال أو ذاك ملائماً لها، وإنه من الخطأ أن نفترض وجود إجابة واحدة هي الصحيحة فقط عن مثل هذه الأسئلة... فالامتحانات تعاني من افتراض وجود مستوى عام لصحة الاستعمال

ملائم لأي سياق كان^(٣٥). ومن سلامة المنهج عند كريستل أن يكون أصحاب اللغة هم الذين يحكمون في أمر تحديد هذه الملاءمة، فأهل مكة أدرى بشعابها، كما يقول المثل العربي. وشأن اللساني أن يلاحظ ذلك ولا يتعداه.

يقول كريستل:

إن عالم اللغة ليس في مجال الاختبار بين استعمالين أحدهما صحيح والآخر خاطيء، إذ إن ما بينهما هو مجرد اختلاف. ويجب عليه أن يصفهما معاً في دراسته ثم يترك للآخرين مهمة تقرير أيهما أكثر ملاءمة للمواقف الاجتماعية المختلفة^(٣٦).

وللسياق في ميدان الأسلوبية شأن عظيم، فعلم الأسلوب يحدد لنا أنواع الكلام أو الكتابة التي تتناسب مع المواقف المختلفة، كما يحاول تطوير معرفتنا وتحكمنا في هذه الاختلافات التي تعلمنا بعضاً منها في سن مبكرة مثل (لا تستعمل مثل هذه اللغة مع القس) وهو نوع من الأوامر التي تؤكد على نمط واحد من العادات الكلامية التي تتناسب مع مثل هذا الموقف، ومن ناحية أخرى، نتحاشى عادات كلامية أخرى^(٣٧). فالمتكلم لا يحتكم إلى صواب اللغة وإنما يحتكم بالدرجة الأولى إلى صواب السياق فقاعدة السياق هي التي تحل محل قاعدة اللغة. ويخصص ميشيل ريفاتير - Michael Riffaterre - فصلاً كاملاً من «محاولاته في الأسلوبية البنوية (للسياق الأسلوبي)». وأن يكون (السياق الأسلوبي) ثاني فصول الباب الأول المتعلق بالقضايا المبدئية^(٣٨) دليل على أهميته البالغة في رؤية ريفاتير الأسلوبية. وتتجلى هذه الأهمية في أن ريفاتير يقترح (أن يقوم السياق مقام المعيار)^(٣٩) بحيث لا يكون لمعيار اللغة على الأثر سلطان إذ يكون الأثر في هذه الحال معيار نفسه، وليس الانحراف - وهو الأسلوب في هذا الموضع - أن يفارق ما عليه معيار اللغة بل هو مفارقة ما عليه معيار السياق.

٧ - الخطأ والعدول:

تستعمل اللسانيات والأسلوبية متصوراً بينه وبين الخطأ صلة وطيدة: إنه متصور العدول أو الانزياح أو الانحراف - écart - فما معنى العدول؟ وما علاقة العدول اللساني بالعدول الأسلوبي؟ وهل يمكن لتصور العدول أن يكون أساساً

لتعريف الخطأ في ميدان اللغة والأسلوب في ميدان الأسلوبية؟

٧ - ١ - تعريف متصور العدول:

إذا كان المعيار في عرف اللسانيات عبارة عن الإستعمال الشائع في مجموعة لسانية معينة، فإن العدول انحراف عن هذا المعيار وخرق له^(٤٦). والعدول - في نظر بعض اللسانيين على الأقل... - يتميز عن الخطأ - erreur - . فكلمة الخطأ تستعمل للتعبير عن أنواع عديدة من سوء الاستعمال اللغوي، وذلك راجع إلى أن المتكلم لما يملك ناصية اللغة، فالخطأ في هذه الحال ظاهرة لغوية لا تستعصي عن التفسير الموضوعي. أما العدول فهو تطبيق للقاعدة يشوبه النقص والقصور، وسبب ذلك أن يغفل المتكلم جانباً من جوانب هذه القاعدة، أو أن يستهويه قياس خاطيء على قاعدة أخرى، أو أن يعمم القاعدة تعميماً لا يؤديه الواقع اللغوي، أو أن يجهل القاعدة نفسها. وفي هذا الإطار يتنزل الحديث عن (الخطأ اللغوي)^(٤١) وعن (العدول النحوي)^(٤٢). معنى ذلك أن (الخطأ حدث من أحداث اللغة - fait de langue - وأن العدول حدث من أحداث المعيار)^(٤٣). وبالجملة فإن الخطأ «موقوف على المنطوق وأن العدول النحوي إن هو إلا ثمرة من ثمار النَّصِيَّة»^(٤٤). الخطأ بابه ما يسميه فيليب باربو - Philippe Barbaud - «حالة اللغة - état de la langue»^(٤٥). أما العدول فيتعلق بـ (لغة الدولة - Langue de l'Etat -)^(٤٦). وليس للعدول في (لغة الدولة) ما للخطأ في (حالة اللغة) من أهمية. فرؤية (حالة اللغة) تعتبر الخطأ (ضرورياً لنمو الكفاءة اللغوية وتشبيتها بصورة نهائية)^(٤٧). ولكن رؤية (لغة الدولة) لا تشير إلى الخطأ إلا لتحذر منه ولا تدرسه إلا لتعرف الأسباب الداعية إليه، فيساعدوا ذلك على تجنبه بل وعلى محاربتة وهي على بينة من الأمر.

٥ - ٢ - العدول اللساني والعدول الأسلوبي:

كثيراً ما يستعمل أهل اللسان والأسلوبية - وهم يتحدثون عن العدول - عبارات لها من الإيحاءات الأخلاقية بل والسياسية نصيب وافر^(٤٨). فالعدول (مخالفة القواعد)^(٤٩) و(الدعوة إلى غير الأخلاقية)^(٥٠) وهو (انتهاك)^(٥١) و(خلل)^(٥٢) و(خرق)^(٥٣) و(انحراف)^(٥٤) و(عيب)^(٥٥) و(تحريف)^(٥٦). والحق أن هذه العبارات لا تهدف إلى تهجين العدول، والدليل على ذلك أن اللسانيات والأسلوبية توليانه أهمية بالغة. ففي اللسانيات - وفي الوظائفية خاصة - يعتبر الباحثون أن قضايا

العدول لا يمكن إلا أن تثري دراساتهم. ذلك أنها (تكشف عما ينتظره المتكلم من اللغة ولا يجده فيها، فهي تصير وسمياً على الحاجيات التي تحكم ممارسة الكلام)^(٥٧). وللعُدول في ميدان الأسلوبية واللسانيات ركن متين، فجان كوهين - Jean Cohen - مثلاً، يرى أن (العدول شرط ضروري لكل شعر)^(٥٨) ويرى موكاروفسكي - Mukarovsky - (أن انتهاك قواعد اللغة القياسية... هو ما يجعل الاستخدام الشعري للغة ممكناً، وبغير هذه الإمكانية لا يكون هناك شعر. وكلما كانت قاعدة القياس في لغة ما أكثر رسوخاً كان انتهاكها أكثر تنوعاً، وتعددت بالتالي إمكانيات الشعر في تلك اللغة)^(٥٩).

أما بيرفيش - Bierwisch - فيؤكد (أن التأثيرات الشعرية تنبثق من خلال الانحرافات المتعمدة عن القواعد النحوية)^(٦٠).

وأما أصحاب البلاغة العامة فعندهم أنه (حتى خارج طبيعة العدول، فإن مجرد وجوده قد شحن معنى، ومعناه - على وجه الدقة - أنه بلاغة أي إنه أدب وأنه شعر وإنه فكاهة، إلخ)^(٦١). ولقد ذهب الأمر ببعض الدارسين إلى أن عرفوا الأسلوبية نفسها بأنها (علم الانزياحات)^(٦٢) وقد تحدث بعضهم عن (أسلوبية العدول)^(٦٣) وعن (علم الانحرافات)^(٦٤). ولكن بين العدول اللساني والعدول الأسلوبي فروقاً يجب أن لا نغفلها. إن العدول الأسلوبي خطأ من الأخطاء ومع ذلك فالقول بأن الأسلوبية علم الانحرافات لا يعني أنها علم الأخطاء. فالخطأ اللساني مرده إلى الجهل بقواعد الاستعمال اللغوي، فهو ما لم يتعمد، إذ لا يخطيء المخطيء إلا وهو يحسب أنه مصيب، ولكن العدول الأسلوبي (خطأ متعمد)^(٦٥) كما يقول شارل برينو - Charles Bruneau - . وإذا كان الخطأ اللساني «تحريراً غير ذي أهمية»^(٦٦)، فإن العدول الأسلوبي (تحرير له قيمته)^(٦٧). والخطأ اللساني تبع للوظيفة التواصلية، فهو - كما بين ذلك هنري فراي - (يصلح لتلافي قصور اللغة الصحيحة أو لاستدراك هذا القصور)^(٦٨) وليس للعدول الأسلوبي وظيفة تواصلية أو قل إن له وظيفة من نوع آخر وهي التي نسميها الوظيفة الإنشائية أو الجمالية بصورة عامة.

إن الكلام الإنشائي - كما يقول مؤلفو البلاغة العامة - لا مزية له من حيث هو حدث من أحداث التواصل، فهو فعلاً لا يبلغ شيئاً

أو قل إنه لا يبلغ إلا نفسه. ويمكن القول أيضاً إنه يتواصل مع نفسه، وهذا التوصل إن هو إلا مبدأ الشكل نفسه. فالشاعر - وهو يدرج قيد الترادفات المتعددة في كل مستوى من مستويات الخطاب وبين هذه المستويات - يجعل الخطاب منغلقاً على نفسه وهذا الانغلاق بالذات هو الذي يسمى أثراً^(٦٩).

ولا قيمة للانحراف الأسلوبي ما لم يكن من (الانحرافات الخصبية)^(٧٠) و(الأخطاء التعبيرية)^(٧١) أي تلك التي تناولها بالتحليل على أنها ظواهر أسلوبية وليست مجرد انحرافات، ذلك أنه (لا يكفي خرق السنة [اللغوية] لكتابة قصيدة)^(٧٢) ولا (الإخلال بنظام اللغة حتى يكون [المراء] شاعراً)^(٧٣). فما يسمى (كتلة الكلمات)^(٧٤) أو (لعبة الجثة اللذيذة)^(٧٥) لا يمكن في رأي جان كوهين أن يكون عدولاً أسلوبياً بل ولا عدولاً لسانياً. فالتلاعب بسنة اللغة وتحريف الكلم عن مواضعه كيفما اتفق يؤديان إلى طريق المحال وهجنة القول أكثر مما يؤديان إلى طريق الإنشائية وجمالية الأسلوب. ف«إن جملة مثل: (ستأكل محارة السينغال الخبز الثلاثي اللون L'huitre du Sénégal mangera le pain tricolore) - ليست شعرية إلا بقدر ما يقرر سلفاً خلطها بغير المعقول)^(٧٦). فأن يكون الخطأ متعمداً والتحريف اعتبارياً لا يكفي وحده ليضفي على الظاهرة اللغوية سمات الأسلوب وفي اللغة (تحريفات إرادية هدفها أن تحفي نقص الرصيد، فلا بد لنا - في وضع تكون فيه (الكلمة غير موجودة) - من إنشاء كلمة أو إحالة كلمة قديمة عن معناها)^(٧٧). وفيما يخص العدول الأسلوبي فإن الأثر الشعري هو الذي يحمل في طياته الدليل على أنه (ليس كل انحراف عن المعيار هو بالضرورة ظاهرة أسلوبية)^(٧٨) وأنه (ليس كل انحراف نحوي يتولد عنه تأثير شعري)^(٧٩) وهذا معناه أن (الأسلوب خطأ ولكن ما كل خطأ بأسلوب)^(٨٠). إن العدول اللساني سواء عليه أأدى وظائف متعددة أم لم يؤد يظل دائماً عدولاً ولا يخرج من دائرة العدول إلا شيعه على ألسنة المتكلمين فإنه حينذاك يصير قاعدة، ولكنه - وهو يلبي حاجات المتكلمين - لا يسعى إلى أن يمكن لنفسه في ميدان الصحة اللغوية. والعدول الأسلوبي يختلف عن ذلك فهو (خطأ متعمد يستهدف من ورائه الوقوف على تصحيحه الخاص)^(٨١). والعدول اللساني - من حيث هو خطأ - لا يكون من اللغة الأدبية، فاللغة الأدبية صواب

والعدول نقيض الصواب، إنما هو من لغة العامة ومما يسميه ويليام لابوف - 1W6,7,8Wiliam Labov - (اللهجة العادية)^(٨٢). أما العدول الأسلوبي فهو في أغلب حالاته ينتمي إلى اللغة الأدبية، فميدانه الشعر والأعمال الأدبية، والشعراء والكتاب هم أنصاره إلى هذه اللغة.

ولكل من العدول اللساني والعدول الأسلوبي نحوه الخاص. فالنحو الذي تبني قواعده على العدول اللساني يسمى نحو الأخطاء - Grammaire des fautes -
-^(٨٣). أما نحو العدول الأسلوبي فهو «نحو أسلوبي - Grammaire stylistique -
-^(٨٤). فإذا اختص العدول بالشعر فإداه هذا العدول تشكل (نحو اللغة الإنشائية -
Grammaire de la -^(٨٥) أو (نحو الشعر - Grammaire du langage poétique
poésie -^(٨٧). ولنا في هذا المجال أن نتساءل: إن العدول الأسلوبي مولد القيم
الجمالية وصانع (اللغة الإنشائية وإنشائية اللغة)^(٨٨) فهل نصفه بعد ذلك بالإنحراف
والإنتهاك والدعوة إلى غير الأخلاقية؟ إن على الأسلوبية أن تطرح مثل هذه
العبارات وإن كان استعمالها لها استعمالاً حياً.

٧ - ٣ - العدول وتعريف الخطأ أو الأسلوب:

هل يمكن للعدول أن يكون أساساً لتعريف الخطأ أو الأسلوب تعريفاً علمياً؟ يرى جل علماء اللغة والأسلوبية أن هذا التعريف ليس له إلا متصور العدول منطلقاً. ولكن بعضهم لا يسلم بذلك فلمتصور العدول من الهنات ما يقعد به عن أن يشكل تعريفاً للخطأ أو للأسلوب. فما هذه الهنات؟ أولها: في رأيهم أنه (من العسير أن نتحدث عن الإنحرافات اللغوية بصورة علمية)^(٨٩)، فإن تعريف العدول يخلو من الإجابة عن مجموعة من الأسئلة الهامة.

ما مياس ذلك؟ أهو حدس الذي يصف؟ أهو نموذج للغة معين
أم هو طبقة معينة من طبقات المجتمع؟ أهو لغة الخطاب أم لغة
الكتابة؟^(٩٠).

وثانيها: أن المعيار لا يمكن أن يكون وسيلة يقاس على أساسها العدول، إذ إن هذا المعيار نفسه في حاجة إلى مقاييس تضبطه بصورة واضحة، وهو لا يمكن أن

يحدد العدول إذ هو نفسه في حاجة إلى تحديد. إن القول بوجود لغة مشتركة في كل شيء بين المتكلمين بها أمر فيه كثير من التجوز ولا يمكن لتكلمين - وإن انتميا إلى لغة واحدة - أن يعبرا عن فكرة ما بالطريقة نفسها.

يقول ماريو باي - Mario Pei -

إن التفاهم التام بكل ما في هذه العبارة من معنى لا يتم حتى بين من يستعملون لغة واحدة... فكل شخص يستخدم اللغة بالضرورة كوسيلة يعبر بها عن خبراته الشخصية، ولا يتفق شخصان في العالم في نوع الخبرات التي يبران بها^(٩١).

والحق أن وجود الفروق اللغوية نتيجة لوجود الفروق بين المتكلمين باللغة، ينبع من طبيعة اللغة نفسها من حيث هي ظاهرة اجتماعية إنسانية، (ولا ينبغي لنا أن نتوقع إجماع الناس إجماعاً كاملاً على توحيد طريقة القيام بنشاط اجتماعي مثل اللغة، فلم تنجح حتى أشد الدكتاتوريات تعنتاً في الحصول على إجماع كامل وتوحيد لطريقة السلوك البشري)^(٩٢). إن اللغة في درجتها الصفر لا سبيل إليها، فالحياة اللغوية فرض خيالي محض، والقول بوجود لغة يطبق الجميع قواعدها يدحضه الواقع، فما هذه اللغة إلا «مثل أعلى يبحث عنه ولا يمكن العثور عليه. إنها قوة فعالة لا يستطيع تحديدها إلا بالهدف الذي تتجه نحوه، هي حقيقة بالقوة لا تخرج إطلاقاً إلى حيز الفعل وصيرورة لا تصل أبداً إلى الاستقرار»^(٩٣). فاللغة إن هي إذن إلا مجموعة من استعمالات مختلفة تحكمها معايير مختلفة. ولعترض أن يقول: إذا كانت اللغة تشكل كلاً منسجماً، فكيف يتسنى لها أن تؤدي وظيفتها التواصلية وهي أهم وظائفها؟ إن هذا الاعتراض يجعل بين التواصل والانسجام اللغوي - homogénéité - علاقة خاصتها التلازم، وفي ذلك دعوى لا ينهض بها واقع اللغة، فأصحاب المجموعة اللغوية الواحدة إنما يفهم بعضهم بعضاً لا لأنهم يمتلكون نحواً هو هو في ضمير كل فرد بل لأن النحو الذي يملكه كل فرد له من وشائج القربى مع الأنحاء الأخرى ما يجعل التفاهم بين الأفراد أمراً ممكناً، فهم بغضون الطرف عما يفصل بينهم من فروق، ولضرورة التواصل أحكام. صحيح أنه يمكن لسبب من الأسباب السياسية أو الاجتماعية أو غيرها أن نرفع نحواً من الأنحاء

مكاناً علياً لظهره على النحو كله، ونسمي ما خالفه لهجة أو لحناً، ولكن موقف اللسانيات غير هذا الموقف ورؤيتها اللغة غير رؤية السياسة أو المجتمع.

وثالثها: أنه حتى لو فرضنا وجود معيار منسجم - وأنى له أن يوجد؟ فإن ذلك لا يحل المشكلة، فكل استعمال من الاستعمالات اللغوية له سماته الخاصة وهو يمثل معياراً يلتزم به الذين حظي عندهم، فما الاستعمال الذي نرتضيه معياراً نقيس به العدول؟ بل إن الانحراف نفسه، في اللغة أو في غير اللغة، لئن كان يمثل خروجاً عن المثل والنماذج التي يجرسها المجتمع ويقوم عليها، فإنه مطابقة لمقاييس تقترحها مجموعات تعيش على هامش هذا المجتمع. فالبغي والمتسكع الباريسي والهيبى الأمريكي يناقضون لا شك أعراف المجتمع ويعارضون قيمه، ولكنهم خاضعون لأعراف وسطهم وقيمهم، ولذلك (فإن الانحراف في الغالب ضرب من المطابقة معكوس، أي إنه مطابقة لطريقة في الحياة مناهضة للحياة أو للمجتمع)^(٩٤).

ورابعها: أن المعيار غالباً ما يكون عدولاً قديماً قد كتب له أن يظهر على المعيار السائد آنذاك وأن يحتل مكانه، فالمعيار قبل أن يصير (النظام القائم) كان مقاومة لهذا النظام. وإذن فكيف يجدد العدولُ العدولَ؟

ويرى بعض علماء الأسلوبية أن العدول (ادعاء فارغ - tarte à la crème)^(٩٥) فإذا كان لهذا المتصور (خصوبته الفعالة)^(٩٦) فإنه لا يخلو من (طابع ملتبس)^(٩٧). فالقول بـ (أن الأدب عدول لا يعني أكثر من أنه شيء له خصوصيته، وكل شيء محدد عدول بالنسبة لشيء ما، حتى متصور الوجود [فإنه عدول] بالنسبة إلى العدم)^(٩٨). ومن الجلي الواضح أنه (إذا كان من طبيعة الأدب أن يتزاح عن (الدرجة الصفر) فإن هذا الإنزياح يصبح معيار الأديب الذي يقوم بما يجب وهو يدع ما يجب على الأدب ألا يقوم به)^(٩٩).

ويقف أصحاب معجم اللسانيات هم أيضاً موقف الرفض للرؤية التي تجعل من العدول حجر الزاوية في تعريف الأسلوب، فعندهم أن (أسلوبية العدول هذه تُدرّج النص وتنفي ممارسة الكتاب، فهي تتعلق بنزعة أساسية [همها] أن تجعل دائماً من الفرد ظاهرة عارضة [وذلك] باسم معيار ننسى أن نقول كيف صيغ)^(١٠٠).

ويأخذ الدكتور شكري عياد على الدراسات الأسلوبية مبالغتها في العناية بمتصور الانحراف حتى لقد أعطته (كل ما يمكن من آيات الإحترام التي لا يحظى

بها في أمور الحياة العادية^(١٠١)، فأدى ذلك إلى نتائج كان علم الأسلوب يرغب عنها، من ذلك أنه يسعى إلى أن يكون له قوانينه مثله في ذلك مثل سائر العلوم، ولكن ارتكازه على مبدأ الانحراف يقضي على هذا السعي بالفشل إذ أنه «إذا كان في وسع الأسلوبيين اللغويين أن يستخلصوا قوانين مطردة تحكم الإختيارات اللغوية في شتى الفروع، فكيف يمكن أن يصاغ قانون للانحراف وهو بحكم تعريفه نفسه خروج على القانون؟»^(١٠٢). إن أدبية النص معناها أن كلمة الوظيفة الإنشائية أو الأسلوبية في هذا النص هي العليا. بيد أن هذه الغلبة ليست نفيًا لبقية الوظائف بصفة عامة ولوظيفة الإبلاغ والتواصل على وجه الخصوص، ولكن (الانحراف ليس له حد يقف عنده إلا المخالفة الصريحة لقوانين اللغة بحيث تتحطم العلاقات بين الأصوات اللغوية فتستحيل لغطاً غير مفهوم)^(١٠٣).

ولهذا كله ولغيره، فإن القول بأن العدول جوهر الشعر أو الأسلوبية يحتاج إلى إعادة نظر. فالعدول - وقد أشرنا إلى ذلك - لا يكون دائماً وسماً على اللغة الإنشائية أو الظواهر الأسلوبية، ثم إنه ما كل لغة إنشائية وما كل ظاهرة أسلوبية بعدول، ولذلك فلسنا نذهب إلى ما يذهب إليه جان كوهين من أن (الوظيفة الإنشائية لا تقبل خرق المعايير المطلق بقبول حسن فحسب ولكنها تختمها أيضاً)^(١٠٤). ولا إلى ما يذهب إليه موكار وفسكي من أنه (من الواضح أن إمكانية التعدي على معيار اللغة القياسية... لا مفر منها بالنسبة للشعر، وبدون هذه الإمكانية ما كان ليوجد)^(١٠٥). إننا لا ننفي أن تمد اللغة الإنشائية أو الظاهرة الأسلوبية جذورها في أعماق العدول اللغوي، ولكن الذي ننفيه إنما هو هذه المصادرة التي لا تعترف بإنشائية اللغة أو بأسلوبية الظاهرة إلا إذا كان بينها وبين العدول كمال الاتصال فهما - في عرف هذه المصادرة - عدول أو لا يكونان. إن أدبية النص لا تعني بالضرورة عسف اللغة، وليس الشعر في جوهره عدولاً، وإنما العدول النثر^(١٠٦). فالشعر (تقليص العدول... وهو سراب وحلم وطوباوية ضرورية محال، تتعلق بلغة تخلو من العدول... والعيوب)^(١٠٧). إن لغة الشعر تختلف قطعاً عن اللغة العادية، ولكن الاختلاف لا يعني المخالفة، إذ إن لغة الشعر تحدد خصوصيتها داخل اللغة وليس خارجها، وإن الشاعر ليقول قوافيه البكر ويخلق عالمه اللغوي الخاص، وهو يرتكز في ذلك كله على اللغة وينطلق منها. ف(هي للأدب المادة الخام، شأنها شأن الحجارة لدى النحات، والألوان لدى الرسام، والأصوات لدى واضع

الألحان)^(١٠٨)، فليس الأدب بالضرورة عدول لغةٍ عن لغةٍ، وإنما هو - كما يقول الدكتور عبد السلام المسدي - (خلق لغة من لغة أي إن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة وليدة هي لغة الأثر الفني ويعتبر هذا التعريف فكاً لإشكالية الوجود والعدم، فالحدث الأدبي (خلق) ولكن الخلق متعذر، إذ لا شيء يخلق، ولا شيء يفنى، وكل موجود متحول، (فالخطاب الأدبي تحويل لموجود)^(١٠٩).

وهكذا يتراءى لنا أن خرق المعايير اللغوية ليس من خواص الوظيفة الإنشائية أو الأسلوبية، وأن معايير الخرق الجديدة إذا أدت إلى أن تفقد اللغة قدرتها على الإبلاغ والتبليغ وساماتها المشتركة بين المستعملين لها، فقد قضت على الأسلوب أن ينسلخ من خصائص الأسلوب وعلى الشعر أن لا يكون شعراً. إن الوظيفة الإنشائية - كما يحددها ياكوبسون - Jacobson - إنما هي (القصد إلى الرسالة من حيث هي والتركيز عليها لذاتها)^(١١٠). فالأدبية ينبغي أن تتحسس في هذه الرسالة نفسها، وليس في مقايستها بمعايير اللغة أو بالدرجة الصفر لهذه اللغة. وإذا تسنى للعدول أن يكون شعراً أو أسلوباً، فلا يعني ذلك أن من طبيعة العدول أن يكون أساس الشعر أو الأسلوب، بل يعني أن لذلك العدول قيمة جمالية وأن هذه القيمة الجمالية هي التي أضفت عليه سماته الإنشائية أو الأسلوبية، فهذه القيمة الجمالية هي التي ينبغي أن يقوم عليها تعريف اللغة الإنشائية أو الأسلوبية. والدليل على ذلك أن العدول إذا كان غير ذي قيمة جمالية اعتبر مجرد عدول وخفت في ميدان الأدب موازينه. إن القيم الجمالية ليست موقوفة على العدول.

إن الأديب - سواء أكان كاتباً أم شاعراً - (يسعى إلى أن يبلغ بتحقيق اللغة أسباب الكمال، وهذا التحقيق الأمثل هو بالنسبة له علة العلة في استعماله للغة. أفمن الضروري حقاً أن نتحدث في هذه الحال عن العدول؟ يبدو أن مفهوم الاختيار يكفي كل الكفاية)^(١١١). لهذه الأسباب يرغب فريق من الأسلوبيين عن أسلوبية العدول ويمكنون لـ (أسلوبية الاختيار والابتكار)^(١١٢) ويرى فريق آخر أن العدول لا يكفي وحده للكشف عما في لغة الكاتب أو الشاعر من طرافة، خاصة وأن الغاية التي يجري إليها هذا الشاعر أو ذاك الكاتب هي إنشاء عالم لغوي يحكمه الانسجام والتنظيم. يقول مؤلفا (اللسانيات وتعليم الفرنسية).

إن الأسلوب يكمن أيضاً في البنية النوعية للكل اللغوي.

إنه بالتأكيد انفصال عن المعتاد ولكنه لا قيمة له إلا بمواصلة
(كتابة) من الكتابات وفي هذه المواصلة (١٢٣).

وعمن يقول بهذا المبدأ من الباحثين العرب الدكتور عبد السلام المسدي، فهو
يذهب إلى (أن سمة الأدبية في النص لم تعد محصورة في بعض أجزائه دون أخرى
ولا فيما يتولد عن بعضها من صورة أو إنزيحات، وإنما هي ثمرة لكل بناء النص
حتى ولو تجلت ظاهرياً في شكل مقطع محدد منه. وبعبارة أخرى فإن الصورة الجزئية
أو التصرف الجزئي لا يتولدان إلا من سياق النص بأكمله، فأدبية الخطاب الفني
ليست ملكاً عينياً لمفاصل منه دون أخرى، وإنما هي ملك مشاع بين أجزائه لأنها
وليدة التركيبة الكلية لجهازه انطلاقاً من الروابط القائمة فيه والضابطة لخصائصه
البنوية) (١١٤).

VI - نسبة المقبول واللامقبول:

لا بد لنا أن نشير - ونحن نتحدث عن علاقة العدول بكل من الإنشائية
والأسلوبية - إلى مسألة يثيرها (فاحش الخطأ - Le pataqués) و(كتلة الكلمات - le
tas de mots) و(لعبة الجثة اللذيذة - le jeu du cadavre exquis) - إن مثل هذه
الظواهر ليس من الضروري أن تقترن بالمحال والخطأ في كل حال وفي كل مقام.
ذلك أن الحدود بين المقبول واللامقبول والمعنى واللامعنى والخطأ والصواب ليست
من المناعة بحيث يستحيل اجتيازها. وما يساعد على هذا الاجتياز أن مبدأ اعتبارية
العلامة اللسانية - وهو يربط بين دال ومدلول (لا وجود لأية رابطة طبيعية
بينهما) (١١٥) - يستطيع ما شاء وشاءت له حاجات أهل اللغة أن يضع بإزاء معنى من
المعاني لفظاً من الألفاظ كان مهملاً قبل هذا الوضع. أو ليس (من السمات المميزة
للغات الطبيعية أن تجعل من خطاب محال أمراً ممكناً) (١١٦)؟ وإذا ما صار المحال
اللغوي ممكناً، والموجود بالقوة موجوداً بالفعل، كان من الممكن حينئذ أن تستغلها
الإنشائية أو أسلوبية الاختيار والابتكار.

ولسنا نوافق جان كوهين على أن مثل هذه الجملة: (ستأكل محارة السينغال

الخبز الثلاثي اللون) ليس لها أن تصبو إلى سمات الشعر إلا إذا كان الشعر والمحال بمعنى، فليس من العسير أن نعثر في كتب الأدب على جمل لو طبقنا عليها مقاييس جان كوهين لفاقت المحال محالاً، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تكون شعراً توليه الدراسات اللسانية والأسلوبية أهمية بالغة. ولنا أن نضرب لذلك مثلاً: قصيدة كومنغس - Cumings - وعنوانها: Anyone lived in a pretty haw town، وهذا مقطع منها:

He sang his didn't he danced his did. They sowed
their isn't, they reaped their same, she laughed his
joy, she cried his grief, someones married their eve-
ryones/ laughed thair cryings and did their dance,
they said their nevers, they slept their dream, no
one... kissed his face, they dream their sleep, and
women and man... reaped their sowing and went
their came (117).

ولا شك أن اللبس التركيبي - ambiguité syntaxique - قد جعل من بين يدي هذه القصيدة سداً ومن خلفها سداً، ولكن (مكايد اللبس تمد جذورها في أعماق الشعر)^(١١٨). ويذهب سابورتا - Saporta - إلى (أن هذه الجمل تشكل مادة الأسلوبية نفسها)^(١١٩) وهي مصدر من مصادر الإمتاع الأدبي أو قل إنها (إمتاع النص) فما مأتى هذا الإمتاع؟

يقول سابورتا :

إن قسطاً وافراً من هذا الإمتاع الذي أحس به وأنا أقرأ «1W6,7,8He danced his did» ناجم لا ريب عن الإحساس المباشر بأن هذه الجملة تنتهك قواعد الإنكليزية، ولكن أثرها الجملي يكمن في هذا التناقض: وهو أن الشذوذ مهما كان ظاهراً، فإنه يبدو في سياق القصيدة مشروعاً، بل إنه يبدو في بعض القصائد أن جملاً صحيحة نحويّاً كل الصحة في خطابات أخرى، قد تظهر بمظاهر الشذوذ أو تمثل بني قد لا يوجد في النحو العادي ما يمثلها^(١٢٠).

ولهذا كله، فإن دراسة مثل هذه الجمل من وجهة النظر الأسلوبية أو اللسانية تقتضي اتباع منهج ملائم، فما قواعد هذا المنهج؟

يرى بعض الباحثين أنه يجب أن (نُحَسِّن النحو حتى نُقَدِّره على توليد جمل مثل: (He danced his did) (١٢١) وبذلك يصبح النحو دراسة لا تشمل الجمل الصحيحة فحسب ولكنها تشمل أيضاً كل الجمل التي تستعصي على قواعد النحو العادي وعلى التفسير الحرفي.

ويرى بعض آخر أن التحسين لا يحل المشكلة، لأنه يقود القائلين به إلى أمرين أحدهما مر: فإما أن يقبلوا ما يولده هذا النحو من جمل (مرغوب عنها) وإما أن يجعلوا قواعد هذا النحو من التعقيد والعسر بحيث تفقد معناها ولا تقوم بوظائفها (١٢٢).

ويقترح هذا الفريق من الباحثين حلاً آخر يتمثل في (المصادرة على نحو مستقل - Postulation d'une grammaire indépendante - (١٢٣) عوضاً من تحسين نحو اللغة العادية.

يقول ثورن: Thorne:

إذا اشتمل نص من النصوص - مثل قصيدة كومنغس - على جمل تستعصي على النحو الإنكليزي فقد يكون من أكثر الأمور إقناعاً أن نعتبر أنه ليس من الإنكليزية العادية، وإنما هو عينة للغة أو اللهجة مختلفتين، وبذلك نكون قد استجينا لما تتطلبه الأسلوبية من اهتمامات تركيبية دوغما حاجة إلى أن نصلح نحو الإنكليزية لنقدره على توليد جمل هذه القصيدة [فالمهم] أن نكتشف أكثر الأنحاء اتقديراً على وصف بنية هذه اللغة الأخرى وصفاً ملائماً (١٢٤).

فجملة مثل (He danced his did) ندخل عليها الضيم إذا فرضنا عليها أحكام الاستعمال الإنكليزي العادي، والحال أنها من (الجمل ذات الاستعمال

الخاص والتي لا تظهر إلا في الأدب المتخصص أو في نص فكاهي . [وهي] تكون معقولة في نص أدبي لا غير^(١٢٥) .

والقول باستقلالية النحو الذي تخضع له مثل هذه الجمل والاستعمالات الخاصة يؤدي إلى نتيجة بالغة الأهمية، وهي أن هذا النحو لا يقل شرعية واعتباراً عن نحو الجمل والاستعمالات العامة. إنها نحوان مختلفان، ولكن لا فضل لأحدهما على الآخر. وليس تحكيم أحدهما في الآخر بأولى من صاحبه، وما تخطئة النحو العادي للنحو المستقل بأولى من تخطئة النحو المستقل للنحو العادي .

وأمر مثل هذه الجمل أيسر عند جون لاينز - John Lyons - من أن يصلح من أجلها النحو أو أن يستقل عن اللغة العادية .

فالأمثلة التالية:

تنام الأفكار الخضراء التي لا لون لها غاضبة

إن الرباعية تشرب التسويف .

ينام الخميس والجمعة في فراش واحد .

ليس من الضوري أن تقترن بالمحال من حيث المعنى فهي (قابلة للتفسير إذا وضعناها في سياق مناسب)^(١٢٦)، ثم إن اللغة نفسها لها في حقيقة الأمر من الوسائل ما يجعلها قادرة على معالجة القضايا التي تطرحها هذه الأمثلة، دون أن تضطر إلى إعادة النظر في قواعدها ومبادئها العامة، فإن لها أن توسع (معنى واحداً أو أكثر من معاني كلماتها، لتشمل أموراً تتعدى معناها الاعتيادي أو الحرفي، وذلك عن طريق المبادئ التقليدية المعترف بها كالاستعارة والكناية أو المجاز المرسل)^(١٢٧) . بل إنه ليتمكن لهذه الجمل في رأي جون لاينز أن تخضع لمتطلبات التفسير الحرفي مثلها في ذلك مثل الجمل العادية فإذا لم يتيسر هذا التفسير الحرفي فإن ذلك لا يدل على أن هذه الجمل من طبيعتها أن تتجاوز التفسير الحرفي، وإنما يدل على (أننا مقيدون في محاولاتنا الفاشلة لتفسيرها بمجموعة معينة من الافتراضات المتعلقة بطبيعة العالم)^(١٢٨) . إن القول بأن هذه الجمل مزيج من التناقض والمحال لا يعتمد على مبادئ لسانية، وإنما عمدته العقلانية، و(العقلانية معروفة بعدم ثباتها وخضوعها للثقافة)^(١٢٩) . فهي نتاج تاريخي، وللزمان والمكان عليها سلطان قاهر، ثم إن لها حدودها التي تقف عندها، فالعقل عقل في نطاق حدوده فإذا تجاوزها غدا عدوانا .

وكيف تصرفت الحال فإن الإحالة في الكلام، واللبس في التركيب متصوران، تأبي النسبية إلا أن تأتيها من بين يديها ومن خلفها، فإن أهملتها الدراسات الأسلوبية، أو رفضت أن تعالجها، فليس معنى ذلك أنها - في ذاتها - قاصران عن الإستجابة لما تتطلبه هذه الدراسات، بل إن السر ليكمن أحياناً في قصور النظرية الأسلوبية عن دراسة مثل هذه الظواهر.

VII - الخطأ اللساني: حديث خرافة؟

يذهب بعض علماء اللسان والأسلوبية إلى أن الخطأ لا يوجد. فاللسانيات الوصفية - وهي ما تسمى أيضاً باللسانيات الموضوعية - تنكر هذا المفهوم فإنه (ما دام الناس يتفاهمون فيما بينهم، فإن الخطأ لا يوجد، وما الكلمات إلا علامات يكسبها الاستعمال قيمة دائمة أو عابرة. ولا تقاس بمعايير مطلقة) (١٣٠)، وما اللغة إلا وسيلة يستخدمها الناس للتواصل بينهم أي للفهم والإفهام والبيان والتبيين، إذ إن ذلك مدار الأمر والغاية التي يجري إليها أصحاب اللغة قائلين أو متكلمين، فكل ظاهرة لغوية بلغت بها ذلك الغرض فلا يمكن إلا أن تكون صحيحة، فإن وصفها الواصمون بعد ذلك بالخطأ، فهم الذين في وادي الخطأ يهيمون. فمصادرة اللسانيات الوصفية تقوم إذن على (أن اللغة الصحيحة هي التي يستخدمها الناس لا ما يأمرهم البعض باستخدامه، فلا معنى لأن نعتبر ما يستخدمه الناس خطأ) (١٣١)، وإنما تنفي اللسانيات الوصفية وجود الخطأ في اللغة، لأن الإنسان يتعلم طفلاً لغة أبويه والمحيط الذي ينشأ فيه، فإذا هو وقد مر بمراحل معينة من حياته يملك ناصية اللغة، وإذا عملية الكلام تتم بصورة آلية دون أن يشعر بخصائصها، وهذا ما يسمى سليقة لغوية (١٣٢). فالسليقة اللغوية تعصمه من الخطأ، وتجري لسانه على سنن الصواب.

يقول ماروزو - Marouseau -

النحو الوصفي لا يشغل نفسه بأمور التربية ولا بأن يسن القواعد لمعلم اللغة، لأنه حيث توجد السليقة لا توجد الأخطاء ولا ما يوصف من الاستعمال بالجودة أو الرداءة، وإنما توجد فقط نواح مختلفة من اللغة تتطلب الوصف (١٣٣).

وإلى هذا الرأي يذهب إبراهيم أنيس فهو يؤكد في (اللهجات العربية) أنه
(لا يعقل أن صاحب السليقة اللغوية يخطئ إلا إذا نطق بلغة خاصة يتمسك فيها
بقواعد وأصول لا تراعي في حياته العادية، حين ينطق على سجيته) (١٣٤).

ويرى كونراد بيرو - Conrad Bureau - وهنري سوامي - Henri Suhamy -
أن خير ما يقوم به الدليل على أن الخطأ حديث خرافة إنما هو حد النظام اللغوي
نفسه، فإذا كان (نظام اللغة مجموعة من الإمكانيات، فإن أحداث الكلام برمتها
تقريباً إن هي إلا تحقيق لإحدى هذه الإمكانيات أو لكثير منها... وهذا يعني أنه
حتى في الحالة التي نلمس فيها (تجاسراً لغوياً) فإن المتحدث لا ينزاح عن اللغة،
وإنما يوجد بالفعل إحدى [الظواهر] الكامنة في النظام) (١٣٥). وبعبارة أخرى، فإن
اللغة تقوم على مجموعة من العناصر لئن كانت يسيرة محصورة، فإن إمكانياتها
التعاملية كثيرة غير محصورة، ولذلك فإن (الصيغ كلها كامنة فيها) (١٣٦)، ولا فضل
لصيغة الموجودة بالفعل على الصيغة الموجودة بالقوة إن من حيث الجودة وإن من
حيث الحسن، ثم إن الصيغة الموجودة بالفعل، قد كانت قبل ظهورها صيغة
موجودة بالقوة. فإذا كتب لصيغة من الصيغ المهملة أن تستعمل، فما ذاك - كما
يقول يلمسلاف - 'Hjelmslev إلا (محض مصادفة) (١٣٧).

وفوق هذا وذاك، فقد يتفق أن تهجر الصيغة المستعملة لسبب من الأسباب،
فتدخل عالم الكمون اللغوي ثانية، وأن يحرك المتكلمون سواكن الموجود بالقوة في
طاقات اللغة. وليس ثمة ما يمنع أهل اللغة الإنكليزية مثلاً أن يعبروا - متى شاؤوا
- عن معنى من المعاني بلفظ من هذه الألفاظ: Bip أو Mut أو Mar، والسبب في
ذلك أن هذه (التقليبات مقاطع ممكنة) (١٣٨) إذ هي تقتفي في ذلك رسماً من نظام
اللغة، وعلى هذا الأساس أيضاً استعمل أبو بكر الزبيدي - وهو من علماء القرن
الرابع الهجري - فعل (استقود) في هذا المثال:

انصرف عبد الرحمن من غزاته، واستقود على الجيش من
قدم به إلى جليقية (١٣٩).

واستعملت لغتنا الفصحى الحديثة (استجوب) وقد كان الفعلان قبل ذلك
من قبيل المهمل. وإذا كانت كلمة (شَرَبَرَب) لا حظ لها في استعمال العرب، إذ
هي - كما يقول ابن جني - مما يتلاقاه العلماء بينهم من (مسائل أبنية الصرف) (١٤٠):

فإننا نستعملها في ولايتي قفصة وسيدي بو زيد التونسيين، ندعو بهما على الشارب ونقول في مثالها (عنقنق) لذات العنق الطويل من النساء، و(شلعلع) لمن ساء منهن خلقاً و(علملم) للرجل الطويل، (وإن كانت العرب لم تنطق بواحد من هذه الحروف)^(١٤١).

وليس لنا أن نحكم بالخطأ على هذه الأحرف بحجة أن (ما لم يكن في كلام العرب فليس له معنى في كلامهم، فكيف تجعل مثلاً من كلام قوم ليس له في أمثلتهم معنى؟)^(١٤٢). فإنه ليس من تناقض الفعل أن يجعل التابعون مثلاً لا معنى له في أمثلة السابقين. فالسابقون لم يعهدوا معنى هذا المثال فلم يضعوا له لفظاً يؤديه، ولكن المجتمع العربي قد احتاج إليه فاختره قياساً على نظير له ليؤدي معنى جديداً، ويصبح له معنى في كلام العرب، وإن لم يكن له ذلك أول الأمر.

إن القول بأن الخطأ لا يوجد، معناه أن المعيار لا يوجد هو أيضاً إذ إن وجود أحد المتصورين مرتبط بالضرورة بوجود الآخر، كما أن نفي أحدهما يعني بالضرورة نفي الآخر. يقول فريز - Fries :-

إن الخرافة التي تحاول أن تفرض قواعد تلزم الناس بالتحدث بطريقة معينة ينبغي أن نسقطها من حسابنا^(١٤٣).

فإن كان ولا بد لهؤلاء اللسانيين من أن يلتزموا بقاعدة ما، ف(إن القاعدة المثلى هي القضاء على القواعد كافة، وإن بوسع الناس جميعاً أن يقولوا ما يشاؤون)^(١٤٤).

والحق أن نفي الخطأ وجوداً لا تقوم به حجة قاطعة فهو لا يخلو من تناقض، إذ إننا إذا اعتبرنا كل ما ينطق به المتكلم ويكتبه الكاتب صحيحاً من الناحية النحوية، فقد اعترفنا - وإن ضمناً - بوجود الخطأ، إذ لا معنى للصحة إلا بالخطأ، فالعلاقة بين المتصورين علاقة عضوية، أو ليست الصحة نقيض الخطأ والخطأ نقيض الصواب ولقد أشار أبو سعيد السيرافي إشارة واضحة إلى هذه العلاقة فقال:

ما عرفت حقيقة معنى النحو إلا من معنى اللحن الذي هو ضده، فإن اللحن عدول عن طريق الصواب، والنحو قصد إلى الصواب^(١٤٥).

وهكذا يكون اللساني الذي يقول بهذا الرأي (على غاية من الانتقاض والإحالة، لأنه في اللحظة التي يأذن فيها بانتهاك القاعدة النحوية يخرج من حيز الوصفية ويدخل حيز المعيارية، وهذا بديهي، لأنه عندما يخطئ الصواب، يكون من حيث المبدأ مماثلاً ومجانساً لمن يصوب الخطأ)^(١٤٦).

ثم إنه إذا كان القول بنفي الخطأ مرده إلى الإفراط في الالتزام بالموضوعية والتقييد بالوصف الإختياري، فنحن نقول إن هذا التقييد بالوصف وذلك الالتزام بالموضوعية كان ينبغي أن يؤدي إلى تقرير أن الخطأ ظاهرة لغوية مثلها في ذلك مثل ظاهرة الصواب، فعالم اللسان وهو يصف لغة من اللغات لا بد أن يلاحظ أن المستعملين لهذه اللغة يحكم كلامهم (معيار لغوي يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ في الإستعمال. وهو... لا يمكن النظر إليه باعتباره فكرة يستعين بها الباحث بواسطتها في تحديد الصواب والخطأ اللغويين، وإنما هو مقياس اجتماعي يفرضه المجتمع اللغوي على الأفراد ويرجع الأفراد إليه عند الإحتكام في الإستعمال... [وهو] لا يوجد في اللغة فحسب، وإنما يوجد في كل شؤون الثقافة بالمعنى الأعم)^(١٤٧). لا شك أن العالم اللغوي (همه أن يصف الحقائق لا أن يفرض القواعد)^(١٤٨) ولكن المسألة أن الصواب والخطأ - كما يحددهما المجتمع - يدخلان ضمن هذه الحقائق التي يأخذ العالم نفسه بوصفها، فإذا كان ليس له أن يفرضها وهي لا توجد، فكذلك ليس له أن ينكرها وأهل اللغة يراعونها في كلامهم.

وليس بصحيح أنه بوسعنا أن نستعمل اللغة كما نشاء، فاللغة إنما هي مؤسسة اجتماعية (تقوم على عقد ضمني بين أفراد المجموعة البشرية المتألفة بحيث يمثل الفرد إلى بنود العقد الجماعي أكثر مما يتصرف فيهما بالإحداث أو الإلغاء)^(١٤٩) وليس للمتكلم أن يكسر مقياس اللغة ويستعملها كما يشاء لا كما تشاء إلا (أن يصنف ضمن طبقة محدودة من الناس مثل المصابين بأمراض الكلام أو الأجانب غير المثقفين أو المجانين)^(١٥٠). وهب أنه كان بوسعنا أن نستعمل اللغة كما نشاء، فما فائدة ذلك؟ وما الحكمة من أن نصب الفاعل في العربية مثلاً وهو مرفوع، ونرفع المفعول وهو منصوب، ونجر الأفعال والأفعال لا تجر، ونجزم الأسماء والأسماء لا تجزم؟ وما معنى مستعمل اللغة في أن يقول: إن الفدائيين قد عادوا إلى قواعدهم سالمين وهو إنما يريد أنهم قد استشهدوا جميعاً؟

ثم إن هذا القول يثير على صعيد تعليم اللغات كثيراً من المشاكل: فكيف تعلم اللغة إذا كان كل يتكلمها كما يريد؟ وكيف نمكن الراغبين في تعلم اللغة من قواعد هذه اللغة إذا كنا نقول بأن أفضل القواعد أن نقضي على القواعد كلها؟ إن الأخذ بهذا الرأي يؤدي - كما يقول ماريو باي - إلى أن (تضرب الفوضى أطنابها في ميدان تعلم اللغات) (١٥١).

وأمر ثانٍ أن (رأي اللغويين الذي ينادي بأن لكل متحدث أن يستخدم اللغة بالطريقة التي تصادف هواه يعارضه ويقلل من شأنه أن هناك طريقتين لاستخدام اللغة: إحداهما مقبولة والأخرى غير مقبولة) (١٥٢). وإهمال هذه الحقيقة يؤدي بنا (إلى مأزق حرج [إذ] من ذا الذي ينكر الوقوف على ما يصح أو لا يصح من القول؟) (١٥٣).

الهوامش

- (١) الحريري (أبو محمد): درة الغواص في أوهام الخواص، ص ٢٥٦.
- (٢) نفسه: المصدر السابق، ص ٢٥٦.
- (٣) المقرئ (أبو طاهر): أخبار النحويين، ص ٣١.
- (٤) ابن كمال باشا: التنبيه على غلط الجاهل والنبه، ذكره الدكتور رمضان عبد التواب: لحن العامة والتطور اللغوي، ص ٢٨٨.
- (٥) ابن جنبي (أبو القتح): الخصائص ٩٩/١١.
- (٦) ابن مكّي (أبو حفص عمر بن خلف الصقلي): تنقيف اللسان وتلقيح الجنان ص ٤١.
- (٧) المسدي (الدكتور عبد السلام): اللسانيات وأسسها المعرفية، ص ٣٧.
- (٨) نفسه: المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- (٩) نفسه: المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- (١٠) FREI (Henri): La Grammaire des fautes, p. 18.
- (١١) Sauvageot (Aurélien): Français écrit, français parlé, p. 212.
- (١٢) Frei (Henri): Loc. cit.
- (١٣) Gagné (Gilles): Norme et enseignement de la langue maternelle, in La Norme linguistique, p. 473.
- (١٤) ياكوبسن (رومان): [القيمة] المهينة: ضمن نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلانيين الروس، ص ٨٦.
- (١٥) البطلبوسي (أبو محمد عبدالله بن السيد): كتاب التنبيه، ص ٣٥.

- (١٦) المصدر السابق، ص ٣٧/٣٨
- (١٧) Frei (Henri): Op. cit., p. 291.
- (١٨) Genouvrier (Emile): Quelle langue parler à l'école? Propos sur la norme du français , (١٨) in Langue Française n; 3, p. 47.
- (١٩) Sauvageot (Aurélien): Op. cit., p. 217.
- (٢٠) Id.: Loc. cit.
- (٢١) Id.: Loc. cit.
- (٢٢) Id.: Loc. cit.
- (٢٣) Guiraud (Pierre): La Grammaire, p. 119.
- (٢٤) Id.: Op. cit., p. 122.
- (٢٥) إيلوار (رولان): مدخل إلى اللسانيات، ص ٤٠
- (٢٦) المصدر السابق، ص ٤١/٤٠
- (٢٧) Genouvrier (Emile): Loc. cit.
- (٢٨) Cressot (Marcel): Le Style et ses techniques, p. 9.
- (٢٩) Genouvrier (Emile): Loc. cit.
- (٣٠) Id.: Loc. cit.
- (٣١) Id.: Loc. cit.
- (٣٢) كريستل (دافيد): التعريف بعلم اللغة، ص ٤٥
- (٣٣) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.
- (٣٤) المصدر السابق نفسه، ص ٧٥
- (٣٥) المصدر السابق نفسه، ص ٧٤
- (٣٦) المصدر السابق نفسه، ص ٧٢
- (٣٧) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٥/١٨٦
- (٣٨) الحق أن ريفاتير لم يقصر الفصل الثاني على الحديث عن السياق الأسلوبي، فالفصل الأول وعنوانه (مقاييس تحليل الأسلوب) قد تناول الأسلوب أيضاً (ص ٥٠ - ٦٢).
- (٣٩) Riffaterre (Michael): Essais de stylistique structurale, p. 56.
- (٤٠) انظر في تعريف العدول:
- Dubois (Jean) et coll.: Dictionnaire de linguistique, (Ecart), p. 172.
- المسدي (الدكتور عبد السلام): الأسلوب والأسلوبية، ص ١٦٢ - ١٦٥
- ولقد تتبع بعض الدراسات العربية الحديثة قضايا العدول في كتب التراث، انظر مثلاً:
- راضي (الدكتور عبد الحكيم): نظرية اللغة في النقد العربي، الفصل الثالث: المثالي والمنحرف، ص ١٩١ - ١٩٤
- عبد المطلب (الدكتور محمد): البلاغة والأسلوبية، المسألة الأولى من مسائل الكتاب الرابع وعنوانها: العدول، ص ١٩٨ - ٢٢٧

Barbaud (Philippe): La langue de l'Etat, l'état de la langue, in la Norme linguistique, (٤١)
p. 410.

Id.: Loc. cit. (٤٢)

Id.: Op. cit., p. 411. (٤٣)

Id.: Loc. cit. (٤٤)

(٤٥) إن (حالة اللغة) - كما يرى فيليب باربو - لا يمكن لها أن تحدد إلا بمقايستها بمدار الكلام -
circuit de la parole - وبالمفوضات المعلقة به» (المصدر السابق ص ٣٩٦).

(٤٦) يطلق باربو عبارة (لغة الدولة) على (السنة اللغوية التي يتحول بفضلها جهاز الدولة . . إلى
منتج ملفوظات يتجه - في نهاية الأمر - شطر المتكلم - المواطن -) (المصدر السابق، الصفحة
نفسها).

Id.: Loc. cit. (٤٧)

Groupe Mu.: Rhétorique générale, p. 16. (٤٨)

Delas (Daniel): Introduction à Riffaterre: Essais de stylistique structurale, p. 7. (٤٩)

Sojcher (Jacques): La démarche poétique, p. 44. (٥٠)

Cohen (Jean): Structure du langage poétique, p. 44. (٥١)

Barthes (Roland): Le Degré zéro de l'écriture, p. 36. (٥٢)

Balpe (Jean-Pierre): Lire la poésie, p. 108. (٥٣)

Spitzer (Léon): Etudes de style, p. 54. (٥٤)

Peytard (Jean) et Genouvrier (Emile): Linguistique et enseignement du français, p. (٥٥)
205.

Groupe Mu.: Op. cit., p. 41. (٥٦)

Ducrot (Oswald) et Todorov (Txvétan): Dictionnaire encyclopédique des sciences du (٥٧)
langage, [Fonctionnalisme], p. 42.

Cohen (Jean): Op. cit., p. 19. (٥٨)

Mukarovsky (J.): Standard language and poetic language, p. 42 (٥٩)

ذكره راضي (الدكتور عبد الحكيم): نظرية اللغة في النقد الأدبي، ص ٤٨٤

بيرفتش: ذكره راضي (الدكتور عبد الحكيم): المصدر السابق، ص ٤٩٧

Groupe Mu.: Op. cit., p. 42. (٦١)

Ulmann (Stephen): Language and style, p. 454. (٦٢)

وقد عرفها جان كوهين بالتعريف نفسه: يقول في (بنية اللغة الشعرية): (الأسلوبية علم

الانزياحات اللغوية) (انظر بنية اللغة الشعرية، ص ١٦).

Dubois (Jean) et coll. : Dictionnaire de linguistique, (stylistique) p. 459. (٦٣)

Groupe Mu.: Op. cit., p. 217. (٦٤)

- (٦٥) برينو (شارل): ذكره جان كوهين: المصدر السابق، ص ١٥.
 Groupe Mu.: Op. cit., p. 39. (٦٦)
 Id.: Loc. cit. (٦٧)
- Frei (Henri): La Grammaire des fautes, p. 19. (٦٨)
 Groupe Mu.: Op. cit., p. 19. (٦٩)
 Valéry (Paul): cité in Id.: Op. cit., p. 20 (٧٠)
- Bonnard (Henri): Notions de style, de versification et d'histoire de la langue française, p. 16. (٧١)
- (٧٢) كوهين: المصدر السابق، ص ١٩٣.
 Groupe Mu.: Loc. cit. (٧٣)
- Ruwet (Nicolas): Introduction à la grammaire générative, p. 36. (٧٤)
 (٧٥) كوهين (جان): المصدر السابق، الصفحة نفسها.
 (٧٦) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.
 Groupe M/ Op. cit., p. 41. (٧٧)
- Riffaterre (Michael): Essais de stylistique structurale, p. 64. (٧٨)
 (٧٩) بيرفتش: ذكره راضي (الدكتور عبد الحكيم): المصدر السابق، الصفحة نفسها.
 Cohen (Jean): Structure du langage poétique p. 201. (٨٠)
 Id.: Op. cit., p. 202. (٨١)
- Labov (William): Le parler ordinaire, cf. Bibliographie. (٨٢)
 (٨٣) انظر فيما يخص نحو الأخطاء، بالإضافة إلى كتاب هنري فراي السالف الذكر:
 Hagège (Claude): Place de la grammaire des fautes d'Henri Frei dans la linguistique européenne au XX; siècle, in Annales de l'Institut de linguistique, pp. 1-36. (٨٤)
- Riffaterre (Michael): Op. cit., p. 69. (٨٤)
 Delas (Daniel) et Filliolet (Jacques): Linguistique et poétique, p. 59. (٨٥)
 Jakobson (Roman): Questions de poétique, p. 219. (٨٦)
 Id.: Loc. cit. (٨٧)
 Genette (Gérard): Figures II, p. 123. (٨٨)
 Pottier (Bernard) et coll.: Le langage, [Ecart de langue], p. 114. (٨٩)
 Id.: Loc. cit. (٩٠)
- (٩١) باي (ماريو): لغات البشر: أصولها وطبيعتها وتطورها، ص ١٠٤
 (٩٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣
 (٩٣) فندريس (جوزيف): اللغة، ص ٣٠٦.
 Rocher (Guy): Introduction à la sociologie générale, t. I, pp. 67/68. (٩٤)

Groupe Mu.: Op. cit., p. 20. (٩٥)

Id.: Loc. cit. (٩٦)

Id.: Loc. cit. (٩٧)

Id.: Loc. cit. (٩٨)

Id.: Op. cit., p. 21. (٩٩)

Dubois (Jean) et coll.: Dictionnaire de linguistique [Stylistique], p. 459. (١٠٠)

عياد (الدكتور شكري): مدخل إلى علم الأسلوب، ص ٣٦/٣٧

(١٠٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٧، إن ما يذهب إليه الدكتور شكري عياد قابل للنقاش في رأينا. فأن يكون الانحراف - بحكم تعريفه نفسه - خروجاً على القانون لا يدل بالضرورة على أنه يستحيل أن يصاغ له قانون، فليس الانحراف خروجاً على كل قانون أي على القانون من حيث هو، ولكنه خروج على قانون معين يحكم اللغة - أو بعض مستوياتها - في فترة معينة من تاريخها، فكثيراً ما يخرج الانحراف على هذا القانون ليدخل في أحكام قانون جديد فرضه التطور وظروف المجتمع وأصحاب اللغة بل كثيراً ما يكون هذا الانحراف هو القانون الجديد نفسه. فلحن العامة - أو الخاصة - انحراف عن قوانين العربية كما صاغها النحاة، وخروج عليها، ولكن دراسة هذا اللحن قد أثبتت أنه يخضع لقوانين أخرى. انظر مطر (عبد العزيز): لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الباب الثالث: تفسير حدوث اللحن، ص ٢٠١ - ٢٨٨، وعبد التواب (رمضان): لحن العامة والتطور اللغوي ص ٣٤ - ٦٥. والأخطاء التي يتناولها هنري فراي بالدرس هي انحرافات إذا قيست بقوانين اللغة الفرنسية كما يحددها النحو التقليدي، ولكنها لئن خرجت على قوانين هذا النحو، فقد جرت على قوانين نحو آخر هو نحو الفرنسية الشعبية.

(١٠٣) عياد (الدكتور شكري): المصدر السابق، الصفحة نفسها.

Cohen (Jean): Le haut langage: théorie de la poéticité, p. 21. (١٠٤)

Mukarovsky (J.): Standard language and poetic language, p. 47. (١٠٥)

ذكره راضي (الدكتور عبد الحكيم): نظرية اللغة في النقد الأدبي، ص ٤٨٧

Genette (Gérard): Op. cit., p. 152. انظر: (١٠٦)

Id.: Op. cit., p. 153. (١٠٧)

(١٠٨) المسدي (الدكتور عبد السلام): النقد والحداثة، ص ٥٩

(١٠٩) المصدر السابق نفسه، ص ٥٧

Jakobson (Roman): Essais de linguistique générale, t. I, p. 218. (١١٠)

Bureau (Conrad): Linguistique fonctionnelle et stylistique objective p. 20. (١١١)

Suhamy (Henri): Les figures de style, p. 10. (١١٢)

Peytard (Jean) et Genouvrier (Emile): Linguistique et enseignement du français, p. (١١٣)

- (١١٤) المسدي (الدكتور عبد السلام): المصدر السابق، ص ٣٨
- (١١٥) دي سوسير (فردينان): دروس في الألسنية العامة، ص ١١٣
- (١١٦) Delesalle (Simone) et coll.: La règle et le monstre, in Théories linguistiques et traditions grammaticales, p. 111.
- (١١٧) Thorne (James Peter): Stylistique et grammaire générative, in Change 16/17, [La critique générative], p. 88.
- (١١٨) Empson, cité in Jakobson (Roman): Essais de linguistique générale, t. I. p. 238.
- (١١٩) Thorne (James Peter): Op. cit., p. 87.
- (١٢٠) Id.: Op. cit., p. 97.
- (١٢١) Id.: Op. cit., p. 86.
- (١٢٢) Id.: Op. cit., p. 88.
- (١٢٣) Id.: Op. cit., p. 97.
- (١٢٤) Id.: Op. cit., p. 88.
- (١٢٥) كريستل (دافيد): التعريف بعلم اللغة، ص ١٣٧/١٣٦
- (١٢٦) لاينز (جون): اللغة والمعنى والسياق، ص ١١٣
- (١٢٧) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.
- (١٢٨) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٩.
- (١٢٩) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.
- (١٣٠) Suhamy (Henri): Op. cit., p. 21.
- (١٣١) باي (ماريو): المصدر السابق، ص ١٠٤
- (١٣٢) لعلماء العرب القدامى في السليقة اللغوية رأي مخالف لما يقول به المحدثون من علماء اللغة، فهم يعتقدون أن السليقة لا تكتسب ولكنها خاصة من خصائص الجنس العربي. فالطفل العربي يولد على السليقة اللغوية، فهو لا يستطيع أن يخطئ وإن حاول ذلك. وقد كان سيويه ممن يرى (أن العربي لا ينطق بالخطأ) (الشيخ يس: حاشية يس على شرح التصريح، ١/١٩٨). ولذلك قال ليحيى البرمكي وقد سأل الأعراب عن المسألة الزنبورية فاتبعوا الكسائي:
- أيها الوزير، سألتك إلا ما أمرتهم أن ينطقوا بذلك، فإن ألسنتهم لا تجري عليه (السيوطي: بغية الوعاة ٢/٢٣٠).
- وقد قرر ابن هشام هذه الحقيقة، فقال في المغني:
- «العرب محميون من الخطأ في الألفاظ دون المعاني» (ابن هشام: مغني اللبيب ٤٠١).
- أما إبراهيم نبطويه فله (كتاب في أن العرب تتكلم طبعاً لا تعلماً) (ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ١/٢٧٢).
- بل إن الدنوشري لا يكتفي بتقرير أن العربي لا يقدر على الخطأ حتى يذهب إلى القول =

ب- (إن العربي لا يتكلم بغير لغته ولو قطع إرباً إرباً) (انظر الشيخ يس: المصدر السابق، ٢٢٥/٢) وإن كلام المخالفين لهذا الرأي (كلام ساقط لا يصدر عن جاهل فضلاً عن فاضل) (المصدر السابق، الصفحة نفسها).

والغريب أن من العرب المحدثين من يقول بهذا الرأي. أو لم يكتب الشيخ محمد علي النجار- مثلاً- «أن العربي القح لا يخطيء في تأليف الكلام وبناء الكلم؟» (انظر رمضان عبد التواب: لحن العامة والتطور اللغوي ص ٩٢).

(١٣٣) انظر: حسان (الدكتور تمام): اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٢٤

(١٣٤) أنيس (الدكتور إبراهيم): في اللهجات العربية، ص ٨٤/٨٥

Bureau (Conrad): Op. cit., pp. 18/19. (١٣٥)

Suhamy (Henri): Op. cit., pp. 9/10. (١٣٦)

Hjelmslev (Louis): Le langage, p. 60. (١٣٧)

Id.: Loc. cit. (١٣٨)

(١٣٩) الزبيدي (أبو بكر)؛ طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٥٨

(١٤٠) ابن جني (أبو الفتح): الخصائص، ١/٣٦٠

(١٤١) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(١٤٢) التصريف الملوكي ١/١٨٠

(١٤٣) انظر باي (ماريو): المصدر السابق، ص ١١٢، هامش ٢

(١٤٤) إيلوار (رولان): مدخل إلى اللسانيات، ص ٣٩

(١٤٥) السيرافي (أبو سعيد): ذكره حسن السندوي في تحقيقه (البيان والتبيين) للجاحظ،

١٣٥/٢، هامش ١

(١٤٦) المسدي (الدكتور عبد السلام): اللسانيات وأسسها المعرفية، ص ١٦

(١٤٧) حسان (الدكتور تمام): المصدر السابق، ص ٦٣

(١٤٨) سويث (أرنولد): ذكره الدكتور تمام حسان: المصدر السابق، ص ١٦

(١٤٩) المسدي (الدكتور عبد السلام): المصدر السابق، ص ٣٤

(١٥٠) كريستل (دافيد): التعريف بعلم اللغة، ص ٩٠

(١٥١) باي (ماريو): لغات البشر، ص ١٠٨

(١٥٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٩

(١٥٣) إيلوار (رولان): المصدر السابق نفسه، ص ٣٦

قائمة المصادر والمراجع

- المصادر العربية والمعربة:
- أنيس (الدكتور إبراهيم): في اللهجات العربية، ط ٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٣ م.
- إيلوار (رولان): مدخل إلى اللسانيات، تعريب الدكتور بدر الدين القاسم، منشورات وزارة التعليم العالي السورية، ط ١، دمشق ١٩٨٠ م.
- البطليوسي (أبو محمد عبدالله بن السيد): كتاب التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم، تحقيق أحمد حسن كحيل وحمزة عبدالله الشرتي، ط ١، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٧٨ م.
- باي (ماريو): لغات البشر: أصولها وطبيعتها وتطورها، تعريب الدكتور صلاح العربي، القاهرة: ١٩٧٠ م.
- ابن جني (أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط ١ (بدون تاريخ)، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت.
- ابن جني: المنصف، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، ط ١، مكتبة الحلبي، القاهرة ١٩٥٤ م.
- الحريري (أبو محمد): درة الغواص في أوهام الخواص، لايزيج ١٨٧١ م.
- حسان (الدكتور تمام): اللغة بين المعيارية والوصفية، ط ١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨ م.
- راضي (الدكتور عبد الحكيم): نظرية اللغة في النقد العربي، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٠ م.
- الزبيدي (أبو بكر): طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤ م.

- السيوطي (جلال الدين): بغية الوعاة، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، ط ٢، دار الفكر، بيروت ١٩٧٩ م.
- دي سوسير (فردينان): دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي وزميليته، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٥ م.
- عبد التواب (رمضان): لحن العامة والتطور اللغوي، ط ١، القاهرة ١٩٦٧ م.
- عبد المطلب (الدكتور محمد): البلاغة والأسلوبية، ط ١، القاهرة ١٩٨٤ م.
- عياد (الدكتور شكري): مدخل إلى علم الأسلوب، ط ١، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ١٩٨٢ م.
- فندريس (جوزيف): اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط ١، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ١٩٥٠ م.
- كريستل (دافيد): التعريف بعلم اللغة، تعريب الدكتور حلمي خليل، ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية ١٩٧٩ م.
- كوهين (جان): بنية اللغة الشعرية، تعريب محمد العمري ومحمد الولي، ط ١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٦ م.
- لاينز (جون): اللغة والمعنى والسياق، تعريب عبدالله صادق الوهاب، ط ١ دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٧ م.
- المسدي (الدكتور عبد السلام): الأسلوب والأسلوبية، ط ٢، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٢ م.
- المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط ١، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨١ م.
- المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، ط ١، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٦ م.
- المسدي: النقد والحداثة، ط ١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣ م.
- مطر (الدكتور عبد العزيز): لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، القاهرة ١٩٦٧ م.
- المقري (أبو طاهر): أخبار النحويين، تحقيق محمد إبراهيم البناء، ط ١، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨١ م.

- ابن مكي (أبو حفص عمر بن خلف الصقلي): تنقيف اللسان وتلقيح الجنان، تحقيق عبد العزيز مطر، ط ١، القاهرة ١٩٦٦ م.
- ابن هشام (جمال الدين): مغني اللبيب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ط ٦ دار الفكر، بيروت ١٩٨٥ م.
- يس (الشيخ): حاشية يس، على شرح التصريح، دار الفكر، بيروت (بدون تاريخ).
- ياقوت (الحموي): معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت (بدون تاريخ).
- ياكوبسون (رومان)؛ [القيمة] المهيمنة، ضمن: نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلايين الروس، تعريب إبراهيم الخطيب، الطبعة العربية الأولى، الشركة المغربية للنashرين المتحددين، مؤسسة الأبحاث العربية الرباط ١٩٨٢ م.

- المصادر والمراجع الأجنبية:

- Balpe (Jean-Pierre): Lire la poésie, Paris 1980.
- Barbaud (Philippe): La langue de l'Etat, l'état de la langue, in La norme linguistique, Paris 1983.
- Barthes (Roland): Le degré zéro de l'écriture, Paris 1972.
- Bonnard (Henri): Notions de style, de versification et d'histoire de la langue française, Paris 1953.
- Bureau (Conrad): Linguistique fonctionnelle et stylistique objective, Paris 1976.
- Cohen (Jean): Structure de langage poétique, Paris 1966.
- Cressot (Marcel): Le style et ses techniques, 10 ed., Paris 1980.
- Delas (Daniel): Introduction à Riffaterre: essais de stylistique structurale, Paris 1971.
- Delas (Daniel) et Filliolet (Jacques): Linguistique et poétique, Paris 1973.
- Delesalle (Simone) et coll.: La règle et le monstre, in Théories linguistiques et traditions grammaticales, Lille 1980.
- Bubo (Jean) et coll.: Dictionnaire de linguistique, Paris 1973.
- Ducrot (Oswald) et Todorov (Tzvetan): Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris 1972.
- Frei (Henri): La grammaire des fautes, Paris — Genève 1929.
- Gagné (Gilles): Norme et enseignement de la langue maternelle, in La norme linguistique, Paris 1983.

- Genette (Gérard): Figures II, Paris 1966.
- Genouvrier (Emile): Quelle langue parler à l'école? Propos sur la norme du français, in Langue française n° 3, Paris Février 1972.
- Groupe M.: Rhétorique générale, Paris 1970.
- Guiraud (Pierre): La grammaire, Paris 1974.
- Hagège (Claude): Place de la grammaire des fautes d'H. Frei dans la linguistique européenne au XX; siècle, in Annales de l'Institut de linguistique, pp. 1-36, Université de Poitiers 1974.
- Hjelmslev (Louis): Le langage, Paris 1970.
- Jakobson (Roman): Essais de linguistique générale, t. I, Paris 1963.
- Id.: Questions de poétique, Paris 1973.
- Labov (William): Le parler ordinaire, Paris 1978.
- Peytard (Jean) et Genouvrier (Emile): Linguistique et enseignement du français, Paris 1970.
- Pottier (Bernard) et coll.: Le langage, Paris 1973.
- Riffaterre (Michael): Essais de stylistique structurale, Paris 1971.
- Rocher (Guy): Introduction à la sociologie générale, t. I, Paris 1968.
- Ruwet (Nicolas): Introduction à la grammaire générative, Paris 1967.
- Saussure (Ferdinand de): Cours de linguistique générale, Paris 1982.
- Sauvageot (Aurélien): Français écrit, français parlé, Paris 1962.
- Sojcher (Jacques): La démarche poétique, Paris 1976.
- Spitzer (Léon): Etudes de style, Paris 1970.
- Suhamy (Henri): Les figures de style, Paris 1981.
- Thorne (James Peter): Stylistique et grammaire générative, in Change 16/17 (La critique générative), Paris Septembre 1973.
- Ulmann (Stephen): Language and style, collected papers, Oxford, Blackwell, 1964.

نظرية المعرفة عند كانط

الدكتور: حسن عثمان دهب
قسم الفلسفة

هناك فرق بين الإبداع الفكري والعبقرية: فالعقل المبدع يضيف إضافات جديدة لعمليات التراكم الحضاري، وهي إضافات مهمة لمسيرة الإنسان الحضارية، ولكن حينما يقوم العقل بإخراج عبقرية، فإن هذا انعكاس لعمليات التراكم الحضاري خلال مرحلة معينة وهكذا فعل أرسطو في الفكر اليوناني القديم، والقديس توماس الأكويني في العصر الوسيط، وعمانويل كانط وهيكل في الفلسفة الحديثة، وسورين كيركجور وبرتاند رسل في الفلسفة المعاصرة.

إننا بصدد دراسة فيلسوف أثارت فلسفته نقاشاً هائلاً بين الفلاسفة الرياضيين والتحليليين، ولكن لا ينبغي أن ننظر إلى كانط بصفته عالم رياضيات أو فيزياء من خلال المعطيات الحالية، بل كطفل لعصره أنهى فترة عصر التنوير، تلك التي بدأها وولف وليسبنج كانت حياة كانط أكثر من عادية، فنحن أمام فيلسوف لم يجبر على تناول السم كما فعل سقراط، كذلك لم يتجول في أوروبا كما فعل ليبنتز، بل أمضى حياته كلها داخل أسوار مدينة تقع في شرق بروسيا، وكذلك لم يحظ الفيلسوف على وظيفة أكاديمية كبرى كما حدث لهيكل، بل وجدناه يرضى بوظيفة محاضر في جامعة متواضعة، ولو نظرنا إلى شخصية كانط لوجدناها خالية من كل المثيرات: فهو لم يتزوج، ولم تكن له عشيقات كما فعل دافيد هيوم، ولم يعان الفيلسوف الألماني من عقدة نفسية كما حدث للفيلسوف الدنماركي سورين كيركجور، بل على العكس كانت حياته مثلاً للدقة والاعتيادية.

التحق كانط بجامعة كونيسبرج سنة ١٧٤٠م حيث التقى بأستاذه مارتن

كنوزن الذي اكتشف إمكانات وطاقات هائلة في تلميذه لذلك سمح له باستخدام مكتبته الخاصة وهنا تعرف كانط على أعمال إسحاق نيوتن، وقد كان كنوزن من مناصري فلسفة التنوير في ألمانيا.

اتفق المؤرخون على تقسيم حياته الفلسفية إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل النقد pre critical period وما بعد النقد post critical period ويبدو أنه من الصعب تحديد تاريخ الانتقال من المرحلة الأولى إلى الثانية، إلا أننا يمكننا اعتبار كتابه: حول شكل المبادئ الحسية والعالم المعقول سنة ١٧٧٠ بمثابة بداية للمرحلة الثانية، ولاسيما أن كانط طرح في هذا الكتاب نظريته في العلاقة بين ملكتين: الحساسة والفهم.

- يكتن كانط احتراماً مساوياً لكل من نيوتن وجان جاك روسو، فكلاهما أثر في فلسفته بطريقة مختلفة، فقد رأى كانط أن نيوتن هو أول عالم تمكن من وضع مجموعة من القوانين والمبادئ للعلوم الطبيعية أو الفيزياء الكلاسيكية، ومن جهة أخرى ترك روسو انطباعاً على فلسفته الأخلاقية.

- كتب كانط: لقد أدرك نيوتن بسهولة عظيمة النظام والنمطية في الكون، حيث كانت الاعتباطية هي السائدة، لقد أصبحت النجوم بعد نيوتن تسير في مدار هندسي، أما روسو فقد كشف عن مفاهيم كثيرة داخل الإنسان؟ اكتشف القانون المتواري الذي بواسطته يمكن للإنسان تسويغ العناية الإلهية^(١).

وهنا يمكن أن نقول كمدخل لهذه الدراسة، أن الفلسفة الكانطية بمثابة محاولة للتوفيق بين فلسفتين: العقلانية (وولف وليبنتز) والتجريبية الممثلة في هيوم ونيوتن، وكذلك يمكن أن نعتبر الفلسفة الكانطية كرد فعل ضد التعصب العقلاني الممثل في سلطة الكنيسة الكاثوليكية.

عكفت فلسفة وولف وليبنتز على تجريد النزعة الفردية من الدين مقابل تعزيز مذاهب فلسفية تقوم على نماذج رياضية إلى دعم الكنيسة الكاثوليكية ضد التيارات الفكرية المتمردة أو المحاولات الجديدة للعلوم الطبيعية التي قد تؤدي إلى استقلالية هذه العلوم عن المفاهيم التقليدية للكنيسة، وبالتالي تفويض سلطتها، ولذلك كان

هدف الفلسفة الكانطية النقدية هو تمهيد الطريق إلى بلورة النزعة الفردية في الاتصال المباشر بالله عن طريق الإيمان القلبي المدعم بالمبادئ الأخلاقية بدون الرجوع إلى سلطة الكنيسة، وفي الوقت نفسه فتحت آفاقاً جديدة أمام العلوم الطبيعية لكي تنمو وتزدهر بعد أن أزالَت المعوقات التي أوقفت تطورها.

ولكي يحقق كانط هذا الهدف، قام بفصل نوعين من المعرفة: المعرفة الممكنة داخل حدود العقل النظري وهي تتحقق من خلال علمي الرياضات والعلوم الطبيعية، والنوع الثاني الذي أطلق عليه المعرفة الإيمانية. يعالج النوع الثاني من المعرفة القضايا الميتافيزيقية مثل قضية خلود الروح، حرية الإرادة ووجود الله. لذلك فإن هذا البحث سوف يعالج النوع الأول من المعرفة، أي المعرفة الممكنة داخل حدود العقل النظري.

مرحلة ما قبل النقد:

تمثل هذه المرحلة بتأثر كانط بالفلسفة العقلانية واكتشافات نيوتن في الفيزياء فلقد فشلت الفلسفة العقلانية في متابعة التطور العلمي، لأنها افترضت إمكانية قيام المعرفة على العقل فقط، واعتبرت الخبرة الحسية معرفة أدنى من المعرفة العقلانية لذلك تجاوزت حدود عالم الظواهر متوهمة بأن حقيقة الأشياء تكمن في العقل الخالص.

يعتبر ديكارت أحد هؤلاء الفلاسفة الذين أسسوا المذهب العقلاني الذي رفضه كانط بصورة قاطعة. أوضح ديكارت بأن هناك نوعين من الوجود، الوجود اللامادي والمادي، أو العقل والجسد. وفقاً لذلك فخصائص الأجسام تختلف عن خصائص العقول وبالتالي استحالة التفاعل بين الإثنين، وهنا نجد أن لدى الجوهر المادي خاصية واحدة هي الامتداد، فالجوهر المادي هامد التكوين أو ما يسمى لديه قوة داخلية فعالة. وكذلك لا وجود للفراغ في المكان طالما أن الامتداد خاصية الجوهر المادي. ولكن هل هذا يعني أن حركة الجسم مرتبطة بالجوهر؟ أجاب ديكارت بالنفي، ويرد هذه الحركة إلى تدخل العناية الإلهية. وبعبارة أخرى أكد ديكارت أن الامتداد هو الخاصية الوحيدة للجوهر المادي، ولكنه فشل في تفسير الحركة أو الطاقة في العالم حينما أرجعها إلى الفعل الإلهي. وتتميز الجواهر اللامادية

بأنها تدرك التعدد على الرغم من كونها مستقلة، فهي فعالة، ولكنها غير قابلة للامتداد كما هو حال الجواهر المادية لذلك فإن التفكير، الإرادة والانطباعات الحسية، من فعل الجواهر اللامادية، بيد أن المشكلة الأساسية التي قابلت ديكرت هي كيفية ربط الانطباعات الحسية بالجواهر اللامادية، استخدم ديكرت العناية الإلهية في الربط بين العالمين المادي واللامادي. بعبارة أخرى فشل ديكرت في إيجاد تسوية فلسفية لتأثير العالم اللامادي في المادي أو تأثير العقل في الجسد، لهذا اضطر إلى إقحام العناية الإلهية لتسوية الانسجام الطبيعي بين العالمين.

تعرف كانط على أعمال نيوتن أثناء دراسته، وأعجب بالنتائج التي توصل إليها نيوتن في الفيزياء ولاسيما قانون السببية، والمعروف أن نيوتن كان بمثابة البوصلة التي ينبغي على جميع العلماء استخدامها، لذلك فالآراء المتناقضة مع اكتشافات نيوتن كانت تعني اللاعلمية انذاك.

أراد كانط أن يجمع بين الميتافيزيقا وعلم نيوتن، ولكن الميتافيزيقا التي عززتها الفلسفة العقلانية تنفي أهمية التجربة، وبالتالي تتعد عن مسار العلم. يقول كانط: «إنني غير قادر على الموافقة مع هؤلاء الكتاب الذين حاولوا على ضرورة البداية وحرية الإرادة من خلال تخطي عالم التجربة»^(٢).

لعل أهم كتب كانط في مرحلة ما قبل النقد هو كتاب: التاريخ الطبيعي للكون ونظرية السموات في سنة ١٧٥٥. عالج كانط في هذا الكتاب مفهوم المادة طبقاً للقوانين الميكانيكية لإسحاق نيوتن. أوضح كانط في كتابه هذا النمطية التي يسير عليها الكون وكيفية تفسير هذا النظام الدقيق وفقاً لقوانين ميكانيكية بحتة. وكذلك مهد الطريق لنظريته في الزمان والمكان تلك التي طورها في أهم كتبه الفلسفية وهو كتاب: نقد العقل الخالص.

المعروف أن نيوتن اكتشف القوانين الميكانيكية التي تفسر النمطية في العالم واستخدم هذه القوانين في تفسير مدارات الكواكب حول الشمس، ولكن المشكلة تكمن في أن هذه القوانين لم تفلح في تفسير كيفية حضور هذه الكواكب إلى مداراتها، كذلك تفسير العلاقة النظامية بين هذه الكواكب، ولهذا نجد نيوتن يلجأ مثله مثل بقية الفلاسفة العقلانيين إلى تدخل العناية الإلهية.

لقد استخدم نيوتن القوانين الأرضية في تفسير النظام الفلكي، ولكنه لم يفرق في نظرية السببية بين الأجسام المادية كأشياء مستقلة عن الشيء في ذاته، خاصة حينما أوضح بأن العلة النهائية، أو العناية الإلهية ضرورية لفهم الظواهر الطبيعية، بعبارة أخرى تحلى نيوتن عن مسئولية البحث عن قوانين ما اطلق عليه باللانمطية في المجموعة الشمسية.

رفض كانط حجة نيوتن في إرجاع النظام الفلكي إلى الله، ولكنه أكد مسئولية الله في عملية الخلق، ولكن حينما يكون السؤال حول كيفية تفسير مفهوم المادة، فإن الإجابة يجب أن تأتي متطابقة مع القوانين الميكانيكية.

يقول كانط: «إنني موافق على أن العالم قد عبر في بدايته بمرحلة التشتت، مما جعل كل شيء في حالة من الغموض الكامل إنني أرى بأن المادة بدأت تتشكل طبقاً لقانون الجذب، ولكن حركتها طبقاً لقانون التنافر»^(٣).

بدأت المرحلة النقدية مع تأثر كانط بأعمال الفيلسوف الاسكتلاندي دافيد هيوم. أشار كانط إلى ذلك حينما قال: «كانت ملاحظة هيوم هي الملاحظة الأولى ولسنوات عديدة السبب في استيقاظي من تأثير الفكر الدوجماتي وقد وجهت أبحاثي إلى اتجاه مختلف في الفلسفة النظرية»^(٤).

يرى هيوم أن معرفتنا تقوم على الانطباعات الحسية والأفكار: فالانطباعات هي عبارة عن معرفة خارجية مثل الألم، والألوان والأصوات الخ.. أما الأفكار فهي صورة ضعيفة للانطباعات الحسية داخل العقل الإنساني في شكل الذاكرة، وهنا يوضح هيوم أن كل فكرة داخل العقل يجب أن تأتي من انطباع حسي، ولا يمكن تصور وجود فكرة لها شرعية في الوجود الخارجي ما لم تعزز بالمصدر الأصلي وهو الانطباع الحسي بعبارة أخرى على كل فكرة أن تأتي بشهادة ميلاد موثقة بشرعية وجودها، أي من الفلسفة الحقيقية الممثلة في الانطباع الحسي. شك هيوم في شرعية أفكار مثل الجوهر الضرورية بين السبب والمسبب، والمطلق.

يقول هيوم: «لا توجد أفكار غامضة وغير محدودة أكثر من تلك الأفكار التي تظهر في الميتافيزيقا مثل أفكار القوة أو العلية، والطاقة،

والعلاقة والضرورة، لذلك فمن الضروري إبعادها عن أبحاثنا وأن كل أفكارنا صورة من انطباعاتنا، أو بعبارة أخرى لا يمكن أن نفكر في أي شيء ما لم يأت مسبقاً بواسطة الإحساسات الداخلية أو الخارجية»^(٥).

يواصل هيوم نقده للسببية قائلاً: «دعونا نبحث عن الانطباع الحسي لفكرة العلاقة الضرورية في السببية، دعونا نبحث عن هذا الانطباع في كل المصادر التي يمكن أن يأتي منها، إننا لا نجد على الإطلاق علاقة ضرورية تربط بين السبب والمسبب، أو أن الأول يحدث بالثاني، إننا نجد أن الحدث يتلو الثاني، ولكن لا يوجد أي شيء يدعونا إلى الاعتقاد بأن هناك علاقة ضرورية بين الحادثين»^(٦).

بيد أن هيوم صبَّ هجومه على اتجاهين، الاتجاه العقلائي على أساس أن فكرهم مصدع وفارغ المحتوى بسبب خلوه من الانطباعات الحسية واعتمادهم على الأفكار الفطرية وقوانين العقل، وفي الوقت نفسه يشدد نقده للتجريبيين (لوك وباركلي) على اعتبار أن تجربته الحسية لا تعطي استنتاجات ذات قيمة موضوعية.

وجد كانط نفسه بين هذين التيارين الفلسفيين: التيار الأول والممثل في المذهب العقلائي والذي يدعي إمكانية إدراك الحقيقة المطلقة بواسطة العقل وينكر المعرفة الحسية، بل يعتبرها أدنى مرحلة من المعرفة العقلانية، والتيار الثاني هو التجريبي الشكي والممثل في المدرسة الإنجليزية خاصة فلسفة دافيد هيوم.

يرى كانط الميتافيزيقا من خلال مفهومين: الميتافيزيقا ذات الرؤية الواسعة والميتافيزيقا ذات الرؤية الضيقة، استخدم كانط الميتافيزيقا الأولى على علمي الرياضة والفيزياء، على اعتبار أن هذين العلمين لديهما وجود شرعي de Jure وواقعي de Facto بمعنى أن أحكامهما تركيبية قبلية، وفي الوقت نفسه ممكنة خلال التجربة. أما النوع الثاني من الميتافيزيقا فهي تعالج القضايا الآتية: الله، وخلود النفس وحرية الإرادة من خلال العقل العملي، ولكن أفكار هذه القضايا موجودة داخل العقل النظري كواقع فقط، وبالتالي لا يمكن تسويتها من خلال محك التجربة كما هو الحال بالنسبة للرياضيات والفيزياء.

كرس كانط كتابه نقد العقل الخالص لمعالجة النوع الأول من الميتافيزيقا، لذلك أصبح هدفه الأول توضيح أن الميتافيزيقا الضيقة لا تمتلك الشرعية لكي توجد داخل العقل النظري وهنا يكمن خطأ الفلسفة العقلانية حينما توهمت إمكانية العقل النظري على استيعاب المعرفة إن ذلك لا يعني أن كانط رفض القضايا الميتافيزيقية، على العكس فإنه أعطى لها اهتماماً كبيراً، ولكنه أشار إلى أهمية النظر إليها بمنظار يختلف عن منظار العقل النظري. فقد أصبحت المهمة الأساسية للعقل النظري هي اختبار إمكانية العقل في الحصول على المعرفة الأولية والبحث عن مصادر الأفكار التي توهم بعض الفلاسفة بأنها شرعية، وممكنة داخل العقل النظري، أو حينما خلطوا بين المعرفة الرياضية والفيزيائية، ومعرفة إثبات وجود الله وحرية الإرادة.

يفترض كانط وجود مبادئ ثابتة داخل العقل الإنساني، ويجب على كل موضوعات التجربة أن تتطابق مع هذه المبادئ. تتميز هذه المبادئ بأنها قبلية، أي سابقة على التجربة، ولا يمكن للتجربة أن تكون ممكنة إلا من خلال هذه المبادئ.

يقول كانط: يجب أن لا يكون العقل كحال التلميذ الذي يجب عن كل شيء يسأله معلمه، ولكنه مثل القاضي الذي يرغب الشهود على الإجابة على الأسئلة التي صاغها بنفسه^(٧). لو دققنا في العبارة السابقة، لوجدنا أن كانط لخص برؤية ثابتة العبقرية الإنسانية لعصره، فالعالم الحقيقي هو الذي يكون في وسعه صياغة السؤال، ثم يذهب إلى الطبيعة للبحث عن الإجابة، فلا توجد اكتشافات علمية بدون أسئلة مسبقة صاغها العلماء، لذلك فالمهمة الحقيقية للعالم هي عملية الإنشاء الداخلي لصياغة السؤال، وبالتالي المرحلة التجريبية، كمحاولة للإجابة عن السؤال الذي صاغه العقل.

وهنا يمكن أن نفهم كانط بصورة أفضل من خلال مقارنة فلسفته النقدية باكتشاف العالم البولندي كوبرنيكوس، حينما أثبت أن الأرض ليست مركزاً للكون، ولكنها تابعة للمجموعة الشمسية، أو اعتبار العقل مركزاً لعالم الظواهر، وما على هذه الظواهر إلا أن تتطابق مع مبادئ العقل، وهنا قد يعتقد القارئ أن كانط قد جنح إلى العقلانية حينما أقر بوجود هذه المبادئ داخل العقل، ولكن ينبغي أن نتذكر أن حدود هذه المبادئ القبلية هي علمي الرياضة والفيزياء على

اعتبار أن كلاهما ممكن خلال التجربة وفي الوقت نفسه، استبعد كانط إمكانية تطبيق هذه المبادئ على القضايا الميتافيزيقية «ولعدم خلود النفس وحرية الإرادة» وإذا حاولنا إقحام أفكار هذه القضايا كما فعل العقليون فإننا نجازف في جعل الميتافيزيقا مادة للاستهزاء والتهكم كما حاول دافيد هيوم.

يقول هيوم: «لو وقع في أيدينا أي كتاب مقدس أو ميتافيزيقي، فعلينا أن نسأل أنفسنا هل يحتوي على أشياء مجردة فيما يخص الكم والعدد؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي، فيجب أن نسأل مرة أخرى هل يحتوي على تسويغات تجريبية تخص العالم، وإذا كانت الإجابة مرة أخرى بالنفي فما عليك إلا أن تقذف به إلى النار، لأنه لا يحتوي على شيء سوى سفسطة ووهم»^(٨).

وقد يثير بعض القراء السؤال الآتي: هل أراد كانط إنكار معرفة القضايا الميتافيزيقية أجب كانط بصورة قاطعة عن هذا السؤال بأن المعرفة التي تقوم عليها هذه القضايا أسمى وأعظم من المعرفة الرياضية والفيزيائية.

فنجده يقول: «لقد وجدت من الضروري أن أنكر المعرفة لكي أفسح مجالاً للإيمان»^(٩). وضع كانط حداً للخلط بين العلوم الإلهية من جهة، والعلوم الطبيعية والرياضيات من جهة أخرى، بعبارة أخرى استحالة البرهنة على وجود الله من خلال المعادلات الرياضية أو قانون الجاذبية لنيوتن، أو من خلال التوفيق بين قضايا الدين والظواهر الطبيعية، ليس لأن الدين عاجز عن تمثيل القضايا الطبيعية والرياضية، ولكن العقل الإنساني عاجز عن البرهنة عليها لذلك ينبغي علينا أن نبحث عن طريق آخر للوصول إلى الإيمان، يجب علينا أن نترك العقل الإنساني يعمل في حدوده وإمكاناته بأن لا نجعل قضايا مثل وجود الله، حرية الإرادة وخلود النفس تتجاوز حدوده، لأنها لو فعلت ذلك فسوف تصبح مادة للتهكم بسبب عجز العقل النظري عن البرهنة عليها.

اتهم كانط بأن رفضه للميتافيزيقا بالصورة الموضحة، يعني دعم وتعزيز للمادة وقدرية العلم، ولكن الحقيقة أنه أراد إنقاذ الميتافيزيقا من المناهات التي أقحمت نفسها بداخلها، إن محاولة قيام الميتافيزيقا على الحجج والقوانين العلمية والرياضية

قد يؤدي إلى تدهورها خاصة، حينما تهتز مصداقية هذه القوانين وتبقى القضايا الميتافيزيقية بدون سند، وبالتالي تتعرض للضربات من جميع الاتجاهات.

المعرفة الأولية:

تقوم الثورة الكانطية على محاولة إثبات أننا نمتلك معرفة أولية وكذلك رفض نظرية هيوم في الانطباعات الحسية، ولكن هل على المعرفة الأولية أن تتطابق مع القوانين الطبيعية أو تتطابق الأخيرة مع الأولى؟ لو اخترنا الافتراض الأول فإن ذلك يعني استحالة وجود معرفة أولية، أما الافتراض الثاني فهو يعزز إمكانية وجود هذه المعرفة. تختلف المعرفة الأولية عن المعرفة البعدية أو التجريبية في أنها مستقلة عن التجربة لذلك فهي ضرورية وكلية في مقابل البعدية التي تلتزم بحدود التجربة.

الأحكام التحليلية والتركيبية:

الأحكام التحليلية هي تلك الأحكام التي يكون المحمول «ب» داخل الموضوع «أ» مثل كل الأجسام ممتدة، ففكرة الامتداد متضمنة داخل فكرة الجسم، لذلك فهذا النوع من الأحكام توضيحي قبلي، ولكنه لا يمدنا بمعرفة جديدة خارجه عن إطار الموضوع أما الأحكام التركيبية فهي تلك التي لا يوجد محمولها «ب» داخل الموضوع «أ» مثل كل الأجسام ثقيلة، وهنا نجد فكرة الثقل لا توجد داخل الموضوع «الجسم» ويفرق كانط بين نوعين من الأحكام التركيبية، القبليّة والبعدية فالحكم القبلي مثل مجموع الزوايا في كل المثلثات تساوي مجموع الزاويتين القائميتين، أما الحكم التركيبي البعدي مثل يوجد نفظ في غرب السودان، فالمثال الأول يعطي الحكم معرفة جديدة غير متضمنة داخل الموضوع، على الرغم من عدم الرجوع إلى التجربة لتأييد مصداقية الحكم وكذلك يعطي المثال الثاني معرفة جديدة، ولكننا نحتاج إلى التجربة لمعرفة وجود النفظ في هذه البقعة من السودان، وهنا تتميز الأحكام التركيبية القبليّة بأنها ضرورية وكلية، بعبارة أخرى الأحكام التركيبية القبليّة هي تلك التي لا تستمد من التجربة، ولا يوجد محمولها داخل موضوعها على الرغم من أنها تضيف معرفة جديدة لم تكن معروفة من قبل أو على عكس الأحكام التحليلية التي لا تضيف إلى معرفتنا معرفة جديدة وبالتالي فهي تحصيل حاصل.

يفترض كانظ أن أفكاراً مثل الزمان، والمكان، والجوهر والسببية هي أفكار قبلية وكذلك الرياضية والعلوم الطبيعية تقوم على أحكام تركيبية قبلية، ولكن المشكلة تكمن في الميتافيزيقا التي تفترض إمكانية وجود أحكام تركيبية قبلية (ديكارت، لينتز، وولف). ولذلك يبحث كانظ عن إمكانية وجود الأحكام التركيبية القبلية في العلوم الثلاثة: الرياضة، والعلوم الطبيعية والميتافيزيقا (الله، حرية الإرادة وخلود النفس) وعلى الرغم من أن العلمين الرياضة والعلوم الطبيعية لا يمثلان مشكلة إلا أنه يطرح سؤاله المشهور على العلوم الثلاثة:

- أ - كيف يمكن أن تكون القضايا التركيبية ممكنة في الرياضيات؟
- ب - كيف يمكن أن تكون القضايا التركيبية ممكنة في العلوم الطبيعية؟
- ج - كيف يمكن أن تكون القضايا التركيبية ممكنة في الميتافيزيقا؟

قسم كانظ كتابه نقد العقل الخالص إلى قسمين رئيسيين: الحس التراندنتالي والمنطق السامي، ويحتوي القسم الأول على ملكة الحساسية التي بدورها تشمل الحدس الخالص والزمان والمكان وهما شكلان من أشكال الحدس. يهدف الحس التراندنتالي إلى الإجابة عن أهم الأسئلة في نقد العقل الخالص أو كيف تكون القضايا الرياضية ممكنة كعلم تركيبى قبلي؟ يختص القسم الثاني ملكة الفهم التي تحتوي على المفاهيم الخالصة أو المقولات وينقسم المنطق السامي إلى قسمين: مذهب العناصر والمذهب الجدلي، يهدف مذهب العناصر إلى تحليل المفاهيم وتحليل مبادئ العقل، وكذلك يجب على السؤال الثاني وهو كيف تكون القضايا في العلوم الطبيعية ممكنة كعلم تركيبى قبلي؟. أما المذهب الجدلي فهو يبحث عن كيف تصبح القضايا الميتافيزيقية كميل طبيعي لدى الإنسان من جهة، وهل يمكن لهذه القضايا أن تصبح ممكنة كعلم تركيبى قبلي من جهة أخرى؟.

بدأ كانظ كتابة نقد العقل الخالص بعزل ملكة الحساسية عن الفهم من أجل تقديم وشرح العناصر الأساسية لملكة الحساسية، فعلى الرغم من اعتماد المعرفة الأولية على هاتين الملكتين، الحساسية والفهم، إلا أنه من المهم افتراض استقلالهما حتى تتمكن من معرفة عناصرهما الأساسية، وبالتالي الحصول على المعرفة الأولية التي تتبع من هذين المصدرين، فالعناصر الأساسية لملكة الحساسية هي الحدس الخالص والزمان والمكان أن تأكيد كانظ لفعالية الحساسية يرجع إلى تأكيد دور

التجربة في الحصول على المعرفة الأولية، وليس كما اعتقد العقليون بضآلة دورها. كما عرفنا أن كانط لم يتفق مع التجريبيين في تقييد المعرفة الإنسانية بالخبرة أو التجربة فقط، لأن بحثه ينصب على المعرفة الأولية، لذلك لا يمكن تفسير هذه المعرفة طبقاً للتجربة البحثية، ولكنه يتفق مع التجريبيين على أن موضوع المعرفة يعطي من خلال التجربة الحسية، وهنا ينبغي علينا أن نفهم كلمة «يعطي» بمزيد من الحذر، لأن كانط لا يعني أن الموضوع يعطي من خلال الشيء في ذاته، ولكن يعطي كمادة خام إلى ملكة الفهم، حتى تتم الخطوة التالية المتمثلة في عملية إدراك الموضوع وتحديدته، ولذلك يجب على الظواهر (المادة الخام للموضوع) أن تعطي من خلال الزمان والمكان، وهما شرطان أساسيان لعملية إدراك الموضوع، بعبارة أخرى لا يمكن أن ندرك الموضوع ونميزه إلا إذا كان قد أعطى خلال هاتين الملكتين وهنا يكون دور ملكة الفهم تركيب الانطباعات الحسية الآتية من ملكة الحساسية، وذلك بواسطة المفاهيم الخالصة أو المقولات التي تنبع من ملكة الفهم فقط.

نفهم من هذا الشرح أن المعرفة الأولية التي ينشدها فيلسوفنا كانط تتم بواسطة هاتين الملكتين، ولا يمكن لأحد أن يدعي إمكانية إدراك الموضوعات بدون الاعتماد على المعطيات الحسية، أو لا يمكن للمعرفة الأولية أن تأتي إلا إذا اكتسبت الشرعية من خلال الخبرة الحسية وبعبارة أخرى لا يمكن تجاوز عالم التجربة كما فعل العقليون ولا يمكن الادعاء بأن الموضوع يدرك بواسطة الخبرة الحسية فقط، على اعتبار أنها تقوم بإمدادنا بمعطيات غير محدودة لذلك تقوم المفاهيم الخالصة بعملية تركيب هذه المعطيات التي تأتي من الحساسية.

يقول كانط: «تتكون طبيعتنا من الحدس الذي لا يمكن أن يكون سوى حسي، أو بصورة أخرى الكيفية التي تؤثر أسرع فينا، ومن جهة أخرى الكلية التي تجعلنا نفكر في موضوعات الحساسية، هي كلية الفهم أن هاتين الكليتين، لا يمكن أن تتغلب إحداهما على الأخرى، وبدون الحساسية لا يمكن أن يعطي الموضوع لنا، وبدون الفهم، لا يمكن أن ندرك هذا الموضوع، فالفهم بدون محتوى يصبح فارغاً والحدس بدون المفاهيم يصبح كفيفاً»^(١٠).

لقد تجاوز العقلايون حدود كلية الحساسية، وتشككوا في مصداقية معرفتها الحسية ثم ادعوا وجود افكار فطرية مثل العناية الإلهية وخلود النفس، إن هذه الأفكار لا يمكن أن تدرك بواسطة المفاهيم فقط، لأن الأخيرة فارغة بدون محتويات الحدس. ولذلك حاول كانط تفسير وجود هذه الأفكار بالإشارة إلى ميل طبيعي لدى العقل لبحث هذه الموضوعات من خلال ربطها بمبادئ غير مشروطة.

الزمان والمكان:

إحدى المشاكل التي تواجه القارئ هي مشكلة المصطلحات الفلسفية التي نحتها من اللغة الألمانية، وأعطائها أبعاداً جديدة لكي تتلاءم مع فلسفته النقدية ومن هذه المفاهيم الحدس الخالص، الظواهر الترانسندنتالية فالحدس الخالص ينتمي إلى ملكة الحساسية بمعنى أننا لا يمكن استخلاصه من ملكة الفهم، ولكن ماذا يعني كانط بمصطلح الحدس الخالص؟ يبدو أنه يعني بالحدس الخالص تمثيل المعطيات المعطاة من قبل الحساسية، خاصة أن هذه الملكة تعتبر سلبية بالمقارنة مع الفهم التي اعتبرها الملكة الإيجابية، ونفهم من السلب والإيجاب بأن دور الأول محدود بقبول الانطباعات الحسية على شكل ظواهر أو مادة خام غير منظمة، بينما دور الثانية يتمثل في إدراك وتميز هذه الانطباعات، وهنا يكون الحدس بمثابة العقل السلبي أو الفهم السلبي، فعلى سبيل المثال المنضدة تعطى للحساسية، في شكل اللون والمقومات الأساسية للمنضدة ولكن تتم عملية ربط هذه الألوان بالمنضدة من خلال الفهم.

اعتبر كانط الزمان شكلاً من أشكال الحدس وينتمي إلى ملكة الحساسية فقط وقد ربط بين مفهوم الزمان ومفهوم السببية، فلا يمكن أن تحدث الأحداث في العالم إلا من خلال تتابعها خلال وحدات الزمان، ولكن هذه النتيجة تقودنا إلى مشكلة أخرى وهي هل الزمان والمكان حقيقيان أو أن وجودهما مثاليا يرى كانط أن الزمان والمكان شكلان ذاتيان لملكة الحساسية، ولكنها شرطان لكل وجود تجريبي، وبالتالي لا يمكن إدراك الشيء في ذاته من خلال الزمان والمكان.

الزمان والمكان ضروريان وكليان، بمعنى أنها لا يمكن استنباطهما من التجربة لقد أراد كانط أن يعطي مزيداً من الأهمية لفكرتي الزمان والمكان، وبالتالي فإن

مصدقية التجربة تحدث من خلال تمثلها في الزمان والمكان، لذلك فالزمان والمكان حقيقيان، ولكن هل يعني ذلك أن جميع الموضوعات تمثل في الزمان والمكان أم الظواهر فقط هي التي تمثل في الزمان والمكان وما عدا ذلك غير ممكن.

يحدد كانط أن مفهومي التغير والحركة يحدثان في الزمان، ولا يمكن معرفتهما خارج حدود الزمان، وحينما يتحدث عن المكان فهو يشير إلى الرياضة «الهندسة» وهنا تقوم المعرفة الرياضية على الأحكام التركيبية القبلية من خلال افتراض تمثلها في المكان فعلى سبيل المثال لا يمكن استنباط الشكل لثلاثة خطوط من خلال تحليل مفاهيم الخطوط الثلاثة، لهذا يجب إنشاء الموضوع «المثلث» من خلال معطيات الحدس، ولا يمكن أن يكون هذا الحدس تجريبياً، ولو حدث ذلك فإن القضايا الرياضية سوف تكون تجريبية، وهذا ما ينفيه كانط ويؤكد أن الحدس خالص وبالتالي فالقضايا الرياضية ضرورية.

ويقول كانط: «والمكان ليس تصوراً مشتقاً من خبرة خارجية، بل هو تمثل قبلي ضروري يصلح لكي تؤسس عليه كل الإدراكات الحسية الخارجية والزمان أيضاً ليس تصوراً تجريبياً، وليس له وجود حقيقي خاص به وعلى حين يصلح المكان لتمثلات الإدراك الحسي الخارجي، نجد أن الزمان يصلح لتمثلات الإدراك الحسي الداخلي - إدراك الذات وإدراك حالاتنا الداخلية»^(١١).

بدأ كانط معالجة المفاهيم أو المقولات الخالصة لملكة الفهم عن طريق افتراض أنها لا تصدران عن ملكة الحساسية، وهي نفس الطريقة التي عالج بها الزمان والمكان على افتراض أنها لا تصدران عن ملكة الفهم، ولكن من الحساسية. وهنا شرع كانط في تقليص عمليات ملكة الفهم إلى أحكام، بحيث أصبحت ملكة الفهم بمثابة قوة حكم، ويقوم الحكم بجمع التمثلات المختلفة في وحدة واحدة لكي تشكل المعرفة، لم يحدد كانط عدد الأحكام، ولكنه اعتبر الأحكام الممكنة هي تلك التي تقوم على أسس منطقية، لقد افترض كانط أن هذه المشكلة قد حلت، خاصة وأن علماء المنطق آنذاك قد حددوا هذه الأحكام ولكن اعتبر كانط أعمالهم ناقصة، طالما أنهم لم يبحثوا عن المفاهيم الخالصة وهنا افترض كانط أن كل حكم، من الأحكام يحدد بواسطة مفهوم قبلي، وبالتالي أصبحت مهمته سهلة حينما وضع

جدولاً لهذه الأحكام يقابله جدول للمفاهيم الخالصة، طالما أن الأخيرة تحدد الأولى. ويمكن القول أن إحدى وظائف ملكة الفهم هي عملية الحكم، والحكم يعني تركيب وترتيب المعطيات المختلفة. ويشير كانط بأن عملية التركيب هذه عملية إنشائية قبلية وتقوم ملكة الفهم بتجميع المعطيات المختلفة طبقاً لمواصفات محددة تطابق المقولات المختلفة، بحيث تقابل كل وحدة من المعطيات مقولة معينة وبالتالي تصبح مقولات ملكة الفهم شرطاً قبلياً للمعرفة، بعبارة أخرى المقولات الخالصة هي شروط ضرورية لكل الموضوعات الممكنة للتفكير، وانعدام إدراك الموضوعات من خلال التفكير يعني عدم إمكانية معرفة هذه الموضوعات، وهنا يحدث التكامل المتبادل بين الحساسة والفهم في عملية إنتاج المعرفة القبلية، على الرغم من أنهما يقومان بوظيفتين مختلفتين فالحدس عطائي، أي تقدم المعطيات الحسية، بينما المفاهيم وظيفية العمل، بمعنى أنها تقوم بعملية توحيد الأفكار المختلفة في فكرة عامة واحدة.

بيد أن كانط كان متفائلاً حينها اعتقد أنه حصل على جدول متكامل للمقولات، فقد تصور أن هذا الجدول قد احتوى على كل أنواع المعرفة الإنسانية الممكنة من قبل العقل النظري، ويرجع تفاؤل كانط إلى وضع المنطق في عصره، خاصة إن منطق أرسطو كان بمثابة العلم المستقل المتكامل، أخذ كانط المقولات عن أرسطو، ولكنه حددها بحدود الأحكام وبالتالي أصبحت هذه المقولات تتعامل فقط مع معطيات الحدس، لذلك أصبحت الميتافيزيقا^(١٢) بعد كانط تعرف بالميتافيزيقا التجريبية، بمعنى أنها تعالج الموضوعات القابلة للتجريب، وتستبعد كل الموضوعات التي لا يمكن أن تمثل في التجربة مثل وجود الله وخلود الروح وحرية الإرادة.

جدول المقولات:

يتكون جدول المقولات من اثنتي عشرة مقولة، وهو ينقسم إلى أربعة أقسام يحتوي كل قسم على ثلاث مقولات، وتعتبر المقولة الأخيرة في كل قسم بمثابة حاصل تكوين المقولتين السابقتين. من الصعب تسويغ اختيار كانط لعدد المقولات أو احتواء كل قسم على ثلاث مقولات فقط، ولكن هذا التقسيم الثلاثي يتناسب مع العقلية الألمانية بشكل عام خاصة أنها تهيم بعمليات التقسيم والتوزيع والنظام

بصفة عامة، ولعل أصدق مثال على ذلك هو الفيلسوف الألماني هيغل الذي أبدع في هذه التعريفات.

أهم المعضلات التي قابلت كانط هي عملية تسوية شرعية هذه المقولات، للظواهر التركيبية، أو كيف تبرر تطابق هذه المقولات مع الموضوعات المعطاة من خلال الحدس وهنا ينبغي أن نشير إلى أن عملية التسوية هذه مرتبطة بملكة الفهم ولا يمكن أن نطرح السؤال نفسه على ملكة الحساسية، لأن الموضوعات المعطاة في الحدس من خلال الزمان والمكان، وبالتالي لا توجد مشكلة، ولكن حينما يستلزم تطابق هذه الموضوعات مع المقولات القبلية كشرط ضروري لحدوث التفكير أو وحدة الإدراك، فإن ذلك يتطلب تسوية حدوث هذه العملية، وهنا يمكن تلخيص المعضلة الكانطية في هذا السؤال كيف تكون المقولات الخالصة ضرورية لكل موضوعات الخبرة أو التجربة؟ لو اتفقنا مع كانط على شرعية صياغة السؤال وذهبنا إلى مرحلة أبعد ي افتراضنا بأن إجابته مقبولة، فإن ذلك يعني أننا لا يمكن أن نحصل على صورة واضحة للشيء إلا إذا حدث من خلال المقولات الخالصة أو القبلية، وهنا تكمن الثورة الكانطية، فالعقل لا يقوم بالتطابق مع الموضوعات كما فعل التجريبيون، ولكن على موضوعات التجربة أن تتطابق مع قوانين العقل، أو على الأولى أن تكتسب شرعيتها من خلال تطابقها مع الثانية. والمعروف أن عالم الفلك البولندي كوبرنيكوس قد أوضح أن الشمس هي المركز وليس كما كان معتقداً بأن الأرض هي المحور وبالتالي فإن الأخير هي التي تدور حول الأولى، وطبقاً لرؤية كانط فإن الإنسان هو محور المعرفة الإنسانية، وبالتالي لم تعد الطبيعة أو المطلق مركزاً للبحث. إن رسالة كانط واضحة، على الإنسان أن يبحث عن القوانين والمبادئ القبلية داخله، لكي يفسر القوانين الطبيعية؟ فهو بمثابة القاضي الذي يجبر الشهود على الإجابة عن الأسئلة التي صاغها وينبغي أن لا ننسى أن المعرفة التي يبحث عنها كانط داخل العقل النظري هي المعرفة المتعالية، ولكنها ممكنة داخل حدود التجربة أما المعرفة التي تدعي بقدرتها على تجاوز حدود التجربة وانتمائها للفهم كما فعل العقليون، فهي معرفة غير شرعية أو على الأقل داخل العقل النظري.

يوضح كانط وظيفة المقولات من خلال شرحه لتعبير «أنا أفكر» فيجب على

الإدراك الذاتي أن يحتوي على كل الانطباعات الموحدة، إن عدم إدراك «أنا أفكر» لهذه الانطباعات، يعني أن هناك انطباعات أعطيت «لي» بدون أن أكون قادراً على إدراكها، وهذا مستحيل، ولذلك فإن كل الظواهر التي تأتي من الحساسية يجب أن ترتبط بعلاقة ضرورية مع «أنا أفكر» وإلا فإننا نجازف بالادعاء بوجود أفكار غير قابلة للإدراك. يبقى سؤال هام وهو طبيعة الإدراك الذاتي التي تستلزم إدراك كل موضوعات التجربة: هل هي تجريبية أو قبلية؟ بيد أن الإجابة واضحة فإن الإدراك الذاتي لا يمكن أن يكون تجريبياً بسبب أن ملكة الفهم التي تحتوي على المقولات القبلية هي ملكة قبلية، وبالتالي فالإدراك الذي «أنا أفكر عملية قبلية وضرورية لكل موضوعات التجربة لهذا تصبح وظيفة الإدراك الذاتي هي ضمان تمثيل كل الانطباعات الحسية الموحدة داخل ملكة الحساسية ففي حالة قولنا «أنا أفكر» تمثل كل الانطباعات الحسية فإن هذا يعني أن «أنا أفكر» مدركة لهذه التمثيلات، وبالتالي فالوحدة التركيبية للإدراك الذاتي هي شرط موضوعي للمعرفة الممكنة.

بيد أنه من المهم التمييز بين استخدام كانط لـ «أنا أفكر» ومن استخدام ديكرت فالأخير انتقل من الفكر إلى الوجود، أي أن المادة تنبع من الفكر وضمان واقعية المادة يعتمد على فكرة الموجود الكامل كفكرة فطرية داخل العقل، بينما المعرفة الأولية عند كانط تعتمد على مصدرين: الحساسية والفهم، والأخير لا يحتوي على أفكار فطرية، بل مقولات فارغة أو قوالب فكرية.

يحاول كانط إثبات موضوعية المعرفة الأولية، وهنا تعمل ملكة الفهم بإنتاج مبادئ قبلية تحدد موضوعية المعرفة الناتجة عن المقولات، يقدم كانط جدول المقولات بصورة مطابقة للمبادئ القبلية.

مبادئ كلية الفهم:

أوضح كانط أن هذه المبادئ تطابق جدول المقولات، تنقسم مبادئ ملكة الفهم إلى قسمين، يعالج القسم الأول بديهيات الحدس وتوقع التجربة والقضايا الرياضية أما القسم الثاني فهو يختص بقضايا العلوم الطبيعية ويتكون القسم الثاني من مبدئين: مبدأ ثبوت الجوهر، ومجموعة مبادئ التفكير التجريبي.

أولاً: بديهيات الحدس^(١٣) إن لكل ظاهرة من الظواهر المدركة بالحدس

مقداراً امتدادياً وهنا يقابل هذا المبدأ مقولات الكم في كلية الفهم، فعلى سبيل المثال: هناك خط مستقيم واحد بين نقطتين أو المستقيمان لا يلتقيان في المكان، إن هذا المبدأ تأكيدي بسبب إمكانية إنشائه بدون الرجوع إلى التجربة بواسطة المفاهيم القبلية ولكن لكي نفهم هذا علينا أن نرجع إلى عملية تركيب التمثلات «المعطيات الحسية» التي هي ضرورية للإدراك، تتم هذه العملية في شكل تنابعي في الزمان والمكان وكذلك يحدث إدراك هذه التمثلات من خلال تنابع الأجزاء. إن تحديد كم أي شيء يحدث من خلال عدد الأجزاء التي يتكون منها هذا الشيء، أي بواسطة إضافات تنابعية، وبالتالي يمكن قياس الشيء وينبغي أن نلاحظ أن هذه الأجزاء تكون في حالة من التجانس وإلا استحالَت عملية الإضافة التتابعية.

ثانياً: توقعات الإدراك^(١٤) إن للإحساس بالشيء وللوجود الحقيقي المطابق لذلك الإحساس درجة واحدة من الشدة، كما أوضحنا أن مقولات الكيف عبارة عن توحيد بين الواقع والنفى، فهي إما أن تؤكد وجود هذه التمثلات التركيبية وإما أن تنفيه وهنا ينبغي أن نرجع إلى جدول الأحكام فالتأكيد يعني تأكيد الحكم والنفى هو نفي الحكم في الزمان والمكان، ولكن لماذا في الزمان والمكان؟ لأن كل المعطيات الحسية يجب أن تعطى في الزمان والمكان، وهما كشكليين من أشكال الحدس فارغان من المحتوى، وهنا يكون لدى الشيء الحقيقي أو موضوع التجربة وجود في الحساسة، وهذا يعني، أنّ الزمان والمكان بدون المحتوى، لهذا يكون الوجود الحقيقي في شكل كثافة، فعلى سبيل المثال تحدد كثافة اللون الأزرق في الحساسة بمقدار الانطباعات الحسية المعطاة في الزمان والمكان، ويمكننا التمييز بين شدة اللون الواحد بمقدار حجم الكثافة في الزمان والمكان، بعبارة أخرى تكون وظيفة مقولات الكيف هي تحديد وجود أو عدم وجود الشيء بمقدار حجم الكثافة التي تكون من السلب إلى الإيجاب.

مبدأ ثبوت الجوهر: إن التغير يحدث للظواهر فقط، وتبقى الجواهر في حالة ثبوت وحتى نتمكن من فهم كانط في مبدأ ثبوت الجوهر، علينا أن نرجع إلى دافيد هيوم وإسحاق نيوتن، كما عرفنا أن هيوم أنكر وجود أفكار مثل الجوهر أو الضرورة على اعتبار أنها لا تمتلك شرعية من الانطباعات الحسية، لقد أراد كانط دحض نظرية هيوم، ولم يكن أمامه أفضل من استخدام نتائج عالم الفيزياء - إسحاق نيوتن.

قال كانط: «حينما يسأل الفيلسوف عن وزن الدخان، فينبغي عليه أن يجيب بالآتي: اطرح وزن الرماد المتبقي من وزن الأعشاب قبل احتراقها، فإنك سوف تحصل على وزن الدخان»^(١٥). وهنا يفترض كانط بأن لدى المادة جوهرًا ثابتًا حتى في حالة الاحتراق فالمادة لا تفتنى، ولكنها تتعرض لتغيرات في الشكل، فالظواهر في حالة تغير، ولكن لا يمكن إدراك هذا التغير ما لم يفترض وجود شيء ثابت في كل الأزمنة فبدون افتراض وجود هذا الجوهر الثابت، فإنه لا يمكن الادعاء بوجود تتابع موضوعي، وينبغي علينا أن لا نخلط بين الجوهر الذي يعينه كانط، وظواهره الممكنة في عالم التجربة والجواهر الروحية التي تتخطى حدود التجربة، وبالتالي حدود العقل النظري.

مبدأ السببية: كل شيء يحدث أو على وشك الحدوث فإن ذلك يفترض وجود شيء آخر يعمل وفقاً لقاعدة الارتباط بين السبب والتجربة.

يرجع قانون السببية إلى نيوتن الذي وضع معادلة رياضية لمذهب السببية^(١٦) يقوم هذا القانون على القاعدة الآتية: لكل سبب نتيجة، فلو قمنا بقذف حجر إلى أعلى فإن الحجر يسقط مرة أخرى إلى أسفل، وهنا ينبغي علينا أن نسأل هذا السؤال: هل يرجع سبب سقوط الحجر إلى جاذبية الأرض أو أن السبب يفسر من خلال فعل تحرير الحجر من قبضة اليد. يفسر القانون المذكور من خلال افتراضين: استمرارية النظام، والنمطية في الطبيعة، فغياب أحدهما يعني أن السبب لا يؤدي إلى النتيجة نفسها وهنا نجد أن كانط اطلق على هذين الافتراضين بالتتابع الموضوعي للظواهر في الزمان^(١٧) بعبارة أخرى إن كل تغير يحدث فهو يحدث وفقاً لقانون العلاقة بين السبب والمسبب ولكن هل كل الظواهر تحدث في تتابع موضوعي في الزمان، أو هل ظواهر المنزل الذي أمامي تأتي في حالة تتابعية، أجب كانط باستحالة تأكيد ذلك، خاصة لو نظرنا إلى المنزل، فأنا يمكن أن ندرکه من خلال النظر من أعلاه إلى أسفله، كذلك يمكن إدراكه من أسفله إلى أعلاه، بعبارة أخرى لو افترضنا أن أعلى المنزل «أ» وأسفله «ب» فيمكننا أن نجعل «ب» تتابع «أ»، والعكس هو الصحيح، لذلك فالتتابع هنا ذاتي أي داخل العقل، ولا يمكن تأكيد أن أعلاه يؤدي إلى أسفله، لهذا سوف يكون غير معقول القول إن أعلاه هو السبب، أو أسفله هو المسبب على اعتبار أن في كلتا الحالتين يمكن إرجاع الحادثة

إلى الوراثة وهنا نجد أن كانظ اعتبر المنزل بمثابة مادة وليس حدثاً في الزمان، كما هو الحال في التابع الموضوعي، لذلك فالتتابع الموضوعي مشروط بعنصر الزمان، وحينما نرى سفينة تتعد عن الشاطئ، فنحن نرى الجزء الأعلى منها إلى أن تختفي، وهنا لا يمكن أن نرجع الزمان إلى الوراثة، أي إلى زمان إقلاع السفينة، بعبارة أخرى، لو افترضنا أن «ف» المسافة بين «أ» الشاطئ ومكان وجود السفينة «س» التي تقطع رحلتها بين «أ» إلى «ب» في فترات زمنية ولتكن «ن» وهنا لا يمكن إرجاع الحادثة التي حدثت في ن إلى ن، على افتراض أن الزمان غير قابل للإرجاع، أكد كانظ أن التابع الموضوعي في الزمان ممكن في التجربة، ولكن يجب أن لا ننسى بأن الزمان أحد أشكال الحدس الخالص.

مصادر الفكر التجريبي:

- ١ - كل ما كان متفقاً مع شروط التجربة الصورية فهو ممكن.
- ٢ - كل ما كان مرتبطاً بشروط التجربة المادية فهو واقعي وحقيقي.
- ٣ - كل ما كان ارتباطه بالواقع محدوداً وفق الشروط العامة للتجربة فهو ضروري.

تهدف هذه المصادر التجريبية إلى هدفين: تلخيص فلسفة كانظ في مقولات الإمكانية والواقع والضرورة من جهة، وتطابقها مع موضوعات التجربة من جهة أخرى، وكذلك تعتبر هذه المصادر تمهيدية للقسم الثالث من «نقد العقل الخالص» الذي خصصه لنقد فلسفة العقلانيين والمثاليين.

الإمكانية:

يوجد مفهوم الإمكانية داخل حدود التجربة فقط، وكما عرفنا أن المعرفة القبلية تأتي من مصدرين هما الحساسة والفهم، وتقوم الأحكام التركيبية القبلية لعلمي الرياضة والفيزياء على التجربة، وهنا يمكن تسويق رفض كانظ لمبدأ عدم التناقض كوسيلة للحصول على المعرفة الإنسانية، فلو قلنا أن هناك حقول نطف في غانا، فإن هذا الحكم لا يتناقض منطقياً، ولكنه غير صحيح بسبب عدم اكتشاف حقول نطف في هذا البلد، وهنا يرى كانظ بأننا لا يمكن أن نعتمد على مبدأ عدم التناقض في تأكيد صحة الخبر لغياب موضوعه في التجربة، فموضوع علم الهندسة

يمكن في التجربة، ولكن جميع الأحكام الرياضية هي أحكام تركيبية قبلية، أي يمكن إنشاء مفاهيمها في ملكة الفهم.

الواقع:

لكي تكون معرفة الأشياء واقعية يجب أن ترتبط بالإدراك الحسي، بعبارة أخرى يجب أن تمثل الانطباعات الحسية في ملكة الحساسية، وبدون هذه التمثيلات، لا يمكن الادعاء بأن الأشياء التي نتحدث عنها حقيقية، أو على الأقل داخل حدود العقل النظري.

الضرورة:

تعني الضرورة أن الشيء يجب أن يحدد وفقاً لشروط التجربة لهذا تعتبر الضرورة الحجر الأساسي لقانون السببية في عالم الظواهر، ولا يعني كانط بالضرورة المطلقة لأنها غير ممكنة، ولكن الضرورة الافتراضية التي هي ممكنة طبقاً لقانون السببية.

وأخيراً نقول أن هذه المصادر التجريبية بمثابة بوصلة تقود الإنسان إلى شاطئ الأمان في بحثه الغائب عن الحقيقة، أو المعرفة الممكنة للعقل الإنساني، فلقد اعتبر كانط الفلسفة وسيلة للبحث عن المعرفة الممكنة داخل حدود العقل النظري، وبالتالي استحالة تخطي حدود عالم الظواهر (الشيء في ذاته).

بيد أن هناك ثغرات عديدة في المذهب الكانطي، ومن السهل على الباحث في عصرنا الحالي نقد كانط في الأحكام التركيبية القبلية أو مفهوم المادة أو حتى السببية النيوتينية، وكذلك الإشارة إلى عدم نجاح كانط في الربط بين عالم الظواهر وعالم النومينا أو الشيء في ذاته. وعلى الرغم من هذا، يمكن اعتبار مذهب كانط متكاملًا بالمقارنة مع عصره، والنتائج التي حققها داخل تيار الفكر الإنساني. والجدير بالإشارة أن عدداً كبيراً من مؤرخي الفلسفة اعتبروا الفلسفة النقدية بمثابة الحجر الأساسي للفلسفة الحديثة أو أن الفلسفة الحديثة ما هي إلا نقد للفكر النقدي أو تطوير لهذا الفكر.

لقد أسس كانط قاعدة جديدة للقضايا الميتافيزيقية تقوم على الأخلاق وبالتالي لم تعد هذه القضايا تزامم القضايا العلمية الأخرى، ويجب أن لا ننسى أن كانط اعتبر مملكة الميتافيزيقا أرفع بكثير من مملكة العالم المحسوس، لأن أعمدها تقوم على الإيمان. وخير ختام لهذا البحث هو قول كانط:

شيتان يملآن قلبي اعتزازاً وتقديراً، القانون الأخلاقي في صدري، والسماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي.

الهوامش

- (1) Kant, 1: Smatliche werke, published by K. Rosenbranz and F R.W. schubert, BD. xi. ABT, P. 248
- (2) Kant 1, The Critique of pure Reason. PA. XIV, Translated by norman Kemp Smith.
- (3) Johs-Witt-Hansen: Exposition and Critique of the Conception of Eddington Concerning of physical Science. G.E.C. Gads publishers Copenhagen 1958, p. 18.
- (4) Kant, I., prolegomena to Any Future Metaphysics that will be able to present itself as a science. A Translation From German by peter G. Lucas p, 9
- (5) Hume, David: Enquires Concerning the Human Understanding and Concerning The Principles of Morales (1748) Reprinted From The Posthumous edition of 1777 Edited with introduction comparative table of Contents and an analytical index by L.A. Selby - Bigge - oxford, at the Clarendon press 1902 p. 61
- (6) Ibid., : P. 63
- (7) Kant, 1: The Critique of pure Reason, B XIV
- (8) Hume, David: Enquires Concerning The Human Understanding and Concerning the principles of Morals p. 64.
- (9) Kant, 1: The Critique of pure Reason PAXV.
- (10) Kant, 1: The Critique of pure Reason PXX
- (11) جيمس جينز: الفيزياء والفلسفة. ترجمة جعفر رجب، دار المعارف ص ٨٧.
- وهنا ينبغي أن نلاحظ أن كانوا لا يعني الأسبقية الزمنية، بل يعني الأسبقية المنطقية للأحداث؟ طالما أن الزمان شرط ضروري لكل الموضوعات الممكنة من العقل النظري.
- (12) يرى كانط أن العلوم الطبيعية والرياضية علوم ميتافيزيقية طالما أنها تقوم على أحكام تركيبية قبلية، ولكنها ممكنة في التجربة بسبب تمثل ظواهرها في الحدس من خلال الزمان والمكان. أما الميتافيزيقا (العقلانية) فلا مكان لها داخل العقل النظري لأن أفكارها لا تمتلك شرعية وجودها داخل العقل النظري بسبب عدم وجود ظواهر لها في الحدس.
- (13) Kant, 1: The Critique of pure Reason, p. 197
- (14) Ibid., p. 201
- (15) Ibid., 215
- (16) د. فيليب فرانك: فلسفة العلم. ترجمة د. علي علي ناصف. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص ٣١٩. الطبعة الأولى بيروت.
- (17) Kant, 1: The Critique of Pure Reason B 226, p 213

1912

1913

1914

1915

1916

1917

1918

1919

1920

1921

1922

1923

1924

1925

1926

1927

1928

1929

1930

1931

1932

1933

1934

1935

1936

1937

موجز تاريخ الفلسفة الأرمينية في العصور الوسطى

الدكتور علاء حمروش - قسم الفلسفة

مقدمة:

يشغل الشعب الأرميني في تاريخ العالم صفحة رائعة حافلة بسلسلة من المآسي قوامها كفاح متواصل لا هوادة فيه ضد قوى طاغية هددت كيانه.

ولعبت الفلسفة الأرمينية دوراً هاماً في صيانة الحياة الروحية والثقافية للشعب الأرميني، وأسهمت في المحافظة على شخصيته ووجوده القومي.

وعلى الرغم من أن الفلسفة الأرمينية عاجلت العديد من القضايا والمشكلات الفلسفية التي حاولت معالجتها فلسفات أخرى - إلا أن الإتجاه الأساسي في الدراسات الفلسفية الأرمينية خاصة في العصور الوسطى - ينحون نحو المحافظة على خصوصيات الثقافة الأرمينية والحياة الروحية للشعب الأرميني.

ومحاولتنا لتقديم موجز لتاريخ الفلسفة الأرمينية تهدف إلى إيضاح وكشف مسار تطور الفكر الفلسفي الأرميني، والإشارة إلى مساهماته الفلسفية في العصور الوسطى، ودوره في تطور الفلسفة العالمية، وفي الحوار الفلسفي بين الشرق والغرب، ذلك أننا نعتقد أن التراث الفلسفي العالمي ليس حكراً على شعوب بعينها، فهو ليس إبداعاً غربياً فقط، كما أنه ليس إبداعاً شرقياً فقط بل هو حصيلة إبداعات كل الشعوب شرقها وغربها.

ويقف تاريخ الفلسفة الأرمينية شاهداً ضد الآراء الخاطئة لأولئك الفلاسفة الذين يعتقدون بأن هناك شعوباً أسهمت في إغناء الفلسفة وتطويرها وأخرى لم

تسهم في هذا العطاء ويقدمون العديد من الأطروحات حول ركود الفلسفة في الشرق، وعن التناقض والعداء الأبدي بين النمط الغربي والنمط الشرقي في التفكير.

فالفكر الفلسفي تطور في الشرق والغرب على السواء، والمذاهب الفلسفية التي ظهرت في بلدان مختلفة، قد عالجت المسائل الأساسية ذاتها، وأسهم كل منها بنصيبه في إغناء تراث الفكر الفلسفي العالمي.

وللفلسفة الأرمنية في العصور الوسطى سياتها الخاصة، ويرجع ذلك إلى دور الكنيسة الجريجورية الوطنية في تاريخ الشعب الأرمني مما جعل الاتجاهات الفلسفية السائدة في الفلسفة الأرمنية في العصور الوسطى أقرب إلى المثالية منها إلى المادية. وفي تاريخ الفلسفة الأرمنية تتجلى العلاقة الديالكتيكية بين الظروف الوطنية والعالمية لتطور الوعي الاجتماعي. فتطور الفكر الفلسفي في أرمينيا لم يرتبط فقط بالحياة الاقتصادية - الاجتماعية - بل تأثر بالنتاج الفلسفي والفكر الاجتماعي لشعوب البلدان المجاورة أو التي ارتبطت معه بعلاقات اقتصادية وسياسية وفكرية متنوعة، فالفلسفة الأرمنية في العصور الوسطى لها طابع وسطي. فقد تأثرت بالفلسفة اليونانية وفلسفة العصر الهلنستي وأيضاً إلى حد ما بالفلسفة العربية الإسلامية... إلخ.

ونأمل أن تكون دراستنا هذه بداية للإهتمام والبحث العلمي حول الفلسفة الأرمنية ومراحل تطورها المختلفة وتأثرها بغيرها من الفلسفات الشرقية.

ونلاحظ أنه في السنوات الأخيرة ازداد الإهتمام العلمي ليس فقط بدراسة الفلسفات الغربية كما كان في السابق ولكن بالبحث في التراث الفلسفي والثقافي للحضارات الشرقية الكبرى مثل الهند ومصر والصين واليابان وإيران وأرمينيا... إلخ. وتتجه العديد من الدراسات الفلسفية في مصر إلى جانبيين رئيسيين فقط - إما نحو التنقيب في التراث الفلسفي العربي - الإسلامي ومحاولة التقليل من الإبداعات الفلسفية الأخرى، وإما نحو التوجه للدراسات الفلسفية الغربية ومحاولة إنكار ثقافتنا وتراثنا الفلسفي وعدم الإهتمام بالأفكار الفلسفية للشعوب الأخرى. ومحاولتنا لدراسة تاريخ الفلسفة الأرمنية في العصور الوسطى تدخل في إطار محاولة توسيع آفاق البحث الفلسفي العلمي وإغناء دراساتنا والثقافية بمعارف وأفكار جديدة.

و «أرمينية» أو «أرمنستان» هي وطن الشعب الأرمني، وبها تسمى الشعوب الأجنبية تلك البلاد، ولكن الشعب الأرمني يسميها «هاستان» لأنه يسمي نفسه «هاي» نسبة إلى فائدة الأسطوري القديم. ويقال إن أرمينية إنما تنسب إلى ملكهم الأسطوري القديم الثاني أرمن بن هايك - أما اسم أرمنستان فمعناه بلاد الأرمن وهو تسميتها في اللغتين الفارسية والتركية. فمن المعروف أن كلمة «ستان» معناها بلاد - كما أن لأرمينية اسم رابع هو «سموختي» الذي يسميها به الجورجيون، وكذلك تسمى أرمينيا مجازاً «كاراستان» أي بلاد الأحجار والصخور باللغة الأرمينية لكونها بلاداً جبلية.

وتقع أرمينيا إلى الشمال الشرقي من الأناضول وتحدها من الشمال جبال القفقاس ويكتسب تعيين حدودها أهمية خاصة، وذلك لأن حدودها ظلت عرضة لتبديلات عدة بسبب الحروب. فلقد كان لوقوع أرمينية بين شعوب متعادية أثره في تحديد مجرى تاريخها، إذ جعلها طعمة لجيرانها منذ قديم الزمن كالسلوقيين والرومان والبيزنطيين من ناحية وممالك فارس من ناحية أخرى. كما كان لموقع أرمينيا وجغرافيتها أثره البالغ في تاريخها إذ كانت بمثابة قلعة داخلية وسداً حاجزاً بين الخلافة العربية - الإسلامية الفتية والإمبراطورية البيزنطية العريقة، لذا، كانت أرضاً للصراع بينهما^(١).

والشعب الأرمني شعب شرقي تربطه بالشعب المصري علاقات حضارية وثقافية متميزة، والشعب الأرمني على الرغم من الصعوبات والمحن التي واجهها على مسار تاريخه الدامي إلا أنه قدم مساهمة بارزة في تطور الفكر الفلسفي العالمي. ودراستنا هذه حول الفلسفة الأرمينية في العصور الوسطى نعتبرها مقدمة لدراسة أخرى حول الفلسفة الأرمينية الحديثة والمعاصرة.

(١) راجع: فؤاد حسن حافظ، تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية إلى اليوم - القاهرة ١٩٨٦ ص ٣ - وجول تمبل تاريخ أرمينيا - ترجمة شكري علاوي - بيروت ١٩٦٤ ص ٥، ص ٦٧ - البلاذري - فتوح البلدان - بيروت ١٩٧٨ ص ١٩٧ - وفايز نجيب أسكندر - الفتوحات الإسلامية لأرمينية - الإسكندرية - ١٩٨٣ ص ٩٦ - وجرار ديديان - تاريخ الشعب الأرمني - باريس ١٩٨٢ ص ١٠ - ودافيد لانج - أرمينية مهد الحضارة - لندن ١٩٧٠ ص ٢٥.

Handwritten text, possibly a list or notes, located in the upper middle section of the page.

Handwritten text, possibly a list or notes, located in the middle section of the page.

Handwritten text, possibly a list or notes, located in the lower middle section of the page.

Handwritten text, possibly a list or notes, located in the lower section of the page.

الفكر الفلسفي في أرمينيا

١ - مقدمة :

إن المسيرة التاريخية للشعب الأرمني كانت صعبةً ومتعرجةً، فعلى امتداد عدة قرون ونظراً للأهمية الاستراتيجية والجغرافية الاستثنائية لأرمينيا كانت أرمينيا مسرحاً لصراع بين الدول الكبرى في الشرق والغرب... الصراع من أجل السيطرة على أرمينيا بين إيران الساسانية والإمبراطورية الرومانية الشرقية - البيزنطية - وقد أخذ شكلاً عنيفاً خاصة بعد أن اعترفت أرمينيا بالمسيحية كديانة رسمية - ٣٠١م^(١) وفي نهاية الصراع بين الدول المتصارعة تم الوصول إلى اتفاق في عام - ٣٨٧م - وطبقاً لاتفاق كيدسيفون تم تقسيم أرمينيا بينهما حيث أصبح أربعة أخماس الأراضي الأرمنية - الجزء الشرقي - تحت سيطرة إيران الساسانية، والخمس الباقي - الجزء الغربي - تحت سيطرة بيزنطة، وقامت بيزنطة بسرعة بتحطيم الملكية الأرمنية في الجزء الغربي وعيّنت حكاماً من قبلها. أما في الجزء الشرقي فلقد تلاشت السلالة الأرشكية في - ٤٢٨م - نظراً لفقدان الشعب الأرمني دولته ووقوعه تحت الضغط الأيديولوجي من الزرادشتية في إيران^(٢) والكنيسة اليونانية في بيزنطة وبذل الشعب الأرمني من أجل المحافظة على هويته القومية كل الجهود الممكنة.

فمن ناحية أخذ النضال المسلح ضد المعتدين الأجانب شكل الانتفاضات المسلحة مما أدى إلى إضعاف السلطة الأجنبية على المقاطعات الأرمنية ولكن من ناحية أخرى استطاع الشعب الأرمني بشكل أكثر فاعلية الكفاح في المجال الفكري والأيديولوجي.

ومع بداية القرن الخامس - ٤٠١م - قام المثقف الأرمني البارز مسروب مشنوتس (٣٦١ - ٤٤٠م) بإبداع الحروف الأرمنية^(٣) وبعد ذلك مباشرة ظهر

العديد من الأعمال والمؤلفات الفلسفية والتاريخية والدينية... إلخ وأيضاً ظهرت المؤلفات الفنية ولقد أطلق على تاريخ الثقافة الأرمنية في القرن الخامس اسم قرن التراجم نظراً لقيام رجالات الثقافة الأرمنية الذين تعلموا في بيزنطة والشام وغيرها من البلدان المسيحية فور ابداع حروف اللغة الأرمنية بالقيام بترجمة المؤلفات العلمية والدينية. ويعد مسروب مشتوتس وتلامذته من أوائل المترجمين الأرمنيين، كما تم إنشاء العديد من المدارس وتنظيم الحياة التعليمية في أرمينيا^(٤). ومن ناحية أخرى ونظراً للتمايز الديني عن إيران الزرادشتية فلم يوجد مجالاً للحكام الفارسيين سوى الضغط المباشر على الشعب الأرمني بقصد تغيير عقيدته الدينية ومثل هذه المحاولات ووجهت بمقاومة قوية من الشعب الأرمني، وعلى سبيل المثال معركة أوداير في ٤٥١م، ولم يكتب النجاح لمثل هذه المحاولات الفارسية.

ولكن كان أكثر خطورة على الشعب الأرمني الضغط البيزنطي المسيحي الذي كان يتطلع للسيطرة الكاملة على الكنيسة الأرمنية، وظهرت تدريجياً محاولة إخضاع الشعب الأرمني، كما ظهرت ضرورة الدفاع من جانب الشعب الأرمني ضد هذه المحاولات البيزنطية وإيجاد أيديولوجية قادرة على مواجهة محاولات السياسة البيزنطية لإدماج الشعب الأرمني.

إن قيام هذه الوضعية الجديدة، جعلت قضايا الدين والإيمان والكنيسة والثقافة الروحية بالنسبة للأرمن وثيقة الصلة بالمهام الملحة للوجود القومي الأرمني وفي نهاية المطاف أخذت معنى سياسياً.

ولقد حدث الانقسام بين الكنيسة الأرمنية واليونانية في فترة انعقاد المجمع المسكوني في خلقدونيا - ٤٨٠م، وفي ٥٥٤م في مدينة دفين بأرمينيا وأثناء انعقاد المجمع الكنيسي تم اتخاذ قرار رسمي بانفصال الكنيسة الأرمنية عن الكنيسة البيزنطية واعترف بالكنيسة الأرمنية ومعتقداتها كعقيدة رسمية للأرمن^(٥).

وبفضل هذا القرار تم إقامة حاجز أيديولوجي بين الأرمن من ناحية وبين محاولات بيزنطة من ناحية أخرى.

ولقد كان القرن الخامس غنياً بالأحداث السياسية وبالصراعات الأيديولوجية والروحية. وفي هذا القرن أيضاً تم ابتكار حروف الكتابة الأرمنية مما جعل هذا القرن قرن ظهور الثقافة الأرمنية المكتوبة.

ومن المهم الآن التعرف على أساس تكوين هذه الثقافة الأرمنية. ولقد أوضح المستشرقون الأرمن منذ فترة بعيدة أن فترة ظهور الاسكندر الأكبر في منظومة الثقافة الهيلينية لأرمينيا على أسس قومية تطورت بشكل فعال في المجالات الثقافية المختلفة الفلسفة - العمارة - الأدب - المسرح... إلخ. وكانت الأرستقراطية الأرمنية مشهورة باهتمامها بالتعليم والمعارف المختلفة... وقد تمتع بعض الفلاسفة والعلماء الأرمن بشهرة واسعة في العالم المتحضر ومن بينهم الفيلسوف البارز - فيراينوس - و - يثران الأرمني - الذي اشتهر بمدينة روما والذي أشار إليه في رسائله باحترام كبير الخطيب والمفكر الروماني شيشرون - في أزمان مختلفة وفي مختلف مراكز العالم أبدع الفلاسفة الأرمن، ومنهم - باروير الأرمني - ودافيد المنتصر وآخرين، ويمثل القرن الخامس الميلادي أهمية كبرى لتطور الثقافة الأرمنية ولاسيما في حقل الترجمة فقط ظهرت التراجم من اليونانية ومن لغات أخرى إلى الأرمنية... وقبل كل شيء ترجم الإنجيل والعديد من الكتب الدينية الخاصة بالمراسم الكنيسية. ومن مؤلفات رجال الكنيسة يقيم السوري، وفاسيلي القيصري، وإيوان ذو الفم الذهبي وجريجوري نازين زين، وأفاناسي الإسكندري... وآخرين.

ولكن التراجم لم تقتصر فقط على المؤلفات الدينية بل قام المترجمون أيضاً بترجمة التراث الفلسفي اليوناني... ففي القرن الخامس تم ترجمة المؤلفات الفلسفية لأرسطو وأفلاطون... إلخ^(٦).

وبالإضافة إلى ذلك تم القيام بعمل شروح وتفسيرات لهذه المؤلفات، وتكتسب التراجم الأرمنية أهمية عالمية بالنسبة للتراث الفلسفي اليوناني القديم وذلك نظراً لأن أصول بعض المؤلفات الفلسفية اليونانية قد فقدت - أو فقد بعض أجزاءها - وبهذه الطريقة تمت المحافظة على كتاب الطبيعة (لزينون) والمقولات (لهرمس) وأنا لوطيقا (لأرسطو) وبعض أعمال - فيلون الإسكندري. إن التراجم الأرمنية كما أشار المستشرق الإنجليزي فردريك كونبير تعد ترجمات دقيقة وذات قيمة علمية كبرى - خاصة فيما يتعلق بمؤلفات أرسطو.

واستخدم الأرمن المناهج العقلية للتراث الفلسفي اليوناني القديم كسلاح (إضافي) ضد الكنيسة اليونانية والزرادشتية.

الفلسفة الأرمنية في عصر الإقطاعية المبكرة من القرن الخامس إلى القرن التاسع الميلادي

٢ - بواكير الفكر الفلسفي في أرمينيا:

من المعروف أن أول المؤلفات الفلسفية الأرمنية التي كشفت بواكير تطوّر الفكر الفلسفي في أرمينيا على أسس مستقلة هو كتاب (نفي المذاهب) ٤٤٣ - ٤٤٨م - لزيك كوخبتسي والذي ولد في نهاية القرن الرابع بقرية (كخب) في منطقة أراغات وهو يعدّ من تلامذة - مسروب مشتوتس - والذي أرسله للتعرف بشكل أكثر اتّساعاً على الثقافة السائدة في بلاد الشام وبيزنطة - وبعد عودته لأرمينيا أصبح المساعد الأول لأستاذه.

ويعدّ كتابه - نفي المذاهب - موجهاً ضد الزرادشتية ويهاجم فيه فلسفة ماني الثنائية^(٧) كما يتضمن نقداً من وجهة النظر المنطقية للمدارس الفلسفية التي كانت سائدة قبل المسيحية، فقد نقد أفكار فيثاغورس وأبيقور... إلخ وبالإضافة إلى نقد الزرادشتية التي تمثل الجزء الرئيسي من مؤلفه - كما عالج قضية القدر وقضية الإيمان بالدهر ودعا الشعب الأرمني لمقاومة المسيحية الداعية إلى عدم مقاومة الظلم... وقد تركت أعماله أثراً هاماً على تطوّر الفكر الفلسفي في أرمينيا في القرون الوسطى. وترجمت أعماله إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية وغيرهما. ويعد الممثل البارز لتطوّر الفكر الفلسفي والاجتماعي في القرن الرابع للميلاد عندما بدأت تتشكل في أرمينيا العلاقات الإقطاعية.^(٨)

ولقد ظهر في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس، الفيلسوف دافيد انهخت (المتصر)، ويعدّ مؤسس الاتجاه المدني (اللاذيني) في الفلسفة الأرمنية

القديمة، وقد لعب دوراً هاماً في تطوّر الفلسفة الأرمنية وفي صياغة وتكوين المصطلحات والمقولات الفلسفية باللغة الأرمنية.^(٩)

ولقد تلقى دافيد أنهخت دراساته الفلسفية في مدينة الإسكندرية في مدرسة (أوليمبيودوروس الأصغر) والتي عبّرت عن أفكار ونظريات الأفلاطونية الجديدة، وعند عودته إلى أرمينيا قام بدوره بإلقاء المحاضرات والدروس في العديد من المدن الأرمنية.

وقد ذاعت شهرت دافيد أنهخت في المراكز والأوساط الفلسفية وخصوصاً في أوساط الفلاسفة اليونانيين- ويؤكد ذلك العديد من الشواهد التاريخية- وبالإضافة إلى تلك الحقيقة التي تتمثل في أن ثلاثة أعمال رئيسية من أعماله الكبرى ترجمت إلى اللغة اليونانية ووصلت إلينا من خلال المؤلفات والمخطوطات اليونانية وهذه الكتب هي:

- ١ - مفهوم الفلسفة.
- ٢ - تحليل مقولات أرسطو.
- ٣ - تفسير أنولوطيقا أرسطو.^(٩)

ويعدّ دافيد أنهخت مفكّر الزعامة الإقطاعية وفيلسوفاً مثالياً ورجل الأفلاطونية الجديدة في أرمينيا، والعالم المادي عنده نتاج للروح العالمية أو الخالق، والعناية الإلهية هي التي تسيّر العالم.

لكن هذه الآراء المثالية كانت مشوبة ببعض العناصر المادية. ومّا يسترعي الانتباه في فلسفة دافيد أنهخت نظريته في المعرفة. فالطبيعة كخالق موجودة بشكل مستقلّ عن الوعي والعالم قابل للإدراك.

وعلى أساس تأثير الأفلاطونية الجديدة خاصة من قبل أوليمبيودوروس الأصغر حاول دافيد أنهخت أن يضع أساساً لمدرسة فلسفية متميزة تجمع في إطارها بين فلسفة أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وفي كتابه حول مفهوم الفلسفة وتحليل مقولات أرسطو^(١٠) يشير دافيد أنهخت أن الخالق هو السبب الأول لوجود العالم. ومن هنا نصل إلى نتيجة تتمثل في أنه فقط من خلال معرفة الطبيعة يمكن معرفة الخالق، وحسب رأيه فالعالم يمكن أن يعرف بصورة كاملة. ومسار المعرفة يأخذ شكلين،

حسي ومنطقي - كما أنه توجد خمس مراحل متتابعة للوصول إلى معرفة الحقيقة: الإدراك الحسي والخيال والرأي والاستدلال المنطقي والتحليل على أساس العقل. وقد اعتبر أن الفلسفة علم عن الإنسان وسيلة بواسطتها يمكن للإنسان أن يتعدى الموت وتمكنه من التشبه بالخالق. وقد نظر إلى الموجودات الطبيعية على أنها مراتب متدرجة، وأكد على أن الإنسان ينبغي عليه أن يتصرف وفقاً للعلم والمعرفة وهما لا يمكن أن يوجد بدون ممارسة فعلية للإنسان.

واعتمد المفكرون الأرمينيون مثل كخبستي وخورناتسي^(١١) وبخاصة دافيد أنهخت على آراء ووجهات نظر ديمقريطس التي ترى أن قدرات الإنسان تتوقف على صفاته الأخلاقية، كما اعتمد دافيد أنهخت على آراء الأفلاطونية الجديدة التي تؤكد على أن الإنسان يمثل العالم الصغير وهو انعكاس للعالم الكبير «الخالق» ولكنه تمايز عن الأفلاطونية الجديدة وأضاف إلى مفهوم الخالق - الذي يتطلع الإنسان إلى الحلول فيه - معنى آخر يتمثل في أن الإنسان لتحسين قدراته عليه أن يتمثل ثلاث صفات إلهية

أولها: القوة الخيرة فالخالق يهتم بكل الأشياء - ولذا فالإنسان عليه أن يهتم بالآخرين، وأن يعاونهم على استكمال وتحسين قدراتهم وتحررهم من الظلم والشر.

وثانيها: القوة الحكيمة - فالخالق يعرف كل الأشياء ولذا فالإنسان عليه أن يعرف جوهر الأشياء ويتطلع إلى محبة المعرفة. وبقدر ما يعرف الإنسان ما حوله يقترب من الخالق.

وثالثها: الخالق قوة قادرة على كل شيء - ولذا فالإنسان عليه أن يحاول امتلاك المقدرة على أن يحقق رغباته وعليه ألا يتطلع إلى المستحيل بل أن يبحث عن الممكن.

والفيلسوف يعرف أكثر وأعمق من الآخرين، ولذا فهو أقرب إلى الخالق. ولهذا فهو يعتبر الفيلسوف أعلى نماذج البشر ويعتبره واسطة ورابطه بين البشر والخالق.

وبلاحظ أن أفكار دافيد أنهخت عن الفكر الفلسفي الأرميني كان لها أثر كبير في تطوّر الفكر الفلسفي الأرميني حتى القرن التاسع عشر.

ولقد شكّلت أعماله بالإضافة إلى ترجماته المختلفة لأعمال أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وفورفوروس وغيرهم أساساً متيناً لتطوّر الفكر الفلسفي الدينيوي. (١٢)

ولقد أثر دافيد أنهخت في الفلاسفة والمفكرين اللاحقين له من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر مثل جريجور مجيستروس وهفهانيس سركلفاك، وفهرام رابوني - وهفهانيس فرونتيسي وجريجور طفتسي وآخرين فتأثروا بأفكاره ومنهجه، ومن خلال تراثه الفكري عملوا على استمرار التعرّف على كنوز العلوم والفلسفات القديمة، وكما أوضح م. ي خيراليف - فإن منطق التصورات النظرية لدفيد أنهخت أسهمت في تدعيم وإغناء التيار الأرسطي الذي أسهم بدوره في الفلسفة العربية - الإسلامية في العصور الوسطى في تكوين أفكار الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد. (١٣)

كما أوضح نيكيس التأثير الكبير للأفكار الفلسفية لدافيد أنهخت على الفلسفة البيزنطية في القرون الوسطى. (١٤)

وظهر بعد دافيد أنهخت الفيلسوف والعالم الأرمني البارز أنانيا شيراكتسي (٦٨٥/٥٩٥م) والذي يعدّ من أعلام الفكر الفلسفي المادي في أرمينيا^(١٥) في القرن السابع الميلادي والذي كتب (دليل العالم) و(معرفة الكون) وكان رياضياً وعالمياً فلكياً وجغرافياً. ولقد قدم أنانيا شيراكتسي إسهاماً ضخماً في تطوّر الديالكتيك - إذ قال إن التكوين هو بداية الفناء والفناء بدوره هو بداية التكوين، ومن هذه التناقضات التي لا يمكن أن تفتى - يصبح العالم خالداً، وبهذه الطريقة حدّد أنانيا شيراكتسي لأول مرّة فكرة وجود العالم المادي في وحدة وصراع التناقضات.

ويعدّ أنانيا شيراكتسي من أوائل من قالوا بأن الأرض كروية الشكل - وهي فكرة ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد - ولقد طوّر أنانيا شيراكتسي تصوّر دافيد أنهخت حول الاتصال بين العالم الصغير والعالم الكبير فأكد على أن الإنسان يمكن له بدون واسطة الوصول إلى الخالق. والناس في رأيه لا ينبغي أن يعيشوا حياة تقوم على الزهد والخوف من قسوة الطبيعة ولكن عليهم الاستمتاع بملذات الحياة والسعي للحصول على الحكمة والمعرفة. (١٦)

وتعدّ فلسفة أنانيا شيراكتسي أعلى مرحلة لتطوّر الفكر الفلسفي الأرمني في

عصر الإقطاعية المبكرة. ولكن في الفترة نفسها، ونتيجة للصراع الاجتماعي بين الإقطاعيين والفلاحين نشأ اتجاه فلسفي ديني عرف تاريخياً باسم «المهرطقة البولسية»^(١٧) والذي أثر في تكوينه المانوية والغنوصية المسيحية الشرقية. وكان المهرطقة البولسيون كأتباع للمانوية يتصوّرون أن للكون جوهران - إله الخير وهو حاكم العالم السماوي، وإله الشر وهو خالق المادة، وهذان الجوهران متناقضان ولا نهائيان ويعدان أساس نشأة الموجودات. وروح الإنسان وكلّ ما هو خير في العالم يصدر عن إله الخير وكلّ النواقص والشرور تصدر عن إله الشر، وبين هاتين القوتين يدور صراع دائم من أجل ملكية الإنسان، وهذا الصراع بينهما يؤثر في السلوك الإنساني ولذا فإن الإنسان عليه أن يسلك سلوكاً يضمن به تطوير ملكاته وقدراته وأخلاقه من أجل ضمان انتصار الخير والذي يتم من خلال إنقاذ روح الإنسان.

كذلك فإن من أهم الأطروحات التي قدّمها المهرطقة البولسيون نفي كل ما يتصل بالعالم المادي. هذا الطريق - طريق نفي المادة - يتمثل في الزهد وتسخير قدرات الإنسان وأمكانياته لإنقاذ الروح من قيود المادة.

والمهرطقة البولسيون كانوا يرون إله الخير «الأب السماوي» يملك السيطرة على المستقبل فقط بينما إله الشر يحكم تطوّر التاريخ الإنساني. ولكن التاريخ الإنساني لا يعود إلى إله الشر ولكن يتجه إلى إله الخير - وفي هذا التطوّر هم ينكرون دور المسيح كني فقط كما ينكرون أيضاً دور الأنبياء الآخرين.

والمهرطقة البولسيون لا يعترفون بمراحل التطوّر التاريخي كما ذكرت في العهد القديم في «التوراة» لأنهم اعتبروا أن التوراة تدافع عن اللامساواة بين الناس وتعرض لتاريخ الشقاء الإنساني فقط.

وقد حاول المهرطقة البولسيون تطبيق وجهات نظرهم عن المدينة العادلة، وهي في تصورهم تقوم على اعتبارات جغرافية بغض النظر عن الانتهاء الوطني أو القومي - والأساس بالنسبة للانتماء لمدينتهم في رأيهم هو الانتهاء الروحي. وسكان هذه المدينة العادلة متساوون ولا يوجد مكان للملكية الخاصة، بل تقوم على العمل التعاوني الجماعي ويقف على قمة هذه المدينة القائد الروحي للجماعة والذي ينتخب من مجلس للشيوخ. وبالإضافة إلى ذلك ينتخب أعضاء المدينة قائداً حربياً يتولى

العناية بكافة الأمور الحربية وإدارة الدفاع عن المدينة في خلال فترة الحروب فقط. وتعدّ المأثرة التاريخية للهراطقة البوليسيين أنها كانت أساس انتشار وتطوّر أفكار الهرطقة في بلدان العالم المختلفة - وعلى الأخص في بعض البلدان الأوربية، فأراء الهرطقة البوليسيين انتشرت في القرن السابع والثامن الميلاديين في بيزنطية، ونتيجة لذلك تعرض الهرطقة البوليسيون إلى اضطهاد من الأباطرة البيزنطيين مما ترتب عليه هجرتهم إلى بلاد أخرى وخصوصاً إلى البلاد السلافية: إلى بلغاريا^(١٨) وروسيا الكيفية^(١٩) وبعد ذلك إلى بلدان الغرب في إيطاليا وفرنسا.^(٢٠)

ومن القرن السابع الميلادي إلى القرن التاسع الميلادي ظهرت مدرسة فلسفية في أرمينيا الغربية قام بتأسيسها هفهان ميراجومتسي، وتابع أفكاره تلاميذه من بعد وتعدّ أيضاً مدرسة هرطقية مسيحية. وأعطى هفهان ميراجومتسي اهتماماً خاصاً للمشكلات الاجتماعية وقدم تصوّراً للمدينة العادلة تقوم على أساس المساواة بين أعضائها حيث تحتفي الملكية الخاصة.

وسوف نعالج بعد ذلك في مقال قادم الفلسفة الأرمينية في عصر ازدهار الإقطاع (١٠ - ١٤م) والفلسفة الأرمينية في عصر انهيار الإقطاعية (١٥ - ١٧م).

الهوامش

- (١) تعدّ أرمينيا أول دولة اعترفت بالمسيحية كديانة رسمية في العالم عام ٣٠١م على يد المنور جريجور - البطريرك الأرميني - كتوليكوس.
- (٢) الزرادشتية - دين الإله - أهورا مزوا - وكتابها المقدس - أستا وداعيتها زرادشت. مذهب ثنائي ذو مسحة أسطورية. الفكرة الأساسية فيه هي صراع القوتين المتضادتين - النور - والظلمة - والحياة والموت - والخير والشر. . . إلخ.
- (٣) ابتكر مسروب مشتوتس تحت رعاية البطريرك الأرميني القديس إسحاق الأول (٣٨٧ - ٤٢٩م) حروف الكتابة الأبجدية الأرمينية في عهد ملك أرمينية بهرام شابوه البارثي (٣٩٢ - ٤١٤م) واللغة الأرمينية هي فرع أصلي قائم بذاته من اللغات الآرية والحروف التي تكتب بها مختلفة عن حروف كل اللغات الأخرى ولا تماثل واحدة منها.
- (٤) راجع: ك. استارجيان - تاريخ الثقافة والأدب الأرميني - الموصل ١٩٥٤ ص ١٠م. أبيقان تاريخ الأدب الأرميني القديم - موسكو ١٩٨٢ ص ٢٨ - وأيضاً أ. مكريان - تاريخ الأدب الأرميني ج ١ ياريفان ١٩٤٩ ص ١١.

- (٥) الكنيسة الأرمنية الجرجورية الوطنية هي كنيسة من الكنائس الشرقية المونوفيسية التي تخالف عقائدها عقائد الكنيسة الرومية الأرثوذكسية لدولة الروم البيزنطية ولدولة روسيا القيصرية، ومقر (الكاثوليكوس) أي الرئيس الأعلى للكنيسة الأرمنية آيتش ميادزين وهو ينتخب بمعرفة المثليين المنتدبين من قبل الأرمن المقيمين في جميع أنحاء العالم، ولزيد من التفاصيل راجع حنا مسريان - تاريخ وسنن الكنيسة الأرمنية - بيروت ١٩٦٥ .
- (٦) ف. تشالويان - تاريخ الفلسفة الأرمنية - العصور القديمة والوسطى ياريقان ١٩٧٥ ص ١٧ .
- (٧) الثنائية: هي أي مذهب فكري يقسم كل شيء بطريقة أو بأخرى إلى عنصرين أو إنه يستمد جميع الأشياء من مبدئين - والنزعة الثنائية تعتبر الجوهر بين المادي والروحي مبدئين متساويين - ويقول - ماني بن فاتك الحكيم - الذي تنسب إليه المانوية بأن العالم مصنوع من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة .
- (٨) س. أرشفاتيان - تطوّر الفلسفة الأرمنية في العصور الوسطى - ياريقان ١٩٧٩ - ص ١٥ .
- (٩) ج. لافونتين - فلسفة دافيد أنهخت (مقولات أرسطو في تراجم دافيد أنهخت) موسكو ١٩٨٤ ص ٢٦١ . وانظر أيضاً: أ. ف. لوسوف - فلسفة دافيد أنهخت (دراسة حول المأثرة التاريخية والفلسفية لدافيد أنهخت) موسكو ١٩٨٤ - ص ٣٦ .
- (١٠) ومن أعماله الرئيسية أيضاً - تحليل مقدّمة فورفوريوس (من أعلام الأفلاطونية الجديدة) .
- (١١) يعتبر مفسس خورناتسي - أبو علم التاريخ الأرمني ومن أهم مؤلفاته (تاريخ أرمينيا) .
- (١٢) انظر أعمال المؤتمر الفلسفي العالمي في الذكرى ١٥٠٠ لدافيد أنهخت موسكو ١٩٨٠ .
- (١٣) ي. م خيرالف - فلسفة دافيد أنهخت (من دافيد أنهخت إلى ابن سينا) موسكو ١٩٨٤ ص ١٢٤ و. خ برينان - نظرية دافيد أنهخت في المنطق - موسكو ١٩٨٢ ص ٥ .
- (١٤) ل. نبيكيس - فلسفة دافيد أنهخت (دافيد أنهخت في تفسيرات البيزنطيين لأرسطو) موسكو ١٩٨٤ ص ٢٦٧ .
- (١٥) أنانيا شيراكتسي (معرفة الكون) ياريقان ١٩٦٢ ص ١٠ ويعتبر شخصية موسوعية - فلقد كتب في مجالات المعرفة المختلفة كالجغرافيا والرياضيات وعلم الفلك . . . إلخ .
- (١٦) ج. خرلوبيان - الآراء الفلسفية لـ أنانيا شيراكتسي - ياريقان ١٩٥٩ ص ٦٦ .
- (١٧) البولسية: تنسب لبولس الساموستي الذي ظهر في القرن الثالث الميلادي في مدينة «ساموسات» ولزيد من التفاصيل راجع نينا جارسبون - بدعة البولستيين - لاهاي ١٩٦٧ .
- (١٨) د. أنجليوف - المراهقة في بلغاريا - موسكو ١٩٥٤ ص ٥٠ - ٥١ .
- (١٩) أ. ي كليبانوف - الحركة الإصلاحية في روسيا - موسكو ١٩٦٠ ص ١٦٤ - ١٦٥ .
- (٢٠) ب. بيان القاموس التاريخي والنقدي - المجلد ١ - موسكو ١٩٦٨ - ص ٢٨٩ .

قائمة المراجع

- ١ - س. أريفشاتيان. تطور الفلسفة الأرمنية في العصور الوسطى - ياريقان ١٩٧٩.
- ٢ - ف. شالوميان. تاريخ الفلسفة الأرمنية - ياريقان ١٩٥٩.
- ٣ - ج. خرلوبيان.
- الآراء الفلسفية لـ أنانيا شيراكتسي - ياريقان ١٩٦٤.
- تاريخ الفلسفة الاجتماعية - الأرمنية في العصور القديمة والوسطى ياريقان ١٩٧٨.
- ٤ - أ. مكريان. تاريخ الأدب الأرمني - الجزء الأول - ياريقان ١٩٤٩.
- ٥ - م. أبيفيان. تاريخ الأدب الأرمني القديم - موسكو ١٩٧٩.
- ٦ - ج. بريتان. دافيد أنهخت في المنطق - موسكو ١٩٨٢.
- ٧ - ف. تشالويان. تاريخ الفلسفة الأرمنية - العصور القديمة والوسطى - ياريقان ١٩٧٥.
- ٨ - د. فايز نجيب إسكندر. الفتوحات الإسلامية لأرمينيا (١١ - ٤٠هـ، ٦٣٢ - ٦٦١م) ج ١ الإسكندرية ١٩٨٣.
- ٩ - ج. جريجوريان. النظرية الفلسفية هوفهانيس فورونتسي - موسكو.
- ١٠ - ي. كاسوني. تاريخ التربية الأرمنية القديمة - بيروت ١٩٦٦.
- ١١ - أ. أركيليان. تطوّر الفكر والحضارة عند الأرمن - ٣ مجلدات - ياريقان ١٩٧٠ - ١٩٧٥.
- ١٢ - عدد من المؤرخين الأرمن بمعهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم الأرمنية. تاريخ الشعب الأرمني - ياريقان ١٩٧٠.
- ١٣ - جيرار ديديان. تاريخ الشعب الأرمني - باريس ١٩٨٢.
- ١٤ - دافيد لانج. أرمينية مهد الحضارة - لندن ١٩٧٠.
- ١٥ - حنا مسريان. تاريخ وسنن الكنيسة الأرمنية - بيروت ١٩٦٥.

- ١٦- ك. أستارجيان. تاريخ الأمة الأرمنية - الموصل ١٩٥١ .
تاريخ الثقافة والأدب الأرمني - الموصل ١٩٥٤ .
١٧- أ. يادريك. أرمنيا على ممر العصور - القاهرة ١٩٤٤ .
١٨- ياقوت الرومي الحموي . معجم البلدان - بيروت ١٩٥٤ .
١٩- نينا جارسون . بدعة البولسيين - لاهاي ١٩٦٧ .
٢٠- فؤاد حسن حافظ . تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى اليوم - القاهرة
١٩٨٦ .
٢١- أنانيا شيراكتسي . معرفة الكون - ياريقان ١٩٦٢ .
٢٢- ن. أ. مار. آني - موسكو وليننجراد ١٩٣٤ .
٢٣- بول أميل . تاريخ أرمنيا - ترجمة شكري علاوي - بيروت ١٩٦٤ .
٢٤- البلاذري . فتوح البلدان - بيروت ١٩٧٨ .
٢٥- أعمال المؤتمر العالمي حول الثقافة الأرمنية في العصور الوسطى - ياريقان
١٩٨٦ .
٢٦- دائرة المعارف السوفيتية الكبرى - ط ٣ - موسكو ١٩٦٩/١٩٧٨ .
٢٧- أعمال المؤتمر الفلسفي في الذكرى ١٥٠٠ لدافيد أنهخت - موسكو ١٩٨٠ .

تشارس ساندرس بيرس أبو البراجماتية

الدكتور أبو بكر السقاف
قسم الفلسفة

نشأت البراجماتية كمذهب فلسفي في السبعينات من القرن الماضي، ونشر أول ما يمكن أن يطلق عليه هذه الصفة في عام ١٨٧١، وذلك في (النادي الميتافيزيقي) الذي كونته مجموعة من أساتذة هارفارد وكان تشارس ساندرس بيرس ووليم جيمس من أعضاء هذا النادي وكذلك عالم النفس رايت والمحامي غرين.

ولكن ظهور الفلسفة البراجماتية يمكن أن يؤرخ لها بنشر مقالي بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤)^(١) «تثبيت الاعتقاد» و(كيف نجعل أفكارنا واضحة) وذلك في العامين (١٨٧٨ - ١٨٧٩) وقد صاغ في المقالة الثانية (مبدأ بيرس) المشهور الذي ينطوي بصورة شديدة الكثافة والإيجاز على فحوى الفلسفة البراجماتية ونظريتها في المعرفة. ومن العجيب أن المقالين بقيا في ظلال النسيان طوال السنوات العشرين التالية لنشرهما، ولم تكتب لهما حياة جديدة إلا في القرن العشرين.

كان بيرس شخصية متعددة المواهب: عالماً طبيعياً، وكيميائياً، وفلكياً، وذا اهتمام بالجيولوجيا وفيلسوفاً ومنطقياً ورياضياً، وهو مؤسس علم الإشارات (العلامات) (السميوطيقا). وكان محافظاً في السياسة، وجعل همه الأكبر طوال حياته تثبيت أسس الاعتقاد. ورفضه للهادية في الفلسفة كان قائماً على اقتناع راسخ، ويكشف عن هذا الرفض قوله مرة: (إنه لم يتفوه بجملته واحدة يمكن أن تكون تأكيداً لأي اتجاه مادي). وهذه دقة يغبط عليها، ولا ندرى كيف استطاع وهو عالم

طبيعي أن يتجنب كل الحمل التي من شأنها أن تجره إلى لون من المادية، وإن لم يعن ذلك خروجه من حظيرة الدين المسيحي.

وإذا ما أردنا أن نتبع مصادر بيرس الفكرية فإننا نجد (كانت)^(٢) في مقدمة الذين ألهموه وكذلك مدرسي القرون الوسطى الأوروبية كما أن أثر القس (باركلي) واضح في تفكيره. ويجد بعض مؤرخي الفلسفة أغسطس وألبرت الكبير وأبيلاز وأنسلم ضمن الفلاسفة الذين أثروا في نشأة البراجماتية ولكن أدراج د. سكوت وأوكام ضمنهم قول غير دقيق فالإسميون أعلنوا أولوية التجربة على التجريد. ويشير إلى هذا غالي^(٣).

وبيرس على حد تعبير ميير مثالي في الميتافيزيقيا، وواقعي في نظرية المعرفة^(٤) ونجد أثر مدرسي القرون الوسطى واضحا في تأكيد البراجماتية المنفعة الكامنة في الدين. ويؤكد بيرس أنه يفضل أن يفكر مثل الواقعيين^(٥).

وأما أثر باركلي في البراجماتية فإن مؤسسها يوضح في رسالته إلى جيمس حيث يقول (إن باركلي يستحق أكثر من أي إنسان آخر أن ينسب إليه إدخال البراجماتية في الفلسفة ولم يكن دوري إلا الصياغة الدقيقة)^(٦) ويقول في رسالة أخرى عن (مبدأ بيرس) (لقد درسته كما لو كان إنجيلا منطقيا، وهو يمثل منهج باركلي الذي لم ينجز صياغته)^(٧) إن البراجماتية لا تستغرق كل تفكير بيرس، فهناك جوانب من فكره لها صلة وثيقة بالمشكلة الميتافيزيقية، وكذلك بفلسفة العلم.

ولم ينشر بيرس بعد المقالين السابقين شيئا له علاقة بالبراجماتية، ولكن ظهور جيمس ونشاطه جدد اهتمامه بهذه الفلسفة، فنشر في ١٩٠٤ «ما البراجماتية» وقد أعاد تلخيص أفكار البراجماتية الأساسية، التي ضمنها مقالته، ونجد في هذا الكتاب نظرية الشك والإعتقاد ونظرية المعنى وهذه جذور البراجماتية.

ولا يمكن أن نوافق جيمس على أسلافه المفكرين الذين ذكروهم^(٨) فقد حرص على اكتشاف ملامح براجماتية عند سقراط وأفلاطون، بل وعند بولس الرسول وسليمان، ناهيك عن هكسلي وداروين. ولعله دون أن يقصد أكد أن البراجماتية تستعير قسما عدة من فلسفات متنوعة، دون أن يخرجها ذلك من نطاق المثالية الذاتية ذات المنحى الوضعي الصريح.

ولعل العنوان الفرعي لكتاب جيمس يدل على هذا الملمح في البراجماتية .
وقد دقق البراجماتي الإيطالي بانيني في وصف البراجماتية، إذ شبهها بممر في فندق
تطل عليه عدة غرف، يعكف في إحداها إنسان على الدراسات الجمالية وآخر
يشتغل بالكيمياء وثالث يصلي راکعاً، ورابع مثالي ميتافيزيقي يتفكر في نسقه
الفكري. ولما كانت كل هذه الغرف تطل على الممر فإن المرور به ضروري لدخول
الغرف والخروج منها ويمكن القول بأن هذا الممر المشترك بين هذه الغرف هو بمثابة
الأساس المثالي الذي يوحد بين مناهج ساكني الغرف.

لعل هذا الفصل المريح بين البحوث المختلفة يعود في أحد جوانبه إلى فكرة قديمة
لبيرس مفادها أن الوضعية عند سنسر لن تفلح في الدفاع عن الدين (فروح العلم
معادية للدين)^(٩) ويذهب بيرس إلى أبعد من ذلك فوضعية سنسر التي راجت في
بريطانيا وأمريكا عاجزة عن صد المادية، بل هي قدر محتوم يهدد الدين^(١٠).

فلم يبق إلا أن يوجه تفكيره في منحى (ممكّن ومفيد لرجال العلم الإشتغال به
بحيث يتيح فرصاً للبحث العلمي ولا يحطم العقيدة الدينية)^(١١). ومنذ البداية أراد
بيرس للمنهج البراجماتي أن يدحض المادية ويؤسس المثالية كمنهج وحيد يجعل
الحقيقة ممكنة في العلم^(١٢).

يقدم لنا الباحث الأمريكي المعاصر هاري ويلز^(١٣) صورة مفصلة للحياة
الفكرية التي سادت أمريكا فيما بين ١٨٧٨ و ١٨٩٨ متتبعاً تطور الأفكار التي أدت
إلى ظهور البراجماتية ويرى ويلز أن تأثير البراجماتية في حياة الفكر في العالم الجديد لا
يضاهيه أي تأثير آخر. بما في ذلك مدرسة التحليل النفسي التي يأتي ترتيبها بعد
البراجماتية في هذا المضمار^(١٤).

لم يكن بيرس مؤسس هذه الفلسفة هو الذي أعلنها على الناس بل كان هذا
من عمل الرجل الثاني في هذه المدرسة وهو وليم جيمس وكان ذلك في خطاب ألقاه
بجامعة كاليفورنيا عام ١٨٩٨ بعد عام من نشر كتابه (إرادة الإعتقاد) وسرعان ما
انتشرت البراجماتية كالنار في الهشيم. فنشر جيمس بعد ذلك مجموعة محاضرات
جمعها تحت عنوان: (البراجماتية. اسم جديد لبعض طرق التفكير القديمة). وتم نقل
هذا الكتاب إلى كثير من اللغات الأوروبية. وقد أشرنا إليه في الهامش رقم (٨).

أصدر جون ديوي في ١٩٠٣ كتابه دراسات في نظرية المنطق. ثم توالى كتبه في المنطق والتربية والثقافة، وفي بريطانيا أصدر شيلر (دراسات في النزعة الإنسانية) مؤسساً خارج أمريكا تياراً براجماتياً إنكليزياً أراد له أن يتميز بالنزعة الإنسانية.

وقد نشأت تيارات براجماتية في إيطاليا، وفي فرنسا والت المجلة الفلسفية نشر هذه الفلسفة وأقرب تيار إلى البراجماتية في فرنسا هو فلسفة الفعل التي يمثلها بدرجات متفاوتة، بلونديل، وبرجسون، وقد أطلق بلونديل اسم البراجماتية على فلسفته منذ ١٨٨٨. ونشر مقال بيرس: (كيف نجعل أفكارنا واضحة) في وقت واحد تقريباً في كل من أمريكا وفرنسا.

كونت الكتب التي نشرت في اللغات الأوروبية في النصف الأول من القرن العشرين مكتبة كبيرة متنوعة، بعضها يشرح آراء كلاسيكي الفلسفة البراجماتية، والآخر يبسطها وثالث يبحث لها عن مصادر في الفكر الفلسفي العام، هذا إلى جانب إنتاج جون ديوي الغزير نفسه وتلاميذه لا سيما في مجالي المنطق ونظرية التربية.

ما سر هذا الانتشار الواسع للبراجماتية؟ لعل ذلك يعود إلى تلبيتها لحاجة ملحة في الحياة الفكرية في العالم الرأسمالي: الولايات المتحدة وأوروبا. وتتمثل في ضرورة التأسيس الفكري للفعل الإنساني، للجهود الفردية والجماعية، وقد أصبحت في القرن العشرين من أكثر موضوعات الفلسفة المعاصرة رواجاً، وحاولت كل فلسفة الإسهام فيها على وجه من الوجوه، إلى درجة يمكن القول معها بأنها الملمح المميز لفلسفة القرن العشرين.

وإذا ما عدنا إلى القرنين الثامن والتاسع عشر فإننا نجد أن الفلسفة الكلاسيكية الألمانية قد اهتمت بهذه المسألة في إطار تصورهما ومنحاهما الفلسفي، ورغم وضوحها عند فخته إلا أنها أشد وضوحاً في فلسفة هيجل.

ومن محاولة الفكر الفلسفي التوفيق بين الثورة المادية التي طرأت على كل مناحي الحياة وبين الفكر نشأت هذه الحاجة الجديدة إلى تأسيس الفعل الإنساني نظرياً. فلم يسبق أن تغير وجه الأشياء من حول الإنسان كما حدث في الثورة الصناعية التي أدخلت الرأسمالية إلى مدارج التاريخ الإنساني. وهكذا بدأت الهزطقة

الخجول، التي أكدت بأن في البدء كان الفعل لا الكلمة فهو الذي يعيد تصوير الأشياء والأحوال في الطبيعة والمجتمع، وقد كان جوته أول من أشار إلى أولوية الفعل، كما نجدتها عند (كانت) في صورة بالغة التجربة في فكرة التركيب القبلي. واتخذت صورة محددة عند فشته في نظرية الفعل التي غدت لديه خاصة مميزة للفاعلية الإنسانية. فاعلية الأنا. وأما هيجل فقد بسط القول في الفعل والنشاط التطبيقي وإن كان الفعل هنا يكاد يكون مستغرقاً في فاعلية روحية. وحاول فيورباخ إرساء قواعد فاعلية إنسانية ذات صفة مادية ولكن يبدو أن إلحاحه الأساسي كان ينصب على تأكيد فاعلية الإنسان باعتباره نوعاً.

وقد استرعت هذه القضية انتباه ماركس في موضوعاته عن فيورباخ، ورغم الطابع الأولي والتخطيطي لهذه الموضوعات فإننا نجد فيها طرحاً لأول مرة بين عالم الأشياء الموضوعية والتغيير الاجتماعي الثوري الذي يناط بالكائن الاجتماعي. وفيها ينقد بوعي ووضوح آراء فيورباخ، وقد تابع ماركس بعد ذلك فحص وتحليل هذه القضية في المخطوطات الاقتصادية الفلسفية وفي الأيديولوجية الألمانية، ثم في رأس المال.

ظلت أفكار ماركس الأساسية بعيدة عن أنظار الفلاسفة في الغرب، ولم تدخل هذه القضية دائرة اهتمامهم إلا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وذلك عند الكانتيين الجدد. فقد أصبحت المعرفة العلمية عندهم هي الصياغة المنطقية والتركيب النظري للمقولات التي ترسم خريطة العالم، والتي تتطابق مع العالم في فلسفة هوية من نوع خاص، فيكون العالم نتاج النشاط العلمي. قوة التفكير البشري تركب العالم. وذلك بدلاً من أن يكون العلم بقوانينه صورة عقلية للعالم الموضوعي. ولم يلتفت الكانتيون الجدد إلى الحياة اليومية فقد كانت في نظرهم لا تستحق اهتمام الفلسفة والعلم^(١٥).

إنه من الواضح أن الكانتيين الجدد^(١٦) يرددون آراء (كانت) المعروفة، وقد أشار (كانت) إلى أن كل قسم من أقسام المذهب الطبيعي إنما ينطوي على العلم بالقدر الذي يحتويه من الرياضة، ولكنها لديهم غدت أكثر حدة بعد أن مزجوها بآراء هيجل التي تقول بأن الفكر خالق الواقع. كما أن مصطلح العقيدة البراجماتية ورد في (نقد العقل الخالص) عنده (براجما - عمل في اليونانية).

دأبت الفلسفة على النظر إلى مسألة المعرفة، المعرفة في إطار المعرفة العلمية، ولذا فقد مضى الكانتيون الجدد في هذا الطريق وجعلوا موضوعها المفضل العلوم الطبيعية. وقد طغت الرياضة عليها في هذه المرحلة، حتى يصح أن نقول أنها أصبحت رياضية المنهج كما أن التجارب العلمية غدت أقل تجلياً للعيان، فتميزت عن التجارب العلمية في القرون السابقة. لأنها أخذت تقطع صلتها بالطابع التجريبي البسيط شيئاً فشيئاً، وكانت النتيجة أن صورة العالم كما يرسمها العلم أصبحت بعيدة عن الحس السليم (الطبيعي) الذي يشيع في المستوى العامي للوعي..

يكن السبب المعرفي للجنوح المثالي عند الكانتين إلى طغيان الرياضة على العمل العلمي، فكان أن يسر ذلك إلى درجة كبيرة فصم نظرية المعرفة لديهم عن النشاط الإنساني في حياة كل يوم، ونظريه المعرفة نواة فلسفتهم، تحرر الفعل الإنساني من كل القيود عندهم، فأصبح نشاطاً للفكر الذي يهدف إلى معرفة العالم. وجعلوا هذا هدفه الأوحد. والنشاط الفكري هنا مملكة ذات استقلال ذاتي يكاد يكون مطلقاً.

لم تكن هذه سمة مميزة للمدارس الفلسفية في ذلك الوقت. ومن هنا قوة هذا الملمح الكلاسيكي، فيها، والمدارس النموذجية لهذه المرحلة إنما هي تلك التي تمثلت فكرة الفاعلية الإنسانية ولم يكن لها هدف معرفي شبيه بهدف الكانتين الأوحد. وكان لنظرية دارون في نهاية القرن التاسع عشر أثر قوي في هذه المدارس لا سيما نظرية الانتخاب الطبيعي، والتلاؤم مع الوسط. وقد ألف ديوي كتابه (تأثير داروين في الفلسفة) وأكد فيه على دور نظرية أصل الأنواع في تكوين البراجماتية.

لم يعد التفكير بعد نظرية داروين القدرة الإنسانية الفريدة التي يعتمد عليها في معرفة الواقع الموضوعي، بل واحداً من أنواع عديدة للنشاط الحيوي الذي تقوم به الحياة العضوية بقصد حماية الكائن الحي وتطوره. فأصبحت وظيفة العقل بناء على هذا التصور تلبية حاجات الكائن الحي الذي يتفاعل مع وسطه وتتوقف صفة أو نوع هذه الحاجة على الجانب الذي يؤكد هذا الفيلسوف أو ذاك. فعند برجسون تصبح وظيفة العقل توجيه فعل الإنسان في عالم الأجسام الصلبة، عالم الأشياء، وكل ما له علاقة بالمكان وهندسته مهما تغيرت أحواله وأغماطه، وهو موجه أساساً نحو صناعة الأدوات التي تكفل إيجاد الطيبات المادية للإنسان فليس من شأن العقل

المعرفة، بل الفعل. وقد ميز برجسون نوعين من المعرفة: المعرفة التي ترمي إلى المصلحة، والمعرفة التي لا ترمي إلى أية مصلحة. والأولى مرتبطة بالفعل ومفيدة وذات طابع عقلي، ولكنها عاجزة عن معرفة الحياة. وبكلمة العلم. وأما النوع الثاني من المعرفة فلا ارتباط له بالفعل من الأساس، إنه غير نافع وطابعه حدسي، كالفن والفلسفة.

كان نيتشه هو الذي أضفى على المعرفة صبغة داروينية بالغة الوضوح فكل فعل إنساني في نظره هادف ويسعى إلى المنفعة، وجميع صورته يراها نيتشه مسخرة لخدمة مبدأ الوجود الأساسي: «إرادة القوة». (والمعرفة سلاح إرادة القوة).

وإذا كانت المعرفة ليست إلا سلاحاً لمبدأ أو أصل آخر فإنه من المنطقي أن يتم البحث عن أمثل الوسائل من حيث التأثير وضمان الحد الأقصى من النجاح. وعليه فإنه يمكن القول بأن صدق الحكم يطرد مع درجة تأثيره، بل إن الصدق يعادل المنفعة وهذا ما نجده بالفعل عند نيتشه.

بيد أن نيتشه وكذلك وبرجسون لم يتحررا من تأثير الفلسفة التقليدية، رغم شرحها لوجه نظر جديدة فقد افترض نيتشه أن الفكرة يجب أن تناسب الواقع، ولكنه في نفس الوقت اعتبر التفسير الفلسفي، وكل مخطط منطقي وهما أو ضلالاً مفيداً. وهذا استنتاج يتسق مع مقدماته التي تجعل المعرفة مؤهلة لخدمة هدف أسمى هو البقاء والطموح نحو (إرادة القوة).

يدل ظهور مذهب نيتشه وبرجسون في بلدين أوروبيين في زمان واحد على ميل عميق في الحياة الفكرية نحو إعادة النظر في طبيعة المعرفة جذرياً ومن كل وجوهها. فقوى العقل أصبحت موجهة نحو إرضاء مطالب العمل الهادف والبحث عن أفضل الأساليب المناسبة للإستجابة الناجحة على كل واقع طبيعي أو اجتماعي. لقد حلت الذات صاحبة المصلحة محل الذات المعرفية الكلاسيكية الطامحة للمعرفة الصافية والحقيقة المطلقة^(١٧). إن الذات الجديدة لا تحفل بالحقيقة بما هي حقيقة. وكل أدوات المعرفة التي طورتها الفلسفة الكلاسيكية وكذلك أهدافها المطلقة لم تكن للذات الجديدة إلا وسيلة لحل مشاكل معرفة عملية عينية.

لقد وجدت الاتجاهات التي كانت بذوراً عند نيتشه وبرجسون نهايتها المنطقية في الفلسفة البراجماتية.

كان هذا تلبية لتطور غير وجه الحضارة الرأسمالية بالعلم والتكنولوجيا إذ لم يقتصر التأثير القوي على وسائل المواصلات وبناء المدن العملاقة بل امتد إلى السياسة وتركيب السكان، والمستوى الثقافي وتجلي في تغير مستوى الحياة وأسلوبها. حدث هذا التغير الكبير في فترة قصيرة من الزمن.

ولكن البراجماتية بالدرجة الأولى نتاج الحياة الأمريكية في القرن التاسع عشر وهي ما كانت لتكون نبتاً أمريكياً خالصاً لولا تعبيرها عن الحياة الأمريكية الجديدة ففي هذا القرن حدث انعطاف بالغ التأثير وعاصف في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد انفتحت أمامها آفاق جديدة بعد انتهاء حرب الإستقلال. فازدادت وتائر التطور الإقتصادي والصناعي وازدهرت التجارة والبنوك، والمواصلات والزراعة ولكن التطور الصناعي كان في المقدمة لا سيما منذ الثلاثينات فقد فاق الإنتاج الصناعي عام ١٨٥٠ الإنتاج الزراعي لأول مرة من حيث القيمة. (١٨)

كانت الحرب الأهلية في أمريكا مهازراً آخر للتطور الصناعي فقد كانت لها دلالة تاريخية تقدمية كبيرة، فهزيمة الجنوب أفسحت المجال للتطور الرأسمالي، ورغم أن إلغاء العبودية لم يكن نافذ المفعول في أمريكا فإنه كان قراراً تاريخياً هاماً فقد أثر في شكل الإنتاج الزراعي فأصبح يقوم بالأساس على الزراعة الواسعة، وبذلك كان الركن الثاني في ازدهار الرأسمالية إلى جانب الصناعة.

احتلت الولايات المتحدة الأمريكية المركز الأول من حيث الإنتاج الصناعي في عام ١٨٩٤ وأصبحت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الدولة النموذج في الحضارة البرجوازية. فتطورها لا نظير له في تاريخ الرأسمالية، إذ مكنتها من ذلك عدة عوامل منها اتساع مساحتها والتكنولوجيا الحديثة التي أمكن زرعها في واقع غير مثقل بتاريخ طويل كما هو الحال في أوروبا، وساعد على ذلك المستوى الثقافي للجهير، والحريات السياسية التي بلغت مستوى لا نجده في أي بلد في ذلك الوقت. كما أن أمريكا لم تعرف الإقطاع، الأمر الذي أسرع بالتطور الرأسمالي. ووجهت الحرب الأهلية ضربة قوية إلى النظام العبودي، الذي كان يقف في طريق تطور البلاد. إن المستوى الديمقراطي، والمساواة الصورية أمام القانون وحق كل فرد في إدراك النجاح وكذلك الدعاية للمشروع الفردي، كل ذلك كان يجري في مناخ لم تعرفه أوروبا في ذلك الزمان وقد صاحب هذا التطور تفاقم

التناقض الإجتماعي إلى درجة عظيمة فرد العمال كطبقة على الاضطهاد، من قبل أرباب العمل بمزيد من التنظيم^(١٩) فتأسس في (١٨٥٧) النادي الشيوعي، وأنشأت الأعمية أول فروعها في ١٨٦٧، وانتقل إلى أمريكا في ١٨٧٢ المجلس العام للأعمية وتشكلت في ١٨٦٩ (جماعة فرسان العمل النبلاء) وأسس الحزب الاشتراكي في ١٨٧٦ والاتحاد العام للعمل في ١٨٨١ والحزب الاشتراكي الديمقراطي في ١٨٩٧.

زادت هذه الأحداث من شدة الصراع الفكري، وأمّدتّه كومونة باريس بسبب جديد.

وكان هناك شعور بأن أمريكا لم تكن مستقلة فكرياً، وذلك لفترة طويلة بعد نيل الاستقلال السياسي^(٢٠).

وأما المناخ الفكري السائد في الجامعات فقد كان مشبعاً بالنزعة الدينية. وعندما نشأت البراجماتية في السبعينات من القرن الماضي كانت استجابة لهذا التطور الذي واجه الفكر السائد. كان على أمريكا الرأسمالية المزدهرة أن تتحرر عقلياً وتقدم فلسفتها المعبرة عن (الروح الأمريكية). فكانت البراجماتية أول إسهام حقيقي وأصيل. فهي إبداع فكري وفلسفي رغم أن مصادرها أوروبية إلا أنها نبات محلي يعبر عن الخصائص النوعية للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في أمريكا. وما يدل على عنف مقاومة الفكر الديني وحره ضد الداروينية التي امتدت حتى ١٩٢٥ عندما حوكم المدرس سكوبس فيما عرف بقضية القرود في ولاية تينيسي. ويرى جيمس (إن الداروينية طردت فكرة الخلق من عقول الناس إلى الأبد ففقد التأليّة بذلك أساسه)^(٢١).

ومن هنا فإنه لا يكفي التأكيد على أن البراجماتية كانت فقط رداً على المثالية المطلقة بل لعل ردها عليها إنما كان نتيجة لإدراك مؤسس البراجماتية وكبار مفكرها جيمس ودويو فشلها في التصدي للنزعات المادية. وسوف نجد بعد سنوات نفس التبريرات النظرية عند إعلان البراجماتيون الإنكليز بيانهم في (المثالية الشخصية) التي أرادوا لها أن تتلافى أوجه القصور في الشخصية.

يرى سانتيانا أن الفلاسفة الأمريكيين يظلون براجماتيين في حقيقتهم مهما ادعوا ومهما اقتبسوا من أفكار، وهذا صحيح إذا ما قصد به أنهم وظفوا لحظات من

فلسفات أخرى لتثبيت أسس البراجماتية. ومن هنا إدراك بيرس وجيمس ضرورة مواجهة الفكر المادي بالفلسفة الوجودية.

ولعل هذا يفسر اقتباسها كثيراً أدوات الفلسفة وآرائها (ميل وسبنسر) وكذلك ماخ. أعلن جيمس أكثر من مرة أنه يطمح إلى كتابة شيء يشبه (المبادئ الأولى) على غرار كتاب سبنسر.

إن هذا التطور المتميز لأمريكا في المجالين الإجتماعي الإقتصادي والفكري يفسر ازدهار البراجماتية كفلسفة للفاعلية الإنسانية، حيث للنشاط والمبادرة الفردية وروح الريح والتسابق مكان بارز في قيم المجتمع أكثر مما للتأمل أو الدراسة النظرية التي لم تحظ إلا بقسط ضئيل من الإهتمام والتقدير. ولا شك في أن هذا الأساس الفكري العام لا يجب أن يجعلنا نوحده بين الوعي العام أو الروح البراجماتية السائدة وبين الفلسفة البراجماتية ولكن ارتباطها أمر لا شك فيه أيضاً.

يقول نقاد البراجماتية إنها تساوي بين المنفعة والحقيقة، وهذا نقد لا تستطيع البراجماتية دفعه، ولكن لعله أقرب إلى الدقة القول بأن ما يميز البراجماتية كفلسفة إنما هو استبدالها بالذات المعرفية، الذات صاحبة المصلحة. فمهما تنوعت أساليب الذات الأولى فاكتمت طابعاً تجريبياً أو تأملياً مجرداً فإنها دائماً تنطلق من ذات تملك قدرات التجريب والتفكير وتضع أمامها هدفاً واحداً: إشباع حاجتها إلى المعرفة. وانشغلت نظرية المعرفة عما عدا ذلك، ولم يتضح الخطأ الكامن في هذا المنحى إلا بعد أكثر من ألفي عام.

وأما البراجماتيون فإنهم قد رسموا لأنفسهم أنموذجاً، ووضعوا في مركزه الذات التي تحركها الحاجة إلى الفاعلية الهادفة، وعاد مفهوم الغاية الذي أزاحتها الفلسفة الحديثة ليحل محله التفسير الميكانيكي، وذلك في صورة الفاعلية الهادفة لذات تضع غاية بقصد إشباعها.

وكفت المعرفة عن كونها هدفاً مطلقاً بل تحولت إلى أداة لتحقيق النوازع النفسية والحاجات الإجتماعية والأخلاقية، وكلها على تنوعها مرتبطة بالفاعلية.

يصور البراجماتيون المؤسسون، جيمس وديوى وشيلر أن هذا كان بمثابة إعادة

بناء الفلسفة، واهتموا كل تاريخ الفلسفة السابق على البراجماتية بالإغراق في التأمل وانقطاع الصلة بالحياة وعدم القدرة على الاستجابة لحاجات البشر. ونجد عند ديوي محاولة للتفسير الاجتماعي لهذا الخلل الأساسي في الفلسفة فعزاه إلى تقسيم العمل الذي ساد في اليونان القديم، حيث انفصل التأمل والنشاط الفكري عن العمل اليدوي وتفرغ له بعض من ملاك العبيد. فنشأ التقابل بين العمل اليدوي والتأمل العقلي، وبين المادي والذهني وبين النظرية والتطبيق، وسرى في كل تاريخ الفلسفة* . وألغى هذا الفصام على يد البراجماتية وحدها. فتصالح العقل والفاعلية الإنسانية، وغدا الجهد النظري ممكناً في حال واحدة فقط: عند ارتباطه بالتطبيق. وخدمة له. ولم يكن جيمس أو شيلر أقل سخطاً على الفلسفة التقليدية من ديوي، فقد صبا غضبها على التصور التقليدي للمعرفة واهتمامه باللامبالاة بالواقع، الذي يستعصي إدراكه على الإنسان المتأمل. ويريان أن المشغول بالمعرفة في الحياة الواقعية ليس ذاتاً مجردة، بل إنسان حي تحركه عواطفه وحاجاته ومصالحه، فهو لا يمكن أن يكون غير مبال بما سيكون عليه العالم المدرك كما أنه يرفض أن يدركه مرة واحدة فقط كواقع موضوعي مستقل عنه. وإذا يندفع في هذا العالم فإنه يصوغ من مادة الخبرة المرنة واقعاً يحتاج إليه ويقدر على صياغته، فالعالم يصبح على الصورة التي يصنعها. إن الفصل بين المعرفة والتطبيق ملاح قديم في الفلسفة البرجوازية، ولكنه أيضاً يوجد بوجه من الوجوه في البراجماتية، رغم ما يبدو في هذا القول من مفارقة. فالبراجماتية ترى يان الفاعلية يجب أن تستند على مبدأ الفاعلية القصوى (المثلى) ومهمة العقل إنما هي ضمان هذه الفاعلية، بينما يبدو أن الطرح الأصوب للمسألة إنما يكون في القول بأن الفعل يجب أن يقوم على المعرفة التي تختبر بالتطبيق العملي وقد يبدو أنه لا يوجد فرق بين الفكرتين إلا في التعبير، بينما الفرق كامن في التأويل الفلسفي للعلاقة بين المعرفة والفاعلية، وليس علينا لكي نفتنع بهذا الفرق إلا أن نفحص فكرة الذات صاحبة المصلحة.

من المعروف أن حب المعرفة نشأ في ارتباط وثيق بالعمل الإنساني، فكانت الفاعلية أساس المعرفة، وكلما زادت معارف الإنسان بما حوله أصبح تأثيره في (*) من الواضح ان المركزية الأوروبية كانت وراء هذه الأفكار، فلو القى ديوي نظرة عجل على تاريخ الفلسفة في الشرق القديم، الهند والصين، مثلاً لأدرك أن الفلسفة هناك ارتبطت بالفاعلية ولكن دون أي نزوع براجماتي أو عملي بالدلالة الفردية الضيقة.

الوسط أكثر توفيقاً. وقد عرفت الفلسفة الغربية هذه الفكرة في صورة قول معروف «المعرفة قوة» فالقصد من المعرفة أصبح الحصول على القوة والسلطة، وليس المعرفة الحقة فقط.

ومع تزايد أهمية شعار «المعرفة قوة» تنبه نيتشه والبراهماتيون إلى أن النجاح لا يتطلب دائماً المعرفة الحقة، بل المقدرة، وهو ما يشير إليه الفرق بين أن تعرف وأن تعرف كيف.

ولا نعني بالمعرفة الحقة هنا المعرفة المطلقة ولكن المفهوم الجدلي للمعرفة النظرية والذي يجعلها نسبية، وهذا يعني أن كل نظرية تنطوي على لحظة ضلال أو خطأ.

لم يمنع اعتقاد الناس بصحة مبادئ الهندسة الإقليدية من اكتشاف الخطأ فيها بعد أن اعتمدوا عليها سنوات طويلة - وكانت نافعة، بل ولا تزال كذلك ضمن حدودها فمجال الهندسة اللاإقليدية لا يتداخل مع مجالها. ويقدم لنا تاريخ الفكر الاجتماعي أكثر من مثال على أن الأفكار غير الصحيحة كثيراً ما تقود نشاط الجماعات والأمم لسنوات بل وقرون طويلة. ولكن هذا لا يعني أن المعرفة النظرية لا تفرق بين الخطأ والصواب. لأنه ما دامت الفاعلية قد تحققت فإن الصواب أو الحقيقة في العلم وفي الحياة الاجتماعية لا معنى له، فالقول بذلك يؤدي إلى أن هذه المعارف زائفة. والأمر ليس على هذه الصورة. فكل المعارف تنطوي على أساس موضوعي، مهما كانت نسبية وإلا ما أمكن لاختبارها العملي أن ينجح تاريخياً. ومجال الحياة الاجتماعية التاريخية أكثر تعقيداً من مجال المعرفة العلمية الطبيعية والبراهماتية إذ تضع الذات صاحبة المصلحة في مركز تفلسفها تعلن بذلك معارضتها لكل نزعة علمية أو مادية والأساس المعرفي الذي تبدأ منه البراهماتية هو إطلاقها لجانب من جوانب المعرفة وشروطها وهو هنا الذات، وهذا الإطلاق نجده في صور متعددة في المذاهب الفلسفية المثالية.

إن المثالية لا يمكن أن تنظر إلى العالم الموضوعي مستقلاً عن الوعي، بينما تفسر الوضعية التجريبية كل ما يمكن أن يدرك تفسيراً مثالياً إذ تحصره في مفهومها للتجربة الذي يجعل كل محتوى الواقع الموضوعي تابعاً للتأويل الذاتي للتجربة (الخبرة) والنفعية تأول الخبرة بمصطلحات الرغبات والأهداف الإنسانية، وبالأفعال

ونتاؤها وعمليات التكيف وردود الفعل ويمدى نجاح هذه جميعاً، والبراجماتية
حصيلة لكل هذه النظريات والأفكار مركبة في كل واحد.

ولما كانت البراجماتية قد أكثرت من الحديث عن معارضتها للمثالية وفي
مقدمتها مثالية ديكارت فإن أبحاث أنصارها تكاد تخلو من تحليل ميتافيزيقيا بيرس،
التي يكتفي بالإشارة إليها إشارة عابرة.

ديكارت وبيرس:

يقول فش /م/ بدأت المرحلة الكلاسيكية لفلسفتنا برفض واع من بيرس
لديكارت وكل ورثة ترائه... وأصبح نقد ديكارت القاسي منذ ذلك الوقت،
موضوعاً ثابتاً في الفلسفة الأمريكية^(٢٢).

وقد نشأت العقيدة البراجماتية بالفعل في سياق نقد بيرس عقلانية ديكارت
فأولى مقالات بيرس في مجلة الفلسفة التأميلية في عام ١٨٦٨ جعلت من نقد
ديكارت مسألتها المركزية، ولذا اهتم بها الباحثون في تاريخ البراجماتية، فهي تقطع
الصلة بالتقاليد الفلسفية السابقة، فالمسائل الأساسية عند ديكارت أصبحت موضوع
نقد بيرس: الشك المنهجي والحدس ومبدأي الوضوح والتميز.

اتخذ ديكارت الشك الشامل منهجاً ليمهد الطريق أمام المعرفة المطلقة التي
تمكن الوثوق بها. وكذلك لكي يزيح كل ما يعوق المعرفة من: روايب العقائد
الشائعة والأفكار السائدة والإعتصام بأقوال السابقين. فلم يرض ديكارت بالحس
السليم (الطبيعي) ولا بالخبرة العابرة (العشوائية) التي تتم بالمصادفة، ولا بالإقتناع
الذاتي، ولذا طفق يبحث عن الأساس المنطقي الذي يجعل هذه الفكرة أو تلك
صادقة حقاً. وضع ديكارت وجود العالم الموضوعي، موضع الشك رغم أنه لم يشك
أبداً في وجوده، فقد أراد أن يعرف سبب تسليمنا بهذا الوجود. لم يكتف ديكارت
بالعقيدة، إنه يريد أن يقف على أرض صلبة ليقيم عليها بناءً شامخاً من المعرفة الحققة
والمطلقة.

أما بيرس فإنه يذهب في تفسير الشك مذهباً يناقض منطلقات ديكارت، فهو
يفسر الشك تفسيراً نفسياً، فواقعة الشك تملك زمام ذات مجرّبة، ولذا فلا معنى

للحديث عن الشك الشامل المطلق عند بيرس، بل هو ينكره كل الإنكار ويرى أنه لا يمكن أن يكون له وجود في الواقع ذلك أن الإنسان لا يمكن عملياً أن يشك في كل شيء. وقد قال بيرس، أن تكتب على ورقة: «أنا أشك» لا يعني أبداً أن تعاني بالفعل من الشك حقاً، وعلينا أن لا نعتقد بأنه يمكن أن نشك بنفس السهولة التي نكذب بها. ويمكن للإنسان أن يشك في حال واحدة وذلك عند ما تتوافر لديه أسباب شك واقعية أو تجريبية. يقول بيرس: لا يمكن أن نبدأ من الشك التام، إذ علينا أن نبدأ دائماً من مجموع الأفكار المسبقة ومن كل المعتقدات التي في نفوسنا، فليسقط التظاهر بأننا نشك في أمر ما عندما نتفلسف، بينما نعلم في أعماق نفوسنا أننا لا نشك فيه (٢٣).

قد يبدو للوهلة الأولى أن بيرس لم يفهم ديكرت، ودور الشك المنهجي والأمر ليس كذلك البتة. إن بيرس يطرح مفهوماً مختلفاً عن مفهوم ديكرت في الفكر والتفكير، فالشك عند ديكرت مقدمة لمعرفة مطابقة للعالم، أي صادقة، بينما لا يهتم بيرس بهذه القضية في هذا السياق. والتفكير عند ديكرت موجه نحو الخارج إنه تفكير في العالم، له مضمون موضوعي، ودلالة معرفية. وعند بيرس ذو دلالة باطنية إذ يرتبط في الأساس بحالات النفس بالشك والإعتقاد عند الإنسان، كما أنه محصور في نطاق المعتقدات والأفكار الجاهزة والموروثة، إنه لا يطرح المحتوى الموضوعي للمعرفة على بساط البحث.

ويفسر لنا هذا رفض بيرس للمعرفة الحدسية. جعل ديكرت الحدس الأساس المنطقي للمعرفة التي يمكن الوثوق بها. وأسس عليه مبادئه الأولى المطلقة. والترتيب والعلاقة بين الأفكار هو نفس الترتيب والعلاقة بين الأشياء في نظر ديكرت واسينوزا ومن هنا قولها بأن التفكير المنطقي القائم على أسس ومقدمات صحيحة يعكس نظام وتركيب العالم الواقعي ويعيد تركيبها وصياغتها، لأن هذا التركيب عقلائي في جوهره. وبيرس يقبل كمنطقي بأن المعرفة إنما هي علاقات بين تصورات أو مفاهيم مترابطة. ولكنه لا يحفل بعلاقة الأفكار بالأشياء، إن ما يهيمه إنما هو الأفكار باعتبارها مضمون المعرفة أي بالقدر الذي تشكل به محتوى وعيناً. وهو لا يهتم ببلوغ معارف حقه كما أن مشكلة المبادئ الأولى أو المقدمات وطرق الوصول إليها تبدو مسائل قد فقدت أهميتها بالنسبة إليه.

يرفض بيرس فكرة المعرفة المباشرة في مظهرها الحسي والعقلي، لأنها تعارض موقفه الفينومينالي. يعرف بيرس المعرفة الحدسية بأنها تلك التي لا تكون معرفة بسيطة شرطاً لها، وما هو مباشر يمكن أو يعرف على أنه موضوع مفارق أي خارج نطاق المعرفة الإنسانية وخارج الذات الواعية ومدركاتها.

لا يرفض بيرس وجود موضوع ترانسندنتالي ولكنه يصر على أن موضوعاً كهذا لا يمكن أن يحدد أي ضرب من ضروب المعرفة. إنه يظل خارج نطاق المعرفة الممكنة شأنه في ذلك شأن الشيء في ذاته في فلسفة كانت.

بيد أن بيرس لا يقول أن هذا الموضوع لا يمكن أن يعرف كما يؤكد كانت. أنه لا يوليه أي اهتمام. ولذلك يضيفي بيرس صفة الإطلاق على واقعة واحدة في مسار التفكير المنطقي، فالإستنباط يتخذ من المفهومات الجاهزة أدواته، وموضوع التفكير المنطقي بالدرجة الأولى هو استخراج معارف جديدة من تلك التي بين أيدينا، ويرفض إمكان وجود الإنطباعات الحسية الأولية، وأية مبادئ أولى للمعرفة بصفة عامة.

يرى بيرس أن كل معرفة تحددها معرفة أخرى فهي ممكن أن تستخرج منها أو تصدر عنها. فلا وجود للمقدمات الأولى أو لمبادئ المعرفة فكل معرفة مسبقة بمعرفة أخرى. ومسار المعرفة لا بداية له ولا نهاية، إنه يعرف أمراً واحداً: الإنتقال الدائم من معرفة إلى أخرى.

كان ديكارت يرى أن المعرفة يعبر عنها في صورة أحكام وأفكار وتكون هذه الأحكام والأفكار صحيحة بقدر حفظها من الوضوح والتميز. بينما يرفض بيرس هذا المبدأ رفضاً قاطعاً. فديكارت في نظره لم يفرق بين الفكرة الواضحة وبين الفكرة التي تبدو لنا واضحة. وبيرس محق في هذا النقد. ويرى أن مسألة وضوح الأفكار لا يمكن أن يكون الحدس أو تأمل الأفكار وسيلة لبلوغها.

وإذا كان ديكارت يجعل الفكرة حاملاً للمعرفة فإن المبدأ الأساسي الذي يريد بيرس إرساءه لا يعترف بأن أية فكرة يمكن أن تنطوي في ذاتها على معرفة. ويمكن أن تعرف هذه الفكرة في ضوء نظرية بيرس في المعرفة التي تقول بأن التفكير وكل معارفنا إنما تقوم على العلامات (أو الرموز).

وهذه الفكرة خصبة في حد ذاتها وقد سبق أن تطرق إليها هوبس وكذلك لوك ولكنها لم تطور لدى أتباعها. وقد بعثها بيرس ولكن في سياق نظريته الفينومينالية في المعرفة، التي تميل بها جانباً عن المنحى الموضوعي الذي كان لها عند هوبس ولوك.

الفكر والإحساس ليسا إلا علامات. وهما لا ينطويان على معرفة في حد ذاتها والدلالة الفارقة على العلامة أنها تحتاج إلى تأويل، فهي تشير إلى شيء ما، ولكن لا يمكن أن يعرف على وجه التحديد ومن هنا حاجتها إلى التفسير، وهذا لا يمكن أن يتم إلا بوساطة أو مساعدة علامة أخرى. فالتفسير هنا يعني ترجمة معنى من المعاني إلى معنى آخر، أو علامة إلى علامة أخرى، والعلامة الأخرى دائماً هي كذلك بمقدار ما تكون صالحة للترجمة إلى علامة ثالثة وهكذا إلى ما لا نهاية.

يصبح مسار المعرفة سلسلة لا نهاية لها ولا بداية. وتبدو هذه عملية صورية محرومة من المحتوى، فلا وجود لأي محتوى آخر فيها غير ترجمة العلامات إلى بعضها البعض. فهذا وحده المضمون الذي يضعه فيها بيرس منذ البداية.

إن الموضوع الترانسندنتالي مستثنى من هذه العملية. إنه خارجها ولا يمكن أن يكون مصدر العلامات. ويجب أن يبحث عنه في نهاية مسار المعرفة وليس في بدايتها بيد أنه لا يمكن إدراكه أبداً.

هذا جانب أساسي في نظرية بيرس الفينومينالية التي تستند إلى (السيميوطيقا) وقد صاغها ليعارض نظرية ديكرارت العقلانية في المعرفة.

لم تتمكن هذه النظرية من حل مسألة دلالة العلامة أو معناها بيد أن هذه الصعوبة كانت حافزاً للعناية بها، وقد كونت مع تصور بيرس للتفكير وما نتج عنها من آراء في الحقيقة والواقع أساس العقيدة البراجماتية.

وقد عكف بيرس سنوات طويلة على مشكلة العلامات دون أن يكون لها صلة ملحوظة بالبراجماتية.

الشك والاعتقاد:

يكون هذا البحث أساس الفلسفة البراجماتية، وهو موجه في وقت واحد ضد

العقلانية عند ديكارت وضد نظرية الإنعكاس المادية، التي تكونت نتيجة لتفسير غير دقيق لبعض آراء داروين. ويمكن تلخيص محتوى هذا المبحث أو النظرية في ما يلي:

التفكير نشاط يحاول التكيف تماماً مثل الجسم في الوسط. هناك إذن تعارض بين وظيفة التكيف التي يقوم بها التفكير وبين الوظيفة المعرفية له. فالتفكير يفهم كمنشأ موجه نحو العالم المحيط بالإنسان بقصد ضبط العلاقة بين الجسم والوسط أو البيئة وليس بهدف معرفة العالم. ومن هنا يركز بيرس على أن التفكير يبحث عن ردود فعل مثل وعن تلبية حاجات الجسم التي تولدها عملية التلاؤم. ويذكرنا هذا التصور برأي نيتشه الذي يجعل العقل أداة في يد «إرادة القوة» أو وسيلة للحصول على الأشياء عند برجسون، أو وسيلة لحفظ التوازن بين الجسم والوسط كما عند أفيناريوس (النقدية التجريبية).

يختفي المفهوم النفعي البيولوجي لهذه النظرية وراء الصورة النفسية السلوكية وفحواها أن الإنسان يعيش في العالم ولا بد أن ينشط في ظروف مختلفة محالاً التلاؤم معها، ولديه منذ البداية عادة الفعل، وهي بديل للغرائز أو تنشأ عنها جزئياً، وعندما يعيها الإنسان تكوّن ما يسميه بيرس عقيدة أو اعتقاداً، إن الاعتقاد إذن هو الإستعداد للفعل في اتجاه محدد. وإذا ما تبين أن اعتقادين يحفزان للقيام بفعل واحد بعينه فإن بيرس يرى أنه لا وجود لأي اختلاف بينهما فنحن أمام فكرة واحدة عبر عنها بكلمات مختلفة.

يتجلى الوجه النفسي الآخر للإعتقاد في الهدوء أو الطمأنينة إذ يكون العقل في حال رضا لأنه مملوء بكل الاعتقادات الممكنة التي تكون الوعي الإنساني. ولكن يمكن أن تضطرب هذه الحال بفعل الظروف المختلفة، فيعقبها الشك. وحال الشك عند بيرس لا يسببها عائق يقف أمام الفعل الإنساني، وهو ما سيقوله جون ديوي فيما بعد. فالشك عند بيرس يقترن بحال نفسية أو عقلية تعقب تصادم الآراء أو نشوء مصاعب نظرية. الشك نقبض الاعتقاد ويصعبه شعور مقلق وغير سار لذا يحاول الإنسان التخلص منه بأسرع ما يمكن. والجهد الذي يقوم به لطرده الشك وبلوغ الاعتقاد (اليقين) يسميه بيرس بحثاً ويربطه بعلاقة هوية مع التفكير والحكم المنطقي (٢٤).

استعار بيرس مفهوم الاعتقاد كاستعداد للفعل من عالم النفس «أ». بين «والفرق بينها متمثل في أن (بين) كان يرى في هذا الإستعداد معياراً أو صفة من صفات الاعتقاد، بينما جعله بيرس استعداداً يملئ على الفعل أن يتجه وجهة محددة وهو في نفس الوقت محتوي الاعتقاد الأوحد.

إن جوهر نظرية الشك والإعتقاد يتلخص في تأكيد بيرس على أن الهدف الوحيد للتفكير إنما هو إزاحة الشك وبلوغ الاعتقاد. إن نشاط الفكر يسببه منه نسميه الشك، ويتوقف عند بلوغ الاعتقاد، وعليه فإن بلوغ الاعتقاد وظيفه الفكر الوحيدة^(٢٥). ولما كان الاعتقاد يعني اكتساب عادة الفعل فإنه يمكن أن نقول: إن كل وظيفة الفكر هي إنتاج عادة الفعل وكذلك كل ما يرتبط بالفكر دون أن تكون له علاقة بأهداف الفكر، فهذه أمور تنبت عليه دون أن تكون جزءاً منه.

ونحن هنا أمام النقطة الحرجة في نظرية الشك والاعتقاد وهي واحدة من ثلاث مسائل محورية في البراجماتية بأسرها. ألا يمكن أن يكون الاعتقاد وهو عادة ذاتية على الفعل، وحال هدوء عقلي ذا محتوى موضوعي يعكس العالم المادي ويكون معرفة حقيقية عنه؟ يجب أحد دارسي بيرس المعاصرين عن هذا السؤال بالإيجاب^(٢٦).

يبدو للوهلة الأولى أن هذه إجابة مقنعة، ولكنها في واقع الأمر تصدر عن تجاهل أو عدم معرفة القضية الأساسية في البراجماتية التي تؤكد على أن وظيفة وهدف الفكر إنما هي على وجه الحصر إزاحة الشك وبلوغ الاعتقاد. «وعندما ينزاح الشك أخيراً، ولا يهم بأية وسيلة تم ذلك، فإن هدف التفكير قد تحقق»^(٢٧).

لا شك أن بيرس يدرك تمام الإدراك أن الناس كثيراً ما يصلون إلى الاعتقاد بوسائل ليست لها أية علاقة بالمعرفة الحقة. إن فحوى نظرية الشك والاعتقاد تلخصها عبارة: «ولا يهم بأية وسيلة يتم ذلك» وهو ما يؤكد بيرس بقول آخر غاية في الوضوح: يمكن أن نتخيل أن هذا غير كاف، وأننا لا نطمح إلى الحصول على رأي بل على رأي صائب ولكن فليفحص هذا الخيال بالتجربة عندئذ سيظهر لنا أنه لا يقوم على أساس. لأنه ما أن نبلغ اعتقاداً صلباً حتى نشعر بالرضا الكامل، بصرف النظر عن كون هذا الاعتقاد صادقاً أم كاذباً. إن أكثر ما نستطيع تأكيده هو

أننا نبحت عن اعتقاد يمكن أن نفكر فيه دائماً على أنه حق. ولكننا نفكر دائماً في كل اعتقاداتنا على أنها صحيحة وصادقة. وتأكيد هذا ليس إلا تحصيل حاصل^(٢٨).

إن أحد أتباع جيمس يذهب بهذه الفكرة إلى نهايتها المنطقية إذ يقول «العالم من يكذب لينفع المجتمع والكاذب من يكذب لينفع نفسه»^(٢٩).

ويتضح من هذا المبدأ البراجماتي أن مسألة الصدق والكذب كما عرفتھا الفلسفة التقليدية لا وجود لها في البراجماتية فقد جرى استبدال الفكرة أو الرأي بقدرة الفكرة أو الرأي على رفع الشك، الذي يحدث فينا اليقين والرضا النفسي. فالإنسان العادي أو العالم لا يسعى إلى المعرفة الحقة أو الخالصة لأن هدفه اليقين الراسخ ومن هنا فإن مشكلته الأولى والأخيرة إنما هي بلوغ اليقين وليس معرفة الحقيقة.

إن بيرس لم يقصد بنظرية الشك والإعتقاد أن يعالج حالاً نفسية يواجهها كل من يشتغل بالبحث، فإن أهميتها تتجاوز المستوى النفسي المحض، لأنه يريد أن تكون أساس منهج العلم، وقد كان يريد دمج المقالين المذكورين في كتاب «المنطق» الذي كان يعتزم نشره، ومن هنا يتضح أن نظرية الشك والإعتقاد أساس نظرية المعرفة لديه والتي وضع في أساسها المشكلة النفسية بدلاً من المشكلة المنطقية.

يرى بيرس أن الرضا الذي يحصل عليه الباحث من العقيدة المطمئنة يفوق أي عدم رضا آخر، ويورد هذه الفكرة عند الحديث عن منهج العناد أو المثابرة الذي يتلخص في التمسك القوي بالموقف مهما كان النقد الموجه إليه ودون أي إهتمام بعلاقة هذا الموقف بالوقائع. ومن الجلي أن نظرية الشك والإعتقاد مصدر منهج المثابرة والعيب الوحيد الذي وجده بيرس فيه أنه لا يمكن تطبيقه في الحياة العملية. فالإنسان كائن اجتماعي وعندما تصطدم آراؤه بمعتقدات غيره فإنه يصعب عليه أن يحتفظ برسوخ آرائه. فهي لا تتسم بهذه الصفة إلا إذا أقرها الجميع. ومن هنا فإن «المشكلة إنما تكمن في تثبيت الاعتقاد في الجماعة لا في الفرد»^(٣٠).

واجه كثير من المفكرين هذه المشكلة وكثيراً ما اتخذ المرجع أو الحجة وسيلة لتثبيت الاعتقاد فكانت الدولة أو الكنيسة المرجع المعتمد الذي يقر ثبناً بالأراء الصحيحة ويطارد الهراطقة. ولا يخفى بيرس رضاه عن هذا الطريق «لا يوجد منهج أفضل من هذا بالنسبة للجمهير»^(٣١).

ولكن بيرس يريد وضع منهج للعلم فينتقل من مبحث الشك والإعتقاد إلى المنهج العقلي. وفلاسفة الميتافيزيقا يستخدمونه دائماً لإضفاء طابع عقلي على معتقداتهم وإظهار انسجامها مع العقل. ولا يختلف المنهج العقلي في جوهره عن مبدأ المثابرة الذي تحول على يد جيمس إلى فكرة (إرادة الإعتقاد).

«مبدأ بيرس» ومنهج العلم:

عندما يرى بيرس الأساس الوطيد للمعرفة الإنسانية يجب أن يستند لا إلى النزوات الإنسانية بل إلى أساس لا يمكن أن تؤثر فيه هذه النزوات والرغبات، فإنه يعرب بذلك عن موقف لا يختلف فيه معه أحد. ويجعل بيرس هذا الأساس ماثلاً في منهج العلم وفرضيته الأساسية.

توجد أشياء واقعية لها خصائص لا تتوقف البتة على آرائنا عنها، وهذه خصائص واقعية تؤثر في أحاسيسنا وفقاً لقوانين ثابتة. وعلى الرغم من أن إحساساتنا مختلفة باختلاف علاقاتنا بموضوعات خبراتنا، فإننا نستطيع بواسطة التفكير أن نعرف حقيقة الأشياء في الواقع، وكل إنسان يملك خبرة كافية وفكراً يمكن أن يصل إلى نفس الحقيقة أو الاستنتاج^(٣٢).

ينظري منهج العلوم على لحظات ثلاث:

١ - موضوع العلم عالم موضوعي قائم بذاته على العلم أن يصفه ويفسره. وأن الطبيعة لا تتبع آراء الإنسان حتى عندما تجمع البشرية عليها، ولا يبقى عندئذ أمامنا إلا أن نتكيف مع واقع الأمر في الطبيعة. . . فعلى الإنسان أن يصغي إلى ما تقوله الطبيعة^(٣٣).

٢ - يرى بيرس محقاً إن التسليم بذلك يقودنا لا إلى رأي واحد بل وإلى حكم صائب على الواقع.

ومن الواضح أن هذا كله لا يتفق ونظرية الشك والإعتقاد فإن ذلك يعني أن الإعتقاد يجب أن يتوافق مع الوقائع. يمكن أن يقول البراهماتيون إن الإعتقاد يصبح راسخاً لأنه صائب أو منطقي، وإذا كان الأمر كذلك فإن نظرية الشك والاعتقاد فائضة عن الحاجة فإنها لا تقدم شيئاً إلى النظرية العلمية ولا تيسر طرائق البحث

كما إنها لا تغني المنطق بمفهوم جديد للعلم وكل هذه أمور تبقى على حالها المعروف.

٣- إن دلالة اللحظتين السابقتين تتضح من رأي بيرس فيها فإن التسليم بالواقع الموضوعي ليس إلا فرضاً يتخذ وسيلة لبلوغ الاعتقاد الراسخ، ويربر هذا الفرض بقدر ما يكون منهج العلم فعالاً في تثبيت الاعتقاد. ولكن هذا الفرض لا يمكن أن تبرهن عليه العلوم على الرغم من أنها تقوم عليه وكأن بيرس يضع الواقع «بين قوسين» كما سوف يقول هسرل بعد سنوات.

إن بيرس محق في أن كل علم من العلوم يضع أمامه مسائل تدرج ضمن مجاله ولا يبحث في مسألة الواقع الموضوعي بصفة عامة. ولكن بيرس لا يتحدث هنا عن كل علم على حدة بل على منهج العلم بصفة عامة، والفلسفة تتمسك عند الحديث عن واقعية العالم الموضوعي بكل النتائج المعرفية للعلوم المتخصصة في مجالات مختلفة، وبكل تاريخ المعرفة البشرية، وكذلك بكل نتائج النشاط البشري الاجتماعي. ولهذا النتائج عندما تؤخذ ككل واحد دلالة تتجاوز مجال كل علم وتصيح لها قيمة فلسفية عامة. وهذا أمر لا يقره بيرس.

إن منهج العلم يصبح مدرجاً في نزعة شك واضحة نجدها في نظرية الشك والاعتقاد وهو بذلك يصبح وسيلة من الوسائل التي يصطنعها الإنسان لتثبيت الاعتقاد. ومن الواضح في هذا السياق أن بيرس لا يأخذ منهج العلم مأخذ الجد، وكذلك التسليم بموضوعية الواقع واستقلاله عنا. فما أن يقر ببعض المقدمات الصالحة لتأسيس منهج العلم حيث يتراجع عنها، ولعل مبدأ «بيرس»، الذي ينصب على نظرية المعنى يوضح ذلك.

لا شك أن اتباع منهج العلم يؤدي إلى معرفة علمية بالواقع، بطبيعة الأشياء كما هي بصفاتها وخصائصها، وهذه المسلمة العلمية البسيطة والواضحة لا تقرها البراجماتية. لأنها تعامل معارف العلماء وفق نظرية الشك والاعتقاد وشأنها في ذلك شأن كل المعارف الإنسانية الأخرى فهي ليست إلا عادة واستعداداً للفعل ومن هنا يتعذر الجمع بين الموقفين المذكورين، إلا إذا قلنا أن العلماء عندما يؤكدون هذه الحقيقة أو تلك ويجعلونها صفة أو خاصية في الأشياء الطبيعية فإنهم لا يشيرون إلى هذه الأشياء في الطبيعة بل إلى خبراتهم وعاداتهم واستعدادهم للفعل. وهذا

التخريج البراجماتي البعيد المدى هو ما يقوم به «مبدأ بيرس» الذي يقدم نظرية المعنى البراجماتية. وقد طرحه للإجابة عن السؤال التالي: كيف نجعل أفكارنا واضحة؟ وهذه مسألة سبق أن طرحها ديكرارت. وبيرس يقدم بديلاً للتصور العقلاني لهذه المسألة. ومن هنا قوله بأن أقصى درجة في الوضوح يمكن الوصول إليها عندما نفلح في الإشارة إلى معنى الفكرة، أو مغزاها ودلالاتها، فما الدلالة؟.

المعنى أو الدلالة من المصطلحات ذات المعاني المتعددة فلا يزال المناطقة والفلاسفة يناقشون معنى المعنى أو دلالة الدلالة، ويعد بيرس نفسه أول من طرح هذه المشكلة على بساط البحث، جاعلاً المعنى مصطلحاً وأداة من أدوات المنطق^(٣٤). وقد وضع مشكلة العلامة في مركز اهتمامه في دراساته المتعلقة بالسيموطيقا. بينما بحث مشكلة المعنى في أعماله السابقة على هذه الدراسات باعتبارها مشكلة مفهومات وتصورات دون أن يجعل لها علاقة بدلالة العلامات. وهذا تفريق صائب.

وإن تبادر إلى الذهن أن من الطبيعي أن نبحث عن المعنى في العلاقة القائمة بين الأشياء أو الموضوعات والأفكار، بيد أن بيرس لا يقبل ذلك. وهو مخلص لمنحاه الفينومينالي العام إذ يبحث عن المعنى خارج نطاق العلاقة بالموضوعات أو الواقع الموضوعي بصفة عامة، أي في علاقة المعنى بالذات، في دلالة المعنى بالنسبة للذات. وقد صاغ بيرس نظريته هذه فكانت أساس البراجماتية، فجعل المعنى (أو الدلالة) مساوياً لنتائجه العملية يقول بيرس: «انظروا إلى النتائج العملية التي نتوقع أن يحدثها مفهومنا عن موضوع من الموضوعات. إن مفهومنا عن هذه النتائج هو مفهوم كامل عنه، أي عن الموضوع»^(٣٥).

ويوضح بيرس مصطلح «النتائج العملية» بأنها ذات شقين: «دلالة الشيء إنما هي ببساطة ما يستدعيه من عادات»^(٣٦). وهكذا يصبح لمبدأ الشك والاعتقاد الذي يؤكد أن الاعتقاد استعداد للفعل معنى أنطولوجيا بفضل مبدأ بيرس، فيفقد الواقع تلك الصفة الموضوعية التي أضفاها عليه منهج العلم، فلم يعد هذا المبدأ يعني شيئاً سوى عادة الفعل.

ولما كانت كل ردود أفعالنا وعاداتنا تنشأ من إدراكنا الحسي فإن بيرس يجعل الشق الثاني من النتائج العملية مرتبطاً بالإحساسات المتعلقة بهذه الفكرة أو تلك.

يقول بيرس: إن فكرتنا عن أي شيء من الأشياء هي فكرة تحدثها فينا نتائجها الحسية^(٣٧).

وتبدو لنا هذه الصياغة متناقضة. فإذا كان الموضوع (الشيء) يحدث آثاراً عملية فإنه يجب أن يكون مستقلاً عنها، بينما يؤكد «مبدأ بيرس» أن مفهومنا عن كل النتائج العملية إنما هو مفهوم كامل عن الشيء فلا شيء فيه أكثر من ذلك مطلقاً^(٣٨).

ويوضح جيمس ذلك قائلاً: إذا أردنا أن نبلغ الوضوح الكامل في أفكارنا عن أي موضوع من الموضوعات فإن علينا أن نستوضح النتائج العملية التي يمكن تصورها لهذا الموضوع، وما الإحساسات التي نتوقعها فيه وما ورد الفعل الذي علينا إعداده وعندئذ فإن مفهومنا عن مجموع هذه النتائج القريبة والبعيدة هي بعينها مفهومنا الكامل عن الشيء لأن هذا المفهوم له دلالة إيجابية^(٣٩).

ولا ينسجم مع هذا التصور الذي يقدمه بيرس ويشرحه جيمس قول البراجماتيين بأن هذا المنهج نفس ما يقوم به العلماء في معاملهم، أو قول بيرس بأن مبدأه ليس إلا تفسيراً للقول المأثور في المسيحية من ثارهم تعرفونهم. وهذا التأويل يبدو لنا محاولة لحجب محتوى المبدأ الحقيقي الذي يؤكد به بيرس وكذلك جميع البراجماتيين إن النتائج العملية وعادة الفعل تكون كل محتوى الموضوع أي أن مفهومنا عنها يستغرق الموضوع استغرافاً كاملاً. وقد تجنب بيرس في «محاضرات في البراجماتية، ١٩٠٣» الحديث عن هذا الموضوع واكتفى بتعريف البراجماتية بأنها «مذهب يرى أن كل مفهوم هو مفهوم عن النتائج العملية المتصورة».

ونجد عنده أحياناً تقدماً للجانب السلوكي من الأمر، وهو ما يلح عليه البراجماتيون المعاصرون، يرى (سدني هوك) أن مفهوم كلمة: «إنسان» بالنسبة لبيرس ليس مجموع إحساساتنا بل مجموع ردود أفعالنا التي تختلف عن ردود أفعالنا على موضوع آخر كالحجر أو النجم. ويمكن القول أن هذه التنويعات على القاعدة الثانية للبراجماتية تقوم بحجز المفهومات والتفكير المنطقي بعيداً عن الواقع الموضوعي.

إن الفرق بين هذا المفهوم البراجماتي والمثالية الذاتية عند (باركلي) يتمثل في أنه

لم يتحدث عن العادة وأنه وحد بصورة واضحة بين الموضوع ومجموع إحساساتنا، بينما يصل بيرس إلى نفس النتيجة من خلال تأويلاته لمصطلح المعنى.

نظرية الحقيقة:

يستخدم بيرس أكثر من تصور لهذه النظرية فهو أحياناً يستخدم المفهوم الأرسطي التقليدي، ولكنه عندما يقوم بتحليل الطبيعة المعرفية للحقيقة فإنه ينصرف عن تصور أرسطو المادي في أساسه ويقدم لنا بديلاً براهماتياً لها. ويتمثل ذلك في القول بأن الحقيقة والتفكير بصفة عامة تحددان خارج العلاقة بموضوعات الواقع، فهما حالتنا وعي الذات.

يقول بيرس في مقاله ما البراهماتية: إذا كان مصطلحاً كما: الصدق والكذب يعرفان وفق مصطلحي الشك والاعتقاد فذلك أمر حسن، وعندئذ فإنكم تتحدثون عن الشك والاعتقاد فقط. وأما إذا كنتم تعنون بالصدق والكذب أمراً لا يعرف بمصطلحي الشك والاعتقاد فإنكم عندئذ تتحدثون عن الجواهر التي لا يمكن أن نعرف عن وجودها شيئاً والتي على نصل أوكام بترها. وإن مشكلتكم ستغدو أكثر بساطة لو قلتم إنكم تريدون بلوغ الاعتقاد الذي لا يتطرق إليه الشك بدلاً من قولكم إنكم تريدون معرفة الحقيقة.

فالحقيقة إذن ما نعتقده. وهذا المفهوم العام في البراهماتية، ومن هنا فلا غرابة أن يقول بيرس «إننا نعتبر كل اعتقادنا صادقة» وهذا يترتب على تعريف الحقيقة بمصطلحي الشك والاعتقاد، فالحقيقة توجد بالاعتقاد. فما دمنا نعتقد في قضية من القضايا، فإن الشك فيها أو وضعها موضع تساؤل أمر لا معنى له على الإطلاق في البراهماتية، يقول بيرس: إن ما لا تستطيعون أن لا تعتقدوا فيه بأية صورة من الصور، ليس اعتقاداً خاطئاً. إن هذا يعني بكلمات أخرى إنه بالنسبة إليكم حقيقة مطلقة.

وهذا يعني أن هذه الحقيقة كاذبة بالنسبة لأولئك الذين لا يقبلونها. ومن هنا تصبح الحقيقة مسألة مغرقة في النسبية. ولما كان بيرس كمنطقي وعالم لا يستطيع إلا أن يلاحظ تغير الحقائق، فهو يسلم بذلك. ولم يستطع أن يؤكد النسبية المطلقة

للحقيقة حتى داخل فلسفته البراجماتية، وهو الأمر الذي قام به البراجماتيون من بعده. فقد كان بيرس يؤكد على أن الحقيقة واحدة في كل مسألة من مسائل العلم وهي عامة وصادقة بالنسبة للجميع ولا يتوقف صدقها على واحد من العلماء على حدة.

بيد أنه ظل متمسكاً برأيه في أن الحقيقة لا تعرف إلا في إطار مصطلحي الشك والإعتقاد وهذا يعني خارج نطاق العلاقة بالواقع الموضوعي.

يراوح تفكير بيرس في مسألة الحقيقة بين قطبين تمثل أحدهما فكرة الصدق والكذب كمفهومين منطقيين ومعرّفين ويمثل الآخر الشك والإعتقاد كحالين نفسيين للذات العارفة ونظريته في الشك والإعتقاد قائمة على الخلط بين المنطق وعلم النفس.

وإذا ما تتبعنا مصدر هذا الخلط فإننا نجد أنه أبعد غوراً ويتجاوز العقيدة البراجماتية نفسها. كان بيرس يقول بأنه لا وجود لشيء لا يمكن أن يعرف، وهنا يتكلم الواصل من أن العالم المحيط بنا يمكن فهمه وسبر أغواره أجلاً أم عاجلاً بالوصول إلى معرفة مطابقة للحقائق الموضوعية في العالم الطبيعي. ولكن بيرس شاهد انهيار كثير من الحقائق التي كانت مطلقة، شأنه في ذلك شأن أقرانه من العلماء في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فقد اتضح أن مبادئ أفلاطون التي عدت لقرون طويلة مثال المعرفة الحقة ليست على تلك الصلابة التي ادعتها وأنها لا تملك الدقة الصادمة التي أضفيت عليها، كما أن بيرس كان يدرك جيداً كعالم طبيعة أن الوقائع في العالم لا تتطابق تطابقاً كاملاً مع الصيغ والقوانين التي يقدمها العلم عنها، وأنه لا يوجد قياس دقيق لمجرى هذه الوقائع لا يمكن اكتشاف الخطأ فيه.

لقد تجلّى هذا الموقف لبيرس مأزقاً. فكيف وأين يمكن الحصول على ضمان المعرفة، الذي يعصمنا من الضلال والخطأ. ويذكرنا هذا بديكارت كيف يمكن أن نصل إلى اليقين المطلق بصدق حقائقنا؟ أليس ما ندعوه حقيقة ليس في واقع الأمر إلا ما لا يستطيع أحد العلماء الشك فيه اليوم. شغلت هذه المشاكل عقل بيرس فترة طويلة، على الرغم من مذهبه البراجماتي. وحاول العثور على حل لها في قوله

بأن العلم الإنساني معرض للخطأ من حيث المبدأ. أي لا «عصمة» لأية معرفة بشرية.

كانت معالجته للعلاقة بين المعرفة النسبية والمطلقة تؤذن باقترابه من تصور جدلي لها ولكن منهجه كان يبعده عن أي تصور جدلي للمسألة بله حلها. فهو لم يضع الحدود بين المعرفة المطلقة، والمعرفة الموضوعية من جهة، ومن جهة أخرى غاب عنه ذلك المحتوى الموضوعي لمعارفنا، فلم يبق إلا الجنوح نحو النزعة النسبية. وزادتها نظراته الدينية والمثالية شدة. ودفع هذه النزعة نحو الخلط بين الجانب النفسي من المعرفة وبين الجانب المنطقي منها. وهذا أساس العقيدة البراهمانية.

صاغ بيرس رأيه في الحقيقة في خاتمة المطاف ضمن بحثه الدائب عن الاعتقاد فهي في نظره ذلك الرأي أو الاعتقاد الذي يمكن أن يصل إليه جماعة من العلماء غير محدودة وعندئذ سوف تبلغ اعتقاداً نهائياً وحازماً وضرورياً^(٤٢) وحتى إذا افترضنا بأن البحث المستمر بلا نهاية أمر ممكن، فليس هناك ما يجعلنا نقر بأنه سوف يسلمنا إلى نتيجة واحدة في صدقها وشمولها. والصدق والشمول لازمان للحقيقة. وقد تذرع إليها بيرس بالأمل فلنستمع إليه: «إن كل محبي العلم يلهمهم الأمل الوضاء، في أن البحث العلمي المستمر لفترة كافية سوف يحل المسائل المطروحة حلاً صائباً في كل معضلة يواجهها». وهذا الأمل العظيم مجسد في مفهوم الحقيقة والواقع. والرأي الذي يتوصل بالإجماع من مجموعة من الباحثين هو ما نسميه حقيقة والموضوع في هذا الرأي هو الواقع^(٤٣).

إن إطار البراهمانية لا يتسع لهذه الفكرة ولا يمكن استنتاجها من مقدماتها ومن هنا يلزم لتطبيقها الإنتقال إلى نسق فكري آخر. ويغدو هذا أكثر وضوحاً عندما نعرف ما يقصد بيرس بالواقع. كثيراً ما يعرف بيرس الواقع بكونه ذلك المستقل عن أفكارنا عنه. بينما نجد هنا في مسألة الإجماع موضوعاً للرأي النهائي القطعي الذي يصل إليه الباحثون. الرأي هنا يحدد الواقع نفسه. يحاول بيرس إلغاء التناقض بأن يجعل الواقع يحتوي الفكر ولكن ليس فكر الأحاد بل الفكر بصفة عامة، والذي يتجلى في آراء ومعتقدات جماعة غير محدودة من العلماء ومن هنا يغدو رأيه في المصير أو القدر واضحاً، وذلك في نطاق فلسفته التأملية الميتافيزيقية.

لاحظ الباحث مورفي أن بيرس يرى «كل العقول الفردية ليست إلا عقولاً تابعة للعقل الكوني. وهي بمثابة نسق تتبع هذا النسق الأعلى، وتقوم بدورها كنسق تابعة وهي التي يعقد عليها بيرس الآمال» ويلاحظ مورفي محقاً أن النظرة الأولى تجعلنا نعتقد أن بيرس صاحب نزعة تجريبية في سبعينات القرن الماضي، وذلك لأن بيرس حاول (ربط مثاليته الميتافيزيقية بالنزعة الفيثومينالية).

ويعضي مورفي في نقده وتحليله «أن المبدأ البراجماتي بحكم نشأته لم يكن جزءاً من نظرية العلم، بل وجزءاً من نسق ميتافيزيقي، وكان عليه أن يوضح أن المنهج العلمي نفسه يفترض مثالية ميتافيزيقية وجذرية، تنطوي على تضمين غائي واضح ومحدد. إن ما يبدو في الظاهر نزعة تجريبية في سلسلة «المقالات الشهرية العلمية» ليس إلا قناعاً، فهدف بيرس كان إعادة تركيب نظرة نحو العالم من وجهة نظر غائية وميتافيزيقية متطرفة^(٤٢).

تنفي عقيدة بيرس البراجماتية الحقيقة إلى المستقبل البعيد المجهول، ولذا لا تستطيع أن تقول لنا شيئاً عن الطرق التي تمكننا من تمييز الصدق من الكذب. وكل ما نجده عنده أن (الحقيقة تتميز عن الكذب في كون الأفعال التي تبني عليها تقودنا إلى الهدف الذي نصبوا إليه، وليس بعيداً عنه)^(٤٥).

أصبح هذا الفهم للحقيقة لب البراجماتية فالحقيقة النجاح المبني على اعتقاد ما ولذا نقر بصدقها. إن بيرس وضع أسس هذه الفكرة وإن لم يفصلها. وكان على الذين جاؤوا من بعده أن يقوموا بهذه المهمة. ولذا يقول مؤرخو الفلسفة الأمريكية أن وليم جيمس وجون ديوي هما مؤسسا البراجماتية^(٤٦).

لم يوافق بيرس على توسيع مدلول البراجماتية فأعلن في ١٩٠٥ رفضه لمصطلح البراجماتية. ولكن هذا لا يغير من الحقيقة التاريخية شيئاً فهذه الفلسفة تعود إليه في أسسها وأفكارها الموجهة وإن شهدت تطوراً كبيراً على يد جيمس وديوي وغيرهما والذين خلصوها من بعض تناقضاتها الموجودة عند بيرس.

أبو بكر السقاف

١٩٨٠

الهوامش

Popular Science Monthly. (Fixation If Belief.) Nov. 1877 How to (1)
make our Ideas Clear?) Jan. 1878.

(2) راجع إن شئت ما كتبه جون ديوى في:

Charles S. Peirce. Chance. Love and Logic N.Y 1956 P. 301

حيث يوضح ديوى كيف درس بيرس فلسفة كانت ونقد بوجه خاص «نقد العقل الخالص». ولا شك أن فلسفة كانت بثنائيتها المعروفة: الشيء والشيء في ذاته، التي ترتب عليها ضرب من اللأدرية يسرت لبيرس الوصول إلى نزعة نسبية في نظرية المعرفة، استبدلت بصدق المعرفة - الاقتناع الشخصي أو الاعتقاد كما ستوضح فيما يلي.

أي أن بيرس الذي بدأ متأثراً بكانت، انتهى إلى نقده تحت تأثير فلسفة هيوم وباركلي. ويشير جوود إلى أن مجموعة من الفلاسفة اتخذوا المنهج البراجماتي وسيلة للاحتجاج على النزعة الواحدية التي كانت سائدة في ذلك الزمان.

C.E. Joad, Guide to Philosophy N.Y. 1946 P. 448

W.B. Gallie. Peirce and Pragmatism. Edenb. 1952, P. 152 (3)

F. Mayer. A History of American Thought, Calif 1951, P. 245 (4)

Studies in the Philosophy of Charles Sanders Peirce, Camb. Mass. (5)
1952, P. 238

R. Perry. The Thought and Charactor of W. James Boston 1935 P. (6)
425 (collected paper) فيما يلي:

Collected Papers of Charles Sanders Peirce. Harvard University Press, (7)
V.6 P.484

W. James, Pragmatism. A New Name For Some Old Ways of Thin- (8)
king N.Y. 1907, PP. 23-107

Collected Papers. V.6. P. 484 (9)

C.S. Peirce. Values in a World of Chance N.Y. 1958, P. 137 (10)

(11) نفس المرجع.

- (12) نفس المرجع ص (١١)
- (13) هاري ك. ويلز البراجماتية فلسفة الامبريالية ط/ الروسية موسكو ١٩٥٥
(المدخل).
- (14) Harry K. Wells. The Failure of Psychoana Iysis (المقدمة)
- (15) موريس كوين. الفكر الأمريكي ط/ الروسية موسكو ١٩٦٨
- (16) تستحق مدرسة ماربورج بالذات اهتماماً خاصاً لتأثيرها في ذرائعية جون ديوى. وأبرز ممثليها: كوهن، وكاسيرر وناتورب.
- (17) ملفيل. البراجماتية الأمريكية موسكو ١٩٥٧ بالروسية الباب الأول.
- (18) وليم فورستر دراسة في الفكر السياسي الأمريكي ط/ الروسية موسكو ١٩٥٣
ص ٢٩٨
- (19) نفس المرجع ص ٣١٧ وما بعدها.
- (20) Herbert W. Schneider, A History of American Philosophy N.Y. 1963
P. 8
- (21) W. James. Essays on Pragmatism N.Y. 1948 P. 153
- (22) M. Fish. Classic American Philosophy ed. by M. Fish. N.Y. 1951
- (23) Collected Papers V.5 P. 265
- (24) Collected Papers V.5 P. 374
- (25) Collected Papers V.5 P. 394
- (26) Collected Papers V.5 P. 400
- H. Wennerbery the Pragmatism of Ch.S. Peirce Copenhagen 1962 P.
75 (وما بعدها)
- (27) Collected Papers V.7 P. 324
- (28) Collected Papers V.5. P. 375
- (29) ابريسوليني «فن الاقناع» فلورنسه (١٩٠٧) ص ١٣ (عن بوغومولوف
الفلسفة البرجوازية في أمريكا في القرن العشرين موسكو ١٩٧٤ ص ٨٠.
- (30) Collected Papers V.5 P.382
- (31) Collected Papers V.5 P.386
- (32) Collected Papers V.5 P.384
- (33) Collected Papers V.5 P. 384
- (34) Collected Papers V.5 P.175
- (35) Collected Papers V.5 P.18
- (36) Collected Papers V.5 P.400
- (37) Collected Papers V.5 P.401

- Collected Papers V.5 P.412 (38)
- W. James. Pragmatism and For Essays from *The Meaning of Truth*. (39)
N.Y. 1959 P. 43
- Collected Papers V.5 P.416 (40)
- Collected Papers V.5 P.419 (41)
- Collected Papers V.5 P.29 (42)
- Collected Papers V.5 P.407 (43)
- M. Murphy. *Kants Children, The Cambridge Pragmatists* 1968 V.I. (44)
P.12
- Collected Papers V.5 P.387 (45)
- كولين موريس: الفكر الأمريكي ط / الروسية موسكو ١٩٦٨ ص ٣٠٣ (46)

الظاهرة السكانية بين قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع

الدكتور محمد الزعبي - قسم الاجتماع

مدخل :

الديموغرافيا Demographic كعلم اجتماعي :

من المعروف أن العلوم الاجتماعية عامة، إنما نشأت وتنشأ تحت ضغط الواقع الاجتماعي وبالذات الحاجة إلى معرفة القوانين الداخلية لحركة هذا الواقع. وتمثل الظاهرة السكانية واحدة من تلك الظواهر الاجتماعية التي تمتلك خواصها وقوانينها وإشكالاتها، ولذلك كان لابد من وجود علم خاص بها، لمعالجتها، والوقوف على قوانين حركتها الذاتية (ما يعرض لها لذاتها وبمقتضى طبيعتها حسب تعبير ابن خلدون). والعلم المعني هنا، هو «علم السكان» Demographie وإذا كان هناك خلاف بين علماء الاجتماع والسكان حول مكانة هذا العلم في منظومة العلوم الاجتماعية، وفيما إذا كان يعتبر علماً «أصلياً» أم «فرعياً»، فإن ذلك لا يلغي الحقيقة الملموسة وهي: وجود ظاهرة اجتماعية خاصة محددة ومميزة، لها مواصفاتها وطبيعتها الخاصة، هي الظاهرة السكانية (الديموغرافية)، التي تمثل الموضوع الخاص بعلم السكان. ومن جهة ثانية، فإن لعلم السكان كذلك، مناهجه ومهامه الخاصة والتميزة قليلاً أو كثيراً عن مناهج ومهام العلوم الاجتماعية الأخرى، بما فيها علم الاجتماع Sociologie الأخ الأقرب لعلم السكان، والذي يعتبر البعض علم السكان فرعاً ملحقاً به.

واقع الحال، أن الظواهر الاجتماعية - ومنها الظاهرة السكانية - هي ظواهر

معقدة ومتداخلة ومتعامدة، الأمر الذي استلزم أن يكون ما يسمى «البحث المتعدد الفروع» هو المنهج العلمي الحقيقي في دراسة أية ظاهرة اجتماعية، بل إن الظاهرة الديموغرافية هي الأجدر بهذا المنهج، باعتبارها، تقع - عملياً - عند نقطة تقاطع العلوم الطبيعية مع العلوم الاجتماعية من جهة، وعند نقطة تقاطع العلوم الاجتماعية نفسها من جهة أخرى.

إن النظرية/ النظريات الديموغرافية المعاصرة، ليست واحدة ولا موحدة حول الكثير من المسائل الديموغرافية، وبالأخص حول الظاهر الأكثر بروزاً وأهمية في عالمنا الراهن ألا وهي ظاهرة «الإنفجار السكاني» Population explosion في البلدان النامية بعد الحرب العالمية الثانية.

إن الخلاف حول هذه المسألة، وغيرها من المسائل بين علماء الاجتماع وعلماء السكان وغيرهم من العلماء ذوي الصلة بالموضوع، إنما يجد تفسيره في كون الديموغرافيا هي واحد من العلوم الاجتماعية، وباعتبار أن هذه العلوم هي علوم «أيدولوجية» بالضرورة التطبيقية، فإن الباحث لا يقع على اتفاق بين ممثلي العلوم الاجتماعية حول العديد من المسائل. ويتجلى هذا الخلاف أكثر ما يتجلى بوجود التيارين الكبيرين: التيار الماركسي - اللينيني، والتيار البرجوازي. هذا مع العلم أن الحياة والممارسة والتجارب، قد حسمت حتى الآن كثيراً من مسائل الخلاف، وجعلتها موضع اتفاق عام. إننا في هذه الدراسة سوف نهتدي، على وجه الخصوص، بتلك الحقائق النظرية والمنهجية، وكذلك الاحصاءات السكانية، والبحوث والدراسات الميدانية - التطبيقية، التي باتت تمثل - إلى حد بعيد - قاسماً مشتركاً أعظم بين مختلف الإتجاهات الأيدولوجية والنظرية، وكذلك تلك التي تعتبر - من وجهة نظرنا - أقرب إلى حقائق العلم والواقع من غيرها. وهو ما سنوضحه في الفقرة التالية:

الطبيعة، النظام الاجتماعي - الاقتصادي، السكان: علاقة جدلية

إن الوسط الفيزيقي هو الظرف أو الأرضية التي نبتت وتنتبت فوقها الظواهر الاجتماعية، بما فيها الظاهرة السكانية. وإنه لمن الطبيعي أن تتأثر أية نبتة بالوسط الذي تنبت فيه وفوقه، وأن تخرج بالتالي حاملة سماته السلبية والإيجابية. إن المجتمع

هو جزء من العالم المادي، وهو في حركته وتطوره إنما يتبادل الأثر والتأثير مع البيئة الطبيعية التي تعتبر شرطاً ضرورياً ولازماً لحياة الناس (السكان)، ولوجود المجتمع وتطوره، ولقد صوّر «كينيث بولدينغ» في كتابه «العلوم الإجتماعية وأثرها في المجتمع» العلاقة بين البيئتين الطبيعية والاجتماعية كالتالي: «يتألف النظام الاجتماعي من جميع الكائنات البشرية في هذا الكوكب... ويلتصق هذا النظام الاجتماعي بسطح الأرض بحيث تصح تسميته بالمحيط الاجتماعي. وهكذا فإن المحيط الاجتماعي يحتل مكانه جنباً إلى جنب مع محيط اليابسة، والمحيطات المائية والجوية والحياتية التي تغلف الكرة الأرضية، وهو ذو علاقة متينة تشابك بقوة مع المحيطات الأخرى التي يمتزج بها والتي لا يمكن أن تكتب له الحياة دونها» على أنه مع ذلك «يتمتع بديناميكية خاصة به وباستقلال ذاتي...» (٧/١)* وبنفس المعنى يذكر الدكتور حسن سعفان شحاته في كتابه «أسس علم الاجتماع» أن «جماعة من الجماعات لا تعيش وحدها في هذا العالم، بل هي في الواقع متصلة بست طبقات مختلفة من الأشياء: الطبقة الحجرية والمعدنية التي تتكون منها الأرض Lithosphere والطبقة المائية التي تغطي مساحة تبلغ ثلاثة أرباع الكرة الأرضية Hydrosphere والطبقة الجوية العليا التي تغطي الطبقتين السابقتين Atmosphere والطبقات الجوية التي لم يصل الإنسان إليها إلا حديثاً Stratosphere وطبقة الموجودات الحية التي تعيش على الأرض أو في الماء أو في الهواء Biosphere وطبقة الإنسان الذي يعيش بثقافة وحضارة معينتين Homosphere» (انظر: ٧٠/٢ - ٧١).

ولو رجعنا إلى الوراء، إلى المؤلفين القدامى والمحدثين، من هيرودوت إلى كارل ماركس، مروراً بابن خلدون ومونتسكيو، لوجدناهم كما يقول «موريس دوفرجيه» في كتابه «مدخل إلى علم السياسة» قد ألقوا جميعاً على ما للطبيعة من تأثير قوي في بنية وسلوك الأفراد والجماعات:

* أما عبد الرحمن بن خلدون، فيكفي أن نذكر عناوين المقدمات الفرعية الثانية والثالثة والرابعة والخامسة من كتابه «المقدمة» ليتبين لنا كيف أن ابن خلدون قد جعل من الوسيط الطبيعي والاجتماعي وسطاً واحداً. هذه العناوين هي:

(*) يشير الرقم الأول دائماً إلى المرجع (أنظر قائمة المراجع)، بينما يشير الرقم الثاني (ما بعد الخط المائل) إلى رقم الصفحة في المرجع المعني.

- المقدمة الثانية: في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم،
- تكملة هذه المقدمة: في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك،
- المقدمة الثالثة: في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم،
- المقدمة الرابعة: في أثر الهواء في أخلاق البشر،
- المقدمة الخامسة: في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار، في أبدان البشر وأخلاقهم (٧٤/٣، ٨٣، ٨٩، ١٤١، ١٤٨، ١٥١ على التوالي).

* وبدوره فقد ذكر مونتسكيو Montesquieu في كتابه «روح القوانين»، أن «الحرارة الشديدة تثير الأعصاب، فتضعف قوة الرجال وشجاعتهم. أما المناخ البارد فيقوي الجسم والروح ويجعل البشر أقدر على القيام بأعمال طويلة شاقة جريئة». «إن العوامل الفيزيائية، وقبل كل شيء المناخ، وكذلك التربة والأرض هي التي تحدد بسيكولوجيا، أعراف، وعادات الناس، وروح الشعب الخاصة به، وبالتالي بنية حياتهم الاجتماعية، وقوانين الدولة، ونشاط مشرعيها» (انظر ٧١/٢).

* وبنفس الاتجاه، فقد ذهب كارل ماركس إلى أن «المناخ والشروط الجغرافية، ولاسيما وجود مساحات صحراوية شاسعة تمتد من الصحراء الأفريقية عبر شبه الجزيرة العربية وفارس والهند وبلاد التتار إلى هضاب آسيا الأكثر ارتفاعاً، قد جعلت من الري الصناعي بواسطة الأقنية وغيرها من الإنشاءات المائية، أساس الزراعة الشرقية» الأمر الذي يقع في صلب مقولة «نمط الإنتاج الآسيوي». (انظر: ٧١/٢)

* وأما موريس غودلييه، فيشير إلى أنه «لو قارنا خريطتين احدهما تمثل مستويات النمو الاجتماعي - الإقتصادي، والثانية تمثل الأرض مقسمة إلى مناطق كبرى حسب المناخ والنبات، لرأينا أموراً تحطف البصر: إن الحد الأقصى من التخلف يقابل المناطق الجليدية في الشمال والجنوب والمناطق الاستوائية، والمناطق الصحراوية التي تقع تحت المدارين، على حين أن الحد الأقصى من الإزدهار يقابل المناطق المعتدلة» (أنظر: ٧٣/٢).

وبنقلنا هذه العلاقة بين الطبيعة والمجتمع إلى مجال الظاهرة السكانية بالذات فإننا نجد، أن الآلية الفيزيولوجية لإنتاج وإعادة إنتاج السكان، إنما خلقتها واقع الحال الطبيعية، وهي تخضع على وجه العموم لقوانينها. وكذلك فإننا نجد أن التفاوت في الموقع الجغرافي بين الأقطار المختلفة، أو حتى ضمن القطر نفسه (القرب أو البعد عن: البحر، الصحراء، القطبين، خط الإستواء..)، والحالة التضاريسية (الإرتفاع أو الانخفاض عن سطح البحر، شكل ونوعية المكان)، وكذلك التفاوت في شكل وحجم ونوع المصادر الطبيعية (نوع التربة، البترول، الغابات، المعادن، الفحم، المياه..)، والحالة المناخية (الحرارة، الرطوبة، الرياح، الأمطار..). إنما يعني ديموغرافياً، تفاوتاً في الكثافة السكانية بين هذه المنطقة أو تلك وكذلك تفاوتاً في درجة النمو الطبيعي للسكان، وفي اتجاهات وتيارات الهجرة بنوعها، بل وفي درجة خصوبة النساء أيضاً (بسبب الفارق في نضج الفتيات، وبالتالي زواجهن المبكر بين منطقة جغرافية - مناخية وأخرى)، هذا إضافة إلى الفوارق التي تقع عند نقطة تقاطع ما هو طبيعي مع ما هو اجتماعي، والمتعلقة بالخصائص الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية للسكان (الهرم السكاني، متوسط العمر، الولادات، الوفيات، الخصوبة، النمو، الحالة الصحية، الحالة العملية، التوزيع الريفي - الحضري.. إلخ).

إن هذا التلازم بين مثلث: الطبيعة - المجتمع - السكان، يجب ألا يغيب عنا، أن هذا التأثير البارز للعامل الفيزيقي على الظاهرة السكانية، إنما ارتبط بشكل أساسي في المراحل الأولى للتطور البشري، ولكن مع تطور القوى المنتجة وخاصة «العلم» صار في مقدور الإنسان الوقوف في وجه جبروت الطبيعة بل وتحديها في بعض الأحيان. فقد أوجد الإنسان مثلاً حوالي ٤٠٠ سنة جديدة من ذوات القرون، و ١٥٠ من الخيل، و ٤٠٠ من الكلاب، وبنى السدود، وحول مجاري الأنهار.. إلخ بحيث أن الوسط الجغرافي الحديث لم يعد نتاجاً محضاً للتطور الطبيعي، وإنما أصبح يدخل النشاط البشري كعنصر أساسي في خلقه أو تعديله. (قارن: ٧٣/٢) إن المنطلق المنهجي الأساسي في تقييم الحالة الديموغرافية المعاصرة، هو - كما تقول كنيا جينسكايا - «الإقرار بالطابع البيولوجي الاجتماعي لعملية إعادة إنتاج السكان. والمقصود بذلك أن الآلية الفيزيولوجية لتكاثر السكان صنعتها الطبيعة، وهي تخضع لقوانينها، غير أن المعيشة الاجتماعية أيضاً ترك بصماتها على

تكاثرهم، وبفعل ذلك ينجب الناس أطفالاً أكثر في ظروف معينة، وأقل في ظروف أخرى، ويموتون في سن أبكر، أو سن متأخرة، إلخ» (٨٢/٤) وبنفس المعنى يكتب سولومون بروك قائلاً: «تختلف مؤشرات الحركة الطبيعية للسكان (الولادات، الوفيات، الزيادة الطبيعية) باختلاف البلدان، وتتوقف بدرجة كبيرة على النظام الاقتصادي والاجتماعي لهذه البلدان. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه المؤشرات تتسم باستقلالية معينة، وبقوة استمرارية كبيرة، وتؤثر عليها العوامل الاقتصادية والاجتماعية والقانونية والتاريخية والإثنوغرافية والجغرافية والبيولوجية وغيرها من العوامل - (درجة مشاركة النساء في الانتاج الاجتماعي، والمستوى التعليمي والثقافي للسكان، وتطور الرعاية الصحية، وسن الزواج، وتنظيم ولادة الأطفال في الأسرة، والأحكام الدينية، والتقاليد السائدة...) (٢٩/٥) وبصورة عامة ومختصرة، فإن إعادة إنتاج السكان بوصفها عملية بيولوجية اجتماعية، إنما «تحدد بطابع ومستوى تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج» وان العامل الديموغرافي «إذ يمارس تأثيراً مستقلاً معيّنًا على الاقتصاد، يتكون هو نفسه تحت التأثير الحاسم للظروف الاجتماعية الاقتصادية» (٩٢/٤).

* * *

إن العلاقة الجدلية، بين مثلث: الطبيعة، النظام الاقتصادي - الاجتماعي، السكان، إنما تتجلى في ذلك التفاوت والتباين في/بين المؤشرات الديموغرافية المختلفة. أولاً، على مستوى الزمان (التاريخ)، ثانياً، على مستوى المكان (الجغرافيا)، ثالثاً، على مستوى النظام الاجتماعي - الاقتصادي وهو ما تؤكد الحقائق الديموغرافية العلمية التالية، علماً، أن هذه المستويات الثلاثة هي مستويات متداخلة جدلياً، ولا يمكن النظر إلى أي مستوى منها بمعزل عن المستويين الآخرين.

المستوى الأول: التغيرات الديموغرافية على مستوى الزمان:

- ١ - إنه بنتيجة انخفاض مستوى تطور القوى المنتجة المادية والبشرية في العصور القديمة والوسطى، كانت تبعية الإنسان للطبيعة تبعية تكاد تكون مطلقة، الأمر الذي ترتب عليه من الناحية الديموغرافية:
- إن نسبة الولادة كانت قريبة جداً من النسبة المتوقعة من الناحية البيولوجية.

- إن نسبة الوفيات كانت بدورها قريبة من هذه النسبة، أي إنها كانت نسبة مرتفعة جداً.*
- إن الفارق بين نسبي الولادات والوفيات كان ضئيلاً، وبالتالي فإن نسبة النمو السكاني كانت بطيئة جداً تكاد لا تكون شيئاً مذكوراً، على مستوى كافة المجتمعات البشرية. (أنظر الجداول رقم ١ - ٤ والأشكال ١، ٢)
- أن متوسط العمر المتوقع كان بدوره ضئيلاً. فحتى القرن التاسع عشر لم يكن متوسط العمر في أوروبا يزيد على ٤٥ سنة (٣٥/٥).
- إن الحراك الجغرافي والاجتماعي الأفقي، سواء بين الأمم والشعوب المختلفة أو داخل كل أمة وكل شعب، كان محدوداً ومتواضعاً، سواء بسبب صعوبات العوائق الطبيعية، أو بسبب ضعف وسائل المواصلات والاتصالات أو - وهو الغالب - بسبب الطرفين معاً.
- إن الطابع الزراعي المتخلف هو الذي كان مهيمناً على الحياة الاقتصادية.
- وإذن: فإن نسبة التحضر (سكان المدن إلى مجمل السكان) كانت في حدودها الدنيا.
- ٢- استمرت الحالة السابقة في معظم المجتمعات البشرية، حتى نهاية القرن الثامن عشر، حيث شرعت القوى المنتجة في جزء معين من العالم، هو أوروبا، تأخذ طريقها إلى التطور المتنامي والسريع والذاتي، وتبعتها في هذا التطور علاقات الإنتاج، وكذلك الوعي الفردي والاجتماعي، وهو التطور الذي وجد تعبيره العملي في انتقال معظم المجتمعات الأوروبية (وفيما بعد أمريكا الشمالية) من المرحلة الإقطاعية إلى المرحلة الرأسمالية. لقد ترتب على هذا التغير الاجتماعي - الاقتصادي - الثقافي - السياسي النوعي، تطور - نوعي أيضاً - في المجال السكاني، أخذ الصورة التالية.
- شهدت البلدان الأوروبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر (١٨٠٠ - ١٨٥٠) ونتيجة لتطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج ومستوى الوعي التي أشرنا إليها تحسناً في الأوضاع الصحية العامة والخاصة، أدى إلى هبوط معدل الوفيات ولا سيما وفيات الرضع والأطفال من ٣٤٪ إلى ٣٢٪ في الحين الذي حافظت فيه
- (*) لقد شملت هذه القاعدة كلاً من الطبقات الفقيرة والغنية معاً. فمثلاً وُلد لملكة بريطانيا حنة (١٦١٥ - ١٧١٤) ١٧ ولداً ماتوا جميعاً (١٣/٦).

نسبة الولادات على حالها، بل إنها سجلت ارتفاعاً طفيفاً من ٣٨٪ إلى ٣٩٪، وعلى هذا فقد ارتفعت نسبة النمو السكاني في المجتمعات الأوروبية من ٤٪ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى ٧٪ في النصف الأول من القرن التاسع عشر. (انظر الجداول رقم ٢ ، ٣).

- استمرت نسبة الوفيات في الهبوط على مدى النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٥٠ - ١٩٠٠)، حيث هبطت من ٣٢٪ إلى ٢٨٪، في حين حافظت نسبة الولادات على نفس معدلها السابق تقريباً (٣٨٪) الأمر الذي ترتب عليه نوع من «الانفجار السكاني» النسبي، وهكذا «تميّز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمضاعفة كبيرة، بوجه خاص، في معدلات زيادة السكان (أكثر من ٠،٦٪ في العام الواحد، أعلى بثلاث مرات مما كانت عليه في القرون السادس عشر - الثامن عشر)». (١١/٥).

- إنّ عصر التحوّل الديموغرافي هذا في أوروبا، كان واقع الحال، عصر التحول الاقتصادي والاجتماعي على المستوى العالمي، حيث وقعت غالبية بلدان المعمورة تحت نير الاستعمار والتبعية، ويات تقدّم المجتمعات الصناعية المتطورة (أوروبا، أمريكا، ولاحقاً اليابان) مرهوناً بتخلّف بلدان المستعمرات وأشباه المستعمرات، ليس فقط على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وإنما أيضاً على المستوى الديموغرافي. إنّ نسبة الوفيات التي هبطت بصورة ملحوظة في الدول الصناعية المتطورة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شهدت صعوداً معاكساً في بلدان المستعمرات وأشباه المستعمرات (ارتفعت من ٣٦٪ إلى ٣٧٪) في الفترة الزمنية نفسها، وأصبح معدّل النمو السكاني في الدول المتطورة أكبر بكثير من ثلاث مرات منه في الدول «التابعة».

إنّ الدرس الذي يمكن استخلاصه من الصورة الديموغرافية للنصف الثاني من القرن التاسع عشر هو أن ارتفاع معدلات النمو السكاني في تلك الفترة كانت واحدة من إمارات التقدّم وليس التخلّف، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ الخلل الذي أصاب الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي العالمي، اعتباراً من القرن التاسع عشر، والذي أدى إلى تشويه عملية التطور الاجتماعي في البلدان الموصوفة الآن على أنها «بلدان نامية» هو الذي يكمن وراء الخلل الديموغرافي الراهن على المستوى العالمي أيضاً. وتعبير آخر، فإن ظاهرة الخلل

الديموغرافي في العالم الثالث، إن هي إلا إحدى ثمار التبعية قبل أن تكون أحد عوامل التخلف.

٣- شهد النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٠ - ١٩٥٠) تحولات جوهرية جديدة فيما يتعلق بالمسألة السكانية، تمثلت فيما يتعلق بالدول الصناعية المتطورة

بـ:

- استمرار هبوط معدل الوفيات، حيث هبطت هذه النسبة إلى ١٨٪ سنوياً.
- بدأ مستوى الولادات بدوره يهبط تماشياً مع مستوى الوفيات (من ٣٨٪ إلى ٢٦٪).

- وكنتيجة لذلك توقفت نسبة النمو السكاني عن الصعود، بل شرعت تأخذ اتجاهاً هابطاً، حيث نزلت من معدل ١٠٪ إلى معدل ٨٪.
وإذن فإن المسار الذي تتبعه الحركة السكانية، لا يساير دائماً مسار النمو الاقتصادي والتنمية الاجتماعية، ويمكن تحديد هذه العلاقة على النحو التالي بالنسبة للمجتمعات الصناعية المتطورة. (أنظر الشكل رقم ٣، ص ٢٢).

رقم المرحلة	الحقبة	التطور الاجتماعي الاقتصادي	الولادات	الوفيات	النمو السكاني
١	قبل القرن ١٩	-	+	+	-
٢	١٨٠٠ - ١٨٥٠	+	+	-	+
٣	١٨٥٠ - ١٩٠٠	++	+	--	++
٤	١٩٠٠ - ١٩٥٠	+++	-	---	+
٥	١٩٥٠ - ١٩٩٠	++++	-	---	* -

أما ما يتعلق بالدول النامية، فإن تطورها الديموغرافي في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠ كان شبيهاً بالتطور الديموغرافي الذي شهدته الدول الصناعية المتطورة قبل مائة عام، أي في الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٥٠، من حيث بدء معدل الوفيات بالهبوط التدريجي، مع محافظة معدل الولادات على مستواه المرتفع، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع معدل النمو السكاني من ٣٪ (١٨٥٠ - ١٩٠٠) إلى ٨٪ (١٩٠٠ - ١٩٥٠).

* يقل النمو السكاني في الدول الصناعية المتقدمة عن ١٪ في الوقت الحاضر

١٩٥٠)، وهو المعدل ذاته الذي كانت عليه الدول الصناعية المتطورة في ذات الفترة الزمنية.

٤- وبدخول النصف الثاني من القرن العشرين - بعد الحرب العالمية الثانية خاصة - وحصول معظم المستعمرات على استقلالها، وترسخ النظام الاشتراكي العالمي، شرعت السلع المصنعة والجاهزة تغزو البلدان النامية، بما فيها السلع الطبية والغذائية، الأمر الذي ترتب عليه تحسن الظروف الصحية العامة واختفاء الأوبئة الفتاكة وأدى بالنسبة لهذه البلدان إلى:

- هبوط نسبة الوفيات عامة، ونسبة وفيات الرضع والأطفال بخاصة هبوطاً حاداً وملموساً (من ٣٢٪ - ١٩٠٠ - ١٩٥٠، إلى ١٨٪ - ١٩٦٧).

- ارتفاع المعدل العمري للسكان.

- محافظة نسبة الولادات على معدلاتها العالية، كون أن التحسن في الظروف الصحية لم يأت نتيجة تطوّر القوى المنتجة المحليّة، وإنما جاء تحت تأثير عوامل خارجية ترتبط «بمنجزات الطب العالمي، وظهور إمكانية استخدامها في ظل الاستقلال». (٨٨/٤).

- ارتفاع معدل النمو السكاني ارتفاعاً صاعقاً (من ٨٪ - ١٩٠٠ - ١٩٥٠ إلى حوالي ٢٥٪ في سبعينات هذا القرن. وبهذا فإن معدل النمو السكاني في البلدان النامية أصبح ضعف مثيله في الدول الصناعية المتطورة.

- وبتيجة التطوّر الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي المشوّه في البلدان النامية، أخذ الحراك الاجتماعي والجغرافي (الهجرة الخارجية والداخلية) بدوره طابعاً مشوهاً، تمثل في عملية التحضر السريع وغير الناضج وغير المتوازن وغير المخطط، وبالعقاييل السلبية لهذه العملية على كل من القرية والمدينة. (لقد ارتفعت نسبة سكان المدن التي يزيد عدد سكانها عن ١٠،٠٠٠ نسمة في البلدان النامية من ١٥،٧٪ عام ١٩٥٠، إلى ٣٢،٣٪ عام ١٩٨٥)، (٢٤/٧). ويمكن تصوير العلاقة بين النمو الاقتصادي والديموغرافي في البلدان النامية كالتالي:

رقم المرحلة	الحقبة التاريخية	التطور الاجتماعي الاقتصادي	الولادات	الوفيات	النمو السكاني
١	قبل القرن ١٩	-	+	+	-
٢	١٨٥٠ - ١٨٥٠	-	+	+	-
٣	١٩٠٠ - ١٨٥٠	-	+	+	-
٤	١٩٥٠ - ١٩٥٠	+	+	-	+
٥	١٩٩٠ - ١٩٥٠	++*	+	---	+++

(أنظر الشكل رقم ٤، ص ٢٢).

المستوى الثاني: التغيرات الديموغرافية على مستوى المكان:

من الرجوع إلى الجداول رقم: ٥، ٦، ٧، ٨ يتبين أن قانون التطور السكاني متفاوت على مستوى الزمان، قد تجلى ويتجلى مرة أخرى على مستوى المكان، سواء تعلق الأمر بالكرة الأرضية ككل، أو بالمكان الجغرافي الخاص بشعب من الشعوب، أو أمة من الأمم. بيد أن العلاقة الجدلية التي سبق أن أشرنا إليها بين مثلث: الطبيعة - المجتمع - السكان، كانت تتحوّل مع مرور الزمن لصالح المجتمع والسكان، وتقلل من هيمنة الطبيعة عليهما، حتى إنّ الديموغرافيين الماركسيين المعاصرين يشيرون من الناحية المنهجية إلى أنه «لدى البحث في العمليات الديموغرافية بكل تنوع عواملها المتفاعلة فيما بينها» ينبغي التوكيد «على الدور الأولي للعامل الاجتماعي - الاقتصادي». (٨٣ - ٨٢/٤).

المستوى الثالث: التغيرات الديموغرافية على مستوى النظام الاجتماعي - الاقتصادي:

لقد بات معروفاً ومتفقاً عليه، انقسام عالما المعاصر بين: العالم الأول (الرأسمالي) والعالم الثاني (الاشتراكي)، والعالم الثالث (المتعدد الأنماط)، وبات معروفاً ومتفقاً عليه كذلك الترابط والتلازم بين العوامل الاجتماعية الاقتصادية، والمؤشرات الديموغرافية المختلفة (ولادات، وفيات، نموسكاني،

* يتعلق الأمر هنا بصورة أساسية بالاستفادة من منجزات الطب العالمي الوافدة من الخارج

خصوبة، هجرة..). وهو ما تؤكد اليوم الصورة الملموسة التي عليها هذه المؤشرات في كل من الدول الصناعية المتطورة والدول النامية. (أنظر الجداول رقم: ٢، ٣، ٨ والأشكال رقم: ٢، ٣، ٤).

إن الاتفاق على وجود علاقة ترابطية بين العامل الاجتماعي - الاقتصادي، والعامل الديموغرافي، لم يمنع واقع الحال من الاختلاف حول طبيعة هذه العلاقة وحول مَنْ مِنَ العَامِلِينَ يمثل العامل المستقل، وَمَنْ يُمَثِّلُ العامل التابع، وما هي الحدود بالتالي التي يتوقف عندها أثر العامل الإنساني على الظاهرة السكانية باعتبارها ظاهرة طبيعية أولاً وقبل كل شيء.

* فقد رأى العالم الاقتصادي الإنجليزي وليم بيتي (١٦٢٣ - ١٦٨٧) - على سبيل المثال - أن «العمل» أساس كل الثروات، أي بتعبير آخر أن «العاملين» (الناس) هم أساس كل الثروات، وإذن فإن نمو وحجم هؤلاء العاملين (السكان) هو الذي يحدّد نمو وحجم الخيرات المادية، وهكذا فإن الأمة الأكثر نفراً هي الأمة الأكثر غنىً وإذن فإن أي وقوف في وجه النمو الطبيعي للسكان، إنما هو في غير مصلحة الأمة والمجتمع.

* أمّا العالم البريطاني توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤)، فقد نظر للمسألة نظرة معاكسة تماماً، حيث صوّر أن نمو السكان إنما يتم على شكل متواليات هندسية (٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢... إلخ) في حين يتم تزايد وسائل وكمية الغذاء في صورة متواليات عديدة فقط (١، ٢، ٣، ٤، ٥... إلخ) أي أننا لو اعتبرنا أن سكان الكرة الأرضية «واحدًا» لتضاعف هذا الواحد خلال ٢٥ عاماً إذا لم يعرقل تكاثره شيء، وخلال قرنين من الزمان سوف تصبح النسبة بين عدد السكان ووسائل المعيشة $\frac{٢٥٦}{٩}$. وانطلاقاً من هذا التصوّر المتشائم والمغلوط معاً، فقد تصوّر مالتوس أن العالم مهتدّ بفيض السكان المطلق، وبالتالي الصراع من أجل البقاء، حيث سيهلك الضعفاء مخلين أمكنتهم لمن هم أقوى وأذكى وأصلح للبقاء منهم (!). وقد خلص مالتوس من وراء هذه «الدارونية الاجتماعية» الفظة إلى عدد من الاستنتاجات غير الإنسانية، وهي أنه كل ما يساعد على تقليل عدد السكان يعتبر خيراً ومشروعاً حتى ولو كان الجوع أو المرض أو الحروب. ويكون - وفق هذا التصوّر - توزيع «حبوب منع الحمل» على سكان البلدان النامية الغزيرة السكان أفضل

من تقديم أية مساعدات مادية لها. إن السبب الرئيسي للفقير، لا يتعلق - وفق مالتوس - «بطريقة الحكم، أو بسوء توزيع الممتلكات، فليس في وسع الأغنياء تأمين العمل والغذاء للفقراء، ولهذا فليس للفقراء الحق في مطالبتهم بالعمل والغذاء» (أنظر: ٨٤/٢ - ٨٥) و (٢٣٩/٨ - ٢٤٢).

إن مثل هذه النظريات الواحدية المتطرفة، تُسقط من اعتبارها واقع الحال أن النمو السكاني نفسه، إنما يتحدد - بالإضافة إلى العامل الطبيعي - بتطور القوى المنتجة، والعلاقات الإنتاجية والاجتماعية، بالقدر نفسه الذي يؤثر فيه النمو السكان في خلق تلك القوى والعلاقات، بدليل أن معدل النمو السكاني (وإذن، الولادات، والوفيات، والخصوبة) يختلف في مرحلتنا الراهنة، من مجتمع لآخر، سواء أخذنا المسألة على مستوى الأنظمة الاجتماعية - الاقتصادية العالمية الثلاثة، أو أخذناها على مستوى مجتمعات كل نظام من هذه الأنظمة. إن حجم وكثافة السكان يخلقان واقع الأمر فقط إمكانات محددة من أجل عملية التطور الاجتماعي، بيد أن الاستفادة من هذه الإمكانيات يظل أمراً يتعلّق بحالة المجتمع السياسية والاقتصادية والثقافية، وأيضاً بالظروف الطبيعية التي تجري عبرها وبها وخلالها عملية التطور الاجتماعي.

إن إنساناً جديداً يأتي إلى هذا العالم، هو ليس معدة فقط كما زعم مالتوس وليس ذراعاً فقط كما يرغب وليم بيتي أن يراه، إنه ينطوي واقعياً على: معدة وذراع ودماع، وهي عناصر متساندة وظيفياً، ومتكاملة إنسانياً، ولكنها في أدائها لوظائفها الإنسانية تظل أسيرة كل من الظروف الطبيعية والاجتماعية(*)، وما التقدم البشري، إلا تلك الانتصارات الملموسة التي حققها الإنسان (المعدة، الذراع، الدماغ) على ظروفه الطبيعية والاجتماعية، وانتقاله المتواصل من مستوى ما هو كائن إلى مستوى ما ينبغي أن يكون.

إن العلاقة الجدلية بين العامل الديموغرافي والعوامل الاجتماعية (بالمعنى الواسع) إنما تتبدى بصورة أساسية عبر المؤشرات التالية:

- الارتباط بين حجم السكان ومستوى المعيشة، فكما تقول «كنيا جينسكايان»

(*) حسب فريدريك انجلز، فإن حد إنتاج المواد الغذائية «يعينه لا عدد البطون الجائعة، بل كمية أكياس النقود الشارية، والقادرة على الدفع» (أنظر: ١٠٤/٤).

فإنه «في عداد أكثر عواقب» الانفجار الديموغرافي «السلبية خطيرة، تذكر تعمق إحدى الحالات الرئيسية لعدم تناسب التطور الاقتصادي المعاصر في البلدان النامية: عدم التطابق بين نمو الطلب على منتجات المواد الغذائية، وبين نمو الإنتاج الوطني لهذه المواد... إن التطورات الديموغرافية تساعد على تعميق هذا الخلل بتأثيرها على عنصرية كليهما: الطلب على المواد الغذائية، وظروف إنتاج هذه المواد» (٩٣/٤).

«إن الطلب الفعلي على المواد الغذائية... يتوقف بدرجة رئيسية على قيمتين متغيرتين: تعداد السكان، ومستوى معيشتهم». «إذ بمقدار ما يزداد الطلب على المواد الغذائية مع نمو الدخل، تأخذ نسبة هذا الدخل المخصصة للغذاء تميل نحو الإنخفاض بقدر نمو الدخل، وبقدر ما تكون الأسرة أكثر فقراً، يذهب القسم الأكبر من دخلها إلى التغذية، والعكس بالعكس...» (١٠٤/٤، ١٠٥).

- الترابط بين حجم وكثافة السكان وحصصة الفرد من الخدمات الاجتماعية العامة (التعليمية والصحية والمرافق المختلفة)، فعندما لا يكون النمو السكاني مصحوباً بنمو مواز للخدمات، فلا بد أن يختل التوازن بين هذين الطرفين، الأمر الذي تتراجع معه حصصة الفرد من الخدمات العامة إلى الوراء، بدلاً من أن تتقدم نحو الأمام، علماً أن تراجع نصيب الفرد من الخدمات الصحية والتعليمية والمرافق الأخرى، إنما يعني فتح الباب على مصراعيه لانتشار الجهل والمرض، وكل ما يترتب عليها من عقابيل اقتصادية واجتماعية وتنموية.

- الإرتباط بين تركيب السكان العمري وحجم وبنية قوة العمل. ذلك أن ارتفاع المعدل الطبيعي للنمو السكاني، إنما يترافق غالباً بـ: التركيب العمري الفتي للسكان، بما يعنيه ذلك من ارتفاع نسبة «الاعتماد» (الإعالة)، ووصول أفواج أكبر إلى سن الإنجاب، وبالتالي سن العمل في المستقبل، الأمر الذي سوف يجد انعكاسه المباشر على ارتفاع (أو انخفاض) معدل الأجور، وإذن، الدخول ومستوى المعيشة، وحصصة الفرد من الخدمات... إلخ، بكل ما لذلك من عقابيل اقتصادية واجتماعية وسكانية.

- الارتباط بين العامل الديموغرافي والتصنيع، ذلك أن الحجم السكاني لبلد ما - بالإضافة إلى عوامل أساسية أخرى - هو الذي يحدد عادة إمكانية قيام صناعة ثقيلة، أو حتى متوسطة، إن الصناعة الثقيلة تعتبر اليوم شرطاً أساسياً للاستقلال

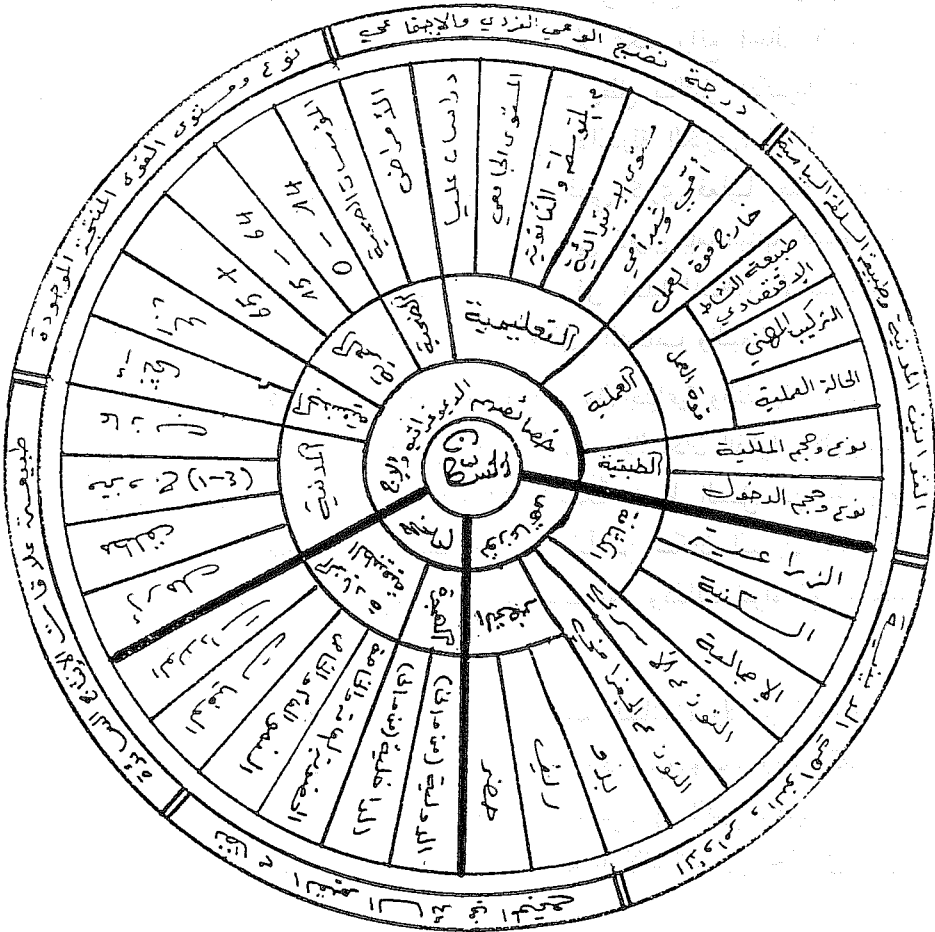
الاقتصادي، وبالتالي السياسي لبلد ما، ولكن عملية التصنيع، تحتاج كما هو معروف إلى توفر العنصر البشري (السكان) بشكل كثيف، سواء من أجل العملية الإنتاجية ذاتها، أو من أجل العملية الاستهلاكية، وبالتالي من أجل الاستمرار في إعادة الإنتاج Reproduction وتحسينه. إن بلداً صغيراً لا يمكنه واقع الحال أن يدخل مجال التصنيع الثقيل، أو حتى المتوسط، ولا بد أن يظل بالتالي محكوماً بالتبعية الاقتصادية والسياسية إلى الدول الأكبر. إن فكرة «الدولة الكبرى» إنما تمثل واقع الأمر حقيقة مزدوجة: اقتصادية - ديموغرافية. فهي كبرى فعلياً بعدد سكانها (الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفياتي) وهي كبرى بإمكانياتها التكنولوجية والاقتصادية أيضاً. إن الوحدة العربية تعتبر وفق هذا المنظور الاقتصادي - الديموغرافي، ضرورة لازمة لازمة للخروج من حالي التخلف والتبعية.

- الترابط «بين الخصوبة والظروف الاقتصادية والاجتماعية والنفسية السائدة في المجتمع، وبالظروف الفردية والبيئية التي تحيط بالفرد. فالسكان الفقراء أكثر إنجاباً من الأغنياء، وأصحاب المراكز الاجتماعية أكثر تمسكاً بضبط النسل من الحرفيين والعمال... كما أن سكان الدول النامية أكثر إنجاباً من سكان الدول المتقدمة» (5/9)، والمرأة الريفية أكثر خصوبة من المرأة الحضرية، وكذلك المرأة غير المتعلمة بالنسبة إلى المتعلمة.. إلخ.

- الترابط بين معدلات الإنجاب ومنظومة القيم السائدة، ولاسيما المتعلقة منها بالهدف من الزواج، وبسن الزواج، وبعدد الأولاد المرغوب، وبالموقف من السياسات السكانية المتعلقة بتنظيم الأسرة وتحديد النسل. إن الدين يلعب هنا دوراً أساسياً، ولاسيما عندما تكون أوامره ونواهيه واضحة الدلالة كما هي الحال في الدين الإسلامي الحنيف:

وختاماً، لهذه الدراسة،

نسوق المخطط التالي، الذي وضعناه، بحيث يشمل مختلف جوانب الظاهرة السكانية من جهة، والعناصر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي تؤثر على هذه الجوانب، بهذا الشكل أو ذلك، بهذه الدرجة أو تلك من جهة أخرى، وهي الجوانب والعناصر التي نرى أن على البحوث والدراسات الديموغرافية أن تقوم بتغطيتها، إذا ما أرادت أن تدرس بعمق وشمول الظواهر الديموغرافية في مجتمع ما.



مخطط لدراسة التركيب السكاني للمجتمع

جدول رقم (١): تزايد سكان العالم في الفترة من ٩٠٠-١٩٨٠ م

مدة المضاعفة	التزايد السكاني من - إلى	الحقبة الزمنية	
٨٠٠ سنة	٢٠ مليون إلى ٦٠٠ مليون نسمة	٩٠٠ م - ١٧٠٠ م	١
١٥٠ سنة	٦٠٠ مليون إلى ١٢٠٠ مليون نسمة	١٧٠٠ - ١٨٥٠	٢
١٠٠ سنة	١٢٠٠ مليون إلى ٢٥٠٠ مليون نسمة	١٨٥٠ - ١٩٥٠	٣
٣٠ سنة	٢٥٠٠ مليون إلى ٥٠٠٠ مليون نسمة	١٩٥٠ - ١٩٨٠	٤

المرجع : Bernhard Schafers (U.A.), Soziologie Für Pädagoen Stuttgart 1973, S.10.

جدول رقم (٢): نسبة المواليد والوفيات في كل من البلدان المتطورة والنامية في الفترة ١٧٥٠ - ١٩٦٧.

البلدان النامية		البلدان المتطورة		الحقبة الزمنية	متسلسل
الوفيات %	المواليد %	الوفيات %	المواليد %		
٣٧	٤١	٣٤	٣٨	١٧٥٠ م - ١٨٠٠ م	١
٣٦	٤١	٣٢	٣٩	١٨٠٠ - ١٨٥٠	٢
٣٧	٤١	٢٨	٣٨	١٨٥٠ - ١٩٠٠	٣
٣٢	٤١	١٨	٢٦	١٩٠٠ - ١٩٥٠	٤
٢١	٤١	١٠	٢٣	١٩٥٠ - ١٩٦٠	٥
١٨	٤١	٩	٢٠	١٩٦٠ - ١٩٦٧	٦

المرجع : Zu Problem der Demographie, Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte, Berlin 1974, Teil I, S.12

جدول رقم (٣) : نسبة النمو السكاني في الأقاليم ذات التطور السريع وذات التطور الضعيف

الأقطار ذات التطور الضعيف %	الأقطار ذات التطور السريع %	العالم %	الحقبة الزمنية	
٤	٤	٤	١٧٥٠ م - ١٨٠٠ م	١
٥	٧	٥	١٨٥٠ - ١٨٠٠	٢
٣	١٠	٥	١٩٠٠ - ١٨٥٠	٣
٨	٨	٨	١٩٥٠ - ١٩٠٠	٤
٢٣	١١	١٩	٢٠٠٠ - ١٩٥٠	٥

المراجع : Zu Problem der Demographie, Jahrbuch für Wirtschafts- geschichte, Berlin 1974, Teil I, S.19

جدول رقم (٤) تطور وتوقعات سكان العالم من ٢٥٠٠ ق.م حتى ٢١٠٠ م.

النمو السنوي للفترة		السكان (مليون)	السنة	تقسيم	النمو السنوي للفترة		(مليون)	السنة	تقسيم
%	العدد (مليون)				%	العدد (مليون)			
٠,٨٢	١٤	١٧٠٠	١٩١٠ م	١٣	٠,٠٧	٠,٠٢٦	٥٠	٢٥٠٠ ق.م	١
٠,٨٧	١٦	١٨٤٠	١٩٢٠	١٤	٠,١٠	٠,٠٨	١٠٠	١٠٠٠ ق.م	٢
١,٣	٢٦	٢٠٠٠	١٩٣٠	١٥	٠,٠٩	٠,١٤	٢٠٠	صفر ميلادي	٣
١,١	٢٤	٢٢٦٠	١٩٤٠	١٦	٠,٠٨	٠,٢٤	٣٠٠	١٠٠٠ م	٤
٢,٠	٥٠	٢٥٠٠	١٩٥٠	١٧	٠,٠٤	٠,١٥	٣٥٠	١٢٠٠ م	٥
٢,١	٦٣	٣٠٠٠	١٩٦٠	١٨	٠,١٨	٠,٧	٣٨٠	١٤٠٠ م	٦
٢,١	٧٥	٣٦٣٠	١٩٧٠	١٩	٠,٠٤	٠,٣	٤٥٠	١٥٠٠ م	٧
١,٩	٨٢	٤٣٨٠	١٩٨٠	٢٠	٠,١٤	٠,٧	٤٨٠	١٦٠٠	٨
١,٧	٩٠	٥٢٠٠	١٩٩٠	٢١	٠,٦٠	٣,٣	٥٥٠	١٧٠٠	٩
١,٢	٧٢	٦١٠٠	٢٠٠٠	٢٢	٠,٧٣	٦,٤	٨٨٠	١٨٠٠	١٠
٠,١٤	١٤	٩٧٠٠	٢٠٥٠	٢٣	٠,٦٧	٨,٠	١٢٠٠	١٨٥٠	١١
?	?	١٠٤٠٠	٢١٠٠	٢٤	٠,٦٣	١٠	١٦٠٠	١٩٠٠	١٢

المراجع : Weltbevölkerung 2000, Leipzig, Jena, Berlin 1983, S.13

جدول رقم (٥) توزيع سكان العالم حسب المناطق عالية الارتفاع

المنطقة	أقل من م ٢٠٠٠	من ٢٠٠٠ - ٥٠٠٠ م	من ٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ م	من ١٠٠٠٠ - ١٥٠٠٠ م	من ١٥٠٠٠ - ٢٠٠٠٠ م	أعلى من ٢٠٠٠٠ م
اليابسة كلها عدا القطب الجنوبي وغرينلندا	٥٦,٢ %	٢٤,٥ %	١١,٦ %	٤,٤ %	٢,٣ %	١,٥ %

المراجع: سلومون بروك العمليات الإثنوغرافية، سكان العالم على أبواب القرن الحادي والعشرين، موسكو ١٩٨٦، ص ٧٤.

جدول رقم (٦) النسبة المئوية للسكان القاطنين بعيداً عن البحر

المنطقة	٥٠ - ٠ كم	٥٠ - ٢٠٠ كم	٢٠٠ - ٥٠٠ كم	٥٠٠ - ١٠٠٠ كم	أكثر من ١٠٠٠ كم	المجموع
اليابسة كلها عدا القطب الجنوبي وغرينلندا	٢٧,٥	٢٢,٧	٢٣,٥	١٧,٧	٨,٦	١٠٠

المراجع: سلومون بروك، نفس المرجع، ص ٧٦

جدول رقم (٧) كثافة السكان حسب المناطق الجغرافية الكبرى

كثافة السكان (نسمة/كم ^٢)		المناطق
في الريف	المجموع	
٤,٤	١٢	الاتحاد السوفيتي
٢٨	٩٩	أوروبا (عدا الشطر الأوروبي من Su)
٧٠	٩٨	آسيا (عدا الشطر الآسيوي من Su)
١٢	١٧	أفريقيا
٣,٠	١٢	أمريكا الشمالية
٦,٠	١٩	أمريكا اللاتينية
٠,٦	٢٨	أستراليا وأوقيانوسيا
٢٠	٣٤	كافة أنحاء العالم المسكونة

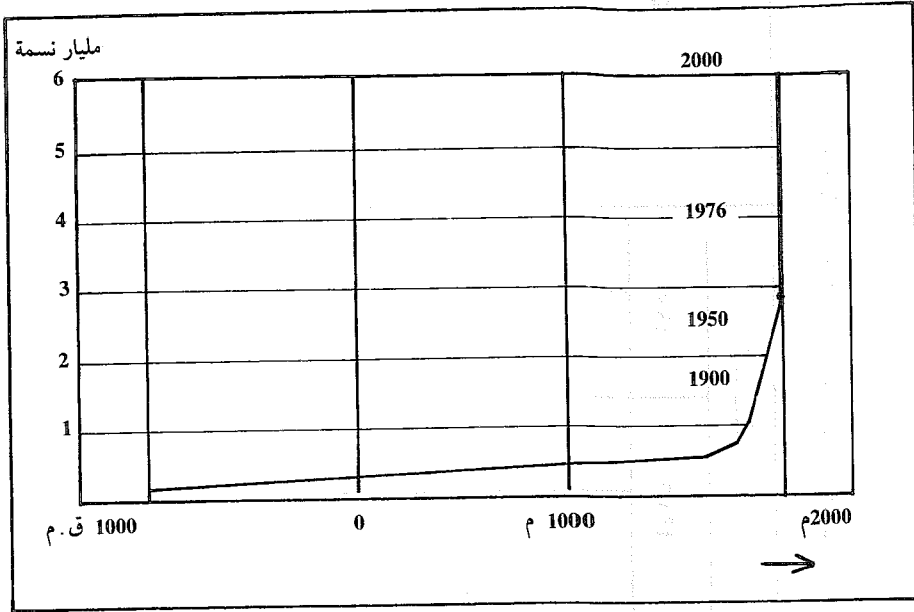
المرجع : سولومون بروك، نفس المرجع، ص ٧٩.

جدول رقم (٨) المؤشرات الديموغرافية حسب المناطق الثلاث للبلدان النامية والعالم بأسره (١٩٧٦-١٩٧٠).

المنطقة	السكان				مؤشر التنمية البشرية (مجموع)	مؤشر التنمية البشرية السنوية النمو (%) (١٩٧٦ - ١٩٧٠)	معدل المواليد (١٩٧٦ - ١٩٧٠) %	معدل النفقات (١٩٧٦ - ١٩٧٠) %	التركيب العمري للسكان		
	١٩٧٠		١٩٧٦						١٤-٦٥	٦٥-١٤	فوق ٦٥
	مليون شخص	% من سكان العالم	مليون شخص	% من سكان العالم							
البلدان النامية	١٧٣٦	٤٦,٣	٢٠٢٨	٥٠,٥	٣٧	٦,٦	٤٣	٣٠	٣		
بما فيها:											
آسيا	١١٠١	٣٠,٦	١٢٨٣	٣١,٨	٨١	٢,٥	٤٣	٣٠	٣		
أفريقيا	٣٥٢	٩,٨	٤١٢	١٠,٢	٤٤	٢,٦	٤٣	٣٠	٣		
أمريكا اللاتينية	٢٨٣	٧,٨	٣٣٣	٨,٢	١٦	٢,٧	٤٢	٣٠	٤		
العالم بأسره	٣٦١٠	١٠٠,٥	٤٠٤٤	١٠٠,٥	٣٥	١,٩	٣٦	٥٨	٦		

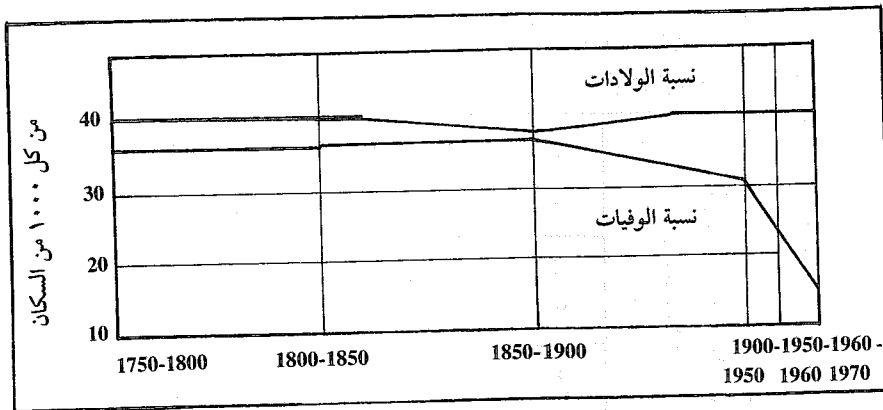
المرجع: كنيا جينسكايا، نمو السكان والشبكة الغذائية في البلدان النامية، موسكو ١٩٨٣ ص ٨١.

شكل رقم (١) تطور سكان العالم خلال ثلاثة آلاف سنة



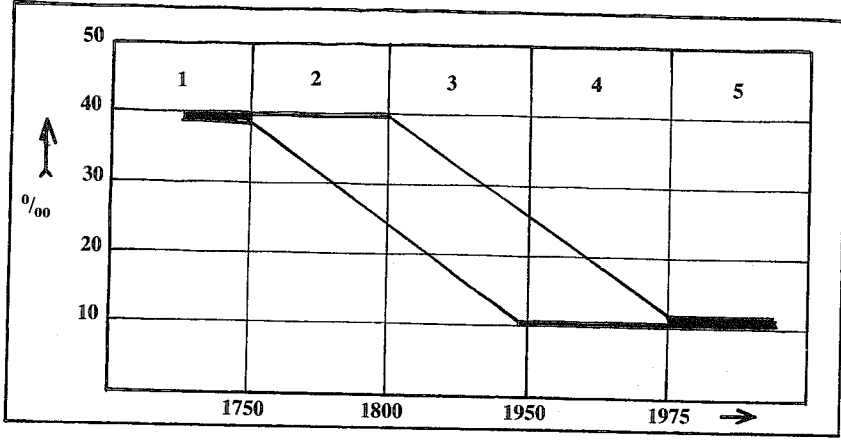
عن : Dieter Stempell, Weltbevölkerung 2000 Leipzig, Jena, Berlin, 1983, S.12

شكل رقم (٢) نسبة المواليد والوفيات في البلدان النامية



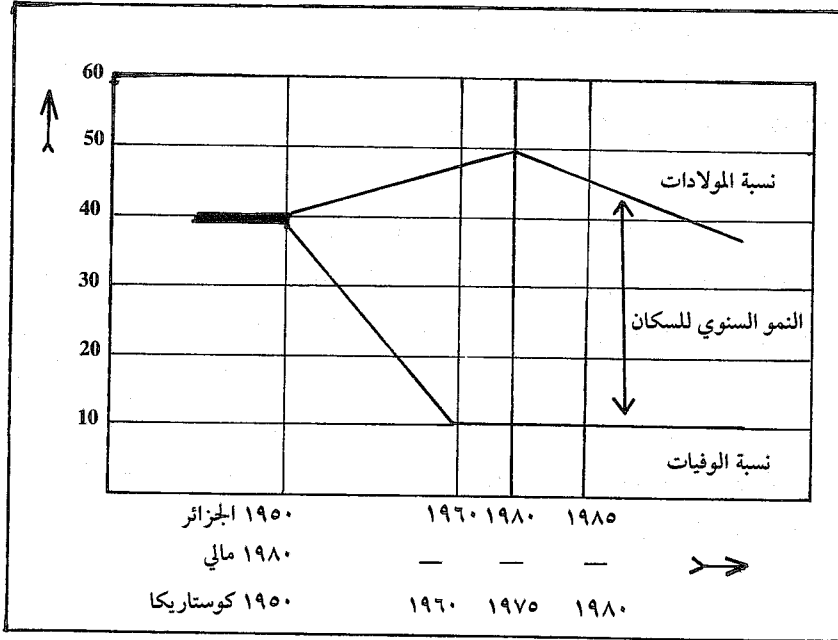
المراجع : Dieter Stempell, Ebda, S.19

شكل رقم (٣) مراحل التطور الديمغرافي في بلد صناعي متطور (بريطانيا)



عن : Dieter Stempell, Ebda, S.33

شكل رقم (٤) المنحنى النموذجي للتحوّل الديموغرافي في البلدان النامية



المرجع : Dieter Stempell, Ebda, S. 34

المراجع - الشواهد*

- ١ كينيث بولدينغ، العلوم الاجتماعية وأثرها في المجتمع، دار الآفاق الجديدة، بلا تاريخ.
- ٢ محمد الزعبي، التغير الاجتماعي بين علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي، دار الطليعة - بيروت ١٩٨٢، طبعة ثالثة.
- ٣ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦١.
- ٤ كينبا جنسكايا، نمو السكان والمشكلة الغذائية في البلدان النامية، موسكو ١٩٨٣.
- ٥ سلومون بروك، العمليات الإثنوديموغرافية - سكان العالم على أبواب القرن الحادي والعشرين، أكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو ١٩٨٦.
- ٦ Dieter Stempell, Weltbevölkerung 2000, Leipzig, Jena, Berlin 1983.
- ٧ PARVIZ Khalatbari (hersg.), Die Weltbevölkerung in Zahlen, Berlin 1983.
- ٨ هـ. كول (وآخرون)، الرد على مالتوس، دمشق ١٩٧٨.
- ٩ عباس فاضل السعدي، التباين الإقليمي لمقياس الخصوبة وعلاقتها بتعلم المرأة في العراق، الندوة العلمية حول «السبل المؤدية إلى زيادة السكان في العراق» بغداد، ١٠ - ١٢ تشرين ثاني / نوفمبر ١٩٨٧.
- ١٠ Bernhard Schafers (u.a) Soziologie für Pädagogen, Stuttgart 1973.
- ١١ Zu Problem der Demographie, Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte, Berlin 1974, Teil I

* تم إيراد هذه المراجع حسب ترتيب ورودها في النص.

البعثة الملكية الدنماركية إلى (العربية السعيدة) وكارستن نيبور

الدكتور أحمد قايد الصائدي - قسم التاريخ

مقدمة :

في مطلع عام ١٧٦١ م أرسلت حكومة الدينمارك بعثة علمية إلى اليمن للقيام بدراسات وجمع معلومات عنه. وقد كلفت البعثة بجمع معلومات عن البلدان التي تمر بها أثناء رحلتها. وكان مقررًا أن تمكث في اليمن من عامين إلى ثلاثة أعوام، ولكنها لم تمكث سوى سبعة أشهر، وغادرته بعد أن فقدت اثنين من أعضائها بسبب الملاريا، أحدهما دفن في المخا والآخر في يريم، ثم مات أعضاء البعثة الآخرون بعد مغادرتهم اليمن الواحد بعد الآخر متأثرين بالملاريا التي أصابتهم في سهول تهامة، ولم يبق منهم سوى نيبور، الذي عاد إلى الدينمارك في نهاية عام ١٧٦٧ م، واستطاع وحده، بجده ودأبه، أن يحقق جزءاً كبيراً من مهام البعثة.

وسوف نحاول في هذا البحث أن نسلط الضوء على البعثة: أهدافها وتكوينها والظروف التي أحاطت بعملها وإنجازها العلمي، منذ كانت مجرد فكرة في ذهن أستاذ اللاهوت بجامعة جوتنجن، ميشائيلس، وحتى عودة نيبور إلى أوروبا. كما سنعطي اهتماماً خاصاً لنيبور، الذي حل بمفرده محل البعثة بكاملها، لنقف من خلال الحديث عنه على لمحات من الحياة اليمنية وشخصية الإنسان اليمني في القرن الثامن عشر الميلادي، كما نقف على منهجه - أي على منهج نيبور - وطريقة عمله في دراساته الميدانية.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا بصورة أساسية على المصادر الأولية المتمثلة بكتابات

نيبور نفسه. ويشكل هذا البحث الحلقة الأولى من مجموعة أبحاث كرسناها لدراسة «البعثة الملكية الدينماركية»، التي عرفت فيما بعد (ببعثة نيبور)، وذلك بهدف إبراز جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في اليمن في القرن الثامن عشر، من خلال ما خلفه نيبور من مادة علمية.

أ - البعثة

١ - فكرة البعثة:

ولدت فكرة إرسال بعثة إلى (العربية السعيدة) على يد البروفسور يوهان ميشائيلس (Johann Michaelis) أستاذ اللاهوت في جامعة جوتنجن (Göttingen) الألمانية، الذي كان مهتماً بدراسة التوراة وتفسير نصوصها. فقد خرج البروفسور ميشائيلس عن النظرة الدينية التقليدية إلى التوراة، تلك النظرة التي تعتبر التوراة كتاباً كل كلمة فيه إنما هي صادرة عن الله ولا يجوز أن تكون موضع دراسة أو تساؤل، وأراد أن يتعامل، معها أي مع التوراة، كنصوص يمكن أن تكون موضوعاً للدراسة التاريخية واللغوية وبينما هو بصدد دراسة التوراة رسخت في ذهنه فكرة مؤداها أن القيام برحلة إلى (العربية السعيدة) يمكن أن يساعد في الإجابة على أسئلة كثيرة تطرح نفسها على الباحث، حتى وهو يعالج النصوص معالجة لغوية بحتة. فهناك نباتات وحيوانات ورد ذكرها في التوراة ويمكن لبعثة علمية إلى اليمن أن تقوم بدراساتها كما يمكن مثلاً القيام بدراسة جغرافية وخاصة لموضوعات تتعلق بالتوراة مثل حركة المد والجزر في البحر الأحمر، التي كان لها أهمية كبيرة بالنسبة لهروب بني إسرائيل من مصر^(١).

وقد رأى ميشائيلس أن دراسة (العربية السعيدة) هي أكثر أهمية بالنسبة لتفسير التوراة حتى من دراسة فلسطين نفسها، وذلك لأنه من النادر وجود شعب في العالم حافظ على أشكال الحياة وأساليب المعيشة وأنماط التفكير القديمة كشعب (العربية السعيدة) لذا فإن الحياة في (العربية السعيدة) هي أقرب إلى الحياة التي عرفها الإسرائيليون من الحياة الحالية في فلسطين نفسها، إذ أن فلسطين قد خضعت عبر القرون لمؤثرات أجنبية كثيرة^(٢). ومن جامعة جوتنجن (Göttingen) انتقلت الفكرة إلى حكومة الدينمارك، عبر رسالة وجهها البروفسور ميشائيلس إلى بيرنشتورف

(Bernstorff) وزير خارجية الدينمارك والمسؤول عن إدارة شؤون إمارة شليسفيج وهولشتاين (Schleswig und Holstein) الألمانية^(٣)، عرض له فيها أهمية القيام بمثل هذه الرحلة، حيث - كما ذكر - «إننا لا نعرف عن العربية السعيدة إلا النزر اليسير، وإن مثل هذه الرحلة، إذا قام بها رجل مطلع ومعد في مجال الجغرافيا وعلوم الطبيعة وعلم اللغة والتوراة، سوف تحقق الكثير»^(٤). وتساءل ميشائيلس في رسالته عن إمكانية تبني ملك الدينمارك لهذه الفكرة، على أن لا توكل مهمة القيام بالرحلة إلى أحد المبشرين أو رجال الدين^(٥).

هكذا بدأت الفكرة بسيطة ومحدودة، إلا أنها تبلورت واتسعت بعد ذلك على يد بيرنشتورف^(٦)، لتأخذ شكلها النهائي بالصورة التي نعرفها عنها اليوم.

٢ - أهداف البعثة

مثلما بدأت فكرة البعثة بسيطة ومحدودة ثم اتسعت، كذلك بدأت أهدافها العلمية منحصرة في جلب المعلومات اللغوية والطبيعية والجغرافية والاجتماعية، التي من شأنها أن تساعد على تفسير وفهم نصوص التوراة^(٧)، ثم اتسعت وتعددت وأصبحت ذات طابع شمولي، تجاوز حدود التوراة، لتخدم علوماً أخرى، ولترتبط باهتمامات علماء في مختلف الجامعات الأوروبية أخذوا يتابعون إعداد البعثة باهتمام، وكل منهم ينتظر أن تخدم نتائجها مجال تخصصه، وخاصة أن البعثة في شكلها الأخير قد ضمت في عضويتها متخصصين في اللغات والجغرافيا والفلك والرياضيات والطبيعة. وإذا ما حاولنا هنا أن نحدد أهدافها بصورتها النهائية، استناداً إلى المصادر الأصلية وإلى بعض المصادر الثانوية، فإنه يمكننا أن نتبين أهدافاً متعددة، لبت مختلف الاهتمامات:

فبالنسبة لملك الدينمارك فريدرش أو فريدريك الخامس (Friederich V) وحكومته، أوجزت التعليقات الملكية، الموجهة إلى البعثة* والصادرة بتاريخ ١٥

* التعليقات الملكية الموجهة إلى البعثة هي أشبه ما تكون بنظام داخلي مكون من ٤٣ مادة، ينظم عمل البعثة ويحدد أدوار ومهام أعضائها. . إلخ. وقد نشرها ميشائيلس في كتابه Fragen وأعاد

نشرها Lohmeier في كتابه Niebuhr

انظر: Lohmeier, Niebuhr, S. 59-78 وكذا Michael, Fragen instruction

ديسمبر عام ١٧٦٠ م، في المادة الأولى هدف الرحلة بصورة إجمالية على النحو التالي: «على أعضاء البعثة المذكورين أعلاه أن يتوجهوا معاً إلى العربية السعيدة وأن يضعوا جميعاً نصب أعينهم دائماً الهدف النهائي للرحلة المحدد من قبل جلالتنا، وهو القيام بأكبر قدر ممكن من الاكتشافات العلمية في هذا البلد»^(٨).

ويمكننا أيضاً من خلال الدعاية الواسعة التي رافقت تجهيز البعثة أن نتلمس أهدافاً أخرى غير علمية، ترتبط برغبة الملك في أن يضفي على نفسه صفة تشجيع العلم ورعاية العلماء، وهي صفة حرص كثير من الحكام أن يتصفوا بها وأن تصبح مدعاة لتفاخرهم ودليلاً على تمييزهم عن معاصريهم من الملوك والحكام*. وتعتبر إحدى الصحف الديناميكية الصادرة في كوبنهاجن بتاريخ ١٢ يناير عام ١٧٦١ م (Kiøbenhavnse Danske Posttidende, 12.1.1761) عن هذا الهدف الخفي بعبارات واضحة الدلالة: «لما كان جلالته - رغم همومه السياسية الكبيرة في هذه الظروف الصعبة - يطمح طموحاً لا يعرف الكلل إلى التوسع في التعليم ورعاية العلم والارتفاع بمكانة شعبه، من خلال عمل مفيد وعظيم فقد قام جلالته قبل بضعة أيام بإرسال مجموعة من العلماء إلى القسطنطينية على ظهر الباخرة جرين لاند (Grønland) المتجهة إلى البحر المتوسط، حيث ستتجه هذه المجموعة من هناك إلى العربية السعيدة عبر مصر...»^(٩).

ويمكن إلى جانب ذلك أن نفترض وجود دوافع أخرى، سياسية واقتصادية، ترتبط بما نعرفه من طموحات الدول الأوروبية إلى توسيع علاقاتها ومناطق نفوذها السياسي والاقتصادي، وهي طموحات ذات صلة مباشرة أحياناً وغير مباشرة أحياناً أخرى بمعظم الكشوف العلمية والجغرافية التي تحققت على أيدي الأوروبيين خارج القارة الأوروبية منذ مطلع العصر الحديث^(١٠).

أما بالنسبة للعلماء وأساتذة الجامعات فقد تركزت أهداف البعثة في جمع أكبر

* نذكر هنا على سبيل المثال ملك بروسيا فريدرش او فريدرش الثاني المعروف بفريدرش الكبير، الذي حرص على استقطاب رجال الفكر والفلسفة والعلم والفن من مختلف أرجاء أوروبا إلى بلاطه حتى أصبح بلاطه موطئاً للمغضوب عليهم من المفكرين الأوروبيين، فغداً في نظر معاصريه راعياً للعلم والفكر، وكان ذلك مصدراً لاعتزازه ودليلاً على تفوقه. وقد كان فولتير واحداً ممن حظوا برعايته.

قدر من المعلومات التي يتوقع كل منهم أن تخدم مجال تخصصه وأبحاثه العلمية، فالبروفسور ميشائيلس، على سبيل المثال، وهو الأب الروحي لفكرة البعثة، كان هدفه أن يستفيد من نتائج الرحلة في دراسته التي كان يقوم بها للتوراة وأن يجيب المعلومات التي ستحصل عليها البعثة على الكثير من التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات. بل وأن تعزز نتائج الرحلة نظريته المتحررة إلى التوراة باعتبارها نصوصاً يمكن دراستها لغوياً وتاريخياً، من خلال دراسات تاريخية ولغوية وجغرافية للبيئة التي وجدت التوراة فيها. ولأن هذه البيئة متعددة الجوانب، فإن دراستها دراسة شاملة تمثل أفضل السبل للوصول إلى معلومات تفيد في تفسير وفهم التوراة. لذا تضمنت الأسئلة التي صاغها والتي استوحاها من اهتماماته أولاً ومن اهتمامات العلماء المتصلين به ثانياً تغطية شاملة لمظاهر الحياة، من نبات وحيوان وأرض ومناخ وبشر... إلخ، ولعل هذه الأسئلة التي تضمنتها قائمة مكونة من مائة سؤال^(١١) تعبر عن الأهداف العلمية للبعثة أوضح تعبير.

وإلى جانب هذه الأهداف الشمولية التي عبرت عنها أسئلة ميشائيلس التفصيلية الدقيقة*، كانت هناك بعض الأهداف، أو لنقل بعض الاهتمامات الجزئية المحدودة، لهذا العالم أو ذاك، مثل البروفسور ليني (Linné) أستاذ فورسكال (Forskal)، الذي عبر عن هذا الاهتمام في طلبه إلى تلميذه وهو يودعه أن يبعث إليه بغصن من شجرة البلسم التي تحدثت عنها التوراة، لعله يستطيع أن يشاهدها ويدرسها ويحدد إلى أي فصيلة من فصائل النبات تنتمي، قبل أن يدركه الموت^(١٢).

٣ - تكوين البعثة

تكونت البعثة من خمسة أعضاء من العلماء الشباب، اثنان منهم من الدينبارك

* نشرت تلك الأسئلة فيما بعد في كتاب مكون من حوالي ٤٠٠ صفحة وقد كانت الأسئلة طويلة ومفصلة حرصاً من السائل على الحصول على أجوبة تفصيلية، فأسئلة مثلاً عن طبيعة الجراد وانواعها وعن الأمراض التي تصيب نبات الذرة وعن سبل العرم... إلخ استغرق كل منها ما يزيد على عشر صفحات. وأما السؤال المائة أي الأخير فقد استغرق خمسين صفحة، وهو سؤال عن أنواع مختلفة من الطيور كالنسر والعقاب والبازي والنورس والحباري والقطا والشرقراق... إلخ.

انظر مثلاً Michaelis, Fragen, S.79 FF., S.209 FF., S.269 FF.

واثنان من المانيا وواحد من السويد، تتراوح اعمارهم بين الثامنة والعشرين والرابعة والثلاثين^(١٣)، وينتمون إلى تخصصات علمية مختلفة: البروفسور فريدريش كريستيان فون هافن (Friedrich Christian Von Haven) الديناركي الجنسية، متخصص في علوم اللغة. والبروفسور بيتر فورسكال (Peter Forskal) السويدي الجنسية متخصص في علوم الطبيعة والنبات. والمهندس كارستن نيبور (Carsten Niebuhr) الألماني الجنسية متخصص في الرياضيات والفلك والجغرافيا. والدكتور كريستيان كارل كرامر (Christian Carl Cramer) الديناركي الجنسية متخصص في الطب والطبيعة أيضاً. وجيورج فلهلم باورنفايند الألماني الجنسية (Georg Wilhelm Baurenfeind) متخصص في الرسم^(١٤). وقد خضعت البعثة لاعداد علمي خاص، امتد عدة سنوات، كان الهدف منه استكمال جوانب النقص في تخصصات أعضائها. فنيبور مثلاً كان تخصصه الأصلي مسح الأراضي، ولذا فقد كان عليه أن يتعمق في دراسة الرياضيات والفلك والجغرافيا حتى يصبح مؤهلاً للقيام بالمهمة الموكلة اليه. وإلى جانب هؤلاء الخمسة ألحق بالبعثة خادم سويدي، هو برجرين (Berggren).

وقد حددت التعليقات الملكية المهام العلمية لأعضاء البعثة بدقة، أما المهام الإدارية، فقد كان من المفترض أن يتولى البروفسور الديناركي فون هافن رئاسة البعثة، إلا أن سلوكه خلال سنوات الإعداد قد أثار قلقاً لدى كل من البروفسور ميشائيلس والوزير بيرنشتورف، وخشياً أن تؤدي طبيعته الميالة إلى الإهمال والتسوية واختلاق الأعذار إلى فشل البعثة. وخوفاً من أن يؤدي تعيين شخص آخر لرئاسة البعثة إلى خلق جو من التوتر والمشاحنات، حيث كان فون هافن قد هيا نفسه لرئاستها، فقد ألغيت فكرة تعيين رئيس للبعثة واكتفي بتعيين نيبور أميناً لمليتها، وأكدت المادة السادسة من التعليقات الملكية أن أعضاء البعثة متساوون ولا يملك أحد منهم سلطة على الآخرين وأن قراراتهم المتعلقة بإدارة عمل البعثة يجب أن تتخذ من خلال مناقشة جماعية وأغلبية الأصوات^(١٥).

٤ - خط الرحلة

كان من المفترض أن تنج البعثة إلى اليمن عن طريق الخط البحري الدائر حول أفريقيا إلى مستعمرة ترنكبار (Trankebar) في الهند، ومنها إلى اليمن^(١٦).

وكان هذا هو الخط الذي اقترحه البروفسور ميشائيلس في رسالته إلى الوزير بيرنشتورف، عندما طرح عليه فكرة البعثة بشكلها الأولي البسيط، إلا أنه قد صرف النظر عن هذا الخط أثناء فترة إعداد البعثة باقتراح من الوزير بيرنشتورف نفسه، كما روى ذلك البروفسور ميشائيلس، وحدد خطأً جديداً أكثر كلفة ولكنه بحسب رأي بيرنشتورف وميشائيلس أكثر فائدة علمية^(١٧). وقد تضمنت التعليمات الملكية (المادة ٣) تحديداً واضحاً لخط الرحلة الجديد، حيث تبدأ الرحلة من كوينهاجن عبر البحر إلى القسطنطينية، فالإسكندرية ثم براً إلى القاهرة ومنها إلى السويس وجبل سيناء ثم من السويس عبر البحر الأحمر إلى اليمن، لتبقى في اليمن سنتين إلى ثلاث سنوات^(١٨).

وحتى لا يبقى مجالاً للالتباس، وخاصة أن البعثة قد أجرت أبحاثها في مصر وعلى امتداد خط الرحلة إلى اليمن ثم واصل نيبور أبحاثه في طريق عودته إلى أوروبا عبر الهند وعمان وإيران والعراق وسوريا وقبرص وفلسطين ولبنان وتركيا. . . إلخ، لا بد أن نؤكد هنا أن محور الرحلة قد تركز حول إجراء أبحاث في «العربية السعيدة»، فقد كانت منذ بدء الرحلة وحتى انتهائها هدف الرحلة والمجال الرئيسي لأبحاثها.

انطلقت البعثة في رحلتها من كوينهاجن في ٤ يناير ١٧٦١. ووصلت القسطنطينية في ٣٠ يولييه من العام نفسه بعد أن توقفت في عدة موانئ أوروبية. وفي ١١ أغسطس غادرت البعثة القسطنطينية إلى الإسكندرية لتصلها في ٢٦ من الشهر نفسه. ومن الإسكندرية إلى القاهرة حيث وصلت في ١٠ نوفمبر وبعد أن مكثت في مصر قرابة عام* غادرت القاهرة في ٢٨ أغسطس ١٧٦٢ باتجاه السويس لتصلها في ٣١ أغسطس. ومن السويس قام بعض أعضائها (فون هافن ونيبور) برحلة إلى جبل سيناء. وفي ١٠ أكتوبر غادرت البعثة مدينة السويس بحراً باتجاه اليمن ووصلت ميناء جدة في ٢٩ أكتوبر وغادرته في ١٩ ديسمبر. ووصلت ميناء اللحية في ٢٩ ديسمبر. ومن ميناء اللحية بدأت البعثة أبحاثها في اليمن.

أما خط الرحلة الذي سلكته داخل اليمن فقد كان على النحو التالي:
غادرت البعثة اللحية في ٢٢ فبراير ١٧٦٣ ووصلت بيت الفقيه في ٢٥

* زارت البعثة أثناء اقامتها في القاهرة دمياط ورشيد.

فبراير. ومن بيت الفقيه قامت برحلات فرعية متفرقة، أهمها رحلات نيور إلى غليفقة والحديدة وزبيد ورحلته الجبلية المشتركة مع فورسكال باتجاه العدين وجبله وتعز ثم العودة إلى بيت الفقيه عن طريق بلاد ابن عقلان وحيس. وفي ٢٠ إبريل غادرت البعثة بيت الفقيه إلى المخا حيث وصلت في ٢٣ إبريل. وفي ٩ يونيو غادرت المخا إلى تعز بعد أن دفنت في المخا أول فقيه من أعضائها وهو البروفسور فون هافن الذي وافته المنية في ٢٥ مايو ١٧٦٣ م متأثراً بالملاريا. وفي ١٣ يونيو وصلت البعثة إلى مدينة تعز وغادرتها في ٢٨ يونيو باتجاه صنعاء، عبر مدينة إب وجبل سارة إلى يريم، التي وصلت في ٥ يوليو ودفنت فيها الفقيه الثاني من أعضائها وهو البروفسور بيتر فورسكال، الذي توفي في ١١ يوليو ١٧٦٣ م متأثراً بمرض الملاريا أيضاً. وفي ١٣ يوليو غادرت البعثة مدينة يريم عن طريق ذمار لتصل إلى صنعاء في ١٧ يوليو ١٧٦٣ م. وبعد إقامة قصيرة في صنعاء قابلت البعثة فيها الإمام المهدي عباس^(*). غادرتها في ٢٦ يوليو باتجاه المخا عن طريق مفتح وبيت الفقيه. وفي ٥ أغسطس وصلت المخا لتغادرها باتجاه الهند في ٢٣ أغسطس من نفس العام. وفي طريق العودة قضت الملاريا على أعضاء البعثة الآخرين ما عدا نيور فمات الرسام جيورج فلهم باورنفايند في ٢٩ أغسطس ١٧٦٣ م قرب جزيرة سقطرة، ومات خادم البعثة برجرين في ٣٠ أغسطس أي في اليوم التالي لوفاة باورنفايند^(١٩) وقذف بجسديها إلى البحر. أما الطبيب كرستيان كارل كرامر فقد توفي يوم ١٠ فبراير ١٧٦٤ م في مدينة بومبي بالهند^(٢٠). وظل نيور يواصل مهمة الرحلة منفرداً ليتولى وحده في النهاية الإجابة على الأسئلة العلمية التي كان على البعثة أن تجيب عليها مجتمعة، كل في مجال تخصصه، حيث عاد إلى الدينارك في شهر نوفمبر عام ١٧٦٧ م.

٥ - المصاعب التي واجهتها البعثة في اليمن

لا بد أن نقرر بداية أن المصاعب التي واجهتها البعثة في اليمن لم تترك لدى نيور انطباعاً سلبياً عن اليمن ولم تعكس نفسها على أحكامه التي ضمنها كتابيه

(*) الامام المهدي عباس ابن الإمام المنصور حسين ولد عام ١١٣١ هـ (١٧١٩ م) وتوفي عام ١١٨٩ هـ (١٧٧٥ م) بوع بالإمامة بعد وفاة أبيه المنصور عام ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) واستمر في الحكم حتى وفاته. انظر: العمري، مئة عام ص ١١، ١٩ وما بعدها.

وصف بلاد العرب (Beschreibung Von Arabien) ووصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة الأخرى (Reisebeschreibung nach Arabien und an- deren Umliegenden Ländern). فلقد كانت الجوانب الإيجابية التي لمسها وعاشها خلال رحلته وتجوّاله في بلاد (العربية السعيدة) أظهر من الجوانب السلبية، حتى بلغ تأثيرها في نفسه درجة أخذ عندها يتلمس المبررات والأعذار الكفيلة بجعل تلك السلبيات مجرد ظواهر عرضية لا تؤثر في الحكم العام على اليمن وأهله. وأخذ يعقد المقارنات، كلما وجد فرصة في سياق كتابه، بين أهل اليمن وعاداتهم وأخلاقهم ومعاملتهم للأجانب وبين أهل مصر والأترك وهما المنطقتان اللتان كان قد مكث فيهما بعض الوقت أثناء رحلته قبل وصوله إلى اليمن. بل وفي مرار كثيرة أخذ يقارن بين كرم وسماحة وترحاب أهل اليمن وبين الأوروبين في بلادهم. وتنتهي هذه المقارنات عادة لصالح سكان اليمن.

ولعل أبرز الصعوبات قد تولدت عن كون أعضاء البعثة قد وجدوا أنفسهم في بيئة مختلفة تماماً عن بيئتهم، ثقافياً واجتماعياً وجغرافياً ودينيّاً... إلخ. وكان مرض الملاريا هو أصعب الصعوبات التي صادفت البعثة وأجبرتها على تغيير خططها بصورة جذرية. فقد أصيب جميع أفراد البعثة، دون استثناء، بالملاريا في تهامة وقضوا نحبهم الواحد تلو الآخر بسبب هذا المرض، ولم تترك يد الموت سوى نيور. ومع أن هذا المصير العجيب كان كفيلاً أن يجعل نيور يغير من نظريته إلى اليمن، وهو أمر متوقع ومفهوم، فسببه فقد جميع رفاق الرحلة، وعلى رأسهم أهم أعضاء البعثة، صديقه فورسكال، إلا أن نظرة نيور في الواقع لم تتأثر بهذا الأمر، على خلاف ما ذهب إليه بعض من كتبوا عن الرحلة وحاولوا أن ينطقوا النصوص - نصوص كتابي نيور - بما ليس فيها، فيزعمون، كما هو الحال بالنسبة لتوركلد هانزن (Thorkild Hansen) أن نيور بسبب ما واجهه في اليمن لم يعد يستخدم في كتاباته اسم (العربية السعيدة) واكتفى باسم «اليمن»، إذ أن هذه البلاد «لا يمكن بالنسبة له أن تبقى موطن السعادة على الأرض»^(٢١). أما نيور نفسه فقد كان له رأي آخر. ولنقرأ معاً ما كتبه في مقدمة كتابه «وصف بلاد العرب» حول هذا الأمر: «يخطيء المرء إذا ظن أن رفاق رحلتي - نظراً لوفاتهم الواحد تلو الآخر - قد قضوا نحبهم بسبب وباء أصيبوا به. إني أعتقد، بالأحرى، أننا نحن أنفسنا كنا السبب فيها حصل، وأنه يمكن لغيرنا أن لا يقعوا فيها وقعنا فيه. لقد كانت مجموعتنا كبيرة،

الأمر الذي لم يمكننا من التكيف سريعاً مع طبيعة الحياة في هذه البلاد. وفي أشهر كثيرة لم نكن نتمكن من الحصول على مشروبات كحولية قوية، كما نحن متعودون. وفي نفس الوقت كنا باستمرار نتناول طعاماً مكوناً بصورة رئيسية من اللحم، وهو طعام يعتبر في البلدان الحارة غير صحي. وكنا نجد البرودة في الليل، بعد نهار حار، ممتعة، بحيث كنا نعرض أنفسنا لها بارتياح. كما أننا لم نعط اعتباراً لاختلاف الحرارة بين الجبال والسهول، وهو أمر كان يجب أن نراعيه. لقد سلكنا طرقاً وعرة. وكانت رحلاتنا على تلك الطرق تتم بشكل سريع ودون توقف كاف للراحة، وذلك من أجل أن نتمكن من التعرف على داخل البلاد. وكنا أحياناً نواجه مضايقات من الأهالي، ولكن لعل ذلك يرجع إلى أننا لم نكن قد عرفنا أهالي هذا البلد بما فيه الكفاية، الأمر الذي كان يجعلنا غالباً نعتقد، وبدون وجه حق، أن شكوانا لها ما يبررها، دون أن نضع في اعتبارنا أنه حتى في أوروبا نفسها لا يستطيع المرء دائماً أن يسافر دون مضايقات»^(٢٢). وإلى جانب مرض الملاريا كأبرز الصعوبات التي واجهت البعثة وأثرت في عملها وفي نتائج رحلتها واجهت البعثة صعوبات أخرى أقل حدة، فبعد إقامة مريحة في اللحية، كان أعضاء البعثة فيها موضع حفاوة وتكريم من قبل عامل اللحية وتجارها ومواطنيها غادرت إلى بيت الفقيه، لتتمتع هناك بإقامة مريحة أيضاً ولتنجز أهم الأعمال العلمية عبر رحلات قصيرة في مناطق تهامة وفي مناطق الجبال القريبة. ومن بيت الفقيه غادرت إلى المخا. وفي المخا بدأت الصعوبات تتوالى، فعامل المخا يختلف عن مثيله في كل من اللحية وبيت الفقيه. وموظفو الجمارك أقل لطفاً من موظفي جمركي اللحية وبيت الفقيه. ولذا فقد تم تفتيش أمتعة البعثة، التي كانت قد أرسلتها بحراً من اللحية، تفتيشاً دقيقاً، وفتحت الزجاجات التي وضع فيها فورسكال مجموعاته البحرية، فصدرت عنها روائح مزعجة، استاء منها كل من تجمع في مبنى الجمرك من المواطنين والموظفين، وكان بين الحيوانات المحفوظة بعض الحيات، فانطلقت الإشاعة سريعاً بأن هؤلاء الأوروبيين يضمرون نوايا سيئة تجاه اليمنيين وأنهم ينوون تسميمهم بما سيستخلصونه من سم الحيات. ونظراً لهذا الوضع توقف الموظفون عن فحص الأمتعة وامتنعوا عن تسليمها إلى أصحابها. وعاد أفراد البعثة ليجدوا أن صاحب البيت، الذي كان قد قبل تأجيرهم إياه، قد أخرج أدواتهم ورفض السماح لهم بالمبيت، بتحريض من صديقهم صالح. وامتنع سكان مدينة المخا عن إيوائهم،

حتى تدخل قاضي المدينة لدى أحد السكان. وبعد ذلك عانت البعثة من عامل المخا، الذي لم يلفظ من معاملته إلا بعد أن تسلم هدية من البعثة مقدارها خمسين ريالاً. وقد تطوع صديق البعثة واسمه صالح، وهو شاب كان قد رافق البعثة في رحلتها البحرية من ميناء جدة وواصل الرحلة مع السفينة، الى المخا وتحملت البعثة عنه أجرة السفينة لأنها وجدته شخصاً لطيفاً*، تطوع لمضايقة البعثة متخلياً عن لطفه، بعد أن يئس هو ووالده من ابتزازها. وكان والد صالح هذا واحداً من تجار المخا.

وبعد أن دفنت البعثة أول فقيدها من أعضائها وهو فون هافن أرادت أن تغادر المخا باتجاه صنعاء إلا أن عامل المخا رفض أن يسمح لها بذلك إلا بعد وصول إذن من الإمام. وبعد جهد ولاعتبارات صحية سمح لها أن تغادر إلى تعز، لعل أفرادها، وخاصة نيور وفورسكال اللذان كان المرض قد أدركهما، يجدون في مناخ تعز اللطيف فرصة للاستشفاء؛ على أن تنتظر هناك حتى يصل إذن من الإمام بالتوجه إلى صنعاء.

ورافق البعثة في رحلتها من المخا إلى تعز خادم من خدم عامل المخا ليكون عيناً للعامل عليها. وقد سبب ذلك الخادم للبعثة الكثير من المضايقات. وفي تعز بدا عاملها غير مكترث بوجود أعضاء البعثة، إلا أنه قد حذر عليهم الصعود إلى جبل صبر بسبب المشاكل التي كانت ناشبة بينه وبين بعض قبائل الجبل. وفجأة طلب العامل منهم الرجوع إلى المخا حيث وصلته رسالة من عامل المخا يطلب فيها عودتهم. وبينما هم يحاولون اقناع عامل تعز بالبقاء لديه حتى تصل أوامر الإمام، إذا برسالة تأتي من عامل المخا تشعرهم أن الامام قد سمح لهم بالسفر إلى صنعاء. ويتضح أمر الرسالة السابقة فإذا هي رسالة مزورة كان وراءها خادم عامل المخا.

وبدأ عامل تعز يناور ويمارس ضغوطه عليهم بغية ابتزازهم فمرة يسمح لهم بالسفر ومرة يمنعهم. ولم يكف عن ذلك إلا بعد أن تدخل قاضي تعز وكتب له «لا تكن طماعاً مع هؤلاء، فهم أناس أغراب»^(٢٣).

* كانت البعثة قد وثقت بذلك الشاب إلى درجة أنها بعثت معه معظم أمتعتها إلى ميناء المخا بما فيها مجموعات فورسكال وذلك عندما قررت أن تنزل في ميناء اللحية وتواصل السفر براً إلى المخا.

ومع بدء الرحلة إلى صنعا وقع فورسكال مرة أخرى فريسة لمرض الملاريا، بعد أن كان قد تماثل للشفاء. فأصبحت الرحلة بسبب مرضه أكثر صعوبة، فقد بلغت حالته من السوء حداً كان لا بد عنده من حمله على نقالة أو ربطه فوق أحد الجمال. ووقع نيبور بدوره فريسة للمرض أيضاً إلا أنه استمر رغم ذلك متحاملاً على نفسه يستفسر دون انقطاع عن أساء القرى ويقيس الارتفاعات ويحدد الاتجاهات ويحسب المسافات ليحملها جميعاً في نهاية النهار على خارطته التي كان يعمل على وضعها لليمن.

ووصلت البعثة إلى يريم بعد عناء شديد. وفي يريم صادفت أصعب المواقف، حيث عوملت من قبل الأهالي معاملة قاسية فرجت نوافذ الدار التي استأجرتها بالحجارة، وتوفي فورسكال، أكبر علماء البعثة متأثراً بمرضه، ودفن جثته في ظروف قاسية، أثناء الليل وعلى عجل خوفاً من الأهالي، في قطعة ارض اشترتها البعثة لدفنه. وبعد دفنه أُخرجت جثته من قبل اللصوص ونزع الكفن عنها ثم تركت خارج القبر، فأمر العامل أحد اليهود بإعادتها إلى القبر وسمح له أن يأخذ الصندوق الذي كانت قد وضعت فيه كأجر له على قيامه بدفنها.

واعتبر عامل يريم نفسه وريثاً شرعياً لفورسكال وأصر على أخذ جزء من أدواته ومخلفاته. ولما لم تجد البعثة بداً من الإذعان لطلبه وافقت أن تسلمه ما يريد شريطة أن يحرر لها استلاماً مكتوباً بذلك. فإذا به يصرف النظر عن حقه الشرعي. وقد عبر نيبور عن اعتقاده أن العامل قد صرف نظره عن الإرث لأنه كان يعرف أن البعثة ستواصل سفرها إلى صنعا وخشي أن تطلع الإمام على تصرفه^(٢٤).

هذه هي الصعوبات التي تستحق الذكر هنا. وإلى جانبها كان هناك الكثير من التسهيلات وحسن الاستقبال والمعاملة الطيبة التي واجهتها البعثة وتحدث عنها نيبور بإعجاب وارتياح. وسنأتي على ذكر بعضها في سياق حديثنا عن انطباعات نيبور عن اليمن.

٦ - الأهمية العلمية للبعثة وأهم إنجازاتها

تعتبر رحلة البعثة الملكية الدينارية - أو رحلة نيبور كما عرفت فيما بعد - أول

رحلة أوروبية إلى اليمن خطط لها تخطيطاً علمياً منهجياً^(٢٥) من ناحية، وأول رحلة ذات نتائج علمية حقيقية من ناحية أخرى. فقد شملت حصيلتها مجالات عديدة، كالطبوغرافيا ورسم الخرائط والإثنولوجيا والطبيعة... الخ^(٢٦). ورغم أن بعض نتائجها قد صححت أكثر من مرة على امتداد ما يزيد على مئتي عام، إلا أنها ما زالت تتمتع بمكانة مرموقة في نظر المهتمين بالدراسات اليمنية، ولا زالت تعتبر دليلاً ومرشداً لا غنى عنه للرحالة من العلماء والدارسين، ومصدراً استمدوا منه معلوماتهم الأولية، التي انطلقوا منها إلى مزيد من الاكتشافات العلمية^(٢٧). ويذهب فون فيسمن Von Wissman، وهو واحد من العلماء الذين زاروا اليمن في الثلاثينات من هذا القرن (القرن العشرين) ونشروا دراسات وأبحاث عنه، يذهب إلى القول، إنه لا مثيل لهذه الرحلة لا فيما سبقها من الرحلات ولا فيما تلاها. وإن هناك مناطق في اليمن لم يتعرض للحديث عنها أحد من الرحالة بعد نيبور وحتى الثلاثينات من هذا القرن^(٢٨).

لقد تكفلت جملة من الظروف والأسباب في جعل هذه الرحلة من أبرز الظواهر العلمية في عصرها، وإحلالها مكانة لا زالت تتمتع بها حتى اليوم. فمن حيث الإعداد، لم تحظ رحلة علمية أخرى بما حظيت به هذه الرحلة من إعداد علمي طويل، امتد أكثر من خمسة أعوام. ولم تشد بعثة أخرى أنظار العلماء الأوروبيين وتثر اهتمامهم، كما فعلت هذه البعثة. فقد تابعوا أخبارها وبعثوا إليها من مختلف جامعاتهم بالاستفسارات العلمية، التي تمنوا أن تتمكن من الإجابة عليها^(٢٩).

ومن حيث النتائج، مثلت فتحاً علمياً كبيراً، إذ عرّفت العلماء الأوروبيين بالعربية السعيدة، التي لم يكونوا يعرفون عنها إلا القليل. وظلت حصيلتها، كما تقدم زاداً لا غنى عنه للمهتمين باليمن من الرحالة والباحثين.

يضاف إلى ما تقدم المصير المساوي لأعضاء البعثة، الذي لا شك أنه قد ولد تعاطفاً إنسانياً تجاههم وجعل ما أنجزوه ودفَعوا حياتهم من أجله موضع تقدير وإكبار. ويمكن لنا هنا أن نسوق مجرد مثل سريع لهذا الإكبار من مقالة تحدث فيها شفاين فورث (Schweinfurth) عن رحلته إلى اليمن عام ١٨٨٧ م:

«كان قد انقضى ١٢٨ عاماً على رحلة نيبور، التي كانت رحلة العصر، عندما

وصلت في ٤ يناير من هذا العام الى جبل برع، منطقة البن في اليمن. وبكل ما لدي من حب استطلاع مفعم بالغرور، تمنيت أن يُنظر إلى رحلتي على أنها عمل لا بأس به مقارنة بما أنجزه عالم النبات السويدي، الذي غدر به المناخ فسقط هناك في اليمن، ولم يكد يبلغ السابعة والعشرين من عمره، بعد أن استطاع خلال رحلته، التي لم تتجاوز نصف عام واحد، أن يجمع كنزاً من المعلومات العلمية، التي نشرها نيور بمساعدة العالم سويجا (Soega) في مجلد لا غنى عنه حتى اليوم في التعرف على نباتات ذلك البلد، وسيبقى هذا المجلد في جميع الأزمان مثلاً يعبر عن الاجتهاد العجيب وعن موهبة الملاحظة التي لا تضاهى لدى فورسكال الرائع»^(٣٠).

وعلى الرغم من هذه المكانة التي احتلتها رحلة البعثة الملكية الدنماركية إلى اليمن في نظر العلماء والباحثين والرحالة المهتمين باليمن إلا أننا نعتقد استناداً إلى ما بأيدينا من مخططاتها، أن وفاة أعضاء البعثة جميعهم، باستثناء نيور، قد أثر تأثيراً حاسماً في نتائجها، وجعل إنجازاتها العلمية، على ضخامتها - أقل بكثير مما كان يمكن أن تنجزه لو بقي أعضاؤها أحياء، يواصلون أبحاثهم على امتداد الرحلة، ويشغلون بدراسة ما جمعه من مواد ومعلومات بعد انتهاء الرحلة. وتأكيداً لما ذهبنا إليه يكفي أن نلقي نظرة سريعة على مصير المجموعات النباتية والحيوانية التي جمعها فورسكال:

أرسل فورسكال من القسطنطينية أول مجموعة من النباتات والحيوانات البحرية التي كان قد جمعها أثناء رحلته البحرية من كوبنهاجن إلى القسطنطينية، ولكنها لم تصل إلى كوبنهاجن إلا بعد عامين، وكان الكحول الذي حفظت فيه قد تبخر وفسد الجزء الأعظم منها. ومن القاهرة أرسل ثلاثة طرود ومجموعة صناديق مملوءة بالنباتات والحيوانات والطيور المحفوظة. ولكنها لم تصل إلا وقد عبث بها الأيدي، ولحقت بها الأضرار. ومن مدينة السويس بعث بصندوق ضاع في الطريق. وفي ميناء المخا تم تحطيم جزء من الصناديق وفسدت محتويات الجزء الآخر منها بسبب الحرّ الشديد وطول الاحتجاز في الجمارك، وانتهى الأمر إلى رميها في البحر.* ورغم ذلك فقد تمكّن فورسكال أن يجمع، في اليمن قبل موته، ويحفظ من

* كان فورسكال قد جمع محتويات تلك الصناديق قبل وصوله اليمن وارسلها بحراً إلى المخا. انظر هامش ص ١٩٩ من هذا البحث.

النباتات والحيوانات والبذور قدر اثني عشر صندوقاً، حملها نيبور معه إلى الهند، ومن هناك أرسلها بحراً إلى كوبنهاجن فتحطم بعضها في الطريق ووصل بعضها الآخر بعد ثلاثة أعوام من وفاة فورسكال أي عام ١٧٦٦م. لقد جمع فورسكال آلاف الأصناف من النباتات والحيوانات والطيور البرية والبحرية، وبلغ ما جمعه من البذور فقط، ما يزيد على ألفي صنف، كما يستدل من القوائم التي أثبت فيها أسماء تلك الأصناف. وقد بعث بجزء من البذور إلى بعض الجامعات الأوروبية، في كوبنهاجن ولندن وباريس ولايدن وغيرها، ووصل معظمها سليماً.

وقد خلف فورسكال إضافة إلى ما تقدم وإضافة إلى يومياته العديد من الملاحظات المكتوبة وتصنيفات المواد التي جمعها وموضوعات حول العادات والتقاليد واللغة والتاريخ والدين والتربية والبضائع والأسعار والعملات والأوزان... إلخ. وقد آلت جميعها إلى الإهمال، ولم يستطع ميشائيلس ولا أستاذ فورسكال - ليني - أن ينقذها من قبضة الروتين والإهمال والصراعات والمنافسات، ولم ير النور منها إلا ما ضمنه نيبور في كتابيه أو ما تم استنباته من بذور في الجامعات التي أرسلت إليها أو ما تمكن نيبور من نشره باسم صديقه فورسكال، وكان هذا لا يمثل شيئاً قياسياً بما كان قد تمّ جمعه. وقد فقدت حتى يوميات فورسكال، ولم يتم العثور عليها إلا في عشرينات هذا القرن (أي القرن العشرين) وتم طبعها في عام ١٩٥٠، أي بعد حوالي مائة وتسعين عاماً من موت فورسكال^(٣١). وكأما قد تبا فورسكال بالمصير الذي سنتتهي إليه جهوده ففي رسالة كتبها إلى أستاذه ليني وهو في بيت الفقيه في ١٨ إبريل ١٧٦٣م أي قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر ليزف إليه بشرى اكتشافه شجرة البلسم، التي يسميها اليمينيون «أبو شم»^(٣٢) وردت العبارات التالية: «... حقيقة إن هذا بلد يستحق أن تأتي إليه بعثة علمية متخصصة في علم النبات... ولكن إذا لم يقدر لي أن أعيش إلى ذلك اليوم الذي أتمكن فيه من أن أناقش ما جمعته مع السيد أرشياتر (Archiater) فإن خسارتي وخسارة العلم ستكون أكبر مما يستطيع الإنسان وصفها»^(٣٣).

ولم تقتصر خسارة العلم على عدم تمكن فورسكال من مناقشة ما جمعه، بل إن موته قد حرم العلم من تسجيل أي ملاحظات جديدة فيها تبقى من الرحلة حول النباتات والحيوانات وغيرها مما يدخل ضمن تخصص علماء الطبيعة^(٣٤).

ورغم الخسارة الفادحة فإن ما بذله نيبور من جهد غير عادي بهدف تحقيق نوع من التعويض، قد أبقى هذه الرحلة معلماً هاماً في سياق الرحلات العلمية الاستكشافية، التي قدمت من أوروبا إلى المنطقة العربية، وجعلها تحتل مكانتها المتميزة كما تقدم.

ولعل أهم الإنجازات التي بين أيدينا، إضافة إلى ما تبقى من مجموعات فورسكال ويومياته وإلى ما خلفه رسام البعثة بورنفايند من رسوم سجل فيها معالم البيئة اليمنية الاجتماعية والطبيعية، هي ما أنجزه نيبور وتتمثل بالخارطة التي وضعها لليمن، وتعتبر أول خارطة لليمن تتصف بقدر كبير من الدقة والتفصيل، وبكتابه الهامين: وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة الأخرى في ثلاثة مجلدات. ووصف بلاد العرب في مجلد واحد. وسوف نتحدث عنها في ما بعد.

لماذا أسرعت البعثة في مغادرة اليمن:

قبل أن نختم الحديث عن البعثة بإجمالها نود هنا أن نسرد الأسباب التي جعلتها تسرع في مغادرة اليمن. فقد كان من المفروض وفقاً للتعليمات الملكية أن تمكث البعثة عامين إلى ثلاثة أعوام.^(٣٥) لكنها لم تبق سوى سبعة أشهر. وقد حرص نيبور على إيضاح هذه الأسباب في كتابه «وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة الأخرى» فقال:

«لقد عوملنا في صنعاء بلطف وترحاب أكثر مما كنا نتوقع، حتى أن العديد من الأعيان قد بذلوا جهودهم لإقناعنا بأن نترك السفينة الإنجليزية(*) ترحل وأن نبقى عاماً آخر في اليمن. وعلى الأرجح فإنه كان يمكن أن نبقى عاماً آخر دون أن نصادف أية متاعب من قبل الأهالي. ولكن لأن البروفسورين(**) قد ماتا ولا يستطيع أحدا أن يسجل أية ملاحظات جديدة حول اللغة والطبيعة. ولأنني كنت قد شاهدت معظم المدن الغربية في هذه المملكة الصغيرة ووضعت المخطط الأساسي

* كانت البعثة قد عقدت العزم وهي في المخا أن ترحل مع سفينة إنجليزية كانت راسية هناك وتحدد رحيلها في أول سبتمبر ١٧٦٣ م.

** يقصد بالبروفسورين البروفسور فون هافن والبروفسور فورسكال وكانا الوحيدين اللذين يحملان هذا اللقب العلمي من بين أعضاء البعثة.

لخارطة اليمن. ولأننا كنا قد سمعنا الكثير عن طبائع الإمام الحاكم الجشعة. ولأننا كنا قد دخلنا في شجار شديد مع كل من حاكم المخا وحاكم تعز ولا زلنا نخشى أن نقع في إشكالات جديدة معها. ولأن المتاعب المستمرة الناتجة عن اختلاف الطقس والمياه بين السهل والجبل جعلنا غير قادرين على التكيف. لهذا كله قررنا أن نرحل إلى المخا ومنها إلى الهند حفاظاً على سلامتنا وسلامة أوراقنا». (٣٦)

وهكذا وجدت البعثة أن بقاءها عاماً كاملاً في اليمن بعد أن قضت حوالى سبعة أشهر لن يَحقق فوائد علمية تقاس بالمتاعب الصحية والإدارية المحتملة. لهذا قرّرت الرحيل قبل انقضاء المدة الزمنية التي كان مقرراً أن تمكثها في اليمن، بعد أن عاشت أشهراً مليئة بالعمل والبحث وبالمشاق والمرض والموت في آن واحد.

ب - كارستن نيبور (Carsten Niebuhr)

١ - شخصية نيبور:

كما يصنع المحققون عندما يريدون أن يتحققوا من صحة الرواية التاريخية فيخضعونها لعملية نقد ظاهري وباطني تبدأ بدراسة شخصية الراوي لما لشخصيته من تأثير على مصداقية الرواية نفسها، نجدنا مسوقون هنا إلى التعرف على شخصية نيبور لتلمس من خلال ذلك مدى دقته وصدقه في تسجيل ملاحظاته ومعلوماته.

ومن حسن الحظ أن المادة التي بين أيدينا تقدم لنا صورة واضحة عن نيبور، ليس فقط من خلال معلومات عن طفولته ونشأته وتعليمه وإنما أيضاً من خلال مواقف تدل على أخلاقه ودقته، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالرحلة نفسها.

ولد نيبور في ١٧ مارس ١٧٣٣م^(٣٧) في منطقة ريفية قرب مدينة هامبورج في شمال ألمانيا من أسرة فلاحية لا علاقة لها بالعلم ولم تكن القراءة والكتابة أمراً هاماً بالنسبة لها. وتوفيت والدته وهو في الشهر السادس من العمر. وتولت مسئولية تربيته زوجة أبيه، وبدأ يعمل في الحقل في سن مبكرة. ولم يسمح له والده بالالتحاق بالمدرسة إلا بعد محاولات إقناع متكررة وجهد كبير. ولكنه ما أن بدأ يتعلم القراءة والكتابة حتى مات والده وتوقف عن الذهاب إلى المدرسة بناء على أوامر الوصي، الذي رأى في المدرسة ترفاً لا معنى له.

كانت الأرض التي خلفها له والده لا تكفي لأن يعيش منها مستقبلاً، لهذا فكر بنوع من التعليم يستطيع أن يعتمد عليه في حياته. على أن لا يشترط هذا النوع من التعليم دراسة مسبقة. وهكذا اتجه إلى دراسة الموسيقى وبالذات إلى تعلم العزف على آلي «الكمان» و«الناي». ولكنه اضطر بعد فترة وجيزة إلى التوقف عن دراسة الموسيقى نزولاً عند رغبة الوصي، وأخذ يعمل كفلاح أجير لدى الوصي نفسه حتى بلغ سن الرشد وانتهت فترة الوصاية. عندها عاوده التفكير في تعلم مهنة يعيش منها. وقد هداه تفكيره، وهو يلاحظ أنه كلما نشب خلاف حول حدود الأراضي الزراعية يضطر المزارعون إلى استخدام مساح للأراضي من مدينة هامبورج، أن يتعلم مهنة مسح الأراضي. ولكن تعلم هذه المهنة يتطلب بعض المعارف السابقة، لذا اتجه نيبور إلى مدينة هامبورج والتحق وهو في الثانية والعشرين من عمره في إحدى المدارس ليتلقى في وقت قصير التعليم، الذي كان يفترض أن يتلقاه في طفولته. وقد استطاع بإصراره وجده أن يلتحق سريعاً بالثانوية العامة. وفي عام ١٧٥٧م استطاع، وهو في الرابعة والعشرين من عمره أن يسجل في جامعة جوتنجن لدراسة الرياضيات. وسرعان ما لفت انتباه أستاذ الرياضيات البروفسور كاستنر (Kästner) الذي أخذ يوليه عنايته وبذل جهداً لتأمين منحة دراسية له.

إنكب نيبور على الدراسة بكل طموحه وبكل رغبته في التعلم بعد حرمان طويل. وتركزت دراسته في البدء في الرياضيات وعلم الفلك. وفي يوم من أيام صيف ١٨٥٨م فاجأه أستاذه بسؤاله عما إذا كان يرغب في السفر إلى البلاد العربية. وكان ردّه بالإيجاب، فليس لديه ما يربطه بأحد في قريته، ولديه رغبة جامحة في التعرف على العالم الواسع. ولما أخبره أستاذه عن البعثة المزمع إرسالها من قبل ملك الدينمارك أبدى تردده، إذ أن المشاركة في مثل هذه البعثة تتطلب درجة عالية من المعرفة. لكن أستاذه طمأنه وأكد له أن هناك سنوات إعداد علمي متخصص ستسبق إرسال البعثة.

وهكذا كان. أعد نيبور علمياً على أيدي أساتذة متخصصين من أجل هدف محدد وهو المشاركة في الرحلة إلى العربية السعيدة، في وقت كان فيه رفاق الرحلة على وشك إنهاء دراساتهم الأكاديمية المنتظمة.

بعد هذه اللحمة السريعة عن حياة نيبور منذ طفولته وحتى التحاقه كعضو في البعثة الملكية الدينباركية - وهي لمحة نستشف منها بعض خصائص نيبور الدالة على شخصيته الجادة وعزيمته القوية وقدرته على تحديد أهدافه والسعي دون كلل لتحقيقها وعلى قوته الداخلية وقدرته على التكيف - سوف نستعرض بإيجاز بعض المواقف ذات العلاقة بالرحلة. وهي مواقف من شأنها أن تجعلنا نقرب أكثر من شخصية نيبور وأخلاقه:

كان فورسكال قد حصل على الدكتوراه، ومنح فون هافن فرصة للحصول على الدكتوراه بشكل سريع في الفترة التي سبقت بدء الرحلة، كما كفل لها مرتب تقاعدي في المستقبل ومنحاً بناء على طلبها لقب «بروفسور» كمقابل للاشتراك في الرحلة. وعندما سأل بيرنشتورف نيبور فيما إذا كان يرغب هو أيضاً في أن يمنح هذا اللقب كزميليه رد بالرفض، لأنه لم يحصل بعد على درجة الماجستير، فعرض عليه أن يمنح لقب «كابتن» لكنه رفض أيضاً لأن مثل هذا اللقب لا يتناسب مع سنه. وقد برر رفضه قائلاً: «إني كبروفسور أو كابتن لا بد أن أشعر بالخجل إذا تبين يوماً من الأيام أنني لم أتعلم بما فيه الكفاية في أبحاثي الرياضية»^(٣٨). وبعد لحظة صمت كان فيها بيرنشتورف ينظر إلى نيبور متفحصاً متعجباً قرر أن يطلق عليه لقب «إنجنير لويتنانت»*، وهو لقب - كما يذكر هانزن - يعني باللغة الألمانية «لاندفرميسر Landvermesser أي مساح أراضي».^(٣٩)

وقد اتفق كلٌّ من بيرنشتورف والبروفسور ميشائيلس على اختيار نيبور ليكون مسئولاً عن مالية البعثة، لما لاحظاه عليه من صدق وتواضع، وهما فضيلتان كفيلتان بجعل المرء يعرف حدوده ويلتزم بها.

* ولّد لقب «إنجنير لويتنانت Ingenieur-Lieutenant» الذي منح لنيبور التباساً فظن البعض أن «لويتنانت هنا تعني لقباً عسكرياً (ملازم) فغدا نيبور لديهم ظابط البعثة. في حين أن اللقب يعني تقريباً «مهندس مساح أراضي» باللغة الألمانية كما أشار هانزن. وتعني Lieu بالفرنسية قياساً فرنسياً قديماً للمسافات مثل الميل والكيلومتر. كما تعني Lieu بالإنجليزية مكان أو بدل أو محل. كما ان من معاني Lieutenant بالإنجليزية موظف محل محل أو مكان رئيسه عند غيابه. وهذه المعاني تشير بشكل أو بآخر إلى المكان أو قياس المكان لذا فإن تفسير هانزن لهذا اللقب هو أقرب إلى الصحة.

قارن: Hansen, Reise, S.39 وكذا: الرعدي، من كوينهاجن، ص ٢٣، ٥٠.

وفي ميناء اللحية استقبلت البعثة استقبالاً كريماً أثر في نفس نيبور تأثيراً عميقاً، ترك بصماته في صفحات كثيرة من كتابيه. فقد أعطيت للبعثة كل التسهيلات وطلب عامل اللحية منها أن تنزل في ضيافته وأكد لها أنها تستطيع أن تتحرك بكل حرية وأمان، وبعث إليها برأس من الغنم احتفاءً بوصولها. وقدم لها أحد التجار أصنافاً فخمة من الطعام لوجبة العشاء. وعرض كل من العامل والتاجر أن يدفع أجره السفينة التي أقلتها من ميناء جدة. وهنا يرفض نيبور هذا العرض ويقوم بدفع أجره السفينة باعتباره المسؤول عن مالية البعثة. وقد عبّر عن إحساسه تجاه هذه المعاملة الكريمة بقوله: «إنه من غير المحتمل أن تلقى بعثة عربية في أوروبا من قبل الأوروبيين مثل هذه المعاملة الكريمة». (٤٠) وعندما تجهزت البعثة لمغادرة اللحية أراد عامل اللحية أن يدفع أجره الجمال والخمير التي استؤجرت لنقل البعثة إلى بيت الفقيه، ولكن نيبور رفض ذلك بإصرار، قائلاً: «إننا لا نستطيع أن نقبل ذلك، فلم نأت إلى بلاد العرب لنعيش على حساب أهلها». (٤١) ويكرّر نيبور مضمون هذا القول وهو يتحدث عن إقامة البعثة في صنعاء وما لاقته من حفاوة وتكريم فيقول: «إننا لا نريد أن نعيش على حساب اليمنيين». (٤٢)

وأثناء عودة البعثة من صنعاء باتجاه المخا، كان الإمام قد زودها بأوامر إلى العمال على امتداد الطريق بأن يتولوا استضافتها استضافة كاملة أثناء مرورها في مناطقهم، إلا أن نيبور - مخالفاً بذلك رغبة مرافقي البعثة من اليمنيين الذين كانوا يرغبون في أن يتمتعوا بكرم الضيافة ويضيفوا على أنفسهم نوعاً من الأهمية والمهابة وهم يحلون ضيوفاً على العمال - كان يصرّ على أخذ ما هو ضروري لمتابعة الرحلة فقط وفي الحدود الدنيا. (٤٣) وفي هذا الصدد يذكر هانزن أن البعثة عندما رحلت من اللحية إلى بيت الفقيه حمل مرافقوها اليمنيون أوامر من عامل اللحية إلى المواطنين في القرى والمراكز التابعة إدارياً للحمية والواقعة على خط الرحلة باستضافة البعثة. وقد نفذ المواطنون تلك الأوامر، فكانوا يذبحون شاة كل مساء لاستضافة البعثة، إلا أن نيبور كان يتسلل بهدوء في كل مرة ويدفع ثمن الشاة لأصحابها. ويعلّق هانزن على تصرف نيبور هذا بقوله: «لقد رحل نيبور بعيداً في هذا العالم، ولكن ليس بعيداً إلى الحد الذي ينسى عنده ما تعنيه شاة بالنسبة لأسرة فلاحية في ريف شمال ألمانيا». (٤٤) ولم أجد في كتابات نيبور ما يؤكد رواية هانزن هذه. ولعلّ هانزن قد انساق إليها تحت تأثير أسلوبه الأدبي القائم على تزيين العبارات وتوظيف الخيال،

وقد قاده توظيف الخيال مراراً كثيرة إلى تجاوز رواية نيبور نفسه. أما رواية نيبور بهذا الصدد فتتلخص بالآتي:

إقتضت أوامر عامل اللحية أن يقدم المواطنون شاة لاستضافة البعثة على امتداد الطريق من اللحية إلى بيت الفقيه. وفي اليوم الأول وصلوا إلى إحدى المدن* في وقت متأخر من الليل ولذا لم يطلبوا من المواطنين تقديم شاة لهم. ولكنهم في اليوم التالي عرفوا أن أحد مرافقيهم من خدم عامل اللحية قد استغل الموقف واستخلص من المواطنين ثمن الشاة وتقاسمه مع حامية المدينة لهذا كما يقول نيبور: «لما رأينا أن الفلاحين لا بدّ أن يدفعوا في جميع الأحوال فقد قبلنا بعد ذلك في مدينة الضحي كل ما كان على الفلاحين أن يقدموه لنا بموجب أوامر عاملهم في اللحية». (٤٥)

وتكتمل الصورة لدينا عن شخصية نيبور إذا وضعنا في اعتبارنا طريقة حياته أثناء الرحلة وتفانيه في عمله وحرصه على إنجاز مهمته حتى وهو يصارع المرض. ولا يوازى هذا الحرص إلاّ توخيّه الدقة عند تسجيل ملاحظاته، وعدم أخذ المعلومات من الأفراد وتدوينها إلاّ بعد أن يبذل جهداً في التأكد من صحتها، وذلك بعرضها على أكثر من فرد. وعندما كان لا يستطيع أن يصل في تثبته من صحة معلومة ما إلى درجة الاطمئنان ويجد مع ذلك ضرورة وفائدة في تسجيلها فإنه كان يقوم بتسجيلها مع إشارات واضحة إلى أنه لم يتمكن من التأكد من صحتها وأنه لا يطمئن إليها كثيراً. وسرى في الفقرة التالية طريقة عمله ومدى الجهد الذي بذله في توخي الدقة.

٢ - حياة نيبور اليومية وطريقة عمله:

لكي نتعرّف على جزء من حياة نيبور اليومية في اليمن ليس أفضل من أن ننقل إلى العربية فقرات من مذكراته اليومية التي حرص على تسجيلها يوماً يوماً خلال رحلته. وهو هنا يتحدث عن استعداداته للسفر في رحلة قصيرة من بيت الفقيه إلى غليفقة والحديدة: «لم أقم بتحضيرات كبيرة لهذه الرحلة. استأجرت حمراً

* أورد نيبور اسم المدينة هكذا Dsjália.

يحملني ويحمل معي كيساً فيه بعض الملابس والكتب، وكانت ملابس الرحلة تتكوّن من عمامة ومعطف دون أكمام وقميص عربي فضفاض ومقطب عريض وزوج من النعال. ورغم أنه لا يخشى في تهامة من اللصوص إلا أن المرء يسافر عادة مسلحاً. كنت أحمل سيفاً وأضع مسدساً في حزامي. وكان صاحب الحمار، الذي عمل خادماً ودليلاً لي في هذه الرحلة، يسير خلفي مسلحاً بسيف ودرع إضافة إلى الجنبية. ويتسلح الآخرون من الفقراء العرب برمح وفأس بدلاً عن السيف. وقد اصطحبت معي مفرشة رديئة، تخدم عدة أغراض: كغطاء للسرج عند الركوب وكمقعد وطاولة عند الجلوس وكفراش عند النوم. واصطحبت معي مخدة أضعها في النهار على السرج وفي الليل تحت رأسي. وأمّا قطعة القماش الكبيرة التي يضعها العرب خلال النهار على أكتافهم ويستخدمونها لحمايتهم من الشمس والأمطار، فقد كانت غطائي في الليل. وكان وعاء الماء أمراً لازماً. وقد ربطته وتركته معلقاً إلى السرج. ويصطحب المسافر العربي معه عادة غليوناً وسط كيس من الجلد. ولم أكن محتاجاً إلى هذا العبء الإضافي، لأن عادة التدخين لم تكن مسيطرة عليّ إلى درجة عدم القدرة على الاستغناء عن الغليون أثناء الرحلة. لقد وطنت نفسي منذ بعض الوقت على أن أعيش الحياة اليمينية بصورة مرضية. ولذا لم أعد بحاجة إلى الملعقة والشوكة والسكين. إنّ من يجد نفسه قادراً على السفر بهذه الصورة وهو مرتاح ولا يفارقه الإحساس بالرضى حينها لا يجد في أحد التزل شيئاً غير خبز رديء، سوف يشعر بمتعة السفر في اليمن كما شعرت بها تماماً. إن وجهاء العرب يسافرون على نحو مختلف يتسم بالفخفة، إلا أن مثل هذه الطريقة لا تتطلب فقط إنفاقاً كبيراً ولكن أيضاً يكون السفر بها غير مريح عندما يصطحب المسافر معه عدداً كبيراً من الخدم وأكثر من ذلك لا يستطيع المرء أن يسافر في جميع الأوقات على هذا النحو وهو متمتع بالقدر اللازم من الأمان، مثلما يسافر شخص لا يتوقع أحد أن معه شيئاً». (٤٦)

وإذا كان نيبور قد وطن نفسه على أن يعيش ويلبس ويأكل وينام ويتنقل كاليمينيين العاديين، لاعتقاده أن هذه هي الطريقة المثلى للسفر دون مضايقات من ناحية وللتعرف على الحياة بشكلها البسيط والحقيقي، وهذه هي مهمته، من ناحية أخرى، فما هي الطريقة التي عمل بها؟

كان على نيبور أولاً أن يحسب سرعة الحمار. إذ إنَّ الحمار في اليمن - كما يقول - سيكون هو وسيلة التنقل «ليس لأن الركوب على الخيل بالنسبة للمسيحيين ممنوع، كما هو الحال في القاهرة، بل لأن المرء في هذه البلاد لا يستطيع أن يجد بسهولة خيولاً للاستئجار».^(٤٧) وقد اكتشف نيبور ميزات في الحمار تناسب طريقته في العمل تماماً، فهو مريح في سيره ومنتظم في خطواته، إذ يخطو ١٧٥٠ خطوة مزدوجة في كل نصف ساعة. وقام أيضاً بحساب سرعة الجمل - رغم أن استخدامه للجمل كان نادراً - فوجد أن هناك نوعان من الجمال: صغير وكبير، فأما الصغير فإنه يخطو ١٠٥٠ خطوة مزدوجة في كل نصف ساعة، وأما الكبير فيخطو في نفس الزمن ٩٧٥ خطوة مزدوجة. أما الإنسان فيخطو ١٥٠٠ خطوة مزدوجة في نفس الزمن. فإذا أصبحت السرعة معروفة، سهل بعد ذلك حساب المسافات، إذ يكفي، كما يقول نيبور: «أن ألاحظ فقط الزمن الذي قطعنا فيه المسافة من منطقة إلى منطقة أخرى، ثم أقوم بتحويل الزمن إلى خطوات مزدوجة وهذه إلى أميال».^(٤٨) وكان الحساب يتم وفقاً للسرعة القصوى، فإذا سار حمار وبجانبه إنسان، تحسب سرعة الحمار لأن الإنسان في هذه الحالة سيضطر لكي يواصل السير مع الحمار أن يزيد من عدد خطواته. وقد استخدم نيبور بوصلة جيب صغيرة وبعض الأدوات الفلكية لتحديد الاتجاهات ولحساب ارتفاع الشمس والنجوم، حتى يستطيع أن يحدد موقع كل منطقة أو مدينة أو قرية بدقة قبل تحميلها على الخارطة. وعادة ما كان يجري حساباته وتحميلاته في مساء كل يوم. وكان يدخل التصحيحات على ضوء المعطيات الجديدة، عند الانتهاء من كل رحلة.^(٤٩) وحرص نيبور أن يحمل على خارطته أسماء القرى والمدن التي مرَّ بها كما حرص أن يحمل أيضاً قرى ومدن لم يرها بل استقى معلوماته عنها من الأهالي العارفين. وقد حمل على خارطته حتى ما نسميها بالمقاهي (نزل المسافرين) المنفردة المتناثرة على امتداد الطرق الرئيسية، ورأى ذلك ضرورياً ليستطيع الإنسان وهو يطالع الخارطة أن يأخذ فكرة على درجة من الصحة عن التوزع السكاني في اليمن، وهو أمر لم يهتم به «الرحالة الآخرون الذين يكتفون بملاحظة المناطق التي يمرون بها فقط».^(٥٠)

وفي سياق عرض نيبور لطريقة عمله، وتواضع العالم وبإحساسه بالقصور البشري يعتذر عمّا يمكن أن يوجد في خارطته من نقص بالعبارات التالية: «لا

يستطيع المرء أن يتوقع أن تكون خارطتي التي وضعتها لليمن على نفس الدرجة من الدقة التي يستطيع إحرازها أولئك الذين يقومون بين الحين والآخر بوضع خرائط لمناطق أوروبية مستخدمين في قياساتهم أدق الأجهزة»^(٥١) ويضيف في مكان آخر «إن أولئك الذين يدركون كم هو صعب وخطر بالنسبة لرجل غريب أن يقوم بأعمال مسح ويجمع معلومات جغرافية في بلد غريب سيكونون - كما أعتقد - راضين بما عملته»^(٥٢) وقد حرص نيور على وصف المدن التي مرَّ بها وصفاً دقيقاً. ولذا تجوَّل فيها وطاق حول أسوارها وقاس مساحاتها وسجل أبرز معالمها ووضع تقديرات لعدد سكانها استناداً إلى عدد منازلها.

وتحدّث عن طريقته في وصف الأرض وتحديد الأسماء فأشار إلى أنه لم يكن قد اطلع على مراجع عربية تعينه على تحديد أسماء المواقع المختلفة لأن لغته العربية لم تكن بالمستوى الذي يميّنه من أن يقرأ كتباً عربية. (*) ولذا لم يصطحب معه في رحلته سوى الكتاب الجغرافي، المعروف في أوروبا منذ وقت طويل، لأبي الفدا. (***) وأمّا الكتب الجغرافية اليونانية فإن الأسماء فيها غير سليمة إلى درجة أنه يصعب التعرف عليها. لهذا فقد اعتمد على مشاهداته الشخصية وعلى ما سمعه من الأهالي. ومن الطبيعي أن ما توصل إليه لا يمثّل معلومات جغرافية كاملة، فهناك أسماء قرى ومدن أوردها أبو الفداء والشريف الإدريسي (***) لم يعثر عليها، مع أنه لم يشك في وجودها. وقد تمكّن من الحصول على معلومات عن مدن قديمة وإمارات صغيرة في اليمن لم تكن معروفة للأوروبيين حتى عصره.^(٥٣) ولم يستحسن - كما أشار - الرجوع إلى الكتب الجغرافية المعروفة لاستكمال المعلومات عن المناطق التي لم يرها أو لم يتمكن من جمع معلومات عنها بنفسه.^(٥٤)

* بدأ نيور دراسة اللغة العربية في جامعة جوتنجن لكنه انصرف عنها لصعوبتها وعكف على مواد تخصّصه ثم عاود دراستها أثناء إقامته بالقاهرة.

** الكتاب المشار إليه هنا هو تقويم البلدان الذي ترجم إل الفرنسية على يد المستشرق رينو. انظر: الاعلام ج١، ص ٣١٩.

*** استشهد نيور مراراً بالإدريسي وهذا قد يبدو متعارضاً مع قوله انه لم يكن قد اطلع عند زيارته لليمن إلا على كتاب أبي الفداء إلا أن أبا الفداء نفسه قد أورد استشهادات ومقارنات استند فيها إلى كتاب الإدريسي. كما يمكن أن يكون نيور قد اطلع على كتاب الإدريسي بعد رجوعه إلى أوروبا وقبل نشر كتابيه.

وقد بذل نيبور جهده للتحقق من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالمناطق التي لم يشاهدها. إذ كان يستفسر عنها ويعيد الاستفسار لدى أكثر من شخص. ولم يكن الأمر سهلاً فالأهالي «ليسوا على درجة واحدة من المعرفة ببلادهم وقد لا تتوفر لديهم الرغبة في أن يقدموا معلومات عن بلادهم للأجانب».^(٥٥) أما كتابة أسماء المدن والقرى والجبال والوديان... إلخ فقد واجه صعوبة فيها بسبب اختلاف نطق الأهالي وهذا أمر طبيعي - كما يقول - حتى في البلدان الأوروبية، وقد كتبها بحسب السمع وحاول قدر الإمكان أن يستكتبها من قبل أحد الأهالي باللغة العربية.^(٥٦)

وقد حاول نيبور أن يجيب على الأسئلة التي كان يفترض أن يجيب عليها زميلاه المتوفيان، فون هافن وفورسكال. ولأن هذه الأسئلة بعيدة عن مجال تخصصه فقد حاول جهده أن يجيب عليها مستخدماً ما توفر له من معلومات استقاها من الأهالي أو اقتبسها من ملاحظات وإجابات متناثرة في يوميات وأوراق فورسكال.^(*) وقد اعتذر عن التقصير بقوله: «لا يستطيع المرء أن يطلب مني إجابات كاملة على هذه الأسئلة بالصورة التي كان يمكن أن يجيب بها رفيقاً رحلي».^(٥٧)

ولجأ في تفسير بعض الكلمات العبرية إلى بعض اليهود، ولأنه لم يكن يعرف التخاطب بالعبرية فقد كان يشير بإبهامه إلى الكلمات. ولما كان اليهود لا يعرفون لغة أوروبية بل يحاولون شرح المعنى باللغة العربية فإن نيبور لم يستطع في بعض الأحيان أن يفهم شرحهم. ويفسر عدم فهمه بأنه وإن كان يستطيع أن يتفاهم باللغة العربية في حياته اليومية فإنه لا يستطيع بنفس الدرجة أن يستخدمها في حوار علمي.^(٥٨)

ولقراءة الخط الكوفي الذي تمكن من نقله في بعض المساجد والقبور استعان بالمستشرق الدكتور رايسكه (Reiske) من مدينة لايبزج الألمانية، باعتباره كما يقول «يعرف قراءة الخط العربي القديم أفضل مما يعرفه العلماء العرب المعاصرون».^(٥٩) وقد وافاه الدكتور رايسكه بتفسير لبعض الخطوط واعتذر عن عدم تمكنه من قراءة البعض الآخر.

* في حالة الاقتباس من فورسكال أو إيراد ما كتبه جواباً على أحد الأسئلة كان نيبور يضع في الهامش اسم فورسكال، على خلاف ما يصنعه اليوم بعض الباحثين، الذين يتجاهلون قواعد الاقتباس.

وللحصول على إجابات معينة كان عليه أن يتوجه بالسؤال إلى بعض الأهالي وقد تطلب منه ذلك جهداً كبيراً - كما يقول - وذلك لأنه يصعب على الرحالة الذي يمكث فترة قصيرة في منطقة ما أن يقيم علاقات بالعلماء المحليين، وإذا استطاع فإنه غالباً لا يتمكن من الحصول على إجابات واضحة، فهناك عادة تحفظ واضح تجاه أسئلة الأجانب. ولذا يجد المرء نفسه مضطراً إلى أن يسأل بصورة غير مباشرة وأن يطرح أسئلته في سياق الحديث وبشكل غير محسوس، وهذا يتطلب صبراً كبيراً ووقتاً طويلاً، وبعد ذلك كله لا يستطيع الإنسان أن يثق كل الثقة بصحة الإجابات التي حصل عليها «لأن المرء يصادف في بلاد الشرق أناساً لا يقولون الحقيقة إما قصداً حتى لا يطلعوا الغرباء على كل ما يريدون معرفته، أو أنهم جاهلون ورغم ذلك يعطون إجابات ليظهروا بمظهر من يعرف كل شيء»^(٦١) ولم يتوقف نيبور عن استفساراته بعد مغادرته اليمن بل استمر يحاول استيفاء الإجابات على الأسئلة التي بين يديه أثناء تجواله في البلاد العربية وهو في طريق عودته إلى أوروبا. ورغم أنه كان يفحص كل إجابة يحصل عليها بالاستفسار لدى أناس آخرين مراراً عديدة، إلا أنه مع ذلك ظلّ يعبر عن شكه في أن يكون قد تلقى إجابات صحيحة^(٦١)

أما بالنسبة لجمع المعلومات المتعلقة بتاريخ اليمن فقد اعتمد نيبور على ما رواه له رجل هولندي أحب فتاة في مدينة المخا وأراد أن يتزوجها إلا أن مسيحيته حالت دون ذلك فأسلم وأشهر إسلامه وكان والد الفتاة ينتظر منه أكثر من مجرد إشهار إسلامه ولما كانت حالة الهولندي المادية لا تسمح بإرضاء والد الفتاة فقد امتنع الوالد عن تزويجها به فغادر المخا وعاش - كما يقول نيبور - في منطقة حاشد وبكيل^(*)، واختلط بالعلماء وتفقه ودرس التاريخ. وقد نقل نيبور ما سمعه منه بعد أن سعى إلى التأكد من صحته عن طريق طرح أسئلة تاريخية محددة على علماء يمينين صادفهم أثناء رحلته^(٦٢) ولم يتوقف عن طرح الأسئلة التاريخية حتى بعد مغادرته اليمن، ففي الهند استطاع أن يحصل على معلومات عن القضاء في اليمن من عالم هندي كان قد أمضى سنوات في «أكاديمية زبيد»^(٦٣) كما استطاع في مسقط أن يحصل

* قرن نيبور اسم حاشد ببكيل في جميع كتاباته وأطلق عليها تسمية «اتحاد حاشد وبكيل» وقد قام هذا الاتحاد على نوع من التحالف العسكري الذي كان هدفه الوقوف في وجه الإمام وصد أي عمليات عسكرية قد يوجهها ضد القبيلتين. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 258 FF.

** هكذا يسميها نيبور في كتاباته.

على تفسير لمعنى أهل الكسا من عالم هندي قضى كذلك سنوات في زبيد. (٦٤)

وقد دوّن روايات عن أحداث تاريخية معاصرة، حصل عليها من شهود عيان، بعد أن تأكّد من صحتها بنفس طريقته الأنفة الذكر. وإلى جانب ذلك كلّه أخذ نيور يرصد عادات وتقاليد وملابس ومعاملات وطبائع السكان ويدوّن يومياً وصفه لها وملاحظاته عنها.

٣ - إنجازات نيور وقيمتها العلمية:

سجل نيور نتائج رحلته في عمليتين كبيرتين:

أولهما: كتاب بعنوان (Beschreibung Von Arabien) وترجمته الحرفية «وصف العربية» وقد فضلنا أن نسميه «وصف بلاد العرب» والمقصود بالعربية أو ببلاد العرب الجزيرة العربية. صدر هذا الكتاب في مدينة كوبنهاجن عام ١٧٧٢م، أي بعد عودة نيور من رحلته بحوالي خمس سنوات. ويتكوّن من ٤٩٠ صفحة. ويتضمن إضافة إلى المقدمات والرسوم والخرائط والجداول، موضوعات محددة كتبها نيور بصورة منهجية مرتبة في محاولة منه للإجابة على الأسئلة التي وجهها ميشائيلس والعلماء الآخرين إلى البعثة، ومنها أسئلة كثيرة لا تدخل الإجابة عليها ضمن تخصصه، كما سبقت الإشارة. وقد قسم نيور كتابه هذا إلى الأقسام الرئيسية التالية:

١ - قسم عام: أورد فيه معلومات عامة عن العرب تناولت جوانب كثيرة من حياتهم كالدين بمذاهبه المختلفة والعادات الاجتماعية والنظافة والطبائع الخلقية والطعام والشراب والمساكن والملابس واللغة وتعدّد الزوجات والعلم والزراعة والحيوانات... إلخ.

٢ - قسم خاص باليمن: تحدث فيه عن جوانب من تاريخ اليمن وجغرافيته وحياته السياسية والاجتماعية... إلخ.

٣ - أقسام أخرى خصص كلّ قسم منها لبلد من البلدان المحيطة باليمن: الحجاز والأحساء ونجد وعمان والإمارات المستقلة في الخليج وسيناء والإمارات اليمنية المستقلة وبعض القبائل البدوية المستقلة. وقد أفرد قسماً خاصاً بحضرموت.

ولكنه أثناء حديثه عنها لم يميز بينها وبين اليمن فجاء حديثه عن مملكة الإمام والإمارات اليمنية المستقلة وحضرموت متداخلاً كما لو أنه لم يفصلها تحت ثلاثة عناوين مختلفة. ولقد كان في حديثه المتداخل غير مختار فقد فرضت وحدة اليمن التاريخية والجغرافية عليه أن يتناولها ككيان تاريخي وجغرافي وبشري واحد رغم وجود أكثر من كيان سياسي. (٦٥)

وقد اختتم نيبور كتابه بالحديث عن حركة المد والجزر في السواحل العربية على البحر الأحمر وبملاحظات عن انحراف الإبرة المغناطيسية. وثانيهما: كتاب بعنوان (Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Ländern) «وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة الأخرى» وهو عبارة عن يومياته التي سجلها خلال رحلته، منذ إقلاعه من ميناء كوبنهاجن وحتى عودته. ويقع في ثلاثة مجلدات:

المجلد الأول: صدر في كوبنهاجن عام ١٧٧٤م، ويتكون من ٥٤٤ صفحة. ويتضمن إضافة إلى المقدمات وصفاً للرحلة من كوبنهاجن إلى القسطنطينية ثم إلى الإسكندرية والقاهرة ودمياط ورشيد فإلى القاهرة مرة أخرى والسويس وسيناء ثم إلى جدة ومنها إلى اللحية. وبوصول نيبور ورفاقه إلى اللحية يبدأ الجزء الخاص باليمن فيصف فيه إقامته وتجوّاله في اللحية ثم رحلته إلى بيت الفقيه وقيامه من بيت الفقيه برحلات فرعية إلى غليفقة والحديدة وزبيد ومناطق الجبال (العدين وجبله وتعز والعودة عن طريق حيس إلى بيت الفقيه). ثم رحلته من بيت الفقيه إلى المخا ومنها إلى تعز وإب ويريم وذمار وصنعاء ثم عودته من صنعاء إلى المخا عن طريق مفتح وبيت الفقيه. وقد تناول بالوصف كل ما صادفه في طريقه فقدم وصفاً للمدن والقرى والعادات والتقاليد والملابس والحقول والأسواق والسفر والبشر والطعام والشراب... إلخ. وأورد نيبور في نهاية هذا المجلد وصفاً للطرق التي تربط المناطق المختلفة في اليمن، نقلاً عن أحد الرحالة الهولنديين، ثم ملاحظات وجداول عن الطقس في كل من القسطنطينية والقاهرة واليمن وبومبي في الهند. وقد ضمن مجلده هذا مجموعة من الرسوم التوضيحية لمدن وموانئ ومزارع وأدوات وكتابات عربية قديمة، بعضها رسمها بيده وبعضها رسمها رفيق رحلته الرسام بورنفايند، وكلها تغطي رحلته من كوبنهاجن وحتى مغادرته اليمن. كما ضم نيبور

إلى هذا المجلد الخارطة التي وضعها لليمن والتي كانت تمثل مهمته الأولى في هذه الرحلة.

المجلد الثاني: صدر في كوبنهاجن عام ١٧٧٨م ويتكون من ٤٩٥ صفحة. وقد تضمن وصفاً للرحلة في الهند وعمان وإيران والعراق وبلاد الشام. ولا يختلف في طريقته وترتيبه عن المجلد الأول فقد احتوى على وصف للأرض والناس وضمت إليه خرائط ورسوم لأثار ومعالم تاريخية ونقوش... إلخ.

المجلد الثالث: أصدره في كوبنهاجن عام ١٨٣٧ كل من جلوير (Gloyer) وأولدس هاوزن (Oldeshausen) ويتكوّن من ٤٣٥ صفحة ولا يختلف في ترتيبه عن المجلدين الأول والثاني، إذ يواصل فيه نيبور وصف رحلته من سوريا إلى قبرص ومنها إلى فلسطين وتركيا وبلغاريا وبولونيا وألمانيا حتى وصوله الدينمارك. وشأنه شأن المجلدين السابقين إذ تضمن خرائط جزئية ورسوماً للمدن وبعض المعالم التاريخية. ورغم أن نيبور كان قد جهز هذا المجلد للنشر إلا أن صعوبات قد اعترضت طباعته ولم يتم طبعه إلا بعد وفاته.^(٦٦) وقد أضيفت إلى هذا المجلد بعض الملاحظات التي وضعها أولدس هاوزن، كما أضيفت إليه ستة ملاحق، وهي عبارة عن موضوعات متفرقة كان قد كتبها نيبور ورأى الناشر فائدة في إضافتها كملاحق للمجلد الثالث. ومنها موضوع عن الحبشة يتضمن معلومات جمعها نيبور أثناء رحلته، وبخاصة أثناء وجوده في اليمن، وقد تأكدت صحة معظمها «وكانت ملاحظاته وأحكامه حول ذلك البلد صحيحة بصورة ملفتة للنظر»^(٦٧).

وإضافة إلى كتابيه الكبيرين وضع نيبور خارطة لليمن اعتبرت في حينها أول خارطة لليمن يتوفر فيها قدر كبير من الدقة. وقد أرفق بكتابه «وصف رحلة إلى بلاد العرب»، المجلد الأول، خارطة جزئية لليمن تمثل المنطقة التي كان يحكمها الإمام المهدي عباس، وتمتد من المخا والحجرية جنوباً إلى شمال اللحية وعفار وبيت أدهم شمالاً ومن البحر الأحمر غرباً إلى شرق ذيبان وذمار ويريوم وإب شرقاً، وهي المنطقة التي أطلق عليها في كتاباته اسم «مملكة الإمام» وهناك مناطق ضمتها هذه الخارطة مثل كوكبان لم تكن تحت سيطرة الإمام. وهناك خارطة أخرى أكبر مساحة وأقل تفصيلاً أرفقها بكتابه «وصف بلاد العرب» بين فيها امتداد اليمن على النحو التالي: في الجنوب تمتد إلى بريم وعدن والسواحل المطلّة على المحيط الهندي وفي

الشمال تمتد إلى شمال أبي عريش في خط أفقي إلى الربع الخالي وفي الغرب إلى البحر الأحمر وفي الشرق إلى نهاية بلاد الجوف وحضرموت. وعدا عن ذلك وضع نيبور خارطة للبحر الأحمر كان لها دور كبير في تنشيط الملاحظة فيه كما سنرى.

فإذا كانت إنجازات نيبور قد تثلت بما تضمنته كتاباته الأنفة الذكر وخارطته فما هي القيمة العلمية لهذه الإنجازات؟

إنه ليصعب الفصل بين الإنجازات العلمية للبعثة الملكية الديناريةكية بإجمالها وبين الإنجازات العلمية لنيبور نفسه. إذ أن الفضل يرجع إلى نيبور في معظم ما عرف من إنجازات البعثة، إلى درجة أنه قد غلب اسم نيبور على اسم «البعثة الملكية الديناريةكية» وأصبحت تسمى «بعثة نيبور». لذا فإن حديثنا عن القيمة العلمية لإنجازات نيبور قد تحمل نوعاً من التكرار لما سبق من حديث عن القيمة العلمية للبعثة بكاملها. وحتى نتجنب التكرار قدر إمكاننا سنقتصر هنا على إبراز بعض آراء العلماء من المهتمين بالدراسات اليمنية، التي تناولت الأعمال العلمية لنيبور بالتحديد.

كان نيبور - كما مرّ معنا - وهو يتحدث عن خارطته قد أعطى تقييماً متواضعاً لعمله وأشار إلى أن أحداً لا يجب أن ينتظر منه وضع خارطة تتصف بالدرجة نفسها من الدقة التي يستطيع بها واضعو الخرائط في أوروبا وضع خرائطهم مستخدمين في قياساتهم أدق الأجهزة^(٦٨). فإذا كنا سنأخذ من رأيه الأولي هذا مؤشراً لتقييمه العام لعمله، وبخاصة أن مثل هذا الرأي الدال على التواضع والحصافة في أن معاً قد تكرر في كتاباته في أكثر من موضع: وهو يتحدث مثلاً عن محاولاته شرح بعض الكلمات العبرية أو وهو يتطرق إلى الحديث عن تاريخ اليمن والمذاهب الإسلامية أو وهو يعرض طريقته في جمع المعلومات من الأهالي عن موضوعات لم يشاهدها، فما هو رأي العلماء الذين درسوا أعماله في ما بعد وعلى امتداد القرنين الماضيين وحتى اليوم؟

يرى بعض الباحثين أن الإعداد الطويل للبعثة الملكية الديناريةكية والإنفاق السخي عليها كان شرطاً أساسياً لنجاحها، إلا أن ما تحقق من إنجاز علمي للبعثة ما كان يمكن أن يتحقق، بعد أن مات أعضاؤها جميعاً ما عدا نيبور، لولا جهد

نيبور وتفانيه ودقته في عمله.^(٦٩) ومع أن نتائج رحلة نيبور قد صححت مراراً وزادت معارف الأوروبيين عن البلاد العربية خلال القرنين الماضيين، إلا أن أعمال نيبور «لا زالت حتى اليوم تمثل أكبر وأهم الأعمال التي أجريت لوصف البلاد العربية وإلى جانب ذلك فإن نيبور يعتبر رائداً لسلسلة من الرحالة الذين قدموا إلى البلاد العربية والشرق، ومنهم سيتزن (Seetzen) على سبيل المثال. وهكذا فإن قصة الرحلات الاستكشافية في البلاد العربية مرتبطة ارتباطاً قوياً باسم نيبور، أعظم الرحالة إلى البلاد العربية في العصر الحديث».^(٧٠)

ويرى البعض أن المعرفة العلمية في أوروبا عن البلاد العربية، قد بدأت مع نيبور^(٧١) فقد شملت أعماله حقولاً معرفية شتى، كالأثار والتاريخ والجغرافيا والاجتماع... إلخ، مما جعل نيبور «يحتل مكانة بارزة في إطار الدراسات العربية الحديثة».^(٧٢)

ويعتبر الكثيرون أن أهم إنجازات نيبور هي خارطته التي وضعها لليمن والبحر الأحمر. فقد كانت القياسات التي أخذها للسواحل الغربية للجزيرة العربية الأولى من نوعها في الدقة. ولذا فقد فتحت خارطته البحر الأحمر أمام الملاحه الأوروبية، واستطاع الإنجليز. بالاعتماد عليها أن يبحروا عام ١٧٧٢م من جدة إلى السويس.^(٧٣) وقد استفادت القوى الاستعمارية المتنافسة من خارطة نيبور وهي تسعى إلى السيطرة على منطقة المحيط الهندي والسواحل العربية^(٧٤). وظلت هذه الخارطة ولأكثر من مائة عام بعد وضعها الأساس لكل الأبحاث الجغرافية التي تمت عن اليمن.^(٧٥)

إنّ العمل العلمي لنيبور يتسم «بالموقف النقدي الحصيف تجاه المعلومات التي أعطيت له، كما يتسم بالدقة والعناية بالتفاصيل تجاه الموضوعات التي شاهدها مباشرة»^(٧٦)

هكذا يقيم العلماء والباحثون أعمال نيبور ويضعونها في المكان الريادي الذي تستحقه، وهو مكان لعل نيبور - بتواضعه - لم يكن يطمح إليه.

٤ - بعض انطباعات نيور عن اليمن

تقدم لنا انطباعات نيور عن اليمن مادة تاريخية ذات وجهين: فهي من ناحية تبرز التباين بين أوروبا واليمن في أساليب الحياة وفي العلاقات الاجتماعية وفي أنظمة القيم وفي المستوى الحضاري بشكل عام، وهو تباين لا يمكن أن يفهم إلا من خلال التسليم بوجود إطارين ثقافيين متباينين ومستويين حضاريين مختلفين، ولكن هذا التباين والاختلاف ليسا قضية مطلقة بل ظاهرة تاريخية مرتبطة بالتطور التاريخي المتباين لمجتمعين بشريين مختلفين، ويجب أن تفهم هذه الظاهرة ضمن إطارها التاريخي وضمن حدود العصر الذي سجلت فيه.

وأما من الناحية الأخرى، فإن انطباعات نيور هذه تعكس تأثير الإطار الثقافي والمستوى الحضاري الذي ينتمي إليه نيور، في ملاحظاته وتقييماته وفي نظرتة إلى الناس والأشياء، بل إنها تعكس حتى نوعية الاختيار، أي اختيار نيور لموضوعاته.

وكلا الوجهين يقدمان في النهاية نظرة باحث أوروبي، ينتمي إلى ألمانيا في القرن الثامن عشر، إلى اليمن في نفس الفترة الزمنية.

وبما أننا سنتطرق بالتفصيل في الأبحاث التالية إلى الموضوعات التي تمثل بالنسبة لنا مادة تاريخية، والتي تناولها نيور في كتاباته، فإننا سنكتفي هنا بالحديث عن بعض الانطباعات العامة لنيور عن اليمن:

أ - الكرم:

كانت وجهة الرحلة ميناء المخا، إذ أن اللحية والحديدة كمينائين آخرين في منطقة الإمام لم تكونا - كما يذكر نيور - اسمين معروفين للبعثة. وقد كانت البعثة على علم بأن الإنجليز يأتون إلى المخا من شرق الهند، وكانت تأمل أن تجد لديهم المساعدة من أجل أن تتمكن من التوغل داخل اليمن. ولكن البعثة نصحت وهي في جدة أن تنزل في اللحية أو في الحديدة وتتابع السفر براً إلى المخا، وذلك لأن السفر في البحر يكون بطيئاً في هذا الوقت من السنة، بسبب الرياح المعاكسة^(٧٧).

ورغم ان البعض قد أكد لها أنها تستطيع أن تسافر براً بكل اطمئنان في مملكة

الإمام إلا أنه كان يساور أعضائها الخوف؛ فالفكرة التي كانت لديهم عن اليمن لم تكن تختلف عن فكرتهم عن «العرب الرُّحل في مصر والحجاز»^(٧٨). * ولكن هذه الفكرة ما لبثت أن تغيرت بمجرد وصول البعثة إلى اللحية. وبدأت تتكون لدى نيبور جملة من الانطباعات التي وردت في كتاباته بصورة متناثرة متضمنة الكثير من المقارنات بين سلوك اليمنيين من ناحية وبين سلوك الأتراك والمصريين والاوروبيين من ناحية أخرى.

وأول ما لفت انتباه نيبور عند نزول البعثة إلى البر اليمني هو ظاهرة الكرم. فقد استقبلت البعثة بحفاوة بالغة لم تكن تتوقعها^(٧٩). وعرض كل من عامل اللحية وأحد التجار أن يدفع أجرة السفينة التي أقلتها من جدة. وتم تحضير عشاء فاخر لها وقدم لها العامل بعض الهدايا. وعند مغادرة البعثة اللحية متوجهة إلى بيت الفقيه حاول العامل أن يدفع أجرة الحمير والجمال التي أقلتها وكلف بعض خدمه بمرافقتها وحملهم رسائل إلى المسؤولين على امتداد طريق السفر يأمرهم باستضافتها مجاناً^(٨٠).

وتحدث نيبور بارتياح عن الاستقبال الذي حضيت به البعثة في صنعاء وكيف استضيفت وأطعمت وقدمت لها الهدايا من قبل الإمام مع مبلغ من المال (٢٠٠ ريال) ووجهت الأوامر لاستضافتها طوال طريق عودتها إلى المخا وكيف حاول أعيان صنعاء إقناع البعثة أن تقيم عندهم مدة عام إلى أن تعود السفن التي كانت لا تزال راسية في المخا مرة أخرى في العام التالي^(٨١). وأكثر ما لفت نظر نيبور هو تلك المضافات المنتشرة على طول الطريق في تهامة، حيث كان المسافرون ينزلون فيها عدة أيام يأكلون ويشربون وينامون مجاناً، وقد نزل نيبور نفسه في تلك المضافات أثناء تنقله في تهامة^(٨٢)، ولقي فيها من كرم الضيافة ما جعله يؤكد «أن المرء يستطيع من خلال الطريقة التي استقبلت بها في تلك المضافات أن يجزم أن العرب لا يزالون كرماء وأن كرمهم تجاه المسيحيين لا يقل عن كرمهم تجاه أبناء دينهم»^(٨٣).

ويلاحظ في كتابات نيبور أنه كثيراً ما استخدم اسم «العرب» كمرادف لاسم

* كان العرب الرحل في نظر أعضاء البعثة أناس يعيشون على قطع الطرق ونهب المسافرين، وقد تأكدت هذه الفكرة لديهم من خلال تجربتهم، فقد هوجم بعض أعضاء البعثة في سينا وسلبت بعض أمتعتهم.

«اليمينين»، وهذا أمر مفهوم، إذا وضعنا في اعتبارنا أن اسم «اليمين» مرادف لاسم «العربية السعيدة». ولذا فإننا عند الاقتباس النصي ابقينا اسم «العرب»، ويجب أن يفهم من ذلك أن المقصود وفقاً للسياق هم اليمينيون. فعند حديثه العام عن الكرم عند العرب ساق كل أمثله من اليمن.

لقد أخذ نيور بما شاهده في اليمن من ممارسات يومية لفضيلة الكرم، والتي لا تقتصر ممارستها على الأفراد الميسورين، بل هي فضيلة عامة يتمسك بها السكان جميعاً. وكان قد تعرف قبل وصوله اليمن على كل من تركيا ومصر ثم مرّ بتركيا مرة أخرى في طريق عودته إلى أوروبا، لذا وجد فرصاً كثيرة لمقارنة سلوك اليمينيين وعاداتهم بسلوك الأتراك والمصريين. وتقدم لنا الفقرة التالية وصفاً حياً للكرم اليمني ينتهي بمقارنة طريفة: «بصر العرب على كل من يأتي إليهم أثناء الطعام أن يشاركهم طعامهم، وسيان أكان مسيحياً أو مسلماً، فقيراً أو غنياً. وقد أكلت معهم شخصياً وبكل ارتياح أثناء سفري. وحتى مرافقي الذي كان يعتني بالحمار كان عليه أن يأكل معهم. ورغم أن الكثيرين يعتذرون بلطف عن تناول الطعام، إلا أنهم في النهاية يستجيبون ويشاركون حتى ولو في قليل من الخبز والتمر. ولذلك فقد كان موضع استغرابي ما شاهدته بعد ذلك في تركيا، فقد وجدت العديد من الأغنياء الأتراك عندما يتناولون طعامهم يتوارون في إحدى الزوايا، حتى لا يأتي إليهم أحد فيضطرون إلى تقديم شيء من طعامهم إليه»^(٨٤).

ب - التسامح الديني:

لاحظ نيور ان الشعب اليمني شعب متدين وأن اليمينيين يمارسون تدينهم بتلقائية ودون ترمت أو تصنع، وقد أشار باستغراب إلى أن صاحبة نزل (مقهية) طلبت من أعضاء البعثة وهي تودعهم - وكانت تظنهم مسلمين - أن يدعو الله من أجلها^(٨٥)؛ وأورد مقارنة بين تدين أهل مصر وتدين أهل اليمن، من خلال صيام شهر رمضان فقال: «ولأن رمضان سيبدأ في ١٦ مارس*، فقد خشيت أن يكون المسلمون في تهامة متزمتين كالمصريين. فالمصريون الذين سافر معهم فورسكال في شهر رمضان** من القاهرة إلى الإسكندرية كانوا متشددين، يصومون طوال النهار

* عام ١٧٦٣ م.

** عام ١٧٦٢ م.

ويبدون انزعاجهم عندما يلاحظون أن فورسكال يتناول طعاماً أو شرباً، كما يبدو ضيقهم وتبرمهم إذا طالت الرحلة اليومية. مثل هؤلاء الناس لا يمكن أن أرتاح للسفر معهم. أما اليمينيون فليسوا مترمتين، فهم يصومون أياماً أخرى مقابل الأيام التي أفتروا فيها أثناء سفرهم»^(٨٦).

وسجل نيور انطباعاً رائعاً عن تسامح اليمينيين، فقد عكس عدم تزمتهم نفسه على سلوكهم وقناعاتهم تجاه الفرق الدينية الإسلامية المختلفة وتجاه الأديان الأخرى. وقد سجل انطباعه هذا عبر العديد من المقارنات، فالشيعة والسنة في كل من إيران وتركيا لا يطبق بعضهم بعضاً ولا يصلي أتباع مذهب في مساجد المذهب الآخر. أما اليمينيون فلم يؤثر اختلاف المذاهب في علاقتهم، وليس هذا وحسب بل إن اليمينيين لا يكرهون أتباع الأديان الأخرى^(٨٧). وقد لاحظ نيور أن اليمينيين يتقيدون بالقرآن تقيداً كبيراً فيوفرون الحماية لمن يلتحق بالإسلام، ففي المخا كان العامل يجري لمن أسلم من بحارة السفن وقرر البقاء في المدينة مبلغاً شهرياً من المال يعينه على الحياة. ولم يكن اليمينيون يظهرهم تشدداً مع من أسلم فلم يمنعوا من أسلم من المسيحيين مثلاً «أن يتصل بالمسيحيين أو أن يغادر البلاد إذا أراد»^(٨٨).

ج - التعامل مع الأجانب:

خطأ نيور الصورة التي يصور بها العرب عادة بقوله: «لا يجب أن يدع أحد الصورة التي تعطى عادة عن العرب، على أنهم غير مهذبين ولصوص وطماعون، تمنعه من السفر إلى البلاد العربية، فقد وجدت بنفسني أن هؤلاء القوم ليسوا سيئين كما يصورون. إننا نحن الأوروبيين نستعجل في إطلاق الأحكام على الأمم الأخرى قبل أن نتعرف عليها بشكل صحيح»^(٨٩). ويستطرد في عرض انطباعاته وقناعاته بالنسبة لتعامل الناس في البلاد العربية مع الأجانب، مبرزاً الأسباب التي يعتقد أنها تكمن وراء ما يعتبره بعض الرحالة تعاملماً سيئاً ويرجع هذه الأسباب إلى سلوك الرحالة أنفسهم، الذين لا يستطيعون أن يتكيفوا مع حياة الناس ويتعاملوا معها بساطة^(٩٠)؟ وينتهي إلى أن الرحالة الأوروبي الذي يرغب بالسفر إلى البلاد العربية ويوطن نفسه على الحياة بحسب عادات وتقاليد العرب «يمكنه أن يتجول في كل البلاد العربية - باستثناء الحجاز - بارتياح. ولكن ليس هناك منطقة يمكن أن يشعر فيها بالأمن والاطمئنان مثلما يشعر وهو في اليمن. إن سكان هذا البلد يتصفون

باللطف تجاه الأجانب، ويستطيع المرء - على الأقل في منطقة الإمام* - أن يتنقل بحرية وأمان تماماً كما يتنقل في أوروبا»^(٩١). إن أحداً لا يعترض الرحالة ولا يمنعه من التجول حيث شاء وخاصة إذا استطاع الرحالة أن يكسب ود السكان عن طريق إيصال علمه ومعرفته إليهم «فهؤلاء العرب لا ينجلون - كما ينجل الأتراك - من أن يتعلموا شيئاً من الأوروبيين»^(٩٢)؛ ولكن على الرحالة أن لا يبدي تأففه واستهجانته تجاه الأشياء التي لا تعجبه، وهذا لا يعني أن يحاول كسب ود السكان عن طريق تملقهم والتزلف إليهم وإظهار ارتياحه لأشياء لا تعجبه، فهؤلاء «يجبون الصدق ويعرفون أن لديهم أخطاء ونواقص كثيرة، ولكنهم كغيرهم من الأمم لا يجبون أن يلفت أحد نظرهم إلى اخطائهم بنوع من السخرية»^(٩٣)

لقد أخذ نيبور ببساطة الناس وتلقائيتهم وشعر بالارتياح للتعامل معهم منذ وطئت قدمه اللحية حيث يقول: «لقد سعدنا بأن نجد عادات المسلمين أفضل كلما ابتعدنا عن مصر، خاصة وأن سكان اليمن، وهو البلد الذي تثل الرحلة فيه أساس مهمتنا، قد استقبلونا منذ اللحظة الأولى استقبالاً لطيفاً للغاية»^(٩٤). وقد عبر عن هذا الارتياح في أكثر من مناسبة وفي أكثر من موضع في يومياته، فحول المشاعر المتبادلة مع المواطنين اليمنيين في اللحية مثلاً يقول: «لقد كان السكان يشعرون بالسعادة لوجودنا في مدينتهم وكنا نشعر أيضاً بالسعادة لوجودنا مع سكان هذا البلد طيبي القلوب»^(٩٥).

ولم يكن نيبور وحده من شعر بالارتياح تجاه معاملة اليمنيين ولطفهم بل لقد كان هذا هو شعور أعضاء البعثة جميعاً وسادت بينهم نتيجة لذلك روح جديدة وانسجام لم يعرفوه منذ غادروا كوبنهاجن فأخذوا يتسامرون ويعزفون بالآتهم الموسيقية كل مساء وقضوا أسعد وأمتع أيامهم بين سكان مدينة اللحية البسطاء. وحتى أكثر أعضاء البعثة تشاؤماً ونفوراً من الآخرين، وهو فون هافن، عبر عن ارتياحه في رسالة بعث بها إلى بيرنشتورف: «... لقد عرفنا الآن مدى اللطف والود والتهديب الذي يُستقبل به الأوروبيون في العربية السعيدة، وكذا كيف يخلق

* لم يزر نيبور غير المنطقة التي كان يحكمها الإمام ولذا حرص هنا على أن يستدرك ويقصر انطباعه على هذه المنطقة التي زارها.

هذا الشعب البسيط حوله إحساساً بالسكينة والرضى والبعد عن كل أنواع
الهمجية»^(٩٦).

وخلال تنقل نيور لفتت انتباهه خاصية يتصف بها اليمينيون، وهي حب
التعرف على الغريب وبلده ووجهته... إلخ، فسجل في يومياته: «إن العرب في
اليمن وخاصة في مناطق الجبال يستوقفون المسافرين في قارعة الطريق ويسألونهم عن
اسم بلدهم، ومن أي قرية بدأوا رحلتهم هذا اليوم، وأين ينوون أن يبيتوا
ليلتهم... إلخ. ولا تكمن وراء هذه الأسئلة أية نوايا سيئة. إنه فقط نوع من
حب الاستطلاع، ومن غير اللائق أن لا يجيب المرء على أسئلتهم»^(٩٧).

ويهتم اليمينيون بالغريب - كما لاحظ نيور - اهتماماً عفواً خال من التكلف
والمصلحة. وتعتبر أسئلتهم واستفساراتهم ونصائحهم وإبداء الرغبة في تقديم
المساعدة عن هذا الاهتمام. فعندما يمارس نيور أو فورسكال أو غيرهما عمله، تنهال
الأسئلة عليه، عن كيفية العمل والغرض منه وتبدر بعض المقترحات العفوية التي
ليس لها غرض سوى راحة الغريب. ومثال على ذلك اهتمام الأهالي في بيت الفقيه
بأعضاء البعثة وأسئلتهم حول عمل فورسكال وماذا يريد من جمع النباتات.
ونصحهم أعضاء البعثة بعدم تعريض أنفسهم للشمس طوال النهار وأن يحافظوا على
صحتهم، خاصة وأن أمامهم رحلة طويلة سوف يرهقون فيها قبل أن يعودوا إلى
بلادهم»^(٩٨).

ورغم أن الرحلة لم تسر بنفس السهولة واليسر، كما سارت في تهامة، فقد
واجهتها صعوبات وعوملت من قبل موظفي جمارك المخا ومن قبل عمال المخا
وتعز ويريم معاملة مختلفة عن تلك التي عوملت بها في اللحية وبيت الفقيه ثم في
صنعاء، وقذفت نوافذ الدار التي استأجرتها في يريم بالحجارة، إلا أن الانطباع
العام لنيبور ظل انطباعاً طيباً مقارنة بانطباعه عن تعامل السكان في كل من تركيا
ومصر. بل لقد حاول - كما مر معنا - أن يبرر ما واجهته البعثة من صعوبات
بإرجاع سبب ذلك إلى أعضاء البعثة أنفسهم وإلى كونهم لم يكونوا قد عرفوا أهل
اليمن معرفة كافية مما جعلهم يعتقدون «وبدوون وجه حق»^(٩٩) أن شكواهم لها ما
يبررها. ومعنى هذا أن هناك تصرفات من قبل الأهالي كان يفهمها أعضاء البعثة

على غير حقيقتها وينزعجون منها بناءً على فهم غير صحيح لها، مع أنهم - بحسب رأي نيبور - لو كانوا قد عرفوا أهل اليمن معرفة كافية لما وجدوا في تلك التصرفات ما يدعو إلى الشكوى والانعاج . ومع ذلك ورغم تبرير نيبور فإن قذف نوافذ منزل البعثة في يريم بالحجارة من قبل بعض الأهالي لا يحتمل إلا فهماً واحداً . ولا يمكن أن يكون نيبور قد فهمه فهماً آخر . كما أنه لا يمكن أن يكون قد فهم محاولة ابتزاز البعثة من قبل عامل المخا وعامل تعز ثم عامل يريم، الذي اعتبر نفسه وريثاً شرعياً لفورسكال، فهماً خاطئاً، إلا أن نيبور كما هو واضح قد وجد أن سلوك اليمنيين عموماً وتعاملهم الطيب مع الأجانب يغلب على السلوك السيء الذي قد يصدر عن بعضهم والذي يمكن اعتباره مجرد حالات استثنائية، يصادفها الإنسان في جميع بلاد العالم، بما فيها أوروبا^(١٠٠) .

د - الأمن :

استطاع نيبور أن يتجول، وأعضاء البعثة، بحرية واطمئنان في كل المناطق التي مر بها، حتى في يريم نفسها، رغم مظاهر الاستقبال غير الودية، التي قوبلت بها البعثة في يومها الأول . وتحوي كتاباته إشارات تصور لنا ليس فقط انطباعاته عن حالة الأمن في اليمن، بل أيضاً إحساسه بالأمن وتمتعه به . وقد أشرنا سابقاً إلى رأي نيبور في أن المرء في البلاد العربية - باستثناء الحجاز - يستطيع أن يتنقل بحرية وأمن، وتأكيداً أن اليمن من هذه الناحية تفوق كافة البلاد العربية^(١٠١) . وقد تكرر تعبير نيبور عن هذا الانطباع في كتاباته بصور شتى، وبمناسبات مختلفة، ففي حديثه عن الثأر مثلاً يؤكد أن هذه الظاهرة ليست منتشرة بصورة كبيرة في تهامة وإلا لكانت قد أثرت في الوضع الأمني، ولما استطاع أعضاء البعثة أن يتجولوا متمتعين بمثل ذلك الأمن الذي تمتعوا به فعلاً^(١٠٢) . وعند حديثه عن الحروب الداخلية أشار إلى أن الحروب إذا نشبت لا تدوم طويلاً إذ سرعان ما يعود الأمن إلى حالته الأولى من جديد، وإلا لما استطاعت البعثة أن تنتقل في مناطق اليمن خلال فترة قصيرة^(١٠٣) .

لقد تبددت كل مخاوف البعثة التي كانت تساورها قبل وصولها للبحية بمجرد وصولها، حيث أكد لها أنها تستطيع أن تتجول في اليمن بكل أمان^(١٠٤)، وسمعت مثل هذا التأكيد في المناطق الأخرى، وثبت لها بالفعل أنها تستطيع أن تتجول تحت

إحساس كامل بالأمان، وأن السكان اليمينيين على درجة من التهذيب بحيث أن البعثة قد شعرت «أنه لا ضرورة لوجود حرس مرافق»^(١٠٥). لقد بلغ الإحساس بالأمن لدى نييور حداً جعله يكرر التعبير عنه كلما سمح له السياق بذلك. فقد تأكد من استتباب الأمن وشعر به من خلال تجربته المباشرة «لقد أدركت الآن أكثر من ذي قبل ومن خلال التجربة أن المرء في اليمن يستطيع أن يتنقل بحرية ويقدر كبير من الأمان كما في أوروبا»^(١٠٦).

ويسجل نييور بنوع من الاستغراب أن الرحالة يستطيع أن يتجول في أنحاء اليمن دون أن يعترضه أحد وأن المسافر الأجنبي لا يسأل عن جواز سفره سواءً في ميناء الوصول أو في داخل البلاد^(١٠٧).

هـ - خصائص أخرى للإنسان اليمني :

إضافة إلى ما ورد آنفاً عن حب الاستطلاع لدى الإنسان اليمني واهتمامه بالغريب وكرمه... الخ، تضمنت إشارات نييور المتفرقة انطباعات عن بعض الخصائص الأخرى للإنسان اليمني، ومنها:

- ميل الإنسان اليمني إلى الحياة الاجتماعية:

لاحظ نييور أن العرب يميلون إلى الحياة الاجتماعية ميلاً شديداً وخاصة سكان اليمن الذين تشكل الأسواق بالنسبة لهم فرصاً للتجمع، فقلما توجد قرية كبيرة في اليمن إلا ويعقد فيها سوق أسبوعي، يلتقي الناس فيه يبيعون ويشتررون ويتحادثون. كما يلتقون في المقاهي باستمرار وفي المناسبات كالأعياد وزيارات الأولياء. ويستمتعون بلقاءاتهم هذه كل الاستمتاع^(١٠٨).

- حب الموسيقى:

وجد نييور أن اليمينيين لا ينظرون إلى الموسيقيين والفنانين نظرة احترام، ومع ذلك فهم يستمتعون كثيراً بالموسيقى والغناء. فعندما كان نييور ورسام البعثة بورنفايند يروحان عن نفسيهما في المساء - في مدينة اللحية - بالعزف على آلات بسيطة، كان الأهالي يتجمعون ويستمعون ويطلبون للعزف رغم أن الأنغام الأوروبية كانت غريبة على أسماعهم. ويبلغ حب الموسيقى بأحد التجار المسنين حداً لا يستطيع عنده الاضطراب فيطلب من خدمه أن يركبوه على حماره ويتوجهوا به إلى

مقر البعثة، حيث ظل فوق حماره ينصت بشغف حتى انتهى العزف. ثم حاول أن ينفخ كلاً من نيبور وبورنفايند بعض النقود لكنهما اعتذرا عن قبولها^(١٠٩)

- الحيوية والمرح:

لاحظ نيبور أن اليمينيين أكثر حيوية وحركة ومرحاً في لقاءاتهم ومناسباتهم من الحجازيين «وأكثر بكثير من الأتراك»^(١١٠). وقد وصف تجمعاً حول قبر أحد الأولياء في تهامة، حيث أخذ بعض المحتشدين يرقص ملوحاً بجنيته وآخرون بسيوفهم وآخرون يتبارون بقذف عصي الجريد. .. إلخ وعلى محياهم جميعاً تبدو أمارات الإنبساط والمرح والاستمتاع، وهذا المشهد يختلف - كما أشار - عما شاهدته في مصر، فالمصريون يتجمعون أيضاً حول أضرحة الأولياء ولكنهم لا يرقصون ويمرحون كاليمينيين^(١١١).

- قلة استخدام عبارة التفخيم والتبجيل:

لاحظ نيبور أن اليمينيين - والعرب عموماً - لا تنتشر بينهم أسماء وعبارات التفخيم والتبجيل، بل إن اللغة العربية نفسها فقيرة من هذه الأسماء والعبارات مقارنة بغيرها من اللغات، إلى حد أن اسماً واحداً يمكن أن يطلق على أشخاص مختلفين ووظائف متباينة، فالشيخ مثلاً لقب يطلق على شيخ القبيلة وعلى عاقل القرية وعلى رجل العلم وعلى الرجل المسن وعلى إمام المسجد وعلى الولي «وحتى على رئيس اليهود في مدينة صنعاء»^(١١٢).

٥ - عودة نيبور إلى أوروبا

يستحق نيبور مئناً في نهاية هذا الفصل أن نكرس بضع فقرات لعرض رحلة عودته إلى الدينهارك، والمناخ السياسي والعلمي الذي وجدته هناك، ثم حياته حتى مماته.

غادر نيبور المخا، مع من بقي حياً من أعضاء البعثة في ٢٣ أغسطس ١٧٦٣ م كما أسلفنا ووصل بومبي في الهند في ١١ سبتمبر ١٧٦٣^(١١٣) وبعد أن قضى في الهند خمسة عشر شهراً تقريباً غادر بومبي عائداً إلى كوينهاجن* عن طريق مسقط

* كان نيبور عند عودته من بومبي قد فقد كل رفاق رحلته. انظر ص ٦ - ٧ من هذا البحث.

وإيران والعراق وسوريا والإسكندرية وقبرص وفلسطين ولبنان ثم سوريا مرة أخرى وتركيا وبلغاريا ورومانيا وبولندا وألمانيا، ليصل إلى كوبنهاجن في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧ م^(١١٤)، بعد أن قام بدراسات وجمع الكثير من المعلومات عن البلدان التي مر بها وخاصة إيران والعراق وسوريا وفلسطين.

ولم تكن كوبنهاجن عند عودته هي نفس المدينة التي تركها منذ حوالي سبع سنوات فقد تغيرت كثيراً: كان الملك فريدريك الخامس قد توفي* واعتلى العرش ابنه كرستيان (Kristian) وهو في السابعة عشر من العمر، فانغمس في اللهو والمجون وأخذت مكانة الوزير بيرنشتورف تضعف حتى انتهى به الأمر إلى أن يعزل من منصبه ويبعد من الدينمارك. ولم يكثر أحد لعودة نيبور ولم يهتم أحد بنتائج الرحلة، وإن كان قد حصل على دعم رسمي لنشر أول أعماله وهو كتاب «وصف بلاد العرب»، الذي نشره عام ١٧٧٢. ولما لم يحظ ذلك الكتاب بالاهتمام الذي يستحقه عزم نيبور على ترجمته إلى اللغة الفرنسية إلا أن ترجمته كانت رديئة مما حدى بنيبور إلى التخلص من نسخته إثر طباعتها.

وفي عام ١٧٧٤ م نشر المجلد الأول من يومياته بعنوان «وصف رحلة الى بلاد العرب والبلدان المجاورة الأخرى». ثم ألحقه بكتاب ضم أعمال صديقه رفيق الرحلة فورسكال بعنوان «نبات مصر والجزيرة العربية»، ثم أصدر كتاباً ضم فيه رسوم رفيق الرحلة الرسام بورنفايند. وفي عام ١٧٧٨ نشر المجلد الثاني من يومياته.

وباستثناء كتابه الأول «وصف بلاد العرب» فإن نيبور قد أنفق على نشر أعماله وأعمال رفيقيه المتوفيين من ماله الخاص، حتى نفذ ما بيده. وقد غادر نيبور مدينة كوبنهاجن عام ١٧٧٠ م إلى المانيا وتزوج عام ١٧٧٣ م وبحث لنفسه عن وظيفة متواضعة فحصل على وظيفة كاتب في مجلس إحدى المدن النائية في منطقة معزولة بشمال ألمانيا، قضى فيها بقية عمره.

ومع أن الأنظار بدأت تلتفت إليه وبدأت كثير من الدوائر العلمية وخاصة في فرنسا تقدر إنجازاته وتبدي اهتماماً بنتائج الرحلة وتدعوه لزيارتها وتكرمه وتعرض

* توفي الملك فريدريك الخامس في يناير ١٧٦٦ م.

عليه العمل لديها، إلا أنه ظل يرفض ترك وظيفته وتغيير نمط حياته. وبينما كانت الدوائر العلمية تناقش أعماله وكبار الجغرافيين يعترفون بدقة خرائطه وقياساته الجغرافية، كان نيبور ينصرف إلى حياته اليومية البسيطة ويروي لزوجته وأطفاله ذكرياته في بلاد الشرق. وقد شدته أشواق وهو في السادسة والستين من العمر إلى حياته الريفية الأولى، فاشترى قطعة أرض أخذ يفلحها وشعر بسعادة عظيمة وهو يعمل عليها، كما كان حاله في مطلع شبابه. وفي عام ١٨٠٧ م فقد زوجته، وكان بصره قد أخذ يضعف مما أجبره على الاستعانة بمساعد متخصص بالجغرافيا يعينه على قراءة الخرائط ويساعده في الكتابة وتدوين مذكراته. وكان حظ هذا المساعد أن يتولى نشر المجلد الثالث من يوميات نيبور وذلك عام ١٨٣٧ م.

وقد عمي نيبور وضعف جسده وسقط ذات يوم فانكسر عظم فخذه ليقضي ما تبقى من عمره على كرسي متنقل. وفي ٢٦ إبريل عام ١٨١٥ م توفي وهو في الثانية والثمانين من العمر، ذلك الرجل الذي لولاه لما أمكننا أن نعرف عن البعثة وإنجازاتها العلمية ما نعرفه اليوم.

المصادر

١ - باللغة الأجنبية

- Baumhauer, Otto (Hrsg.): 1
Arabien, Henry Goverts Verlag, Stuttgart, 1965.
- Hansen, Thorkild: 2
Reise nach Arabien, Hamburg, 1965.
- Lohmeier, Dieter (Hrsg.): 3
Schriften der Schleswig-Holsteinischen Landesbibliothek Bd.1
Carsten Niebuhr und die Arabische Reise 1761-1767
Heide in Holstein, 1986.
- Michaelis, David Johann: 4
Fragen an eine Gesellschaft Gelehrter Männer, die auf Befehl.
Ihro Majestät des Königes von Dänemark nach Arabien reisen,
Frankfurt am Main, 1762.
- Niebuhr, B.G: 5
Carsten Niebuhrs Leben, Kiel, 1817.
- Niebuhr, Carsten: 6
BVA. Beschreibung von Arabien. Aus eigenen Beobachtungen und im
Lande selbst gesammelt Nachrichten,
Kopenhagen, 1772, Nachdr. 1969.
- Ebd.: 7
RB. Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Lädern,
- Bd. 1, Kopenhagen, 1774, Nachdr. 1968.
- Bd. 2, Kopenhagen, 1778, Nachdr. 1968.
- Bd. 3, Hamburg, 1837, Nachdr, 1968.
- Schlobies, Hans: 8
Die Wissenschaftliche Erschliessung Südarabiens in: Der Orient in deut-
scher Forschung, Leipzig, 1944.
- Schweinfurth, G.: 9
Briefliche Mitteilungen von Prof. Schweinfurth an Prof. Ascherson,

über seine Reise in Südarabien in: Verhdl. d. Gesell. für Erdkunde z. Berlin, Bd. XV1, 1889.

Weber, Otto: 10

Forschungsreisen nach Südarabien bis Auftreten Ed. Galser, Leipzig, 1907, u. in: Der Alte Orient, 8 Jg. Heft, 4.

Weiter, Matthias: 11

Geographie im Jemen, Bedeutungswandel einer Wissenschaft für ein Entwicklungsland (Dessertation), Bonn, 1988.

٢ - باللغة العربية

- ١ الرعدي، محمد أحمد:
من كوينهاجن إلى صنعاء، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣ م.
- ٢ الزركلي، خير الدين:
الأعلام، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤ م.
- ٣ العمري، حسين عبدالله:
مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، دمشق، ١٩٨٤ م.
- ٤ القرآن الكريم.
- ٥ الكتاب المقدس.

الهوامش

- (١) Hansen, Reise, S. 12-13
وانظر أيضاً: الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الخروج ص ١١٠ - ١١٢ وكذا القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٥٠، سورة الأعراف الآية ١٣٨، سورة يونس الآية ٩٠، سورة طه الآية ٧٧، سورة الشعراء الآية ٦٣ - ٦٦
- (٢) Hansen, Reise, S.13
- (٣) Lohmeier, Niebuhr, S.10
- (٤) Edb., S.55
- (٥) Edb., S.55
- (٦) Edb., S.55
- (٧) Edb., S.10, 55
- (٨) Lohmeier, Niebuhr S.60
- (٩) Hansen, Reise, S.10
- (١٠) Matthias, Gregraphie, S.50
- (١١) Michaelis, Fragen, S.1 FF. انظر
- (١٢) Lohmeier, Niebuhr, S.30. u. Hansen, Reise, S.261
- (١٣) Hansen, Reise , S.9 - 10
- (١٤) Lohmeier, Niebuhr., S.59 - 60. u. Hansen, Reise , S.11
- (١٥) .Lohmeier, Niebuhr, S.58
- (١٦) . Ebd, S.61-63
- (١٧) . Ebd, S.58
- (١٨) . Ebd, S.61
- (١٩) Hansen, Reise, S.336
- (٢٠) .Baumhauer, Arabien, S.72 U. Hansen, Reise, S.345
- (٢١) .Hansen, Reise, S.341
- (٢٢) Niebuhr, C. BVA, S.IX-X
- (٢٣) .Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S.391
- (٢٤) . Ebd., S.404 - 405

- .Schlobies, Die Wissenschaftliche Erschliessung, S.239 (٢٥)
- .Weber, Forschungsreisen , S.4 - 5 (٢٦)
- .Baumhauer, Arabien, S.73 : قارن: (٢٧)
- .Ebd, S.20 (٢٨)
- .Hansen, Reise, S.11 (٢٩)
- .Schweinfurth, Briefl. Mitteilungen, S.299 - 300 (٣٠)
- .Hansen, Reise, S.306 FF. (٣١)
- .Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.352 (٣٢)
- .Hansen, Reise, S.261 - 262, 305 (٣٣)
- .Niebuhr, C., RB, Bd.2, Vorwort (٣٤)
- . Lohmeier, Niebuhr, S.61 (٣٥)
- Niebuhr RB., B d.1,S 425. (٣٦)
- (٣٧) للمزيد حول حياة نيبور انظر: . Niebuhr, B.G., Carsten Niebuhrs Leben, S.2 FF. وكذا
- .Hansen, Reise, S.33 FF
- .Hansen, Reise, S.39 (٣٨)
- .Hanan, Reise, S.39 (٣٩)
- . Niebuhr, C., RB, Bd.1 S.297 (٤٠)
- .Ebd, S.310 (٤١)
- .Ebd, S. 416 (٤٢)
- .Ebd, S. 436 (٤٣)
- (٤٤) قارن: Niebuhr, C. RB, Bd.1, S.315 وكذا Hansen, Reise, S.250
- . Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.315 (٤٥)
- . Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.322 (٤٦)
- . Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.311 (٤٧)
- .Ebd., S.311 - 312 (٤٨)
- .Ebd., RB, Bd,1, S.312 u.BVA,S. XXIII-XXIV. (٤٩)
- .Ebd., RB, Bd.1, S.313 (٥٠)
- . Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.312 (٥١)
- .Ebd., BVA, S. XXIV - XXV (٥٢)
- .Ebd., S. XX (٥٣)
- .Ebd., S. XXI (٥٤)
- .Ebd., S.XXI (٥٥)
- .Niebuhr, C., BVA, S.XXI - XXII (٥٦)

- .Ebd., S., XVII - XVIII (٥٧)
- .Ebd., S. XVIII (٥٨)
- .Ebd., S. XXV (٥٩)
- Niebuhr, C., BVA, S.XVIII. (٦٠)
- .Ebd., S. XVIII (٦١)
- .Ebd., S. 191 FF (٦٢)
- .Ebd., S. 205 (٦٣)
- .Ebd., S. 10 - 11 (٦٤)
- .Niebuhr, C., BVA, S.181 FF. U.S. 283 FF : انظر (٦٥)
- .Niebuhr, C., RB, Bd.3, S. XI (٦٦)
- .Niebuhr, C., RB, Bd.3, S.XVIII (٦٧)
- (٦٨) انظر ص ٢١١ - ٢١٢ من هذا البحث.
- .Weiter, Geographie, S.46 (٦٩)
- .Baumhauer, Arabien, S.73 (٧٠)
- .Weber, Forschungsreisen, S.4 - 5 وقارن ايضاً
- .Henze, in BVA, S.III (٧١)
- .Schlobies, Die Wissenschl., S.240 (٧٢)
- .Henze, in BVA, S.VI (٧٣)
- .Weiter, Geographie, S.56 (٧٤)
- .Lohmeier, Niebuhr, S.29 (٧٥)
- .Lohmeier, Niebuhr, S.50 (٧٦)
- .Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.286 (٧٧)
- .Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.286 (٧٨)
- .Ebd., S.298 FF (٧٩)
- .Ebd., S.315 (٨٠)
- .Ebd., S.411 FF (٨١)
- .Ebd., S.315 (٨٢)
- .Ebd., BVA, S.47 (٨٣)
- .Niebuhr, C., BVA, S.47 - 48 (٨٤)
- .Ebd., RB, Bd.1, S.345 - 345 (٨٥)
- .Ebd., S.332 (٨٦)
- .Niebuhr, C., BVA, S.23 (٨٧)
- .Ebd., S.24 (٨٨)

- .Ebd., S.X (٨٩)
- .Ebd., S.IX FF. (٩٠)
- .Ebd., S.XII (٩١)
- .Niebuhr, C., BVA, S.XII (٩٢)
- .Ebd., S.XII (٩٣)
- .Ebd., RB, Bd.1, S.297 (٩٤)
- Ebd., S.300 (٩٥)
- .Hansen, Reise, S.247 (٩٦)
- .Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.345 (٩٧)
- .Ebd., S.332 (٩٨)
- .Ebd., BVA, S.IX - X (٩٩)
- .Niebuhr, BVA, S.IX - X, 28-29: قارن: (١٠٠)
- . (١٠١) انظر ص ٣١ من هذا البحث.
- .Niebuhr, C., BVA, S.34 - 35 (١٠٢)
- .Ebd., S.204 (١٠٣)
- .Ebd., S.297 (١٠٤)
- .Ebd., RB, Bd.1, S.321 (١٠٥)
- .Niebuhr, C., RB, Bd.1, S.332. U. Vgl. S.313, 322, 326, 352 (١٠٦)
- .Ebd., S. 359 - 360, 346 (١٠٧)
- .Ebd., BVA, S.27 - 28 (١٠٨)
- .Ebd., RB, Bd.1, S.302 - 303 (١٠٩)
- .Niebuhr, C., BVA, S.27 (١١٠)
- .Ebd., S.27 - 28 (١١١)
- .Ebd., S.14 (١١٢)
- .Hansen, Reise, S.344 (١١٣)
- (١١٤) حول رحلة العودة وحيمة نيبور حتى مماته انظر: Niebuhr, B.G., Niebuhrs Leben, S.28 FF.
- وكذا: Hansen, Reise, S.350 FF. وترجمته العربية: الرعدي، من كوينهاجن، ص ٣٣١ وما بعدها.

نهر دجلة والفرات في العهد العثماني وأهميتهما في المجالين العسكري والاقتصادي

الدكتور/ محمود عامر
قسم التاريخ

إن الانتصارات التي حققها العثمانيون برأ اعتربت انتصارات جزئية خاصة في المناطق المطلة على البحار، لأن الأتراك لم يكونوا على صلة بالبحار شأنهم شأن الأمم البدوية. إلا أن تفكيرهم تبدل بعد إشرافهم المباشر على سواحل البحر الأسود وبحر مرمرة، ومما زاد من اتساع آفاقهم ومداركهم البحرية خروجهم من الأناضول وفتحهم لبلاد (الروم ايلى) في البلقان، عندئذ أدرك السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٨ م) ضرورة وجود قوة بحرية إلى جانب القوات البرية، فأصدر أمره بإنشاء دار لصناعة السفن (ترسانة) في غاليبولي وإزمير، لكن هذه القوة البحرية لم تلق أهمية تذكر إلا بعد سيطرتهم على العالم العربي واصطدامهم مع البرتغاليين في مضيق هرمز وهزيمتهم، فاضطروا على أثرها إلى سحب بعض ما لديهم من قطع بحرية إلى خليج البصرة، هذه الهزيمة التي تعرض لها العثمانيون هزت هيبتهم لدى سكان السواحل وبخاصة في مناطق الخليج العربي وخليج البصرة، حيث استغلت القبائل القاطنة هزيمة العثمانيين، فقتلت بحارتهم ونهبت سفنهم، عندها أيقن العثمانيون أن الأمر يتطلب إيجاد أسطول قوى يمكنهم أولاً: من طرد البرتغاليين من الخليج العربي وخليج البصرة، وثانياً: إخضاع المناطق المجاورة لها وبصورة خاصة القبائل القاطنة في خليج البصرة، باعتبارها منطقة حيوية بالنسبة لهم.

وإدراكاً لهذه الاحتياجات بدأت الدولة العثمانية بإنشاء عدد من دور صناعة

السفن بغية الاسراع في بناء أسطول ضخم يتحمل مسؤولية حماية الشواطئ الواسعة والمتعددة التي تدخل تحت نفوذهم، وكان السلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦) من أكثر السلاطين العثمانيين تفهماً لهذا الأمر، فبدأ الاهتمام بالأسطول بعد مرحلة الركود التي شهدتها في عهد والده سليم الأول، وغدت مدينة استانبول تحتوي على عدة مراكز لصناعة السفن، ولم يقتصر الأمر على استانبول، بل تعداه إلى إنشاء مراكز أخرى متعددة، كما صدرت أوامر سلطانية إلى الولاة بضرورة الاعتماد على المنافذ المائية والاستفادة منها قدر الامكان، لتذليل الصعوبات التي تواجههم مثل نقل المواد الخام من مناطق الإنتاج الى مناطق التصنيع والاستهلاك، وتأمين دور السفن بالأخشاب اللازمة، وسرعة نقل المؤن والمعدات إلى القطاعات العسكرية المنتشرة في مناطق متفرقة من البلاد، وخاصة في مناطق بغداد والبصرة، وكلفت ولاية حلب وشهرزور (في كردستان) - وهاتى (أنطاكية) بمدهما بالمال والعساكر وغيرهما من الاحتياجات الضرورية.

وبحثنا يقتصر على إيضاح أهمية دجلة والفرات ودورها في مجال النقل النهري، ودراسة السفن التي استخدمت بهما، والإجراءات التي اتخذت حيال ذلك، وهذه الدراسة مستوحاة من خلال ما تم العثور عليه من وثائق ودفاتر في أرشيف رئاسة الوزراء في استانبول، ومن خلال رحلات أوليا شليبي وغيرها من المخطوطات الأخرى التي سجلت لنا ذلك بدقة^(١).

إن الدوافع التي دفعت العثمانيين إلى استخدام نهري دجلة والفرات متعددة ولكن يمكن القول إن من أهم الأسباب عصيان القبائل القاطنة في خليج البصرة ومحاولة منع البرتغاليين من الوصول إلى الخليج، ومحاولة إخضاع الجبهة الفارسية، وإذا كانت الضرورة العسكرية اقتضت ذلك، فإن الاعتماد على النهريين في أوقات السلم لا يقل أهمية عنها في أيام الحرب، وخاصة إذا علمنا أن منطقة النهريين غنية بالأخشاب والمواد الخام اللازمة للتصنيع، إضافة إلى كونها منطقة استراتيجية هامة.

فاهتمام العثمانيين بخليج البصرة إذن مكتمم من السيطرة على الطريق التجاري القائم ما بين البصرة والهند، وأصبح ما بين البصرة وتركيا، كما أنه منحهم القدرة على تأمين قواتهم المتجهة إلى الجبهة الفارسية من جهة والمحافظة على العراق من امتداد النفوذ الفارسي إليه من جهة أخرى.

إن اهتمام العثمانيين بخليج البصرة، وما يتوفر في تلك المناطق من مؤن ومواد خام، وامكانية نقلها عند فيضان نهري دجلة والفرات من البصرة إلى بيرجيك وبالعكس حقق لهم فوائد جمة^(٢)، كذلك فإن الخط التجاري القائم ما بين الهند والبصرة تحول إلى ما بين البصرة والمراكز الرئيسية العائدة لهم، لأن السفن القادمة من الهند كانت تتقدم حتى مدينة البصرة حيث يتحد نهرا دجلة والفرات مع بعضهما ليكونا ما يسمى بشط العرب^(٣)، ومن البصرة كانت الأمتعة تنقل بالسفن النهرية حتى بيرجيك، ومن هناك تنقل بواسطة الجمال على شكل قافلة يقوم زعماء القبائل البدوية القاطنة على ضفتي النهر بحمايتها من اللصوص والأشقياء مقابل مبالغ من المال، وكانت القوافل التجارية تتجه إلى حلب أو اسكندرونة وطرابلس الشام أو إلى جهات أخرى.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر ازداد الاهتمام بهذا الخط المائي وغدا طريقاً تجارياً مهماً، وبما أن التقارب العثماني الأوروبي بدأ بالازدياد فإن الجهود من قبل الطرفين أخذت توليه أهمية قصوى، واستناداً إلى مذكرات السياح والسجلات التجارية للأوروبيين فإن الرحلة من بيرجيك حتى البصرة كانت تستغرق ١٥ - ١٦ يوماً^(٤).

أ - إنشاء السفن على نهر الفرات:

اتخذت بيرجيك كنقطة بداية لاستخدام نهر الفرات كوسيلة نقل مائية، لذلك عمد العثمانيون إلى إقامة دار لصناعة السفن فيها، لكننا لم نتوصل إلى تحديد تاريخ إقامتها، ومن المحتمل أن يكون الحكم القاضي بإنشاء الترسانة (دار السفن) قد صدر في النصف الثاني من القرن السادس عشر، أي حوالي ١٥٦٠ م، وذلك استناداً إلى الوثيقة المتضمنة إنشاء سفينة في بيرجيك وإرسالها إلى البصرة^(٥)، والوثيقة مؤرخة في ١٤ جمادى الأول ٩٦٧ هـ الموافق ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر/ ١٥٦٠ م، كذلك عثرنا على وثيقة أخرى موجهة إلى قاضي بيرجيك بشأن وضع ستين سفينة نقل لنقل المهات الحربية والمؤن إلى البصرة، وفي ١٧ تموز/ يوليو/ سنة ١٥٦٠ م صدر حكم سلطاني يقضي بتخصيص تلك السفن لنقل المؤن من بيرجيك إلى البصرة وبالعكس، على أن يتحمل قاضي بيرجيك مسؤوليتها ويعين الرياس

عليها، وقد استمرت هذه السفن بنقل مستلزمات دار البصرة وغيرها من المؤن والعتاد الحربي، أما أثناء فيضات نهر الفرات فإن الملاحاة كانت تتم بواسطة قناة نهر عيسى الواصلة ما بين نهر الفرات ودجلة^(٦).

ولدى تدقيقنا بالوثائق لاحظنا أكثر من عبارة تحذير إلى الرياس والعاملين في الترسانة، تحذره من التبذير وتطالبهم بالتقنين في استهلاك المواد قدر المستطاع، ويبدو من مقارنة ردود مسؤول الترسانة بصدد الشكاوى المقدمة من قبله بحق ولاية حلب وبغداد بتأخر المواد التي يطلبها منهم أن استانبول لم تكن تتحمل أي مسؤولية مالية، هذا فضلاً عن أن إنشاء السفن في بيرجيك كان يضمن نقل المواد والأمتعة من بيرجيك إلى البصرة ومن البصرة إلى مكة وبقية الموانئ الأخرى بأسعار زهيدة لا تعادل ٥٪ من الأرباح إذا كانت الأمتعة تجارية، أما إذا كانت عسكرية فإن الدولة لا تتحمل أي عبء مادي، فالأخشاب تؤمن من غابات بيرجيك القريبة من مجرى النهر، والمسامير تؤمن من ولاية حلب، يضاف إلى ذلك أن نهر الفرات متسع في المكان الذي أقيمت فيه (الترسانة) كما أن طبيعة بيرجيك تضمن للسفن المصنوعة الحماية من الأمطار وحرارة الشمس، وفوق هذا فإن المستلزمات الأخرى تؤمن من الولايات القريبة مثل بغداد ودير الزور، وحلب وغيرها من الولايات^(٧). أما في حال عدم حاجة الدولة للسفن المصنعة والجاهزة فإنها تبقى في بيرجيك تحت رقابة مشددة، ويكلف أمير صنجق بيرجيك بتأمين الحراسة، ويقدم إلى قاضيها لائحة بعددها وحمولة كل واحدة منها من الأشخاص والمعدات الحربية^(٨). وبعد أن يتأكد القاضي شخصياً من صحة ما قدمه إليه قائد الصنجق يمهر الدفتر بمهره الخاص، ويرسل مع شخص من قبله إلى قاضي إزمير، فيمهره هو الآخر بمهره ويتعهد بإيصاله إلى استانبول. ولدى التدقيق في الدفاتر المالية ودفاتر المهمة تبين أنه وجد في بيرجيك سنة ١٥٦٥ م ثلاثمائة سفينة، وفي سنة ١٧٣٤ م صدر أمر سلطاني يقضي بإنشاء عشرين فرقيطة وأربعين سفينة نهريّة^(٩).

أما بشأن دفع نفقات الصنع وأجور الصناع من قائد السفن والمجدفين والرياس فقد كلفت ولاية حلب بتحملها، أما الصناع والنجارون والعناصر الفنية فقد تكفلت استانبول بتأمينهم^(١٠).

وفي بعض السنوات التي يتعرض فيها مجرى النهر للفيضان العالي أو الشح فإن السفن المصنوعة تتعرض للتلف وكذلك المستلزمات الأخرى، وتجنباً من حدوث مثل ذلك فإن السفن الجاهزة (المصنوعة سابقاً) والمستلزمات الأخرى الجاهزة ترسل إلى ترسانة البصرة لحفظها من الخطر هناك، ولاستكمال وصنع سفن أخرى، ولضمان إيصالها سالمة إلى البصرة فإن أحكاماً مشددة تصدر إلى قضاة بيرجيك وحلب ودير الزور وبغداد والبصرة ومسؤول دار الصناعة لتجهيز ما يلزم من العساكر وإرسالها إلى ضفتي النهر لتعقبها وإيصالها سالمة^(١١).

ب - الأدوات المستخدمة وكيفية تأمينها.

إن تأمين مستلزمات دار السفن في كل من بيرجيك والبصرة فرضته الدولة العثمانية على الولايات المجاورة والقريبة منها، فالأخشاب وتوابعها عهد إلى مرعش وعتتاب وبخسين واندرين وقارص وذي القادر وحسن المنصور بتأمينها وإيصالها إلى بيرجيك، ومن بيرجيك تُنقل أولاً احتياجات ترسانة البصرة لأنها أهم وأكثر إنتاجاً من ترسانة بيرجيك، إضافة إلى أن البصرة وما جاورها من المناطق فقيرة جداً بالأخشاب الصالحة لصنع السفن، أما بيرجيك فإن قسماً كبيراً من احتياجاتها تؤمن من مناطقها أو بالقرب منها، وإحضار ما يلزمها لا يستغرق وقتاً طويلاً، وبغية تحديد المسؤولية وتلبية لاحتياجات الدولة من السفن، فقد شددت الفرمانات السلطانية على مسؤولي دور السفن الاستمرار في إعداد السفن. وبالرجوع إلى دفاتر المهمة فقد عثرنا على فرمان سلطاني موجه إلى ترسانة بيرجيك سنة ١٥٦٥ م يتضمن أمر إنشاء خمسمائة سفينة. وأن يتكفل كل من صنق اعزاز وكلس تأمين الأخشاب بالوقت المحدد، أما تكاليف الإنشاء وأجور العمال والنقل وتأمين العساكر اللازمة لأعمال السخرة والحماية فإن ولاية حلب ملزمة بذلك، وبناءً على ذلك فقد كلف والي حلب موظفاً خاصاً يسمى كرسته أميني (أمين الأخشاب)^(١٢)، يساعده كاتب لتحديد بدء العمل وتاريخ الإنهاء ومقدار التكاليف، على أن يثبت ذلك في دفتر خاص مهور من قبل واليها وقاضيها قبل بدء المباشرة بالعمل، وعند الانتهاء يهر الدفتر المذكور من قبل قاضي الصناجق التي أُحضرت الأخشاب منها، ويصدق عليه من قبل قاضي بيرجيك، أما السفن التي تصنع في البصرة فأخشابها تُؤمن من مرعش

وعتتاب وبخسين عن طريق بيرجيك^(١٣)، أما تكاليف الإنشاء والمصاريف الأخرى فإنها تُدفع من خزانة بغداد وبما أن ولاية بغداد تتحمل تكاليف إضافية أخرى، وتخفيفاً للأعباء المالية، فقد اضطر واليها إلى تجهيز مفرزة من عساكر السخرة لديه وأرسلها إلى بيرجيك لإحضار الأخشاب المجمعة بها وإحضارها إلى البصرة، ورغم ذلك فقد أُجبر على دفع أجور الحيوانات التي استخدمت في جرها من أماكن قطعها إلى بيرجيك.

إن تأمين احتياجات ترسانة بيرجيك أو البصرة لا يتم قبل أن يستحصل مسؤول الترسانة - صاحبة الشأن - على إذن من قضاة المناطق التي ستقطع الأخشاب منها، ويتضمن الإذن نوع الخشب وطوله وكميته^(١٤). وبناء عليه فإن السفن المصنوعة تُسمى باسم المنطقة التي قطع الخشب منها، وفي حال جمع الخشب من عدة مناطق أو من مناطق مشتركة فإن السفينة تُسمى باسم الخشب المصنوعة منه مثال سفينة الشوح أو سفينة البلوط... الخ^(١٥).

وفي ١٥ كانون الأول/ ديسمبر/ سنة ١٥٧١ م وُجه حكم إلى أمير أمراء حلب بضرورة تأمين مستلزمات نواقص خمس سفن، وتضمن الحكم تأمين ١٠٠ قطعة فرش، و٥٣ قطعة خشب من نوع بقرته، و٢٣٩ قطعة بلوط و٥٠٠ قطعة من نوع فنديرة، و١٠ قطع زحافة و٥٠ فولنك، و٢٥٠ صارية، و١٠٠ قطعة نثرية للملء الثقوب والحثي وقنطارين من المسامير^(١٦).

أما سفن الفرقطة التي كلفت ترسانة البصرة بإنشائها سنة ١٧٣٠ م فقد أحضرت أخشابها ولوازمها من جبال مرعش وما جاورها، أما الأخشاب الأخرى المطلوبة فبعد قطعها نُقلت إلى بيرجيك ووضعت في مخازنها إلى أن أصبحت مياه النهر صالحة لنقلها، وقد أُعد آنذاك حوالي ٢٠١٠٠ قطعة خشبية، وفي الوقت المناسب نُقلت إلى الرضوانية^(١٧). ومنها إلى البصرة، ويُفهم من فرمان أن كمية الأخشاب هذه نُقلت من خليج البصرة إلى مضيق هرمز فبالبحر العربي، وكان البرتغاليون يلجأون بين الحين والآخر للاستيلاء على هذه السفن المحملة بالأخشاب، وقد اعتُبر تصرف البرتغاليين هذا من جملة الأسباب التي أدت إلى تعميق الصراع ما بينهم وبين العثمانيين، وتحسباً من مهاجمة البرتغاليين للسفن المحملة بالأخشاب فقد صدرت أوامر تقضي بإبلاغ الجهة المرسله إليها الأخشاب

قبل تحرك السفينة من خليج البصرة بفترة زمنية لا تقل عن شهر، وفي مثل هذه الحالة فإن عساكر المنطقة صاحبة الشأن تتكفل بملاقاتها وتأمين الحماية لها حتى تصل إلى ترسانتها سالمة، وبناءً على الفرمانات السلطانية الصادرة بهذا الشأن فإن كمية من الأخشاب المجمعة في خليج البصرة كانت ترسل إلى ترسانة الاسكندرية أو السويس^(١٨). أما الأخشاب التي كانت تنقل من أوزر (Özer) فكان يؤمر بإنزالها في خليج بياس لتتنقل من هناك إلى الاسكندرية^(١٩).

وفي سنة ١٧٠١ م توجب على الدولة العثمانية بناء أسطول ضخم في كل من ترسانة بيرجيك والبصرة للاستيلاء على قلعتي البصرة والقرنة، والقضاء على العشائر المتمركزة هناك التي هددت الوجود العثماني في تلك المناطق، وكانت هذه العشائر قد سببت إرباكاً كبيراً للأمن في تلك المناطق، كما تسببت في قتل الكثير من العساكر العثمانية ونهب معداتها، وقد وجهت الدولة العثمانية عدة حملات عسكرية ولكنها أصيبت بالفشل، وبعضها تعرض للفناء التام. إزاء ذلك صممت الدولة العثمانية على إعداد حملة برية وبحرية، وتفيد بعض المصادر أن هذه الحملة كانت أضخم حملة عرفتها تلك المناطق بعد الحملة التي أعدت لاحتلال العراق سنة ١٥٣٤ م. لكن المصادر التركية وغير التركية لم تمدنا بمعلومات كافية عنها، ولا نعلم فيما إذا نفذت الحملة وما مصيرها؟

وفي سنة ١٥٦٨ م أمر السلطان العثماني سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤ م) بتعمير وتجديد المشهد الشريف مع القبة الخشبية التابعة له، فقد أمر قضاة بيرجيك وعتتاب وإعزاز وكلس وذي القادر بتأمين مائة قطعة خشبية بطول ٩,٥/ ذراع حليبي، ونص الفرمان على أن تكون الأخشاب من الصنوبر، وأن تُرسل من بيرجيك إلى البصرة ومنها إلى مكة المكرمة^(٢٠). إن الأخشاب التي أعدت وجمعت من مناطق بيرجيك لم تتمكن الدولة العثمانية من نقلها بكاملها، ونظراً للحاجة الماسة إليها، أرسلت في سنة ١٧٠١ م طابوراً من العساكر إلى نهر الفرات لإجراء تدريبات على أحد فروع نهر الفرات ولإقامة السدود داخل النهر لرفع منسوب المياه على مراحل ليتسنى للسفن المحملة بالأخشاب التحرك إلى البصرة أو إلى أي منطقة أخرى قريبة منها، ورغم الجهود التي بذلت فلم يتم نقلها إلا إلى الرضوانية^(٢١). وبما أن الدولة العثمانية لا تستطيع إبقاء العساكر لفترة أطول، فقد أمرت بسحبها

وكلفت أمير الرقة بجمع الأشقياء المسجونين في سجون حلب وأنطاكية وغيرها من الصناجق الأخرى لإتمام نقل السفن المحملة بالأخشاب حتى الرمادى، ومن ثم تتولى ولاية بغداد إيصالها إلى البصرة^(٢٢).

إن احتياجات السفن من المسامير والشناكل الحديدية كانت تؤمن من ولاية حلب باعتبارها من أشهر الولايات العثمانية بتصنيعها، كذلك فقد كلفت ولاية حلب بتزويد ترسانة الاسكندرية بما يلزمها من المسامير والشناكل، ففي سنة ١٥٦٨ م كلفت ولاية حلب بتزويد ترسانة الاسكندرية بمائة وستين قنطاراً من المسامير، كما كلفت باليس بتأمين مائة وأربعين قنطاراً من المسامير وإرسالها إلى الاسكندرية لاستكمال صناعة السفن المكلفة بها^(٢٣).

أما بالنسبة إلى السفن التي كانت تصنع للملاحة ضمن نهر الفرات، فإن غالبيتها يُصنع بدون مسامير، وتعتبر مادة الإسفلت (القيز) من أهم المواد الأساسية اللازمة لتلك السفن، وكان الإسفلت يؤمن من استانكوى ورودس^(٢٤).

ج - العناصر الفنية المستخدمة في صناعة السفن:

تتألف العناصر المخصصة لإنشاء صناعة السفن في كل من بيرجيك والبصرة من قسمين: عناصر فنية، وتضم النجار، والمعمار، وموجه السفينة والقلفجي (المتخصص بملء الفراغ بين الألواح) والحداد، وهؤلاء يرسلون إما من استانبول أو من بعض الولايات التي تتوفر فيها مثل تلك الخبرات الفنية وهم يعملون مقابل أجر شهري محدد، فالعناصر الفنية المستخدمة في ترسانة (دار صناعة السفن) بيرجيك تنال أجرها من خزانة حلب، أما العناصر الفنية العاملة في ترسانة البصرة فأجرها تناله من خزانة بغداد. والقسم الآخر يسمون عناصر السخرة وهذه العناصر لا تنال أجراً، لأنهم إما يكونون من الأشقياء الذين حكم عليهم بالاعدام لارتكابهم أعمالاً مخالفة للشرع، وإما من العساكر الذين ارتكبوا أعمالاً مخالفة للنظام العسكري المتبع^(٢٥).

وفي سنة ١٥٧١ - ١٥٧٢ م صدر حكم سلطاني إلى ترسانة بيرجيك لإنشاء ٢٥٠ سفينة عسكرية، و١٥٠ سفينة نقل، ولاتمام العمل بسرعة أرسل نجار خاص

ومعمار وثلاثة نجارين وثلاثة مشرفين موجّهين للمجاديف وثلاثة قلفجية وحداد من استانبول، على أن تدفع أجورهم من قبل غلطة أميني^(٢٦). أما احتياجات ترسانة بيرجيك من الرياس وطواقم السفن فكانوا يرسلون في الغالب من استانبول^(٢٧).

وفي سنة ١٦٩٩ م أرسلت سفينة من استانبول إلى اسكندرونة تحمل بعض الرياس والنجارين والحدادين وغيرهم من العمال لإنشاء أسطول بحري كلفت به كل من ترسانة اسكندرونة وبيرجيك والبصرة، وقد صدر فرمان سلطاني إلى صندق اسكندرونة بإيصال العناصر المكلفة بالذهاب إلى ترسانة بيرجيك والبصرة إلى قاضي بيرجيك وإبلاغه العمل بمضمون فرمان الموجه إليه، أما القبطان باشا (قائد الأسطول) فسيكلف والي رودس أو استانكوي بتعيينه وإرساله في الوقت المطلوب. علماً بأن العناصر الفنية كانت من قبل ترسل من ولاية بحر سفيد (ولايات بحر ايجيه) وبما أن الولايات المذكورة لم تتوفر فيها عناصر فنية فائضة عن حاجتها، لذلك تكفلت استانبول بإرسال تلك العناصر من ترسانتها الموجودة في استانبول، وذلك بناءً على طلب مسؤول ترسانة بيرجيك، وقد ورد في طلب مسؤول ترسانة بيرجيك الموجه إلى استانبول سنة ١٥٦٠م بأن السفن المطلوب صنعها لن يتم في وقته المحدد ما لم يرسل إليه عناصر فنية أخرى، ولهذا فقد صدر حكم إلى قبطان باشا بضرورة إرسال ما تحتاجه ترسانة بيرجيك، وبعد تأكد الباب العالي من وصول العناصر المطلوبة، وجه حكم إلى مسؤول الدار (الترسانة) بضرورة إعداد الأسطول الامبراطوري وإنزاله إلى البحر بأقصى سرعة ممكنة^(٢٨).

وفي سنة ١٧٤٥ م وجه حكم إلى ترسانة بيرجيك بإنشاء ١٢٤ سفينة، وكلف موظف برتبة باش شاويش للإشراف على العمل وتحديد ساعة البدء والانتهاه يساعده موظف مالي لإحصاء الصرفيات والمواد اللازم إحضارها، وزود بكتاب إلى قاضي بيرجيك بشأن تلبية كافة احتياجاته، كما منح باش شاويش صلاحية الاتصال بأمراء الولايات المجاورة ومطالبتهم بكل ما يلزمه من مستلزمات وأدوات ورجال لإتمام صنعها وتجهيزها بأقرب وقت، وقد حمل قاضي بيرجيك مسؤولية أي تقصير أو صعوبة يواجهها باش شاويش، كما كلف قاضي بيرجيك بدفع أجور العمال والصرفيات الأخرى شريطة أن تجمع الأخشاب من المناطق المجاورة لبيرجيك^(٢٩).

واستناداً إلى قيودات (سجلات) الديوان الهمايوني تقسم السفن العاملة في نهر

الفرات حسب المجدفية إلى عدة أقسام:

١ - مجدفو القسم الأول الذين يعملون على سفن نقل تجارية، مهمتهم نقل البضائع القادمة من ولاية حلب والمرسلة إلى بغداد أو البصرة، فالبضائع بعد إحضارها بواسطة القوافل براً إلى بيرجيك تحمل بالسفن وتنقل حتى الفلوجة، وهناك تسلم إلى مجدفي سفن بغداد بعد دفع الأجر المحدد، وهؤلاء المجدفون لا يتقاضون راتباً من الدولة أو أي جهة رسمية، ولكنهم يدفعون للدولة نسبة معينة كضريبة، لأن الدولة تكفل لهم الحماية وتقدم لهم السفن، أما عندما يقومون بنقل معدات حربية عائدة للدولة فليس لهم أي أجر^(٣٠).

٢ - أما مجدفو القسم الثاني فيعملون على سفن نقل، وهذه السفن مخصصة لنقل الذخائر والجنود وغيرها من المواد الأخرى اللازمة للدولة، ولهذا فهم يتقاضون أجراً شهرياً (راتباً) من قبل ولاية حلب، ومهمتهم نقل الذخائر القادمة إلى ميناء اسكندرونة والمرسلة إلى ولاية حلب أو بغداد أو البصرة أو إلى صنایع تلك الولايات، وهم يعملون ما بين بالو وبيرجيك، ومن بيرجيك توزع إلى الجهات المرسلة إليها، وتتكفل ولاية ديار بكر بتأمين ما يلزمهم من متطلبات (اطعام - رجال - حماية). ولكي لا تسرق تلك الأشياء المنقولة فقد زودتهم ولاية ديار بكر بمفرزة عسكرية دائمة، لأن القبائل البدوية القاطنة هناك تقوم بالإغارة عليهم بين الحين والآخر وسلب ما معهم، كما يتكفل سكان القرى والنواحي التي يمر بها النهر بتزويدهم بالطعام أو مساعدتهم في نقل البضائع أو عند تعرضهم لأي خطر.

٣ - أما مجدفو القسم الثالث فهؤلاء يعملون على السفن الحربية العاملة في خليج البصرة بصورة دائمة. ويطلق عليهم (جماعة القتل المستحق) وهم يرسلون من مختلف الولايات لارتكابهم أعمالاً إجرامية، وبغية التكفير عن ذنوبهم وإنقاذ الولاية من مسؤولية إطعامهم وتأمين حراسة خاصة لهم، فقد صدر حكم منذ منتصف القرن السادس عشر يقضي بإرسالهم إلى خليج البصرة باعتباره منطقة جهادية ضد البرتغاليين الطامعين بالديار الإسلامية، ومنذ ذلك التاريخ استمرت الدولة العثمانية على تنفيذ هذه السياسية، بالرغم من طرد البرتغاليين من هناك. واعتبرت ولاية حلب وديار بكر من الولايات اللتين لهما الأفضلية في

إرسال ما لديهما من المجرمين، ويتم الإرسال بناء على طلب أمير أمراء البصرة ومدى حاجته إلى المجدفين، وفي حال عدم توفر مثل تلك العناصر المجرمة في الولايتين يوجه حكم إلى الولايات الأخرى بإرسال ما لديهم من المجرمين لاستكمال حاجة البصرة من المجدفين. ومجدفو القتل المستحق ليس لهم أي أجر، وكل ما كان يؤمن لهم المأكل والملبس فقط^(٣٢) ولم تمدنا تلك المصادر بالمعلومات فيما إذا كان هؤلاء يعاملون مثل الأسرى المسيحيين من ناحية وضع الحديد بأيديهم وأرجلهم كما هو مطبق على الأسير كي لا يهرب. وقد فهم من تلك السجلات (القيودات) أن غالبية هؤلاء الأشقياء (المجرمين) كانوا من منطقة حلب وديار بكر، باعتبارهما من أكثر المناطق التي كانت تمارس فيها أعمال النهب والسلب والقتل. كما أن قسماً منهم كانوا من ولايات الشمال الافريقي وبحر إيجه، لأن رياس السفن في تلك الولايات رفضوا استخدامهم في سفنهم.

د - أنواع السفن المستخدمة في نهري دجلة والفرات:

لم تتوفر لدينا معلومات دقيقة وكافية عن نوع السفن المستخدمة في نهري دجلة والفرات، ولدى التدقيق في القيودات الهمايونية تبين لنا أن هناك سفناً من نوع زورق وسنبوك وخراب وفرقيطة^(٣٣).

واستناداً إلى الوصف الذي قدمه لنا Sir Anthony Shorley من أن هناك سفن تسمى السطح المكشوف ولكنه لم يذكر عنها شيئاً، ويضيف في كتابه عن رحلته النهرية أنه ركب سفينة من نوع ماعون، وأنه شاهد زوارق بطول ٤٠ قدماً وعرض ١٠ أقدام وارتفاع ٢ قدم، وقدر حمولة الواحد منها بطنين مع طاقمها، وهي تتسع من ٨ - ١٠ أشخاص، وأن طاقم الزورق ذي السطح المكشوف أو المسطح يتألف من أربعة أشخاص وطفلين والدومنجي» (موجه السفينة)^(٣٤). ويضيف قائلاً: إنه تم خلال القرنين السابع والثامن عشر استخدام الغاليبوطة والزوارق الطويلة وزورق المشاة والفرقيطة في نهر الفرات وهي زوارق مشابهة للزوارق المستخدمة في البحر، ولكنها شبه مسطحة من الأسفل وعرضها يتراوح من

٤ - ٥ أذرع وطولها أكثر من ٢١ ذراعاً، أما زورق المشاة فيبلغ طوله ٢٣ ذراعاً، وهناك نوع من الزوارق الواسعة التي يبلغ عرضها ٢١ ذراعاً وطوله ٢٧ - ٢٨ ذراعاً، وتسمى فلوكة^(٣٥).

ونظراً للفوائد التي جنتها الدولة العثمانية من الملاحة النهرية في نهري دجلة والفرات، فقد عمدت إلى زيادة الاهتمام بهما، وكان مجرى نهر الفرات أكثر ملائمة للملاحة من نهر دجلة، ولم يستخدم نهر دجلة إلا أثناء فيضانه، أما في الأوقات العادية فمياهه قليلة وبه عوائق صخرية تحول دون استخدام حتى الزحافات المائية، وكان في مجرى نهر الفرات بعض العوائق المائية، لكنها أقل بكثير مما في نهر دجلة، وتساعد مياه نهر الفرات في الأوقات العادية على الملاحة، ولهذا لجأت الدولة العثمانية إلى إرسال مفرزة عسكرية لتنظيف مجرى نهر الفرات وإزالة ما به من العوائق، ومما ساعد على إزالة هذه العوائق أن مجرى نهر الفرات معظمه رملي على عكس نهر دجلة الذي يغلب على مجراه الصفة الصخرية.

وإذا كان نهر الفرات قد اعتمد عليه في نقل الأشياء الثقيلة والمعدات الحربية وغيرها من الأشياء الأخرى، فإن نهر دجلة استخدم أثناء فترة الفيضان في نقل بعض الأمتعة التجارية من بيرجيك إلى الموصل وفي بعض الأحيان كانت السفن تصل حتى الشرايط، خاصة إذا كانت تحمل لوازم حربية، ومن الشرايط تنقل تلك اللوازم براً بمحاذاة الزاب الصغير حتى الحدود الفارسية لمد القوات العثمانية المنتشرة هناك، لقد استخدم أصحاب السفن العاملة في نهر دجلة والفرات أغصان القصب كمجاديف بعد ربط بعضها ببعض، لأن ضفتي النهر لا تحتوي على أشجار يمكن استخدام أغصانها كمجاديف أو للاستناد عليها أو غيرها من الاستخدامات الأخرى^(٣٦) ولم يكن بإمكان أصحاب السفن استخدام الألواح الخشبية العريضة أو الدائرية.

وهناك نوع من السفن المسطحة التي تحمل على القرب الجلدية المملوءة بالهواء وهي أشبه بالعوامات، والقرب تصنع عادة من جلد الماعز أو الغنم وتسمى (كيلاك)، وقد اشتهرت الموصل وديار بكر بصنع القرب الجلدية، وهي لا تزال تصنع في تركيا والعراق حتى الآن^(٣٧).

هـ - نوعية النقل النهري :

لم تكن الدولة العثمانية هي أول من عرف الملاحة في نهري دجلة والفرات فسكان المنطقة قد صنعوا السفن التي تمكنهم من تأمين الاتصال فيما بينهم يوماً بيوم وتأمين حاجياتهم وبخاصة أثناء فترة فيضان النهر، فكثرة الاتصال فيما بينهم والمصالح المشتركة التي تربط بين القبائل والقرى القاطنة على ضفتي النهر دفعتهم للتغلب على الصعوبات التي تواجههم بسبب وجود الأنهار، ثم تطور الأمر من تأمين الحاجيات والاتصال إلى أغراض تجارية، وظلوا يستخدمون وسائلهم دون أي تطور وتحسن من ناحية الصنع والنوعية إلى أن خضعت المنطقة للسيطرة العثمانية، ونظراً للأهمية التي تتمتع بها المنطقة وحاجة الدولة العثمانية إلى فرض وجودها وتأمين قطاعاتها العسكرية هناك لجأت إلى إقامة دار لصناعة السفن في بيرجيك، وفيما بعد أقامت داراً (ترسانة) أخرى في البصرة. وإذا كانت الأسباب في بادئ الأمر عسكرية، فإن زيادة التقارب الأوروبي العثماني ومنح الأوروبيين امتيازات في تلك المناطق جعل الملاحة النهرية في نهري دجلة والفرات تزدهر وتزداد حيوية ونشاطاً وخاصة بعد أن اتخذت شركة لفنت مدينة حلب مقراً رئيسياً لها^(٣٨).

ولم يكن عدد السفن التي كانت تنقل الأمتعة والمحصولات إلى خليج البصرة في بادئ الأمر يتجاوز من ٥ - ٦ سفن، وكانت حمولة السفينة الواحدة تتراوح من ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ كغ، وهذا يعني أن الفائدة آنذاك كانت محدودة والسبب في ذلك يعود إلى عدة أمور من أهمها:

- ١ - لم تكن السفن متينة إلى الحد الذي يمكنها من تحمل درجة فيضان النهر.
- ٢ - في أوقات الصيف كانت الملاحة فيه معدومة، بسبب منافسة أصحاب القوافل وتعهده رؤوساء القبائل بإيصال البضائع سالمة إلى مكان إرسالها.
- ٣ - لم يكن مالكو السفن يتمتعون بتأييد رؤوساء القبائل، وكانوا يضمنون عدم تعرضهم للسلب والنهب بدفع نسبة من أتعابهم.
- ٤ - كانت قدرة السفن على نقل الأشياء محدودة، واقتصرت على نقل الأشياء الخفيفة.

أما بعد خضوع المنطقة للدولة العثمانية فإن الأمر تبدل، وغدت الملاحة منظمة مضمونة، حيث لاحقت الدولة العثمانية الأشقياء واللصوص، وضربت بشدة على أيدي القبائل القاطنة على ضفتي النهرية، فاندفع أصحاب الشأن لتحسينها قدر المستطاع، ولكي لا تواجه الدولة العثمانية صعوبات تمنعها من تسهيل عملها كلفت مفرزة عسكرية بتنظيف مجرى النهرين، مرتين في السنة، وكانت عملية التنظيف تستمر مدة أربعين يوماً، وكانت المفرزة العسكرية العاملة في التنظيف أكثر من ٩٠٠ شخص، كما ارتفع عدد السفن العاملة في النهرين من ١٥٠ - ٢٠٠ سفينة تعمل بصورة دائمة ليلاً ونهاراً^(٣٩). كذلك فإن الدولة العثمانية لاحقت قطاع الطرق والأشقياء، وكلفت مفرزة عسكرية وموظف برتبة باش شاوليش وزودته بالعساكر اللازمة للمحافظة على سلامة السفن.

ومن الصعوبات التي كانت تواجهها الملاحة ضمن نهر دجلة والفرات، ما تتعرض له السفن من الأحجار والرمال التي كان النهر يحملها معه أثناء الفيضان، علاوة على الخوانق المائية التي كانت تندفع إليها بسبب قوة التيار النهري الجارفة وفي مثل هذه الحالة كانت السفينة تتعرض للتلف أو التدمير التام، أما البضائع فيأخذها النهر فتندفع العساكر إليها محاولة قدر المستطاع إنقاذ ما يمكن إنقاذه وأكثر ما كان يقلق الدولة العثمانية مهاجمة القبائل البدوية القاطنة على ضفتي النهر للسفن.

ففي سنة ١٧٢٤ م صدر فرمان يقضي بنقل بارود أسود وبعض المعدات الأخرى من بيرجيك إلى الرضوانية عبر قناة عيسى^(٤٠). فكلف أمير أمراء حلب علي باشا بتجهيز كتيبة من الخيالة والتوجه إلى الضفة اليمنى لنهر الفرات وتأمين الحماية الكاملة للسفن، في حين كلف أمير العشائر بالمحافظة على الضفة اليسرى للنهر، ويذكر السلحدار محمد أفندي أن المسافة بين الرضوانية وبغداد تستغرق ست ساعات^(٤١).

إن السفن التي كلفت بنقل اللوازم الحربية والبالغ عددها ٦٠ سفينة تحركت من بيرجيك في أوائل شعبان، وفي السابع والعشرين منه بلغت بغداد. وكان على السفن الانتظار لعدة أيام ريثما ينخفض منسوب مياه النهر إلى الحد الذي يساعد السفن على التحرك.

ومن أشهر العشائر التي كانت تقوم بمهاجمة السفن عشيرة العباس وعشيرة العقيرات وتوابعها من عشيرة جحش وعشيرة جبور، وقد قامت عشيرة جبور بمهاجمة ثمان وثلاثين سفينة خشب بالقرب من شعاب (أو شعار) مستغلة حلول الظلام واستولت على ثمان سفن، أما السفن الباقية فقد تعرضت للخراب والدمار التام، وقتلوا تسعين شخصاً من العساكر التي أرسلت مع أمير أمراء مرعش مع تسعة أشخاص من الرياس والبحارة؟. إزاء ذلك كلف أمير الرقة الوزير علي باشا باستعادة الأشياء المسروقة ومعاقبة أفراد عشيرة جبور والزامها بدفع كافة التعويضات^(٤٢)، وبعد فترة وجيزة من هجوم عشيرة جبور، قامت عشيرة شام بمهاجمة عشر سفن محملة بالأخشاب، وبعد صدام استمر عدة ساعات مع عساكر اللاوند التي تحرس السفن، تمكن أفراد العشيرة ومقاتلوها من الاستيلاء على ست سفن وإحراق وتدمير السفن الأربع الباقية، وقتل وجرح معظم العساكر.

والواقع أن الدولة العثمانية واجهت صعوبة جمة أثناء نقلها للوزم الحربية التي كانت ترسلها لقواتها التي تقاتل على الجبهة الفارسية أو المرابطة في تلك المناطق، وقد خسرت أكثر من ثلاثمائة سفينة والمئات من العساكر، رغم التدابير الأمنية التي كانت تتخذها^(٤٣). وقد استمرت العشائر بمهاجمة السفن العثمانية ونهب وقتل طواقمها، على الرغم من قيام أمير أمراء حلب وغازي عنتاب بمهمة تأمين الحماية للسفن^(٤٤).

١ - النقلات التجارية:

كانت البضائع والأمتعة التي تباع للأوروبيين أو ترغب الدولة العثمانية في نقلها إلى اليمن ومكة المكرمة تنقل إلى خليج البصرة، فبعد أن تجمع في حلب تنقل إلى بيرجيك تحت حراسة مشددة، وهناك يقوم أمين الجمرك بتحصيل الرسوم الجمركية المفروضة عليها، ومن ثم تنقل إما مباشرة إلى البصرة براً وأما إلى بغداد بواسطة سفن النقل النهري^(٤٥)، أما الأشياء التجارية القادمة إلى ديار بكر فلا يحق لأمين الجمارك تحصيل رسومها، فتحصيل رسوم الجمرك وفقاً على مدينة بيرجيك فقط.

أما البضائع القادمة عن طريق البحر الأحمر فتنتقل إلى السويس ومنها إلى الاسكندرية فالقاهرة وبالعكس، أو من الاسكندرية إلى طرابلس الشام، فإذا كانت

عائدة لولاية حلب أو بغداد أو البصرة، تنقل من طرابلس الشام إلى حلب برأ، وعلى الرغم من أهمية هذا الطريق التجاري الحيوي فقد كان يتعرض لهجمات العشائر البدوية وبصورة خاصة عشيرة أولاد أبوريش، أما إذا كانت الأمتعة والبضائع عائدة إلى مناطق ديار بكر وما جاورها فتنتقل بواسطة السفن البحرية من ميناء طرابلس الشام إلى اسكندرونة مباشرة، ومن هناك توزع إلى الجهات المرسله إليها^(٤٦). وكان ميناء الاسكندرية وطرابلس الشام واسكندرونة من أشهر موانئ البحر المتوسط وقد ازدادت أهميتها خلال العهد العثماني، وبصورة خاصة ميناء طرابلس الشام، لأنه يعتبر المنفذ الرئيسي لمدينة حلب التي نمت اقتصادياً خاصة بعدما أصبحت مقراً لشركة «لغنت» الأوروبية، فالأوروبيون الذين حققوا أرباحاً هائلة من تلك المناطق فضلوا نقل بضائعهم من حلب إلى طرابلس الشام وبالعكس لأنه أقصر وأكثر أمناً من طريق حلب بغداد. إضافة إلى أنهم تمكنوا من إقامة تفاهم مع القبائل القاطنة ما بين حلب وطرابلس الشام^(٤٧)، كما أنهم نقلوا بضائعهم عن طريق حلب البصرة برأ، وضمنوا ولاء القبائل القاطنة هناك، بعد أن اتفقوا على دفع مبالغ معينة لهم، فالقبائل البدوية كانت تشن هجماتها على السفن التي تحمل مواداً حربية أكثر من السفن التي تنقل بضائع وأمتعة^(٤٨).

أما البصرة فقد اعتبرت من أهم المراكز التجارية ما بين الدولة العثمانية والهند فالأمتعة والبضائع القادمة من الهند تجمع في البصرة، ومنها إلى حلب عن طريق نهر الفرات كما ذكرنا سابقاً. في حين كانت البضائع المرسله إلى ديار بكر تنقل من البصرة إلى بغداد ومن بغداد عن طريق نهر دجلة إلى ديار بكر ومنها توزع إلى المناطق الأخرى. وكانت ديار بكر مركزاً لتجمع البضائع القادمة عن طريق ميناء اسكندرونة أو من غازي عنتاب وأورفه وغيرها من المناطق المجاورة.

٢ - نقل الحبوب:

وضعت الدولة العثمانية مبدأ خاصاً، يتم بموجبه جمع نسب الحبوب من الأفضية والولايات التي تنتجها وتزيد عن احتياجها، لأن هناك أكثر من ولاية عثمانية لا تنتج الحبوب، وهي بحاجة إليها، هذا الاحتياج فرض على الدولة الاهتمام به، فمثلاً (استانبول - أدرنة - البصرة - مكة والمدينة) لا تنتج أي نوع من الحبوب

خاصة (القمح والشعير) وباعتبارهما من المواد الأساسية فإن الأمر كان يقتضيها تأمين ذلك لهم بصورة دائمة ومستمرة^(٤٩). لذلك عمدت الدولة العثمانية إلى فرض نسب معينة على بعض الولايات المنتجة للحبوب، وهذا ما استدعى نقلها من المناطق المنتجة إلى المناطق المستهلكة، وكان بعض هذه المواد ينقل براً والبعض الآخر ينقل بحراً، وقد أدى نهر دجلة والفرات دوراً بارزاً في تأمين نقل الحبوب إلى القوات العثمانية الموجودة في القلاع المنتشرة على ضفتي نهر دجلة والفرات بغية تأمين احتياجات قواتها التي تقوم بين الحين والآخر بمحاربة الصفويين، وخاصة في العقد الأخير من القرن السادس عشر، إضافة إلى حاجة بغداد والبصرة والقرى المجاورة لها من الحبوب وغيرها من المواد الأخرى فنسب الحبوب المفروضة على الرقة وديار بكر والموصل كانت ترسل إلى بغداد عن طريق نهر دجلة ومنها توزع على المناطق الأخرى، أما نسب ولاية حلب ونصيبين وقسم من فائض ديار بكر فكان يرسل إلى بيرجيك لينقل بواسطة السفن عن طريق نهر الفرات إلى البصرة، وكانت الحبوب ترسل بناء على طلب أمير أمراء الولاية المحتاجة ومصدق عليه قاضيها، وبغية تنظيم ذلك بدقة خصص دفتر خاص محدد فيه المناطق المنتجة والنسب المفروضة عليها من كل نوع وتاريخ إرسالها، وعن أي طريق ومقدار الكمية المرسله، والجهة المستلمة وبموجب أي حكم تم الإرسال^(٥٠) وقد صدر حكم يقضي بتأمين حاجة البصرة من مناطق ديار بكر^(٥١) وتأمين حاجة أدرنة من نصيبين وغازي عنتاب، أما استانبول فتؤمن من حاجتها من مناطق بحر إيجه، أما مكة والمدينة فتؤمن حاجتها من ولاية دمشق، وفي بعض الأحيان من ولاية اليمن.

وكانت الحبوب المخصصة لولاية البصرة لا تكفي نظراً لكثرة القلاع التابعة لها، إضافة إلى أن القوات المرابطة على الجبهة الفارسية يؤمن قسم من احتياجاتها من نصيبين، وكذلك فإن إنتاج ولاية بغداد أيضاً غير كاف لأنها كانت تقدم قسماً كبيراً مما تنتجه إلى القلاع المرابطة بها قوات عثمانية، وبما أن ولايتي البصرة وبغداد تحتاجان إلى كميات كبيرة من الحبوب، فقد صدر حكم إلى ولاية طرابلس الشام بتخصيص نسبة من إنتاجها وإرساله إليهما في الوقت المحدد بموجب الحكم الصادر ويتكلف والي حلب بإيصاله إليهما. وتجنباً من وقوعهما في ضائقة ريثما تصل الحبوب المرسله إليهما، فقد صدر حكم يقضي بإنشاء مخازن للحبوب فيهما وملء تلك

المخازن بصورة دائمة ومستمرة، إضافة إلى أن الحبوب المرسلّة إلى البصرة لا تتحمل البقاء أكثر من ثلاثة أشهر بدون حفظها. ففي سنة ١٥٦٨م تعرضت البصرة لضائقة اقتصادية خانقة، وخوفاً من ازدياد الضائقة عليها صدر أمر إلى ولاية بغداد بمدها بالحبوب^(٥٢)، وقد ينتج التأخير بسبب تعرض سفن النقل إلى هجوم مفاجيء من بعض الأعداء أو بسبب الإصلاح، فمثلاً في سنة ١٥٦٥ كانت ثلاثمائة سفينة نقل بحاجة إلى إصلاح. علاوة على ذلك كان قسم من حبوب ولاية حلب يرسل على الجمال وحمولة الجمل الواحد عشرون كيلة^(٥٣). أما حمولة سفن النقل النهري فكانت ١٥ مد^(٥٤). وإذا أضفنا إلى ذلك مصاعب شح مياه النقل ومهاجمة القبائل لتلك السفن، والوقت اللازم لوصول القافلة، فإن الأمر كان يتطلب تأمين احتياجات المناطق المستهلكة دون الاعتناء على الظروف، فالواجب يقضي بملء المخازن بالحبوب بصورة دائمة. أما حاجة مكة والمدينة من الحبوب فكان يؤمن لهما من منطقة حوران التابعة لولاية دمشق، وعند تعرض منطقة حوران إلى قحط كان يؤمن احتياجهما إما من ولاية ديار بكر، أو من اليمن أو من مصر وكان كل ما يمكن أن تقدمه ولاية مصر هي مادة الأرز كبديل عن مادتي القمح والشعير^(٥٥).

وفيما يلي تقدم جدولاً بكميات الحبوب التي كان يتم نقلها إلى المناطق المحتاجة، والكمية مقدرة بالكيلة.

السنة	المكان المرسل منه	المكان التيجه إليه	الكمية المجهزة	الكمية المطلوبة	قمح	شعير	كمك	دقيق	الوزن	جمل	سفينة
١٥٦٥	حلب	بغداد	٢٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	—	١٠٠	—	مد	؟	؟
١٦٥٥	بيرجيك	البصرة	—	—	١٥,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	—	—	كيلة	؟	؟
١٥٦٧	ديار بكر	بغداد	—	—	٣٦٩٢٩	٢٠٠٤٢	—	٢٠,١٥٠	كيلة	؟	٣٣
١٧٢٧	نصيبين	بغداد	—	—	٤٠٠٠	٨٠٠٠	—	—	كيلة	٦٠٠	٢٧
١٧٣١	ديار بكر	بغداد	—	—	١٠٠,٠٠٠	٨٠٠٠	٥٠٠٠	—	كيلة	٢٧٦٧	٥٠
١٧٣١	ديار بكر	بغداد	١٣,٠٠٠	٥٠٠٠	٥٣٥٥	٣٣٨٥	١٧١٠	٤٢٧٠	كيلة	١٤٠٠	٤٠
١٧٣٢	ديار بكر	بغداد	٨٠٠٠	٦٠٠٠	٢٩٠٣	٦٦٧٧	—	—	كيلة	١٣٠٠	٢٩
١٧٣٣	ديار بكر	بغداد	—	—	٤٥٧٠	٦١٩٦	—	—	كيلة	٨٤٦	٢٦
١٧٣٣	ديار بكر	بغداد	٢٣٤٧٥	—	٤٤١٦٦	٢٠٥٢٨	—	—	كيلة	—	؟
١٧٣٣	ديار بكر	—	٢٥٠٥	—	٥٤٤٠	—	—	—	كيلة	—	؟
١٧٣٣	ديار بكر	—	٢٥٥٧	٢٠٠٠	٢٦٠٠	٢٠١٦	—	—	كيلة	—	؟

الكمية تعادل ٢٤ كغ تقريباً، والكمية الاستثنائية تساوي ٢٩ أوقية.
المد: يعادل ٢٠ كيلة استثنائية لكنه يختلف من منطقة لأخرى.

٣ - اللوازم الحربية:

إن الهدف الأساسي من التعرض إلى ذكر اللوازم الحربية، إظهار الأهمية الخاصة التي يحتلها البارود والجهود التي بذلت لتأمينه إلى قواتها التي تقاتل على أكثر من جبهة في أوروبا وآسيا وأفريقية. وبما أن المدفعية تشكل العصب الأساسي والفعال في القوات العثمانية التي تفوقت على أعدائها تفوقاً عظيماً جعل أعداء الدولة العثمانية يصابون بإرباك شديد حيال هذا السلاح الناري الجديد وخاصة مع الفرس والماليك. وبهذا السلاح المرعب تمكن العثمانيون من اختراق الجبهة الفارسية الوعرة، وعبروا سوريا ومصر بسهولة دون أن تواجههم أي صعوبة تذكر. هذا التفوق الحربي دفع العثمانيين إلى ضرورة توفيره بكميات تغطي احتياجاتهم منه. ونظراً لخطورة نقله من مكان لآخر، علاوة عن المصاعب الأخرى ومهاجمة الأعداء للقوافل التي تنقله وتعدد الجبهات التي تتطلب توفيره بكميات كبيرة، اضطر العثمانيون إلى إقامة مصانع لصنعه في كل مدينة كبيرة أو استحكام أو موقع مهم^(٥٦).

لقد أنشأ العثمانيون على نهري دجلة والفرات عدة مصانع للبارود ولإنتاج مادة الكبريت والفتيل، ومصانع خاصة لصنع البارود الأسود في حلب وبغداد، ويعتبر مصنع بارود بغداد من أكبر المصانع التي أقيمت في تلك المناطق، وبين سنتي ١٥٧٥ - ١٥٧٦ م بلغ عدد المعامل التي أقامتها الدولة العثمانية ستة عشر معملاً طاقتها الانتاجية خمسة آلاف قنطار.

وكان إنتاج مصنع حلب من البارود ينقل بكامله إلى طرابلس الشام، وقد تعهدت عشيرة أبو ريش بنقله مقابل أجر يدفع لها من خزانة حلب^(٥٧).

وبين سنتي ١٥٧٣ - ١٥٧٤ م تم إنتاج ألفي قنطار بارود وخمسمائة قنطار من ملح البارود. وبما أنه لم يتوفر للدولة قوافل لنقله إلى مخازن طرابلس الشام، فقد صدر حكم عام إلى مسؤولي المعامل وقضاة الولايات بإنشاء مخازن لحفظ الإنتاج من الرطوبة ريثما يستلزم الأمر نقله إلى القوات المحتاجة^(٥٨). وفي سنة ١٦٠٥ م أعلن والي حلب عن حاجته إلى مئة جمل لنقل أربعمائة قنطار من بغداد إلى طرابلس الشام، وحينها لم تتوفر الجمال المطلوبة كلف والي حلب التجار القادمين من حلب

بنقل ما يمكن نقله شريطة ألا تقل حمولة الحيوان الواحد من البغال والجمال عن ثمان وأربعين أوقية، وبالرغم من ذلك فلم ينقل سوى ٢٠٠, ١٩ وقية^(٥٩).

إن مصنع البارود في بغداد يعتمد اعتماداً كلياً على الخشب الذي ينقل إليه بواسطة السفن من مناطق بيرجيك وما جاورها، ولهذا فقد اقتضى الأمر إنشاء سفن خاصة لنقل الخشب، أما مصنع البارود في حلب فإن كمية الخشب التي يحتاجها تؤمن من صنجق (بحران) التابع لشهر الزور (في كردستان)^(٦٠). كما أن القسم الآخر يؤتى به من صنجق /خرس/ التابع أيضاً لشهر الزور^(٦١).

وفي سنة ١٥٦٦ تطلب الأمر إحضار حمولة مئتي سفينة من شجر العرعر وكمية من التراب والفتيل والقصدير من ديار بكر عن طريق نهر دجلة إلى بغداد، وكلف أمير أمراء دير الزور وديار بكر بتأمين ذلك وإيصالها إلى بغداد خلال مدة قصيرة^(٦٢). وفي سنة ١٥٦٦ أحضرت كمية من تراب الصب من (حسن كفا) إلى بغداد بواسطة السفن الزحافة المخصصة للملاحة في نهر دجلة^(٦٣) كما نقل إلى مصنع بارود البصرة نفس الكمية، وبعد إحضارها إلى بغداد نقلت بواسطة قناة عيسى إلى البصرة.

وعلى الرغم من إقامة مصنع للبارود في ولاية حلب فقد تطلب الأمر إقامة مصنع إضافي في (مرعش)، وذلك نظراً للحاجة الشديدة لهذه المادة الحربية، فأثناء الحرب القبرصية سنة ١٥٧١ م صدر حكم إلى أمير أمراء حلب بإرسال جميع ما لديه من البارود إلى ميناء طرابلس الشام، وتزويد الأسطول العثماني المرابط هناك والمكلف باحتلال قبرص. كما وجه حكماً إلى والي بغداد إرسال ما لديه من البارود لنفس الغاية، وقد تم نقل قسم من بارود بغداد بواسطة السفن إلى بيرجيك، والقسم الآخر نقل بواسطة الجمال مباشرة إلى طرابلس الشام، وبما أن الأسطول بحاجة إلى كميات كبيرة من البارود فقد أمر والي بغداد بتحميل الجمال القسم الأكبر وتخوف من تحميل السفن كميات كبيرة من البارود تجنباً من تبللها بالماء، أو تقوم القبائل بالإغارة على السفن وأخذ ما فيها. كذلك فإن حاجة استانبول من البارود كان يؤمن قسم منها من مصنع حلب حيث تنقل براً إلى ميناء اسكندرونة ومن هناك تنقل بالسفن إلى استانبول^(٦٤).

إن حاجة بغداد والبصرة من النحاس كانت تؤمن من خلال النقل النهري، ففي سنة ١٥٦٦ م حُملت عشر سفن بالنحاس من بيرجيك وأرسلت إلى بغداد أما حاجتها من القصدير والفتيل فكان يؤمن لهما من ولاية حلب^(٦٥).

ومهما يكن الأمر فإن نهري دجلة والفرات أديا دوراً فعالاً ومباشراً في الانتصارات التي حققها العثمانيون بدءاً من مضيق هرمز وانتهاءً بخليج البصرة فالمواد التي كانت تنقل من خلال نهري دجلة والفرات مدت قواتهم بروح معنوية عالية دفعتها للصدوم أمام التحديات الفارسية الطامعة في ولاية العراق، يضاف إلى أن ما حققه العثمانيون من انتصارات على البرتغاليين تم بفضل الترسانات (دور صناعة السفن) التي أقامها العثمانيون في تلك المناطق، وهو تطور سريع وفعال قلما شهدته أي امبراطورية ناشئة. فنحن كما نعلم أن الدولة العثمانية دولة برية، وبفضل تلك المناطق وتجاوب السكان غدت دولة بحرية من الطراز الأول أرهبت أوروبا براً وبحراً عدة قرون، وإذا كانت الدولة العثمانية قد واجهت بعض المصاعب من خلال الغارات التي شنتها العشائر البدوية على سفنها المكلفة بنقل لوازم حربية أو على قواتها، فإن ذلك يعتبر أمراً ثانوياً وطبيعياً، وتعرض له حتى الحكومات المحلية آنذاك، يضاف إلى ذلك أن طبيعة المنطقة تفرض على سكانها مهاجمة أي قوة تهدف إلى التدخل في منطقتهم ونمط حياتهم، فالطبيعة البدوية أملت عليهم العيش بحرية تامة، ويعود السبب في عصيان تلك القبائل محاولة الدولة العثمانية إخضاعهم لطاعتها دون أن تدرك أن إدارة تلك القبائل لن تتم إلا من خلال زعامتها، وكان الأمر يفرض على الدولة العثمانية اتباع هذا النهج في الإدارة، وهو نهج ليس بجديد عليها فقد اتبعته في بادية الشام وطرابلس الغرب (ليبيا) أي في المناطق الداخلية منها. ولكن حاجة الدولة العثمانية إلى المنطقة فرض عليها تطبيق الحكم المركزي.

إن الفوائد التي حققها العثمانيون من نهري دجلة والفرات أكثر بكثير من الفوائد التي حققها سكان المنطقة، ولكن هذا لا يعني أن سكان المنطقة لم يحققوا من جراء تطور الملاحة في نهري دجلة والفرات فوائد اقتصادية. ومما يجعلنا نؤكد على فائدة الدولة العثمانية تعيين قبطان لتلك المنطقة أطلق عليه اسم (قبطان الشط) وهو يرتبط بالمركز مباشرة وله صلاحياته الخاصة به ويتلقى تعليماته من استانبول، وقد استمرت أهمية دجلة والفرات بالازدياد وبخاصة من الناحية التجارية حتى

منتصف القرن التاسع عشر، وبعد فتح قناة السويس أهملها تماماً من قبل الدولة العثمانية، ولدى التدقيق في السجلات والقيود العثمانية تبين لنا أن آخر تقرير ورد فيه اسم نهر دجلة والفرات كان في سنة ١٨٤٦ م. وهو مقدم من والي بغداد، كما أن التراسانات التي أقيمت في تلك المنطقة قد اشتملت على عدد من العمال تجاوز أربعين ألف شخص، وإن ثمان وتسعين سفينة نقل كانت تعمل في نهري دجلة والفرات بصورة دائمة، غير أننا لم نتمكن من تحديد صفة السفن ونوعيتها، ومن أهم الأسباب التي دفعت الدولة العثمانية إلى إهمال المنطقة العصبية الذي قاده المماليك في العراق وكذلك تدخل الانكليز الذي شجع سكان المنطقة على مهاجمة القوات العثمانية خصوصاً بعد أن أدركت بريطانيا الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية التي يتمتع بها العراق.

الهوامش

* تم إيراد هذه المراجع حسب ترتيب ورودها في النص.

(١) رحلة أوليا شليبي، الجزء الثالث، استانبول، سنة ١٣١٤، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق. الجزء الثالث، ص ١٤٧.

(٣) المصدر السابق. الجزء الثاني، ص ٢٠٧.

(٤) W.D. Andrew Memoir on the Euphrates Valley route to india, with official correspon-
dance, London, 1857, s. 28-29

(٥) مهمة دفتری(*) نمرة/٣/ ص ٢٦٣. حكم نمرة /٧٦٤/.

(٦) مهمة دفتری نمرة /٣/ ص ٢٩٠.

(٧) مهمة دفتری نمرة /٣/ ص ٤٥٣.

(٨) مالية مدور دفتری نمرة /٢٧٧٥/ ص ١١٣.

(٩) مالية مدور دفتری نمرة /٢٧٧٥/ ص ٢٢٤. تاريخ الحكم ٢٥ أبريل ١٥٦٥ م،

الفرقيطة: هي سفينة من النوع الرفيع والسريع، يعمل عليها من عشرة إلى سبعة عشر مجدفاً، على كل مجداف ثلاثة أشخاص، وتبلغ حولتها خلال الحرب من سبعين إلى ثمانين شخصاً، أما طاقمها فيتألف من ريس* ومساعد له، وشاويش ونجار وقلنجي (موجه) وقائد مدفعية، وهناك نوع منها مخصص لسحب السفن، وغالباً تستخدم لتأمين الاتصال بين المخافر البحرية، ويسمىها الأوروبيون فرقيطة أما العرب فيسمونها فرقاطة. للمزيد انظر:

Resinli osmanli Tarihi, Midhat sertoglu, istanbul 1958 s.107

(١٠) مهمة دفتری نمرة /٢/ ص ٢٤٥.

(١١) مهمة دفتری نمرة /٥/ ص ٢٧١ حكم نمرة /٦٩٦/.

(١٢) مهمة دفتری نمرة /٨/ (٧ ذى القعدة ٩٧٥).

(١٣) مهمة دفتری نمرة /٥/ ص ٢٧١. حكم نمرة /٦٩٦/.

(١٤) مهمة دفتری نمرة /١٢/ ص ١٩٥. حكم نمرة /٤١٨/ (تاريخ ١٠ ذى القعدة ٩٧٨ هـ).

(١٥) مهمة دفتری نمرة /١٠/ ص ١٧٠. حكم نمرة /٢٤١/ (تاريخ ٨ رجب ٩٧٨ هـ).

(*) مهمة دفتری: وهي الدفاتر التي تدون فيها صورة عن الفرمانات السلطانية الموجهة إلى كافة الولايات العثمانية وتعرف باسم سجل شؤون الديوان الهياوي.

(*) الريس وهو لقب يطلق على قائد السفينة، أما قبطان باشا فهو المسؤول عن عدة سفن مهمها بلغ عددها. ويعادل أميرال البحر.

- (١٦) مهمة دفتری نمرة /١١/ ص ٢٧٠ حكم نمرة /٤٢١/ .
- (١٧) مهمة دفتری نمرة /١٣٦/ ص ٥٣ - ٥٤ .
- (١٨) مهمة دفتری نمرة /٣٤/ حكم نمرة /٣٥٠/ (تاريخ ٨ نوفمبر ١٥٨٨) .
- (١٩) مهمة دفتری نمرة /٧/ ص ٦٠٩ . حكم نمرة /١٧١٠/ (تاريخ ٧ يوليو ١٥٨٨ م) .
- (٢٠) مهمة دفتری نمرة /١٣٦/ ص ٥٣ - ٥٤ (أواسط رمضان، ١١٤ هـ الموافق ٥ يوليو ١٧٣٠) .
- (٢١) المصدر السابق .
- (٢٢) مهمة دفتری نمرة /٧/ ص ٦٠٩ حكم نمرة /٢٣١٨/ .
- (٢٣) مهمة دفتری نمرة /٧/ ص ٦٠٣ .
- (٢٤) مهمة دفتری نمرة /٣/ ص ٢٥٩ حكم نمرة /٧٥١/ . كذلك فان حاجة ترسانة الاسكندرية من الإسفلت كان يؤمن من جزيرة رودس .
- (٢٥) إسماعيل أوزن تشارشلي (التشكيلات البحرية) أنقرة ١٩٤٨ ص ٤٢٥ - ٤٨١ .
- (٢٦) مالية مدور دفتری نمرة /٢٧٧٥/ ص ١٧٩ .
- (٢٧) مهمة دفتری نمرة /١٣/ ص ٢٨٦ تاريخ ٧ مارس ١٥٦٠ م .
- (٢٨) مهمة دفتری نمرة /١٣/ ص ٢٨٦ تاريخ ٧ مارس ١٥٦٠ م .
- (٢٩) مهمة دفتری نمرة /١٣٤/ ص ١٠٩ (أوائل شوال ١١٣٩ الموافق مارس ١٧٢٧ م) .
- (٣٠) مهمة دفتری نمرة /٢١/ ص ٢٥٤ حكم نمرة /٦٠٩/ تاريخ ١٦ أبريل ١٥٧٣ م .
- (٣١) مهمة دفتری نمرة /١٣٤/ ص ١٠٩ (أوائل شوال ١١٣٩) .
- (٣٢) مهمة دفتری نمرة /١٩/ ص ١٣٩ - ١٤٠ حكم نمرة /٢٩٣/ تاريخ ٢٦ يونيو ١٥٧٢ .
- (٣٣) السلحدار محمد آغا (نصرت نامه) نمرة /١٨٢/ ص ٥٧ ، ١٣٨ .
Travels in Mesopotamia including a journey From Aleppo to Baghdad, London 1827.
Cl s. 76-78
- (٣٤) (٣٥) مالية مدور دفتری نمرة /٥٤٣٣/ ص ٢ .
Travels in Mesopotamia including a journey Fram Aleppo to Baghdad, London, 1827. (٣٦)
Cl s. 76-78
- (٣٧) أرشيف رئاسة الوزراء في استانبول. تصنيف جودت نمرة /٢٥٧١/ والمصدر السابق ص ١٥٣ - ١٥٦ .
- (٣٨) مالية مدور دفتری نمرة /٤١١٧/ ص ٦١ .
- (٣٩) مالية مدور دفتری نمرة /٢٧٧٥/ ص ٢٢٤ . تاريخ ٢٩ صفر ٩٧٣ هـ .
- (٤٠) تذكر المصادر أن قناة عيسى حفرت من قبل عم الخليفة العباسي المنصور عيسى بن علي، وهناك مصادر أخرى تذكر أن الذي حفرها ابن أخت الخليفة المنصور عيسى بن موسى لهذا سميت باسمه، ومهما كان الأمر فإننا لم نتمكن من معرفة المنشئ الحقيقي لهذه القناة، ولعلها أقيمت في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلادي، وهي تصل ما بين دجلة والفرات، وقد استخدمها الفرس كما استخدمت لنقل البضائع القادمة من دمشق إلى الرقة،

وهناك تقوم السفن بنقلها إلى بغداد للمزيد انظر:

G. Le. strange, Baghdad during the Abbasid caliphate, London, 1924. s. 71-43

- (٤١) مهمة دفتری نمرة /٣/ ص ٤٥٣ . حكم نمرة /١٣٥٥/ .
- (٤٢) مهمة دفتری نمرة /١٢٩/ ص ٣١٦ (أواخر رمضان، ١١٣ الموافق يوليو ١٧٤٠).
- (٤٣) مهمة دفتری نمرة /١٣٤/ ص ١٣١ (أواخر شوال ١١٣٩)
- (٤٤) مهمة دفتری نمرة /١٣٤/ ص ١٩٢ (أواخر ذي الحجة ١١٣٩م الموافق يوليو ١٧٢٧)
- (٤٥) مالية مدور دفتری نمرة /٧٥٥٤/ ص ١٠٥٣ .
- (٤٦) Halil inalcik, Belleten Dergesi. C.15 Ankara, 1951
- (٤٧) مهمة دفتری نمرة /١٩/ ص ١٦١ - ١٦٢ .
- (٤٨) مهمة دفتری نمرة /٣/ ص ٣٨ .
- (٤٩) لطفی غوجر. القيود التجارية الداخلية للدولة العثمانية في العقد الأخير للقرن السادس عشر. مجموعة كلية الاقتصاد التركية العدد /١٣/ لسنة ١٩٥٤ م ص ٤ - ٥ .
- (٥٠) مالية مدور دفتری نمرة /٢٧٧٥/ ص ٢٤ .
- (٥١) مهمة دفتری نمرة /٥/ ص ٣٢٩ .
- (٥٢) مهمة دفتری نمرة /٧/ ص ١١٧ و ٨٣٤ .
- (٥٣) مهمة دفتری نمرة /٧/ ص ١١٧ . الكيلة الواحدة تساوي ٢٤ كغ. أما الكيلة الاستانبولية فتعادل ٢٩ أوقية. والأوقية الواحدة تعادل ٧٥٠ غراماً وتسمى لدى العرب أوقة.
- (٥٤) المد: هو أحد المكايل المستخدمة في الحبوب. والمد الواحد يعادل ٢٠ كيلة استانبولية. ومعايره تختلف من منطقة إلى أخرى.
- (٥٥) مهمة دفتری نمرة /٥/ ص ٣٨٨ .
- (٥٦) Muzaffer Erdogan, Istanbul baruthaneleri, istanbul Enstütüsü ergusi, 11. Istanbul Lergesi s. 115-138
- (٥٧) مهمة دفتری نمرة /٥/ ص ١٦٦ . ومهمة دفتری نمرة /٢/ ص ٤٤ .
- (٥٨) مهمة دفتری نمرة /٢٣/ ص ٣٠٥
- (٥٩) مهمة دفتری نمرة /١٤/ ص ٤٨٣
- (٦٠) مهمة دفتری نمرة /٢٢/ ص ٢٤٤
- (٦١) لم تتمكن من تحديد موقعي صنجق بحران (Bacran) وصنجق خرس (Haris) وبحدود المعلومات التي نعرفها فإن دير الزور وإن وجدت بها أساء هذه المواقع لكننا لا نعلم أن هناك مناطق شجرية يمكن أن ينقل منها خشب يغطي احتياج مصنع بارود بغداد. ومن المحتمل أن تكون في كردستان التابعة لشهر زور.
- (٦٢) مهمة دفتری نمرة /٥/ ص ٢١٩
- (٦٣) مهمة دفتری نمرة /٥/ ص ٣٣٠
- (٦٤) مهمة دفتری نمرة /١٢/ ص ٧٠
- (٦٥) مهمة دفتری نمرة /١٤/ ص ٥٣٨ ، ٥٥٢

تاريخ العمارة في مصر القديمة العصر العتيق

الدكتور/ محمود عبد الرازق
قسم الآثار

العمارة السكنية

لا بد أن نعلم في العصر العتيق فقط على الشواهد المكتوبة، مثل الرسوم والكتابة المصرية القديمة المرتبطة بالمنشآت المعمارية مثلما نتج عن المتطلبات الجنائزية في مقابر الأسرتين الأولى والثانية. وبالرغم من أن تلك الوثائق لم تمدنا بمعلومات محددة، فمن الممكن أن نستمد صورة عامة من إنجازات العمارة.

والكتابة المصرية القديمة المرتبطة بالعمارة^(١) عبارة عن رسوم مبسطة تظهر في تصميم واحد «تخطيط أو مسقط رأس» أو في تصميمين «رسم مركب من تخطيط ومسقط رأس وأحياناً - برسم متداخل»، الطرز الأكثر انتشاراً للمباني المعاصرة. ومعظم علامات الكتابة المصرية القديمة المتصلة بالعمارة السكنية عرفت فعلاً في العصر العتيق.

فالعلامة المخصصة للمنزل «شكل ١٥ - ١» عبارة عن تخطيط مستطيل لسياح له فتحة مدخل في منتصف أحد الجوانب الأطول. وعادة ما تلون باللون الرمادي أو الأزرق، إشارة إلى أن المادة المستعملة هي الطين. وقد وصف بأنه كوخ مشيد بالحصير^(٢)، أو سياج^(٣)، ويمكن أن نعتقد بثقة من شكل النماذج المبسطة للمسكن من عصر الانتقال أو الدولة الوسطى أنه زود بظلة في الجزء الخلفي. وفي الكتابة تخصص العلامة عاملة لـ «مبنى».

ويبدو أن العلامة المخصصة للفناء «شكل ١٥ - ٢» المثلة في التخطيط

بمدخل في أحد الأركان وعمر ضيق يحيط به جدار واق، كانت مرحلة متطورة لحظيرة المشاة البيضاوية الشكل المرسومة على آثار العصر العتيق^(٤). ويعتبر مثل هذا الترتيب الذي يهدف إلى إخفاء المدخل والتحكم في المعتدين، مظهراً مميّزاً للعمارة العسكرية والدينية وكذلك السكنية. واستعمال اللونين الرمادي والأزرق يجعلنا نعتقد أن المادة المستعملة كانت الطين.

وتظهر العلامة المخصصة للقلعة «شكل ١٥ - ٣» تخطيطاً لفناء مستطيل الشكل بعناصر: عبارة عن بوابة المدخل في أحد الأركان. من المحتمل أنها تمثل قلعة أو سياجاً محصناً مثل تلك الحصون المعاصرة في هيراكونبوليس أو أبيدوس «شكل ٣٥».

والعلامة المخصصة للمدينة عبارة عن تخطيط لمنطقة استقرار بطرق متقاطعة ويحيط بها سياج مستدير الشكل «شكل ١٥ - ٤». وأحياناً ترسم الطرق محورة إلى طريقتين رئيسيتين متقاطعتين، مثلما سيتم الاحتفاظ به فيما بعد. والعلامة تخصص عامة لمنطقة سكنية.

ويبدو أن شكلاً مختلفاً يبين طريقتين متقاطعتين فقط يشير إلى أنه في هذا العصر المبكر كانت الأسس الرئيسية التي تحكم مشروع تخطيط كل مدينة في مصر فعالة. وهكذا ففي مدينة العمال في كاهون، وفي القرية الشرقية في العمارنة، وفي مدينة سيسبي في النوبة، قسمت مجموعات المساكن بحيث فصل كل مجموعة عن الأخرى طرقات متعامدة بنظام رقعة الشطرنج، وذلك بطريقتين رئيسيتين يمتدان من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وأحيطت المدينة كلها بجدار مربع الشكل. ولم يكن من سبيل المصادفة أن تخطيط المدينة الكلاسيكية في العمارة الإغريقية قدم كذلك طريقتين رئيسيتين متقاطعتين.

وتظهر العلامة المخصصة للقصر «شكل ١٥ - ٥» مسقطاً رأسياً لبرج به إفريز من زخرفة الفكر في القمة وربما تظهر نافذتين في الطابق الأرضي، أو في نهاية الدعامات الخشبية في السقف. وفي الحقيقة إن العلامة مخصصة للقصر، فمن الممكن الاستدلال على أن هذا المبنى القديم كان القصر الملكي. وأثبت ذلك منظر معاصر حيث مثل القصر بنفس الطريقة^(٥). واتخذت قمرات القوارب من عصر ما

قبل الأسرات، وبعضها من طابقين، المسقط الرأسي لما يشبه هذا البرج، وسوف يتم الاحتفاظ بهذا الشكل في مساكن المدينة في جميع العصور.

والعلامة المخصصة للفعل «يثبت»، التي ترسم أحياناً خطأ، تبين مسقطاً رأسياً لسور مكون من أعمدة قائمة بارزة فوق جدار ضعيف «شكل ١٥ - ٦».

والعلامة المخصصة للحدود، بالرغم من أنها بدائية أكثر، فهي عبارة عن سور مائل أو جدار من الغاب «البوص» القائم مربوط من منتصفه بجبلين «شكل ١٥ - ٧». وهذه الطريقة كان يتم بناء جدران الكوخ الذي يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ «مرممة».

أما العلامة المخصصة للفعل «يمسك» فتظهر مسقطاً رأسياً لسياج من أعمدة خشبية قائمة ربطت عند قممها بأربطة في أعمدة أفقية «شكل ١٥ - ٨». وأقيم هذا السياج على كلا جانبي المدخل المؤدي إلى المقصورة البدائية.

وتحمل إحدى اللوحات تمثيلاً لكوخين من المسقط الرأسي لهما، وتخطيطهما مستدير الشكل، يتكونان من نصف أسفل من أغصان مصفورة، وباب جانبي وقبة نصف كروية. وربما كان ذلك مظهر الكوخ في عصر ما قبل التاريخ والعصر العتيق. ويمكن أن نستنتج من إنشاء مقابر الأسرة الثانية «سقارة» التي تقلد المساكن المزودة بدورة للمياه وحمام أن وسائل الراحة هذه كانت موجودة فعلاً في المساكن الحقيقية.

ومن الممكن أن يعاوننا الشكل الشائع المنحوت على الآثار الملكية في العصر العتيق في دراسة واجهات المباني. وهو عبارة عن مستطيل قائم يضم الاسم الحوري الملكي في قسمه الأعلى، ويظهر في قسمه الأسفل حشوات طويلة رأسية. وهذا العنصر هو السرخ المصري. وقد أطلق عليه شكل «واجهة القصر» «شكل ١٦»، ولكن يبدو أنه يمثل فقط بوابة القصر الطقسية المزدوجة. وتبين مدخلين على جانبيها ثلاثة أبراج بارزة مرتفعة يمكنها بالتالي أيضاً أن تستعمل حشوات على هيئة شرائط رأسية ضيقة. ومن الممكن أن نتعرف على طرازين من «واجهات القصر» أحدهما: ذو قمة أفقية مستمرة «شكل ١٧»، والآخر ذو أبراج أعلى من قمم الأبواب «شكل ١٨». وفي كلتا الحالتين يمتد في القمة إفريز من الزخرفة على شكل المعين وكورنيش

بعناصر رأسية. ويوجد هذا الشكل أيضاً على الواجهات الخارجية للمصاطب المعاصرة، والجدران المحيطة «الأسوار»، والتوابيت وهي على هيئة تجاويف وأنصاف أعمدة مربعة بارزة، ذات مقطع مربع الجوانب، وسوف يستمر ذلك خلال الدولة القديمة.

ولم يكن الدافع إلى ابتكار هذا الشكل جمالياً بحتاً، بالرغم من أنه يساعد - بالتأكيد - على كسر حدة الاتساق للواجهات الظاهرة الضخمة. وعندما استعمل هذا الشكل أساساً في واجهات المصاطب، فإنه يبدو أن هذه التجاويف كانت على هيئة أبواب هيكلية عديدة من أجل قرين «كا» المتوفى لتعينه على الخروج وتناول القرابين. وتلك حل مكانها فيما بعد باب وهمي واحد «شكل ١٠٧».

وقد نسب أصل هذا الشكل إلى استعمال أنماط مختلفة من الفنون. فقد اعتقد البعض في ضوء اكتشاف الألواح الخشبية التي يمكن أن تطوى واحدة فوق الأخرى عندما تشكل لتكون حائطاً، أن إمكانية وجود طراز خشبي سابق «بترى، وبيروت شبيز، وبالكز وكلارك، وأنجلباك». وعلى أية حال يبدو من المحتمل أن فناً متمزجاً يستعمل الخشب كإطار خارج والطوب كحشوات، بديلاً عن ستائر الحصير السابقة، ربما كان عملياً أكثر في بلد فقير في الخشب مثل مصر «جاكييه، وشويسى». وقلدت زخرفة الجدران فيما بعد «حسى رع - الأسرة الثالثة» مثل هذا الحصير المنشور داخل إطار خشبي «جاجا - أم - عنخ الأسرة الخامسة، شكل ٤٥».

وتوجد معالجة شبيهة للواجهة في أور وفي بلاد ما بين النهرين وفي اليمن، وكان من المعتقد أنها قدمت من مصر^(٧)، بالرغم من أن تطوراً متقابلاً في كلا الإقليمين يبدو منطقياً أكثر.

ولم نعثر على أثر محدد يعيننا في دراسة المساكن في العصر العتيق. أما بالنسبة للصوامع، فتظهر نماذج الأسرة الأولى مطامير أو صوامع أسطوانية ذات جوانب محدبة وحافة ذات قمة مائلة، وفتحيتين مربعتين على مستويين مختلفين. ومن المحتمل جداً أن البناء الحقيقي كان من الطين. بالإضافة إلى أن المخزن المكعب الشكل أو الغرفة قد مثلاً كذلك. وكلا الطرازين سوف يستعمل على نطاق واسع فيما بعد.

تخطيط المدن:

ويوجد التخطيط المستدير للمدينة، كما عرف في العلامة الهيروغليفية، في مدينة الكاب «شكل ٢٠». والتخطيطات المبكرة الأخرى مستطيلة في الشكل «هيراكونبوليس، هليوبوليس». وقد ثبت أن تخطيط المدينة من الداخل قد نظم منذ الأسرة الأولى حول طريقين رئيسيين من تخطيط منطقة الاستقرار في مرمدة من عصر ما قبل التاريخ، بمساكن أقيمت على كلا جانبي طريق. ومثلما ظهر في العصور المتأخرة «كاهون، والعمارة» فإن الحكومات تطورت ونفذت المشروعات التي خططت هندسياً على هيئة رقعة الشطرنج، وتم تقليدها في تخطيط الجبانة الملكية «الجيزة». وعلى أية حال فإنه يمكن الادعاء أن تخطيط المدن لم يكن موضوعاً لمثل هذه السيطرة وأن المدينة كبرت أو اضمحلت بطريقة عشوائية داخل إطار رئيسي، يتضمنها سور حولها^(٩).

العمارة الدينية

تعتبر المعلومات المتصلة بالمباني الدينية من العصر العتيق ذات طبيعة أثرية وتخطيطية.

ففي أبيدوس^(١١) تظهر أطلال معبد من الطوب من الأسرة الثانية أو الثالثة شيد من أجل خنق أمتيو تخطيطاً مستطيلاً يتكون من قسمين متساويين «شكل ٢١». يهدف الجزء الأمامي إلى إخفاء الجزء الخلفي بواسطة ساتر جداري مستعرض. ويضم هذا القسم الأخير حجرة أمامية تؤدي إلى قدس الأقداس المشيد على المحور الطولي وحجرتين جانبيتين. ومن المحتمل أن هذا التخطيط البسيط كان نقلاً مباشراً إلى الطوب من طراز الأغصان المضفورة^(١١).

وقد تم التعرف فقط على أجزاء من أرضية وأعمدة من المعبد^(١٢) الذي شيده الملك خع سخم على هضبة أقدم في هيراكونبوليس. يحمل أحد أكتاف الأبواب من هيراكونبوليس نقشاً يمثل منظرًا لتأسيس أحد المعابد شيده الملك خع سخموي^(١٣). وفي كل مكان هليوبوليس وتل اليهودية تل صناعي مشابه على تخطيط مربع الشكل ذو أركان مستديرة، ربما كان شرفة لمعابد من العصر العتيق. وتنصف نصوص الأهرام

«أتمو خبر، أنت تسمو فوق التل»^(١٤).

وقد أمكن التعرف من مناظر معاصرة نقشت على لوحات أو رؤوس دبابيس، على ثلاثة طرز مختلفة من المقاصير، كلها من الجريد المجدول:

١- كان أكثر الطرز أهمية المقصورة المخصصة للمعبودة نيت والمعبودات خنوم وسوبك أو طائر البلشون «؟». بالرجوع إلى أوضح المناظر، وهو مجاور لمسقتين أمامي وجانبي^(١٥)، فهو عبارة عن فناء مستطيل يحيط به سور من الأغصان المجدولة، ويحدد ركنيه الأماميين رايتان بدائيتان مقدستان، أصبحتا الرمز الإلهي فيما بعد «نتر»، وفي الخلف كوخ ذو أربع قوائم ركنية وباب جانبي أو خلفي وسقف مقبي «شكل ٢٢». وفي منتصف الفناء نصب قائم يحمل رمز المعبودة وهو عبارة عن درع وسهمين للمعبودة نيت، والكبش للمعبود خنوم، والتمساح للمعبود سوبك، وطائر الأيس للمعبود تحوت أو الطائر المخصص للرمز المقدس في بوتو^(١٦). وسوف يمثل نفس طراز قدس الأقداس هذا على هيئة مسقط أمامي في رسوم الدولة الوسطى.

٢- ويتفق مثالان لتمثيل معبدتين مستديرين من الأغصان المجدولة في إظهار نفس الطراز من الكوخ وهو عبارة عن حائط مستدير من أسفل به باب، يحمل قبة على هيئة نصف كرة «شكل ٢٣». وأحد المعبدتين ذو أربع قوائم ترتفع أعلى من قمة القبة الخاصة به «شكل ١٣»^(١٧).

٣- تمثل مجموعة من أختام الأسرة الأولى كوخاً خاصاً ظهر في مسقط رأسي أمامي ومسقط رأسي جانبي «شكل ٢٤»^(١٨). وتنقل بعض الأمثلة «من مقبرة عحا» بوضوح صورة لحيوان رابض، ربما كان كلب الصحراء الخاص بالمعبود أنوبيس أكثر منه وحيد القرن أو الفيل^(١٩). ويظهر المسقط الرأسي الجانبي بغير خطأ العجز الخلفي وذيلاً طويلاً كثيفاً، وهو مشيد من جدار يحمل قبواً غير معتاد. والمسقط الرأسي الأمامي عبارة عن فتحة مرتفعة ذات عقد، وثلاثة عناصر على هيئة القرن بارزة بميل عند القمة. وفي المراحل المتأخرة من التطور تحورت الأشكال، وأدى القبو الخلفي الغير معتاد إلى ظهور هذا القبو الفريد الغير معتاد الذي كان عليه أن يبقى السقف المميز للمقاصير المصرية والنواويس حتى نهاية العصر الروماني.

كما عرف طراز من المباني تأثر بالعمارة الدينية ألا وهو الجوسق حيث تعود الملك أن يجلس أثناء احتفال عيد اليوبيل «شكل ٢٥»^(٢٠). أقيم فوق هضبة مرتفعة من الطين المدكوك والطوب أو الحجر، وله بعض الدرجات أمامه، ورفعت ظلة فوق عمودين على الواجهة وله حائط في الخلف. وسقف الجوسق على هيئة سطح منحدر في اتجاهين أو قبو مسطح. وسوف تزدوج هذه الظلة، ويتم الاحتفاظ بها خلال التاريخ المصري كله.

ويظهر رسمان لظلة مغطاة بسطح منحدر في اتجاهين. ويبدو أن هذه الظلة قد استعملت أثناء الاحتفالات الدينية، وربما كانت تخطيطاً مستطيل الشكل^(٢١).

وبالنسبة لبعض العلامات المعاصرة من اللغة المصرية القديمة، فإن علامتين منها تمثل مباني عرفت فعلاً من الرسوم: وإحداها تتمثل في «شكل ١٦ - ١» عبارة عن واجهة كوخ من الأغصان المجدولة بأسطح مائلة، وباب في المحور وإفريز في القمة. وثبت في مكان آخر أنه المسقط الرأسي الأمامي لنفس المعبد، الممثل في المسقط الرأسي الجانبي في علامة هيروغليفية أخرى، وهي علامة متطورة لكوخ المزار الخاص بالمعبود أنوبيس^(٢٢). والسقف ليس مسطحاً ولكنه قبو غير معتاد ولم يظهر مطلقاً في اللغة المصرية القديمة. ويظهر على أية حال في رسم من الأسرة الثامنة عشرة، حيث رسم كلا المسقطين الرأسيين جنباً إلى جنب^(٢٣).

العمارة الدينية: تقييم

انقسمت العمارة الدينية في العصور العتيقة إلى ما لا يقل عن ثلاثة طرز مختلفة من المقاصير المقدسة المشيدة من الجريد المجدول، اثنتان منها، شيدتا في مؤخرة فناء كبير وكوخ المزار، سوف تبقى في صورة معابد قومية تقليدية من أجل الشمال والجنوب. ومن الممكن التعرف الآن على الخطوط الأساسية للمعبد المصري الطقسي المتأخر في الفناء المحاط بسياج وطراز قدس الأقداس المقام حول المحور الطولي. كما أن ساريتي العلم السامقتان بتناسق في ركني أقصر واجهة سوف يحل محلها فيما بعد صرحان يتقدمها ساريات الأعلام والمسلات.

وسيتم الاحتفاظ بالفناء نفسه في صورة الفناء المتقدم الذي سيلحق به بهو

الأساطين بينما سيحتفظ قدس الأقداس بموقعه في مؤخرة المبنى يحيط به ملحقاته .
وسيحتفظ جوسق عيد اليوبيل بهيئته الأساسية، بالرغم من أن الظلتين سوف
تقامان وظهراهما متقابلان .

وتم توضيح محاولة تأكيد سرية العقيدة بإقامة قدس الأقداس في نهاية هذا
التخطيط، وإخفاء هذا الجزء خلف جدار ساتر (منعد في أبيدوس)، وهو مظهر
سوف يحتفظ به في كثير من المعابد الطقسية بإقامة سقائف خشبية أو سواتر عند
المدخل بطول المحور الرئيسي .

العمارة الجنائزية

من الممكن دراسة مقابر العصر العتيق غير المشابهة للطرز الأخرى للعمارة من
البقايا العديدة في جبانات أبيدوس، وسقارة، وطرة، وحلوان .

وعلينا أن نفرق بين المقابر الملكية ومقابر عامة الشعب، ليس فقط من خلال
الاختلافات في المقاس، بل من خلال الطرز كذلك، وبعضها مثل الهرم كانت
امتيازاً للملك أو أعضاء الأسرة المالكة. وتبدو ريادة الملك في الطرز بحقيقه أن
أصحاب المقابر الآخرين كانوا يحاولون اللحاق بحاشيته. وغالباً ما كانت بعض
مقابر الأفراد (حماكا، ونبت كا) كبيرة ومتقنة مثل مقابر الملوك .

وكان الخوف من المغتصبين^(٢٤) هو الدافع الأساسي في تطور المقبرة. وحتى في
العصر العتيق يبدو أن مثل هذا الباعث كان مهماً حيث كانت تحفر غرفة الدفن على
عمق كبير وأغلقت طرق الوصول إليها بطريقة أكثر أمناً. ويميل المبنى السفلي إلى
الانفصال عن المبنى العلوي بهذه الطريقة بإقامته على عمق كبير .

وقد تمت دراسة وتصنيف^(٢٥) طرز المقابر، ومراحل تطورها بدقة. ونشأت
ثلاثة من تلك الطرز عن المقابر التي على هيئة الحفرة المفتوحة في جبانات عصر
الأسرات الأولى، وبها بعض التعديلات، فهي مكسوة باللبن، ومسقوفة بالخشب،
وهناك زيادة في عدد الغرف، ولها مدخل جانبي ذو درج. وانتهت المقبرة التي على
هيئة الحفرة المفتوحة في مصر السفلى في بداية الأسرة الثانية ولكنها استمرت في مصر

العليا حتى الأسرة الثالثة، مع بداية تقديم الأسقف المتدرجة المشيدة بالطوب. وساعد على هذا التطور، التقدم المقابل في صناعة البناء مثل الاستعمال العام للطوب وبداية نقل الأحجار. ويوجد الرواد الأساسيون في هذا التقدم في المصانع الملكية، واستعمل الأفراد مثل هذه الابتكارات بقدر استطاعتهم بوسائلهم القاصرة.

طرز المباني السفلية(٢٦):

وارتبط المبنى السفلي إلى طراز أكثر إتقاناً، ازداد عمقه بترتيب زمني مصاحب له. ولا بد من تحديد الاختلاف بين المقابر الملكية والمقابر الخاصة. واستفادت المقابر من النوع الأول بالمهارة والدقة الفنية لأفضل الصناع.

الطراز الأول:

(أ) وهو عبارة عن مقابر ملكية في كل من أبيدوس وسقارة، تنبثق مباشرة من المقابر المشيدة بالطوب من بداية عصر الأسرات، ويتكون المبنى العلوي لهذا الطراز من حجرة مستطيلة من الطوب يغطيها سقف من القوائم الخشبية والبوص أو الحصير ثم كسيت بالطين، ووضعت القوائم الخشبية بطول الجدارين الرئيسيين الداخليين، ربما لتثبيت تكسية خشبية (مقابر من - عحا، ونامر وثلاث أميرات).

واستبدلت هذه الغرفة البسيطة مباشرة بغرفة مربعة الشكل، عميقة، داخل حفرة كبيرة بها غرفة مكسوة بالخشب وثبتت في جدران فاصلة من الطوب (مقبرة جر شكل ٢٧). ومقبرة الملك جت، التي تشبه المقبرة السابقة، ذات أرضية من الطين أقيم فوقها إطار مربع من الدعامات الخشبية التي تحمل ألواحاً خشبية سميكة. ومثلها في مقبرة جر ضمت الجدران الفاصلة المستخدمة كمخازن، كوات دهنت باللون الأحمر. ومقبرة الملكة مرنيت من نفس الطراز ولكنها بجدران مزدوجة. ويجب أن تلحق كل من مقبرة نقادة العظيمة الخاصة بالملكة نيت حتب ومقبرة حور عحا في سقارة بهذا الطراز.

(ب) المقابر الخاصة:

دفن رجال البلاط في أبيدوس في مقابر تحيط بمقبرة مليكهم، بينما دفن عامة

الشعب في جبانات منفصلة تحيط بها جدران مستطيلة. والمقبرة عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل يكسو جدرانها الطوب وتغطيها قوائم وألواح خشبية وضعت بزوايا قائمة عليها. وهذا الطراز هو الطراز الأكثر شيوعاً المعروف فعلاً في عصر بداية الأسرات (نقادة الثانية)، وتم العثور عليه في جميع جبانات العصر العتيق مثل الكاب، ونقادة والبلاص، ونجع الدير، والعمرة، وطرخان، وطرة، والاحايوه، وزاوية العريان.

ويمكن أن تقسم الغرفة المنفردة عند إحدى النهايات أو من كلا النهايتين إلى قسمين (شكل ٢٧) أو أكثر من قسم (عادة خمسة).

ويعود طراز ثانوي إلى عصر حضارة جرزة ويتكون من حفرة غير مبطنه بها غرفة جانبية، يقسمها أحياناً حاجز (الاحايوه والبلاص).

الطراز الثاني:

(أ) المقابر الملكية:

وكتيجة للزيادة في عمق المقبرة المشيدة بالطوب ذات السقف الخشبي والمشيدة في حفرة كبيرة، وجد درج قصير وهو عادة في الجانب الشمالي الأقصر طولاً يؤدي إلى المباني السفلية. في مقبرة الملك أوديمو كسيت جدران الدرج بالطوب وأرضية الغرفة بالجرانيت. ويبدو أن الغرفة ذات الجدران السميكة المشيدة بالطوب قد كسيت بجدار مزدوج من الخشب، يضم غرفاً صغيرة. وتظهر المقابر الأخرى من هذا الطراز في أبيدوس اختلافات بسيطة، فمقبرة عنخ أيب ذات غرفتين ودرج أقيم بزوايا قائمة في أحد نهايات الجانب الأطول، ويسهل الوصول إلى مقبرة سمرخت عن طريق أخدود، وغطيت جدرانها وأرضياتها بالخشب. وتظهر المقبرة الكبيرة الخاصة بالملك قاي عا (شكل ٢٨) ملامح جديدة في المخازن الأربعة ذات السقف المتدرج على كلا جانبي الدرج المؤدي إلى الغرفة الجنائزية وهي نفسها محاطة بممرات طويلة.

(ب) المقابر الخاصة:

وجدت خواص المقابر الملكية في المقابر الخاصة، سواء في عدد الغرف

والدخول عن طريق منحدر أو درج. كما نحتت بعض الحفريات في طبقة الحجر الجيري (منف مقابر حماكا، ونبت كا، ومقابر حلوان)، بينما نحت البعض الآخر في الحصباء (مصر العليا: العمرة والمحاسنة ونجع الدير). وتفصل أحياناً غرفة واحدة منفردة مشيدة تحت سطح الأرض، يغطيها سقف خشبي، عن الدرج بواسطة متراس.

الطراز الثالث:

(أ) المقابر الملكية:

كان سقف الطوب المتدرج معتاداً في المقابر ذات الدرج (الأسرة الثانية). ومن الممكن أن يتخذ مثل هذا السقف شكل قبة أو قبة.

في مقبرة برايب سن في أبيدوس، كان تطور المخازن والملحقات بمقارنتها بالغرفة الجنائزية نفسها ملموساً (المساحة الكلية: ١٢٨,٠٩ متراً مربعاً، الغرفة الجنائزية ١٨,٧ متراً مربعاً) (شكل ٢٩). يؤدي منحدر إلى مبنى سفلي يتكون من غرفة جنائزية يحيطها من الجوانب الأربعة سلسلة من المخازن المتصلة، وهي نفسها محاطة من الجوانب الأربعة بممر. ومن المعتقد أن المقبرة كلها كانت ذات سقف متدرج.

في مقبرة خع سخم وى تصل زيادة المبنى السفلي بمقارنتها بالغرفة الجنائزية إلى أقصى حد لها (المساحة الكلية ١٠٠١,٨١ متراً مربعاً، والغرفة الجنائزية ١٧,٥٥ متراً مربعاً). وتخطيطها طويل، به سلسلة من المخازن القائمة الزاوية بخشونة أو مقابر ذات مدخلين في الشمال والجنوب وكسيت الغرفة الجنائزية التي في المنتصف وغطيت بالحجر الجيري.

(ب) المقابر الخاصة:

معظم المباني السفلى لها خمس حجرات (نجع الدير، وطرة، والعمرة) وغرفة جنائزية مركزية ذات غرف مزدوجة في النهاية تغطيها قباب متدرجة كسيت من الداخل بملاط من الطين.

الطراز الرابع :

لم يحدث هذا الطراز المتميز بالدرج العميق والغرف المنحوتة في الصخر تحت سطح الأرض، قبل الأسرة الثالثة، فيما عدا منف حيث عرفت مرحلة انتقال منذ أوائل الأسرة الثانية (سقارة، وهرم في زاوية العريان).

حفرت مقبرة روابن في سقارة (شكل ٣٠) في الصخر تماماً بغرف ازدوجت على كلا جانبي المحور الطولي الممتد من الشمال إلى الجنوب، تميزها ممر يغلقه ثلاثة متاريس. وتقع الغرفة الجنائزية في نهاية الممر، وأمامها الغرفة الهيكلية للمتوفى، ذات دورات للمياه، وكوة لتخزين المياه. وتوجد مقابر أخرى عديدة في سقارة على نفس النمط.

ويتطور هذا الطراز كمقبرة ذات غرفة واحدة (سقارة)، ولكن بمقياس رسم صغير عامة.

طرز المباني العلوية (٢٧):

كل مبنى سفلي يعلوه مبنى علوي ليميز المقبرة ويؤدي وظيفته كمقصورة للشعائر الجنائزية. فالبقايا التي قاومت عوامل التعرية ومعاول الهدم على يد الحفارين تعتبر كافية لدراسة الطرز (شكل ٣١).

وأبسط مبنى علوي عبارة عن تل من الحصباء ذو قمة مقوسة يغطيها الطمي (نجع الدين). ربما كان ذلك تطوراً من التل المغلف المصنوع من الأغصان المجدولة من عصر ما قبل الأسرات.

المبنى العلوي المشيدة بالطوب ذو الكوتين:

استبدل الطراز البسيط في الحال بسياج من الطوب شيد بعد الدفن حول المقبرة التي على هيئة حفرة أو فوق حشوها، وبه كوتان مفتوحتان كل منهما في أحد نهايات الواجهة الغربية. ويمكن أن نعتبرها الطراز السابق العلوي الذي على هيئة «المصطبة» في الدولة القديمة. وكانت الكوات أما بسيطة الشكل أو مركبة، وهي ملونة باللون الأحمر وأعد أمامها مكان التقدمة في الهواء الطلق وذلك بتمهيد ممر بالطوب وأحاطته بجدار على هيئة سور منخفض.

ولطراز آخر من المبنى العلوي (شكل ٣٢) فتحتان متجاورتان مفتوحتان في إحدى نهايات الواجهات الشرقية أو الغربية للجدار المحيط بمنطقة الحفرة. واستخدم فناء صغير يحيطه جدار بمدخل غير مباشر لاحتفالات التقدمة الجنائزية أمام الكوات.

المصاطب الكبيرة ذات الكوتين:

هذا الطراز شائع في الأسرة الثانية. فمصطبة رؤبن لها كوتان في واجهتها الشرقية، والكوة الجنوبية أكبر تقلد هيئة الباب. ومن الممكن أن تتخذ الكوة ثلاث أشكال مختلفة تسمى: كوة مركبة متسعة، ومدخل عظيم، وكوة واجهة القصر.

المصطبة ذات حشوات واجهة القصر:

لبعض المصاطب الكبيرة المعروفة منذ الأسرة الأولى سلسلة متصلة من الكوات على أسطحها الأربعة (شكل ٣٣). ولم يكن هذا العنصر المسمى «واجهة القصر» الذي يقلد المدخل التذكاري الضخم، نسخة حقيقية لواجهة القصر. وربما استخدم التقليد المتعدد للأبواب في المصطبة ليساعد الـ«كا» الخاصة بالمتوفى لتتناول من القرايين الجنائزية الموضوعة خارج المصطبة. وتتكون الكوة ذاتها من تجويف داخلي وخارجي، توجد على كلا جانبيه كوة صغيرة بسيطة. وكذلك فإن كلا من جانبي نفس التجويف يضم كوة مشابهة. وقد اكتشفت المصاطب الضخمة من هذا الطراز، ويرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى، في سقارة، وحلوان، والجيزة، وأبيدوس، ونجع الدير (الأسرة الثانية).

العمارة الجنائزية: تقييم

من الممكن أن تقاوم المقابر عوامل التعرية، لاختلافها عن المساكن بسبب مبانيها السفلى. بالإضافة إلى أنها شيدت من الطوب مع عناصر حجرية وكانت تهدف إلى البقاء للأبد. وحتى في العصر العتيق يأخذ هذا التصور (برجت: المنزل الأبدي) الشكل الذي سيبقى واضحاً جداً فيما بعد.

ففي مصر العليا دفن المصري من عصر ما قبل التاريخ موتاه في أراض

خاصة بالدفن خارج أماكن السكن. وفي مصر السفلى واصل المتوفى حياته تحت مسكنه ولكي يتناول الأطعمة، لذا لم تكن هناك حاجة للتقدمة الجنائزية. وعلى ذلك فمن الطبيعي أن تظهر بعض المقابر التي ترجع إلى الأسرة الثانية في سقارة قسماً رمزياً كاملاً في المبنى السفلي ذا ثمانية عشرة غرفة، ومرحاض، وحمام، وغرفة نوم، وأوان في الغرف. واتخذت التوابيت الخشبية المعاصرة هيئة المساكن. ولم نلتق بهذا التصور في مصر العليا (في نقادة، وأبيدوس، ونجع الدين). ويبدو أن هذه التذكرة القوية بالمسكن في المقبرة المنفية يرجع إلى حضارتي مرمدة والعمرى^(٢٨).

ووضعت الواجهة ذات البروز والدواخل لبعض المقابر الضخمة من العصر العتيق (نقادة، سقارة) بأنها نسخة من واجهة القصر. كما حددت عناصر القصر في المقبرة نفسها وهي غرفة التابوت المتوسطة يحيطها عدة غرف، وسياح ثان به غرف صغيرة^(٢٩). ويبدو أن مقابر عديدة من نفس الطراز كشف عنها فيما بعد في سقارة وحلوان وتخص ملوكاً وأفراداً، تشير إلى أن الآثار الجنائزية في أبيدوس كانت نصباً تذكارية فقط^(٣٠).

وبعيداً عن هذه الفكرة لاتخاذ شكل المباني السكنية في المقابر سواء في المبنى السفلي أو المبنى العلوي، وإقامة الغرف تحت سطح الأرض بعمق كبير في التربة وسد المنحدرات والدرج بالحصباء يظهر أن الخوف من اللصوص أصبح فعلاً العامل الرئيسي المؤثر في التطور. ويساعد الفن والصناعة في نحت درج عميق وغرف تحت سطح الأرض في الحصباء والحجر الجيري، بدلاً من طراز الحفرة المفتوحة (الأسرة الثانية). وسوف يعدل طراز الدرج العميق في نهاية الأسرة الثالثة بواسطة بئر إضافي نحت في نهاية الدرج (٣٠٤٣)^(٣١): سوف يشكل ذلك طراز المقابر الضخمة في منف في الأسرة الثالثة.

بالرجوع إلى راينزر فإنه المبنى العلوي للمقابر الملكية المبكرة يمكن أن يعاد ترميمه على هيئة مبنى مرتفع مدرج من الطوب، مشيد في طبقات مائلة مقامة حول نواة (شكل ٣٤). وبافتراض أن تلك كانت طريقة البناء المستخدمة فإن ذلك المبنى يعتبر الطراز السابق لبناء الهرم من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة.

العمارة العسكرية

تعرف ثلاث قلاع من العصر العتيق (شكل ٣٥). في هيراكونبوليس^(٣٢). على حافة الوادي. بقايا جدار مستطيل مزدوج من الطوب، أقيم بأركان تواجه الجهات الأصلية. الجدار الخارجي (سمك ٢,٣٤ متراً) كان أقل انخفاضاً من الجدار الداخلي (سمك ٤,٨٧ متراً) وربما يفصله عنه خندق (عرض ٢,٢٣ متراً). وبوابة المدخل في الركن الغربي تبرز من الواجهة الشمالية وربما كان يحميها برجان على كلا جانبي دهليز ضيق. وبالجدار الداخلي بوارز ودواخل، ومن الممكن جداً ترميم البرجين من تمثيلات واجهة القصر. وربما وصل الارتفاع الأصلي للجدار الداخلي عشرة أمتار. وربما كانت مثل هذه القلعة التي يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية، المقر الملكي^(٣٣)، أو تهدف للدفاع عن القرية المجاورة.

وتشبه القلعة الموجودة في أبيدوس^(٣٤) المعروفة باسم «شونة الزيب»، هذه القلعة، ولكن بحجم أكبر جداً (طولها ٤٤٠ قدماً)، وتخطيطها مستطيل الشكل، ذات جدران مزدوجة من الطوب لها أربعة مداخل، أكبرها في الركن الشمالي له بابان على كلا جانبي دهليز صغير متصل بالمبنى، ولكنها لم يقام ليواجه كل منها الآخر. يعتبر ذلك ابتكاراً لإخفاء ما بداخل الفناء، وبالجدار الداخلي بوارز ودواخل. ويوجد في الجنوب الشرقي من الفناء بناء تخطيطه مربع الشكل وبه باب مدخل في الجانب الشرقي في إحدى النهايات وباب وهمي في منتصفه. أمن الممكن أن يكون ذلك مكاناً حصيناً؟^(٣٥)

ويوجد سياج مجاور أصغر أسطحة ذات بوارز ودواخل، يعرف باسم «القلعة الوسطى» يضم مبنى مشيداً على تخطيط مربع الشكل، بسطحه الخارجي بوارز ودواخل ومدخل واحد، وثلاثة حجرات^(٣٦).

وتظهر الرسوم (شكل ٣٦)^(٣٧) والعلامات الهيروغليفية أسواراً بيضاوية الشكل أو مستطيلة ذات أبراج تخطيطها مستطيل أو نصف دائري أو حتى مثلث الشكل على الأسطح الخارجية. كأنه مثل هذا التنوع يشكل مظهراً معتاداً في القلاع يظهر أنه حتى في هذا التاريخ البعيد اكتشف الدفاع الاستراتيجي مثل هذا الابتكار ليتمكن من نشر صف من الجنود على قمة الجدران. ولم يتكرر التخطيط المثلث

الشكل للأبراج فيما بعد، بالرغم من وجود الأبراج المستطيلة والنصف دائرية في المباني الأثرية باستمرار.

ومثل على بطاقة (شكل ٣٦)(٣٨) من عصر بداية الأسرات أو الأسرة الأولى برج بالمسقط الرأسي، ذو جوانب مائلة، محدبة قليلاً وأعلاه شرفة وجدار مروحي. ولم يظهر له أي باب ويبدو أن الدخول إليه كان بواسطة سلم من الجبال معلق من الجانب الأسفل للشرفة. وقد أيد ذلك نموذج لبرج مشابه(٣٩) من الأسرة الأولى حيث يرتقى السلم المصنوع من الجبال إلى فتحة مربعة الشكل أسفل الشرفة. ربما كان الغرض من مثل هذا البرج المستقل استعماله كحصن بطول الحدود.

العمارة العسكرية: تقييم

بعيداً عن الجدار المحصن المشيد على تخطيط مربع الشكل وأركان مستديرة ذات أبراج مستطيلة الذي قابلناه في عصور ما قبل الأسرات، فقد ظهرت حصون بأشكال مختلفة على تخطيطات مستطيلة أو بيضاوية ذات أبراج مستطيلة ونصف دائرية أو مثلثة ويبدو أن التخطيط المستطيل قد ظهر تقريباً في نفس الوقت مثل التخطيط المستدير أو البيضاوي لأسوار المدن المشيدة في السهول(٤٠).

ومن المؤكد أن الأبراج المستقلة بغير مدخل في مستوى الأرض ولكنها ذات نافذة مرتفعة أقيمت بالقرب من القمة ويسهل الوصول إليها فقط بواسطة سلم من الجبال استخدمتها الحاميات الصغيرة كحصون لحماية الحدود والطرق المعزولة.

كما أنه من المحتمل أن بقايا حقيقية لثلاث قلاع بأحجام مختلفة وعلى تخطيط مستطيل الشكل وجدران مزدوجة من الطوب تحيط بفناء، قد أحاطت قصرًا ملكياً. ويوجد مبنى في قلعة أبيدوس يمكن تفسيره مثل ذلك. ومن الممكن ترميم المسقط الرأسي لبوابة المدخل من العناصر الظاهرة فيما يطلق عليه هيئة بوابة القصر.

إنجازات عمارة العصر العتيق

تنمو العمارة بدقة من مرحلة بدائية للبناء بالأغصان المضفورة المغطاة بالطين إلى علم على مستوى راق من الصناعة.

وبالنسبة للتخطيط، فقد أصبح التخطيط المستطيل الشكل الوحدة الوحيدة المستخدمة سواء جملة أو تفصيلاً. وتمتاز كذلك بالابتكارات للحماية في مدخل المباني السكنية وبالتالي المباني العسكرية والدينية. وباستخدام الشكل المستطيل يظهر التناسق بطول المحور الطولي، وهو أحد الخواص الهامة للعمارة المصرية.

كما أن تخطيط المدن الذي بدأ في منطقة الاستقرار في مرمدة، أصبح علماً كاملاً واتبعت القرى والمدن أسلوب رقعة الشطرنج بشارعين رئيسيين متقاطعين.

ومن الممكن أن تصنف المباني فعلاً إلى طرازين؛ في العمارة السكنية يوجد المنزل والقصر بالإضافة إلى ملحقاتهما، وفي العمارة الدينية نجد المعهد الطقسي المشيد بالطوب، الأكشاك الخاصة بعيد اليوبيل، وفي العمارة الجنائزية تتطور المقابر نحو طرز عدة للملوك والأفراد، وفي العمارة العسكرية شيدت الأسوار المحيطة المفتوحة والقلاع الضخمة على تخطيط مستطيل أو الأبراج المستقلة.

وتزداد المواد بالإضافة إلى الأغصان الخفيفة البدائية، بالقادم الجديد المهم ألا وهو الطوب الذي أبطل المواد الأخرى المستخدمة في المباني الرسمية الضخمة، مثل القصور والمعابد والمقابر.

وبقى تراث العمارة المبكرة ونقل إلى الطوب أو الخشب. ربما كانت إحدى الحالات الأكثر وضوحاً هي حالة حجز الحيوان في الكوخ الخاص بأنوبيس التي تطورت إلى عقد غير معتاد من الخشب ثم من الطوب وفيما بعد من الحجر. مثال

ذلك أيضاً حالة هيئة واجهة القصر التي كان نموذجها الأصلي من الخشب.
وفي مجال الزخرفة يستعمل عنصر مفضل كقمة تقليدية لجميع الواجهات وهو
ما يطلق عليه الإفريز «الكورنيش المصري»، وهو إضافة طيبة لافريز الخكر، المنقول
من الواجهات المقوسة المصنوعة من الأغصان المصفورة من عصر ما قبل الأسرات.

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

الوجهة

العمارة في الدولة القديمة العمارة المنزلية «السكنية»

تختلف المواد المتاحة لدراسة المسكن في الدولة القديمة في قيمتها اختلافاً كبيراً. ففي الأسرة الثانية تعطى مخلفات المساكن في هيراكونبوليس وسقارة شواهد محددة. وللحصول على معلومات عامة أكثر، فإن قليلاً من النصوص الموجزة المعاصرة تعطينا وصفاً للمساكن بلسان أصحابها وتتعلق النصوص المصرية القديمة بهذا الموضوع. كما أن المجلس المحلي الذي خطط المساكن بالقرب من مقبرة خنت كاوس في الجيزة قد أمدنا بمعلومات أكثر في الأسرة الرابعة. ولم يستمر الحال حتى نهاية عصر الانتقال بين الأسرتين التاسعة والعاشر، أن أصبحت المواد متاحة مرة أخرى وذلك بالعثور على المجموعة الثرية من النماذج الطينية المسماة «مساكن الروح» الموضوعة فوق المدافن كأماكن لإقامة الأرواح.

النصوص:

اشتملت حوليات ملوك الدولة القديمة، المسجلة على حجر بالرمو، في الأسرة الثالثة «إنشاء خمسة وثلاثين مسكناً»^(٤١)، التي يمكن أن تشير إلى مشروع للمجلس المحلي الذي خطط المساكن. وقد سجل في السنة العاشرة - الشهر الرابع أنه قد شُيِّدت بوابتان في القصر أحدهما جنوبية والأخرى شمالية وأن الأبواب صنعت من خشب الأرز. «وقد أهدى متن^(٤٢) الذي عاش في أثناء حكم سنفر، منزلاً طوله مائتي ذراع وعرضه مائتي ذراع، مبنياً ومجهزاً بجميع مشتملاته من أثاث، كما غرست فيه أشجار جميلة حفرت فيه بحيرة كبيرة جداً، وزرعت فيه أشجار التين والكروم». حتى ذلك الوقت كان التخطيط المثالي للمسكن المصري قد تكون.

واعتبر البستان الكبير والبحيرة دائماً أجزاءً رئيسية للمنزل. وفيما بعد سوف يتفاخر حرخوف^(٤٣)، في الأسرة السادسة كذلك: «شيدت منزلاً، ووضعت الأبواب، وحفرت بحيرة وغرست أشجاراً». كما تمكنا من جمع معلومات قليلة من عقد قانوني لبيع منزل يخص كيايو (الأسرة الرابعة)، وفيما عدا ذلك كان الباقي قليل جداً^(٤٤).

مظاهر مكتوبة:

تمثل النقوش الغائرة في مقابر الدولة القديمة المتأخرة مناظر للمباني الملحقة بالمساكن الكبيرة مثل شوان الغلال المزودة بأروقة ذات عمد، وأماكن للإدارة يمكن أن يستنتج منها أن المساكن نفسها قد زودت بها.

بعيداً عن العلامات التي عرفت فعلاً من قبل، فإن بعض النقوش المصرية القديمة تظهر أشكالاً متطورة.

ولتخطيط الفناء أبراج مستطيلة الشكل أو مستديرة على السطح الخارجي لجدرانه مثل الجدران الخاصة بالأسوار المحصنة (شكل ٣٧ - ١). وفي شكل مختلف آخر أحيط السطح الخارجي بزخرفة على شكل إفريز من علامات الخكر لكي يمكن إعادة بنائها على هيئة إكليل على قمة الجدران، بنفس طريقة جذوع الشجر أو حزم الأقراص الطينية المجففة المستخدمة في الواحات أو في عمارة الريف الطينية هذه الأيام.

ويظهر نفس الفناء^(٤٥) في ركنه الداخلي، سواء كان مفتوحاً (شكل ٣٧ - ٢) أو مغلقاً (شكل ٣٧ - ٣)، مسقطاً لبرج القصر. وفي بعض الأمثلة، يغلق نفس الركن على سياج مربع ذي خط منحرف يمكن أن يمثل البناء المشابه في التخطيط. ويجب إعادة بناء برج القصر في الركن الأقصى للفناء، أما فوق واجهة المدخل أو على الجانب المقابل وجدار السور أبراج على السطح الخارجي وأحياناً على السطح الداخلي أو يعلو قمته صف من عناصر الخكر.

ومسقط برج القصر المربع الجوانب (شكل ٣٧ - ٤)^(٤٦) له الآن جوانب مائلة، وإفريز من علامات الخكر فوق القمة التي تتخذ أحياناً هيئة الشرفات وشرائط أفقية عند القاعدة.

وتظهر إحدى العلامات^(٤٧) مسقطاً للمأوى مشيداً بمواد خفيفة منحني الشكل لعقد الشكل منحني أو قبو على دعامتين جانبيتين أو قواطع. ويقام عمود مائل أحياناً في الوسط.

والسقيفة^(٤٨) ذات العقد المسطح أو القبو (شكل ٣٧ - ٥) مأخوذة من المأوى البدائي وتعتمد على عمود خشبي أو أسطون في الوسط وعلى جدارين جانبيين من الحزم أو السيقان، وتظهر الأربطة عند زوايا الواجهة. من الممكن أن يكون مثل هذا البناء المشيد أساساً من البوص قد نقل فيما بعد إلى الخشب كما هو واضح في قمرة نموذج قارب (المتحف المصري)^(٤٩). كما نقلت إلى الواجهات الحجرية في مجموعة زوسر في سقارة (الأسرة الثالثة)، وفيما بعد في مقصورة حاتحور في الدير البحري. وقد أطلق عليها خيمة، صارت صالة الاجتماعات المخصصة للوزير في الدولة الحديثة.

وتمثل إحدى العلامات المحاولة المبكرة في العمارة المشيدة بعوارض أفقية لمسقط رأسي لإحدى صالات الأعمدة أو إحدى السقائف ذات عمودين من الطراز السابق للدوري ذات أعمدة مسلوبة أحياناً تحمل عتباً (شكل ٣٧ - ٦)^(٥٠). وكان العمود ذو الأخادير الرأسية من مواد خفيفة أساساً، ومن الممكن أنه نقل إلى الخشب والحجر. وقد نقل مثل هذا البناء المشيد أساساً من الأغصان المصفورة الملتصقة بالطين كما يظهر في مساكن الأسرات من التاسعة إلى الحادية عشرة، فيما بعد إلى المقابر المنحوتة في الصخر (الدولة الوسطى).

واتخذت صوامع الغلال (شكل ٣٧ - ٧)^(٥١) التي عرفت في عصر ما قبل الأسرات شكل كوخ مشيد من الأغصان المصفورة، ذو تخطيط دائري، ومغطى بقبة. ويسمح باب صغير عند القاع باندفاع الحبوب. وبالمثل كانت مخازن الغلال المشيدة أحياناً في صفوف، مثلما صورت في مناظر من مقابر الدولة القديمة. وقد شيدت بالتأكيد من الطمي والطوب كذلك.

ووصفت العلامة التي تمثل «الحریم» بأنها كوخ بجوانب رأسية ومدخل ذو عقد. وكان من المعتقد أن تلك الأكواخ كانت مشيدة أصلاً كمباني ملحقة بالقصور الملكية لتضم نساء البلاط (شكل ٣٧ - ٨)^(٥٢).

الآثار:

في داخل الركن الشمالي الشرقي من جدار المدينة الرئيسي في هيراكونبوليس عثر على أساسات مساكن ترجع إلى عصر الأسرة الثالثة (شكل ٣٨) (٥٣). ويبدو أن بعض المساكن الصغيرة من الطوب قد شيدت في صفوف متتالية بطول شوارع ضيقة (عرض متر واحد). والمنزل مشيد على تخطيط مربع الشكل ويتكون من فناء وحجرة بنفس العرض ولكنها أعمق نوعاً ما. واستخدم الحجر في حالة واحدة، في الأساسات وعتب باب.

في سقارة^(٥٤)، في داخل مجموعة زوسر، يوجد منزل صغير من الأسرة الثالثة (٥٤، ٥٠ مترًا × ٤ أمتار: شكل ٣٩) له مدخل في نهاية الواجهة الشمالية الضيقة - يؤدي إلى صالة المدخل وبها غرف جانبية، وصفت بأنها غرفة البواب. ومن الصالة يفتح أحد الأبواب على صالة ثانية وآخر على غرفة معيشة كبيرة.

كما أمكن التعرف في داخل نفس مجموعة هرم زوسر على مبنى يمثل الجوسق الملكي (شكل ٣٩). وقد أدخلت بعض التعديلات في التخطيط نظراً لانتقال بعض العناصر من الطين إلى الحجر. وبالرغم من أن التخطيط المستطيل كان أكثر اتقاناً، فإنه يظهر تشابهاً دقيقاً لأحد المساكن المجاورة المشيدة بالطوب. وينقسم المستطيل الطويل إلى شريطين طويلين، يتكون أحدهما من الجزء العام وهو عبارة عن دهليز وصالة مربعة وغرفة معيشة، بينما يختص الآخر بأجزاء المعيشة وهي غرفة البواب المفتوحة على الدهليز وغرفتين وفي نهاية المنزل تقريباً غرفة النوم. واستعملت الأعمدة في كل من الدهليز والصالة. ويشمل مثل هذا التخطيط العناصر النموذجية للمسكن المصري، مثلما تحددت ملاحظته في فيلات الدولة الحديثة في العمارة.

وتؤرخ من الأسرة الرابعة سلسلة من المساكن ذات التخطيط المتشابه في صف واحد محدد بشارعين، بالقرب من مصطبة الملكة خنت كاوس في الجيزة (شكل ٤٠) (٥٥). ويعتبر ذلك أقدم مشروع معروف لتخطيط مدينة لاسكان كهنة الجيزة. وتخطيط الوحدة على هيئة مستطيل (شكل ٤١) يقترب من الشكل المربع بشكل غير متناسق، بها مجموعة من الحجرات الطويلة الضيقة، بعضها على هيئة حرف ولها مدخلان، أحدهما رئيسي في الجنوب على الطريق المقدس، والآخر ثانوي للاستعمال

اليومي على الشارع الشمالي. وبالرغم من وجود ثلاثة نماذج للمساكن فإن العناصر الأساسية متشابهة: من المدخل الرئيسي خبيثة، وصالة أولى يخفيها جدار ساتر، ثم صالة ثانية أو غرفة استقبال. ويبدو أن العنصر الأوسط كان فناء أعلى الجانب الأقصى تطل عليه غرفة خاصة وهي عبارة عن غرفتي نوم متصلتين، ومرحاض أو حمام ثم مخزن^(٥٦). ويبدو أن السقف كان على هيئة عقود (شكل ٤١). ويكسو الجدران المشيدة من الطوب ملاط من الرمال.

كما استخدمت عقود ضخمة من الطوب الى الغرب من هرم خفرع في الجيزة، مثلما ذكر بترى^(٥٧) وهي عبارة عن ثكنات لإيواء حوالي أربعة آلاف رجل تم استخدامهم بالتناوب في بناء هرم خوفو. ذكر آخرون أنها كانت عبارة عن مخازن فقط (شكل ٤٢). وكانت الجدران مشيدة من كتل من الحجر الجيري الخشن مع ملاط من الطمي والجبس، بينما تفتح الأبواب في واجهة حجرية محفورة باستمرار.

نماذج:

أكمل الاختلاف في الرسوم المعمارية التي تمثل مساكن الدولة القديمة بمجموعة غنية من النماذج الطينية التي يرجع تاريخها بين الأسرات السادسة والحادية عشرة. ووضعت تلك النماذج المعروفة بـ«مساكن الروح» (شكل ٤٣) في المباني العلوية للمقابر لكي تساعد الأرواح على تناول القرابين الجنائزية الموضوعة أمامها. وهي تزودنا بمعلومات قيمة، حيث تم صنعها بدقة متناهية وهي تبين تفاصيل العناصر المعمارية مثل الأبواب أو الشبايك، والأحواض والسكان، والناس في أوقات راحتهم أو أثناء عملهم^(٥٨) ومقارنة الملامح وتفاصيل العمل الواضحة في النماذج بالعناصر الموجودة فعلاً في المساكن قد تثبت أن النماذج واقعية حقاً لدرجة أنها تعتبر مصدراً استثنائياً مفيداً للمعلومات. وقد وضحت نماذج مختلفة من المساكن، يرجع تاريخ أبسطها بعد دراسة الفخار الذي تحويه إلى الأسرة السادسة.

الطراز الأول:

عبارة عن تخطيط مستطيل لسياح له باب في وسط أحد الجوانب الطويلة

وسقيفه على عمودين بطول الجانب المقابل للفناء. وهو نفسه المسكن البدائي، المصور في الكتابة الهيروغليفية بالعلامة «بر» وتعني بيتاً.

الطراز الثاني:

وهو طراز آخر مقتبس مباشرة من هذا التركيب البسيط، وظهر سطح استعمل بوضوح كشرفة للتخزين أو المعيشة، حيث أنه محاط بسور منخفض ويسهل الوصول إليه أحياناً عن طريق سلم حلزوني في ركن الفناء والظلة التي يمكن تحويلها الى رواق تمتد على أكثر من عمودين. كما يوجد حوض مستطيل في الفناء تغطيه سقيفة مشيدة على قوائم وهذا المظهر تقابله في مساكن الأسرة الثانية عشرة في كاهون.

الطراز الثالث:

من الممكن أن تقام غرفة في منتصف الرواق، لها مدخل في المحور الرئيسي للمبنى، وتمتد هذه الغرفة أحياناً بطول ظهر الرواق، تجهز بفتحات للتهوية بالسطح (ملقف) وهو ابتكار تم تصويره فيما بعد في رسوم المساكن ونفذته العمارة الإسلامية في مصر.

الطراز الرابع:

وقد تم توضيح تخطيط المنزل الحقيقي ذي الغرف العديدة في نماذج متعددة. ورتبت الحجرات في صف واحد خلف الفناء، أو على ثلاثة جوانب من الصالة أو على كلا جانبي صالة ذات أسطون يتقدمها رواق.

وتظهر الشرفة اختلافاً في الأشكال تبعاً لترتيب فتحات التهوية وحتى الأروقة الثانوية والسقائف. والسياح الذي كان عادة سوراً منخفضاً، يمكن أن يتخذ شكل جدار مرتفع، مثل تلك الأسوار المبنية في الرسوم المصرية للمساكن. كما مثلت أيضاً منازل، من طابقين لها سقائف على أسطونين أمام الغرف وسلم جانبي يعلو بطول الجدار الجانبي.

وبالنسبة إلى العناصر المختلفة للبناء فمن الممكن أن نستمد أيضاً معلومات قيمة. ويبدو أن الجدران كانت من الطوب عليها أشرطة أفقية باللونين الأبيض

والأحمر. كما أن بعض الأمثلة المتأخرة، كان لها سور مروحي الشكل. وعادة ما تكون الأسقف مسطحة، وأحياناً ذات قبة أو قبة. وربما كان الجانب السفلي من القبو مضلعاً بالأسلوب المعروف في العصور الأسرية المبكرة، وثقل من السقف ذي العقد المصنوع من حزم السيقان المرنة. ويختلف انحناء القبو من العقد المسطح في الأدوار الأرضية إلى الأقبية البرميلية أو الأقبية الحلقية الأعلى. كما كان من الممكن أيضاً أن تحمل عوارض مربعة ثقل السقف.

وترتفع السلالم عادة إلى اليسار بطول الجدار الجانبي للفناء، في شكل حلزوني أو منحني أو تقام فوق أنصاف عقود، وهو طراز شائع الاستعمال إلى حد ما في المساكن الحقيقية في العمارة أو عصور تالية.

وتقام النوافذ عالية في الجدران الجانبية أو الخلفية، وهي في الطابق الأرضي صغيرة ذات قضبان رأسية، ولكنها أكبر في الطابق الأول وأحياناً تزينها حلية بارزة. ويعلو الأبواب كذلك أحياناً حلية على شكل إفريز مجوف.

والأساطين عبارة عن أجسام أسطوانية تعتمد على قواعد على هيئة القرص ولها أحياناً تيجان نخيلية يعلوها بلاطة مربعة أو بدون.

صوامع الغلال^(٥٩):

بالرغم من اتصالها الحيوي بالمنزل منذ عصر ما قبل الأسرات فإن صومعة الغلال من الدولة القديمة تعرف فقط من التمثيلات العديدة على جدران المصاطب وهي توجد في مناظر تصور المراحل النهائية في تخزين القمح.

ويمكن تمييز طرازين من صوامع الغلال (شكل ٤٤): (أ) المستودع أو البرج الأسطواني الذي تغطيه قبة ويشيد في صفوف، فوق منصة على كلا جانبيها فناء، وكانت تملأ من أعلى وتفرغ خلال باب مربع الشكل ينزلق عند القاع. وهي تذكرنا بالأمثلة المبكرة الممثلة في نماذج الأسرة الأولى أو حتى بالأواني المرمية التي عثر عليها في الهرم المدرج (الأسرة الثالثة).

وأحياناً تغطي فتحة القمة سدادة مخروطية الشكل، ومن الممكن أن تشيد

بالأغصان المصفورة والطمى أو الطوب ويجب ألا ترتفع أكثر من قامة الرجل . (ب)
وهو شكل مختلف قليلاً عبارة عن برج مربع الشكل ذي أربعة أعمدة ركنية مغطى بقية
مسطحة أو سقف منحدر . ويفتح الباب بالقرب من القاع . تشيد متتابعة كذلك .
ويذكرنا مثل هذا الشكل بمنظر الكوخ البدائي هيئة المقصورة المصور في رسوم
العصر العتيق .

وبالقرب من نهاية الدولة القديمة (الأسرة السادسة) تمتد سقيفة فوق أساطين
بطول صفوف الصوامع، إما أمامها أو حتى أعلاها، وذلك لحمايتها من الريح
والشمس . وتجاور سقيقتين بسقف مسطح صفين من الصوامع في مثال واحد ويطلق
عليهما في النص المصاحب لهما: «قاعة المكيال الخاصة بالمخزن» .

ويبدو أن الخشب قد دخل في تشييد تلك الأبنية، على الأقل كدعامة الأعمدة
أو خشب السقف .

الستائر (شكل ٤٥) :

يبدو أن الحصر الذي استعمل لتغطية الجوانب في أكواخ عصر ما قبل
التاريخ الغائرة تحت سطح الأرض، قد تحول إلى طريقة متطورة لزخرفة الجدران .
فكانت المقابر المكسوة بجدران من الطوب وتغطي بالجبس وتلون بدافع الاتقان
تتخذ في القمة والقاع هيئة قضبان خشبية يربط حولها كميات ممتدة من الستائر
الرأسية ويلاحظ أن الحشوات الخشبية تظهر خلف التجاويف بينما تمثل الستائر
الملونة على الأعمدة المربعة البارزة، وهي حقيقة ليس لها فضل في نظرية ترميم
البناء كهيكل خشبي له ستائر . وغالباً ما توجد مثل هذه الزخرفة على لوحات
واجهة القصر والتواييت الحجرية . وعند القاع يمتد إفريز سفلي أصفر اللون، من
الممكن أن يكون الشكل المحور من الدعامة الخشبية الموضوعة أمام البناء عند قاعدة
الجدران المبنية بالطوب في العصر العتيق .

ومحاولة تحديد مكان استعمال مثل تلك الستائر بدقة، في ضوء معلوماتنا
الحالية، عمل عقيم . ويبدو من المحتمل جداً عندما نضع في الاعتبار عادة تغطية
الجدران الداخلية في عصر ما قبل التاريخ أن الستائر كانت ما تزال تغطي جدران

قصور الدولة القديمة والمساكن داخلياً وربما خارجياً كذلك. ولو كانت لوحة واجهة القصر تمثل بوابة القصر الخاصة بالاحتفالات فمن الممكن أن مثل هذا العنصر الهام للقصر كان في الحقيقة مزخرفاً بحصير ملون.

وعندما نقل الباب الوهمي في الخشب أو الحجر، كان من ملاحظه الأساسية عمود مقام أسفل عتب الباب. وكان ذلك في الحقيقة حصيراً ملفوفاً يمكن أن يجذب الى أسفل ليغلق الباب. وربما كان هذا النظام للغلق كافياً ضد الشمس، ولكنه كان جزئياً ضد الريح والتراب. وتبعاً لذلك كان يستعمل وقت النهار فقط للأبواب وربما للنوافذ.

وتظهر زخرفة الستائر مقدرة عالية في تصميم الرسم الهندسي الموضوع على مربع إما بشكل رقعة الشطرنج، أو على حافة في خطوط على شكل معين. ومنذ الأسرة الثالثة (مصطبة حسي رع) يبدو أن تلك الوحدات تتكرر بدون تغيير محسوس (مصطبة جاجا - أم - عنخ).

من عصر الأسرة الخامسة (شكل ٤٥). ويشير الرسم إلى احتمال أن النماذج السابقة الحقيقية كانت الحصير المجدول وربما النسيج كذلك. كما استعملت ألوان ثرية مكونة من الأبيض، والأصفر، والأزرق، والأحمر، والأسود.

واجهة القصر:

وغالباً ما تمثل الستائر على الواجهة كلها ذات تجويفات طولية أما على لوحات أو توابيت. هل من الممكن أنها كانت تصور المباني مزخرفة فعلاً من الخارج على جميع أوجهها بالستائر؟ أم أنها كانت فقط زخرفة بوابة القصر الخاصة بالاحتفالات التي كانت تنفذ بطريقة تقليدية بالألواح المجوفة نفسها؟ وليس ممكناً وضع إجابة كافية، كما أنه ليست لدينا حاجة في افتراض وجود بناء وكشك أو شرفة^(٦٠)، تتكون من إطار خشبي بستائر من الحصير أو النسيج مستخدمة كقواطع. ومثل هذا البناء غير عملي ولا تؤكد زخرفة حقيقية.

ويبدو من الممكن في البعض الآخر أن واجهة القصر تمثل عمارة مركبة من الطوب والهيكل الخشبية واستعملت تلك الستائر المنقوشة لتخفي التجرد الرديء

للجدران الحصية، في بعض الأماكن الظاهرة مثل بوابة الاحتفالات أو صالة الأعياد في القصر. وأخيراً يمكن أن ترفع تلك الستائر عند النظافة أو التخزين.

١٠٠٠
١٠٠٠
١٠٠٠
١٠٠٠

١٠٠٠
١٠٠٠
١٠٠٠
١٠٠٠

١٠٠٠
١٠٠٠
١٠٠٠
١٠٠٠

إنجازات العمارة السكنية

عند معاينة الساحة التي سبق أعدادها في العصر العتيق، فإننا نجد أن المهندسين المعماريين قد تغلبوا على المشاكل الرئيسية للاسكان.

ونظراً للشواهد الطفيفة الممكن الاستفادة منها في المساكن، والموضحة في الجوستق الملكي في سقارة، فإننا من الممكن أن نستنبط أسلوب التخطيط المبتكر في ذلك الوقت والذي يضم الملامح الأساسية التي ستكتمل في المنزل في عصر العمارة من الأسرة الثامنة عشرة، وهو المظهر المتطور كثيراً في خطوطه في مصر. وتلك الخطوط هي: صالة عريضة يعتمد سقفها على أسطونين وملحق بها غرفة للبواب وقاعة طويلة ذات أسطون واحد، تتصل بغرف جانبية وحجرة معيشة محاطة هي الأخرى بحجرات جانبية. أما الجزء الخاص جداً من المنزل والذي يتكون من حجرة أمامية وحجرة النوم يمكن التعرف عليه كذلك في نهاية تخطيط المبنى في كل من مشروعات^(٦١) الأسترين الثالثة والثامنة عشرة. اختيار قاعة عريضة تتبعها أخرى طويلة وتوزيع الحجرات حول كليهما لا يظهر ذوقاً رفيعاً جاء متفقاً مع الحل المفهوم لبرنامج الاسكان. وتكفل المودة بمجموعة من الحجرات المنفصلة تبلغ ذروتها في حجرة النوم.

ومنزل الطبقة المتوسطة وضحة طراز غير متناسق لمنازل مصممة على خط واحد للكهنة في الجيزة (الأسرة الرابعة). والمقدرة على التخطيط منخفضة بطريقة تلفت النظر لوجود العديد من الممرات وكذلك سمك الجدران. والسبب غير واضح في أن مثل هذا الطراز ذي التخطيط الكثير الإلتواء سوف يستخدم في البرامج السكنية حتى عصر متأخر (سنوسرت الثالث).

أما بخصوص إسكان الفلاحين فقد استعمل التخطيط المتناسق الذي يختلف

من الفناء البسيط ومأوى إلى مسكن الأسرة المتواضع المتقن . وتواجه المساكن الشمال دائماً. وتظهر الأقسام المتكررة الاحساس العملي لمواجهة الاحتياجات، مثل السقيفة لكي تكفل الظل البارد في الصيف المصري الطويل، كما استخدمت الشرفة منطقة للتخزين بها صوامع أو تحول إلى طابق أعلى، كثير الرياح في الأيام الحارة وفتحات التهوية (الملقف) المفتوحة في سقف حجرات الطابق الأرضي، لتجدد نسيم الشمال البارد، كما استخدم المكان الموجودة تحت السلم ليستر امرأة تجرش القمح .

ولما كان الطوب هو المادة السائدة فإن الأسطح كانت مقببة كما أحسن استخدام الطرز المختلفة من الحنيات لتناسب متطلبات المبنى، والعقود المسطحة في الطابق الأسفل حيث يمكننا أن نتحمل أكتاف العقد والعقود العليا فوقها. وتظهر تلك الاختلافات فطرة لتنوع تفاصيل البناء لتناسب كل الحالات^(٦٢).

والعناصر المعمارية مثل الأبواب والنوافذ والأعمدة مطابقة تماماً للعمارة السكنية المصرية. ويعلو الأبواب إفريز مجوف، وتوضع النوافذ المفتوحة عالية في الجدران أو لها قضبان متشابكة حلية بارزة. وللأساطين أجسام أسطوانية وتيجان نخيلية مثل الأعمدة الخشبية النمطية الخاصة بالمساكن المتأخرة. واتخذت السلالم أشكالاً مختلفة، وسيبقى السلم المعلق على أنصاف عقود مظهراً مميزاً للمساكن الصغيرة في مصر حتى العصر الروماني (هومبوليس الغرب).

والصوامع التي استمدت شكلها من نماذج سابقة في عصر ما قبل التاريخ أو اتخذها هيئة البرج المربع الجوانب من الأكواخ البدائية قد شيدت على هيئة مبان ملحقة بالأحياء السكنية. وستظل تلك المباني أشكالاً أساسية مستعملة. وتقام أحياناً سقيفة على أعمدة خشبية بشكل اللوتس أو النخيل لتمنح الظل للكتابة والعمال الذين يكيلون الحبوب.

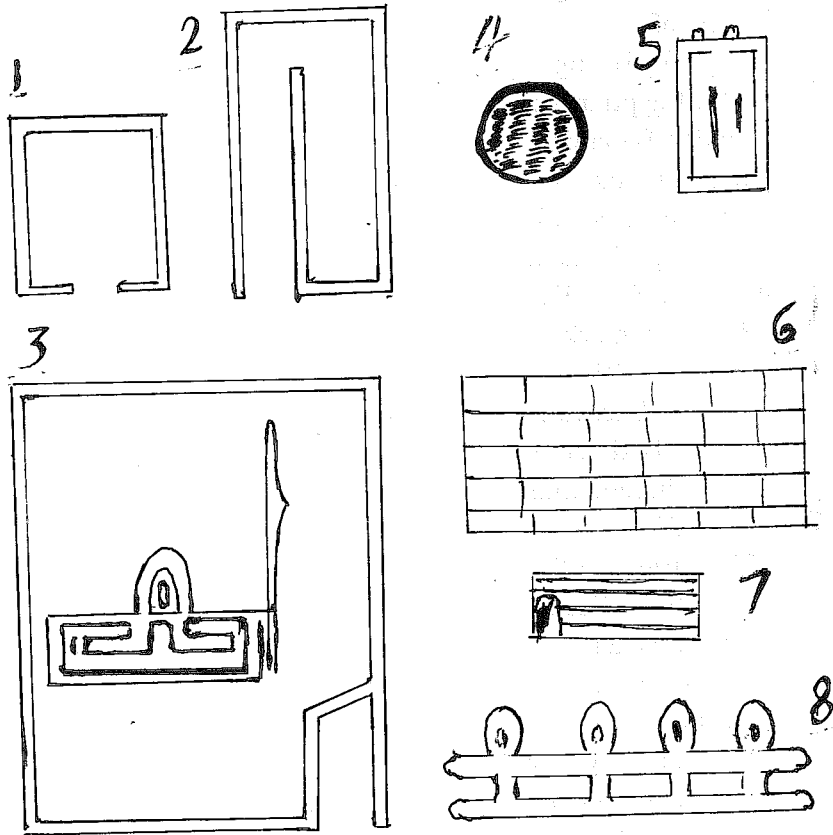
واحتفظت القصور والمساكن لبعض مناطق جدرانها الداخلية وربما الخارجية أيضاً تزيينها الستائر.

المراجع

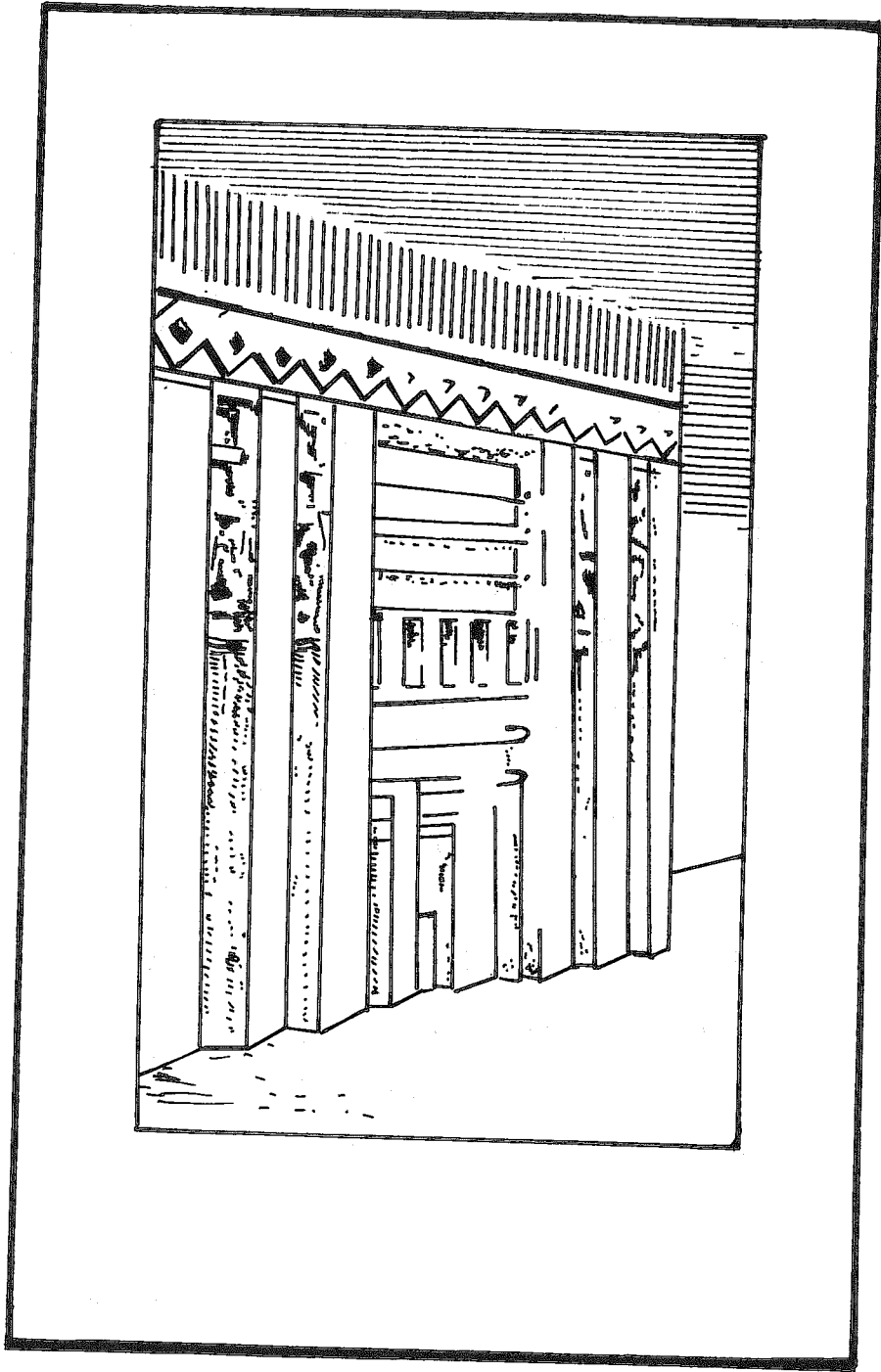
- 1) Alexander Badawy, Le dessin architectural, p. 41-65.
- 2) H. Ricke, Der Grundriss des Amarna-Wohnhauses, 1932 S.7.
- 3) F. Li. Griffith, A collection of Hierolyphs, fig. 143.
- 4) Mace head of Na'rmer, ch. J.E. Qubell, Hierakonpolis, I, pl.XXVI,B
- 5) W.EL. Petrie, Royal Tombs, I, pl. 16, 20. Alexander Badawy, Le dessin architectural fig. 37.
- 6) G. Reisner, Tomb Development, p. 243 F. J. Vandier, Manuel d' Archeologie Egyptienne, p. 898, fl. Alexander Badawy, op. cit, p. 67 fl. fig.9.
- 7) H. Frankfort, American Journal of Semitic Language and Literatures, XLVII (1941), p. 329-158. Also: Birth of Civilization, P. 103-105. Scharff, Frühkulturen Aegyptens und Mesopotamiens, der Alte Orient, Bd 4I, 1947. Das Grad als Wohnhaus in der egyotischen Frühzeit, 1947, S. 35-36.
- 8) W.FI. Petrie, Tarkhan, II, pi.XV.
- 9) H.W. Fairman, Townplanning in pharaonic Egypt, The Townplanning review, XX, No. I, 1949, p. 49.
- 10) W. FI, Petrie, Abydos II, pl. LI.
- 11) H. Ricke, Bemerkungen zur Aegyptischen Baukunst des Alten Reichs. I, 88, 275, 281.
- 12) J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne, I,P. 524; 525.
- 13) J. Vandier, op. cit.p. 950.
- 14) H. Ricke, Der Hohe Dand in Heliopolis, ZÄS. 71, 1935, S. 107-111.
- 15) Alexander Badawy, Le dessin architural chez les Ancients Egyptiens, 1948, p. 10-16.
- 16) S. Schott, Hoerolyphen, S.24. J. Vandier, op. cit., p. 604-605.
- 17) Alexander Badawy, op.cit., p. 16-17.
- 18) Ibid.

- 19) H. Ricke, *Bemerkungen zur Agyptischen Baukunst des Alten Reiches*, I, S. 29-31.
- 20) Alexander Badawy, *Le Dessin architectural chez les Ancients Egyptiens*, p. 24-25. fig. 34-36.
- 21) *Ibid.* P. 25-26, fig. 37.
- 22) *Ibid.* p. 47-49.
- 23) *Ibid.* 206.
- 24) *Ibid.* p. 52-53, fig. 52.
- 25) W. Emery, *Great tombs of the First Dynasty*, 1949, P. 12.
- 26) C. Reisner, *Tomb Development*, p. 5 fl.
- 27) *Ibid.* p. 7. 134 II. J. Vandier, *op.cit.*, p. 618 Fl.
- 28) C. Reisner. *Tomb Development* p. 273 fl. J. Vandier, *op, cit.* p. 690. fl.
- 29) A. Scharff. *Das Grab als Wohnhaus in der agyptischen Frühzeits*, 1947.
- 30) Theory propund by Ricke, cf. A. Scharff, *op. cit.*, S. 26, refute by charff.
- 31) H. Ricke, *Bemerkungen zur egyptischen Baukunst des Alten Reiches*, I, S. 58-59.
- 33) J.E. Quibell-Creen. *Hieragonpolis*, II, pl. LXXIV, p. 19 fl. J. Vandier, *op.cit.*, 526-527.
- 32) C. Reisner, *Tomb Development*, p. 154-155.
- 34) B. Smith, *Egyptian Architecture as Cultural Expression*,, 1938, p. 218.
- 35) E.R. Ayron-C. T. Currelly-A.G. Weigall, *Abydos III*, 1904, pl. VI. J. Vandier, *op.cit.* 945-946.
- 36) B. Smith, *op. cit.*, p. 40, 218. Ayrton-Currelly, *op. cit.*, pl. VII.
- 37) Ayrton-Currelly, *op.cit.*, pl. VIII. B. Smith, *op.cit.*, p. 40, 217-218.
- 38) Alexander Badawy, *op.cit.*, fig. 23,35, 38.
- 39) W. FL. Petrie, *Royal Tombs*, IIpl. 5. Alexander Badawy, *op. cit.*, p. 62-63.
- 40) L. Borchardt, *Altagyotische Festungen an der zweiten Nilsch-nelle*, 1923, Abb. 9.
- 41) *Ibid.* S. 29.
- 42) J.H. Breasted, *Ancient Records*, I. S 147, 148.

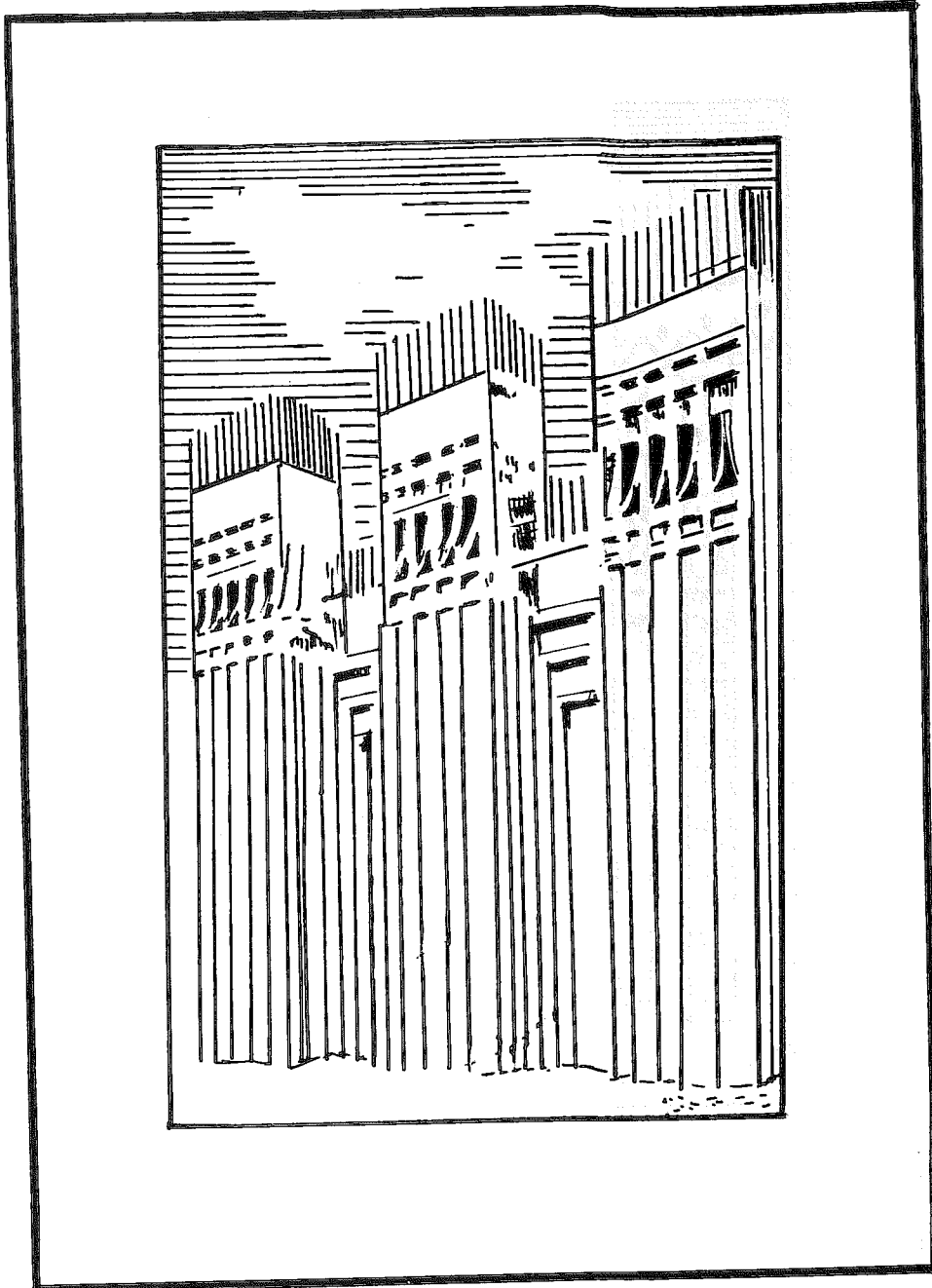
- 43) Ibid. I, s 173.
- 44) Ibid. I, 328.
- 45) J. Firenne, Histoire des Institutions et du Droit Privé dans l'Ancienne Egypte, La V éme dynastie, p. 293.
- 46) Alexander Badawy, Le Dessin architectural chez les Ancien Egyptiens, p. 43, fig. 44a.
- 47) Ibid., p. 44-45, fig. 45.
- 48) Ibid., p. 65.
- 49) Ibid., p. 51-51, fig. 51.
- 5) B. Smith, Egyptian Architecture as cultural Expression, pl. III, 2.
- 51) Alexander Badawy, op.cit., p. 53-54, fig. 53.
- 52) Ibid., p. 56, fig. 56.
- 53) Junker, Giza, S. VII, S. 124, Abb. 46; Giza XI, S. 127.
- 54) J. Garstang, Excavations at Hierakonpolis, at Wsna and in Nubia, A., S., VIII, p. 132-148.
- 55) H. Ricke, Bemerkungen zur Aegyptischen Baukunst des Alten Reichs, I, S. 93-94, Abb. 2.
- 56) S. Hassan, Excavation at Giza, IV, fig. 1, p. 35.
- 57) Alexander Badawy, La maison mitoyenne de plan uniforme dan l'Egypte pharaonique, Bulletin de la Faculté des Lettres, Fouad Univ., 1953.
- 58) W. Fl. Petrie, the Pyramids and Temples of Giza, 1883, p. 213.
- 59) W. Fl. Petrie, Gizeh and Rifeh, 1907, p. 14-20, pl. I, XIV-XXII.
- 60) Alexander Badawy, Le dessin architectural, p. 116-121.
- 61) J. Capart, Etudes et Histoire, p. 74. 74 B. Smith, Egyptian Architecture, p. 41, H. Ricke accepts the possibility of lining the whole external wall surfaces in brick building with mats, ci. H. Ricke, Bemerkungen zur Aegyptischen Baukunst des Alten Reichs, I, S. 90-91, 26, 34.
- 62) H. Ricke, op. cit., L. 98., Abb. 26.
- 63) W. Fl. Petrie, Egyptian Architecture, 1938, 79.



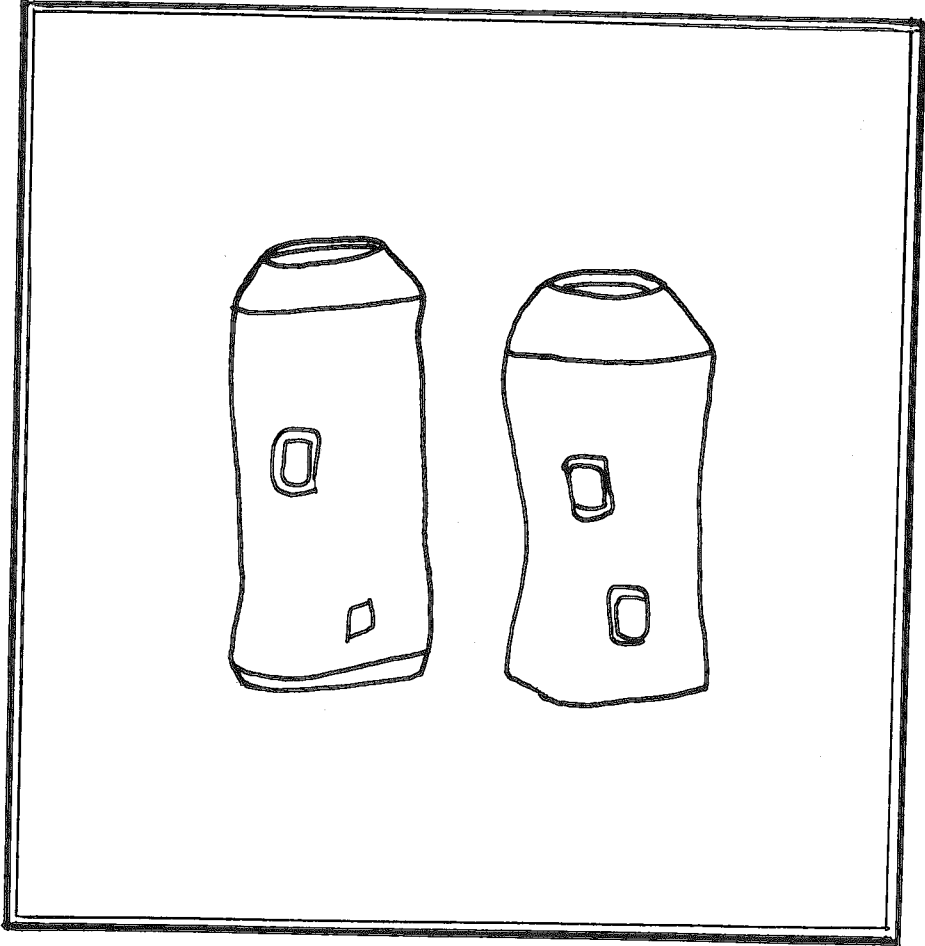
شکل ۱۵



شکل ۱۷

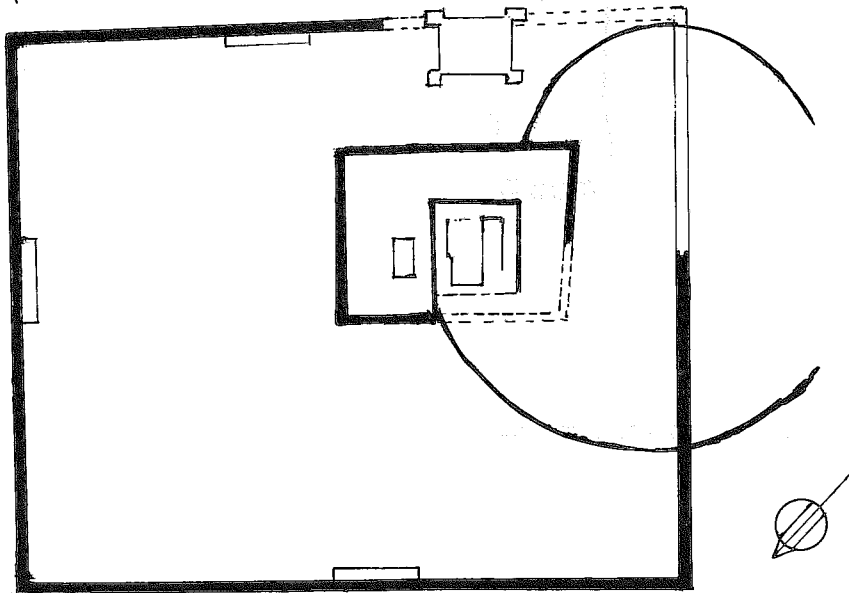
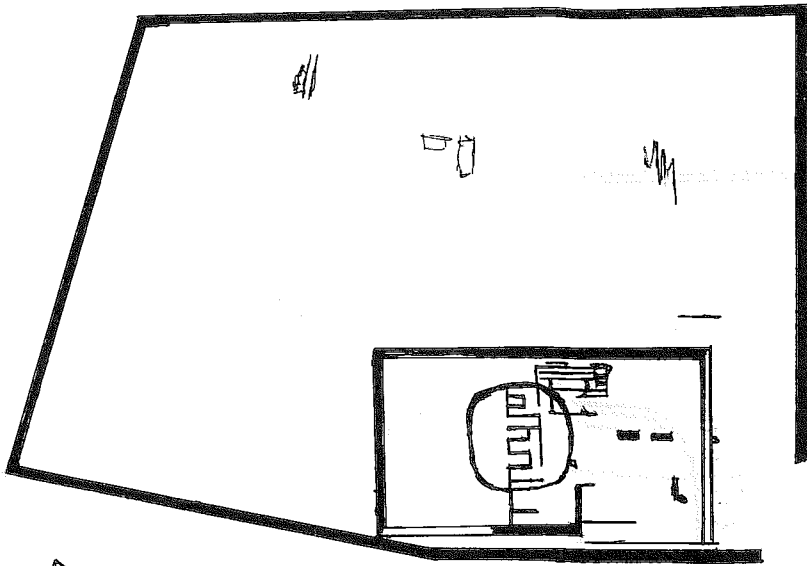


شکل ۱۸

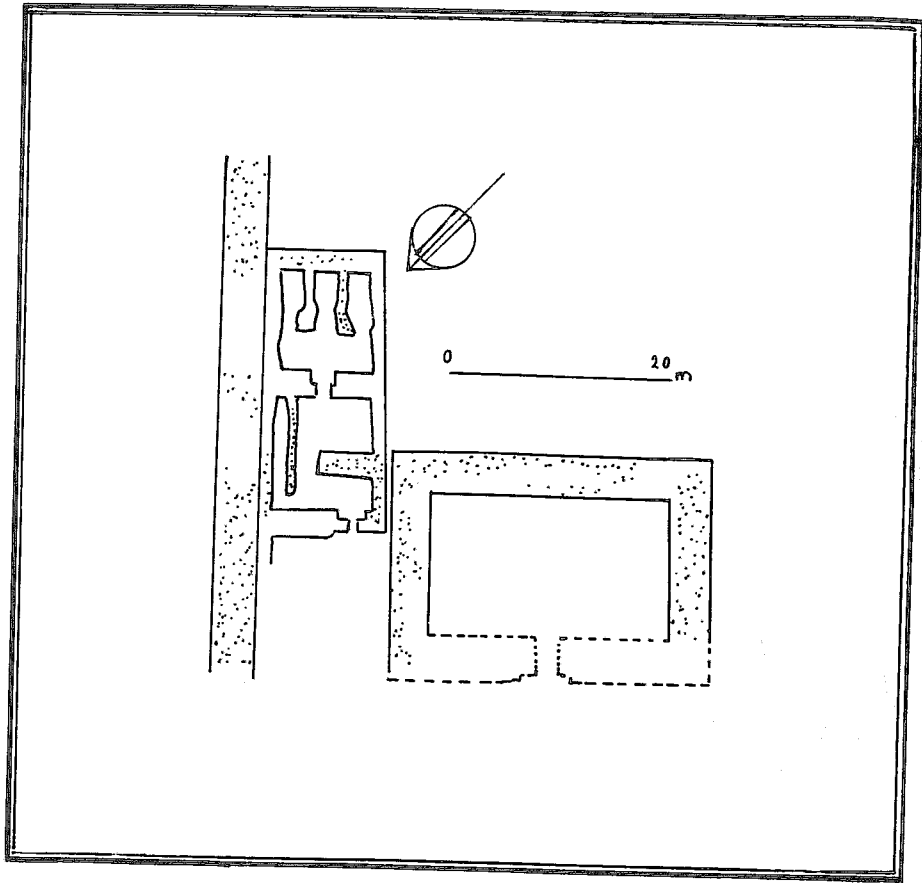


شکل ۱۹

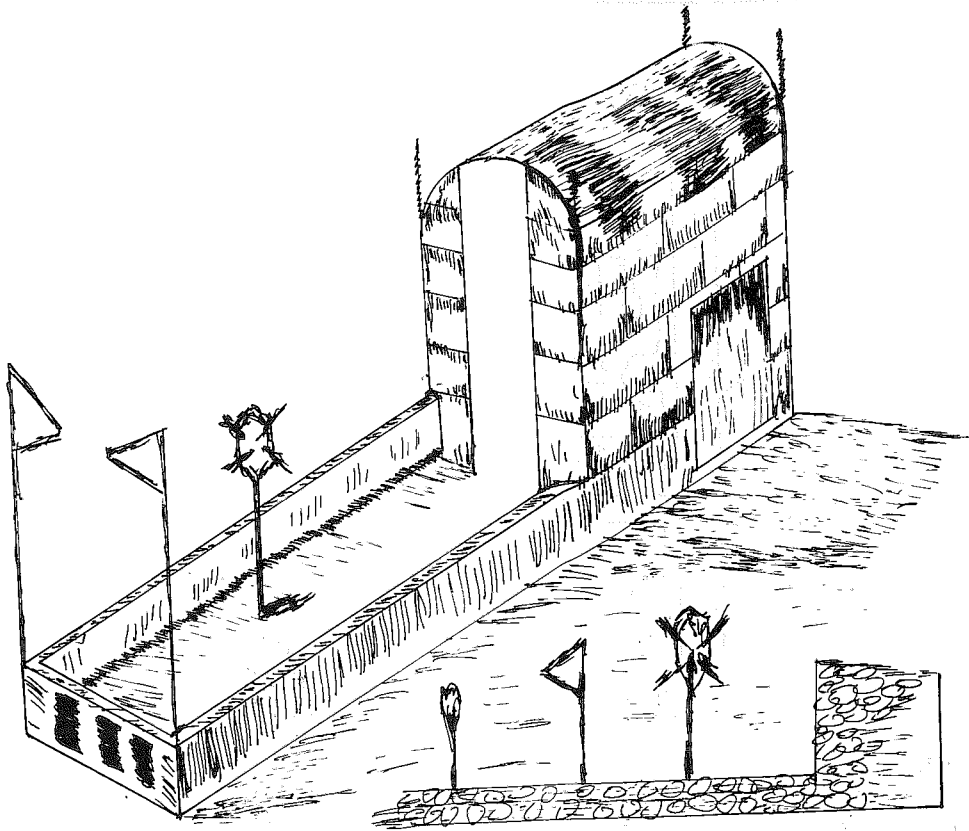
- ۲۸۳ -



شکل ۲۰

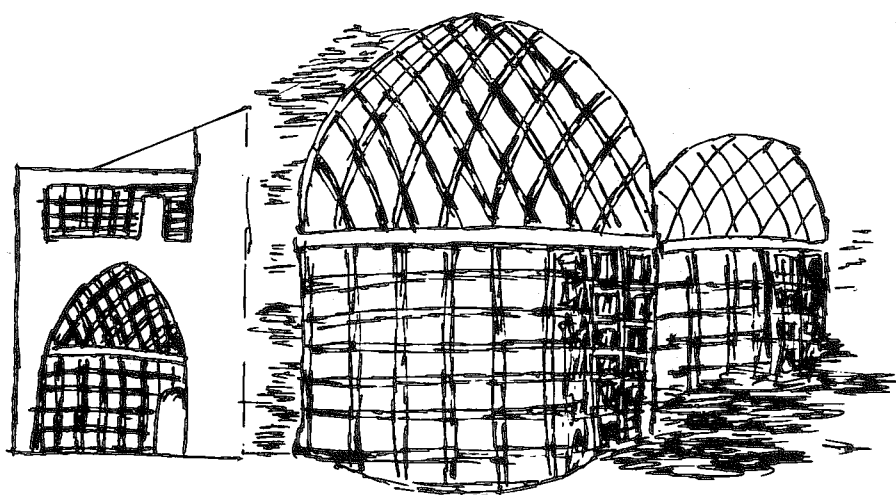


شکل ۲۱



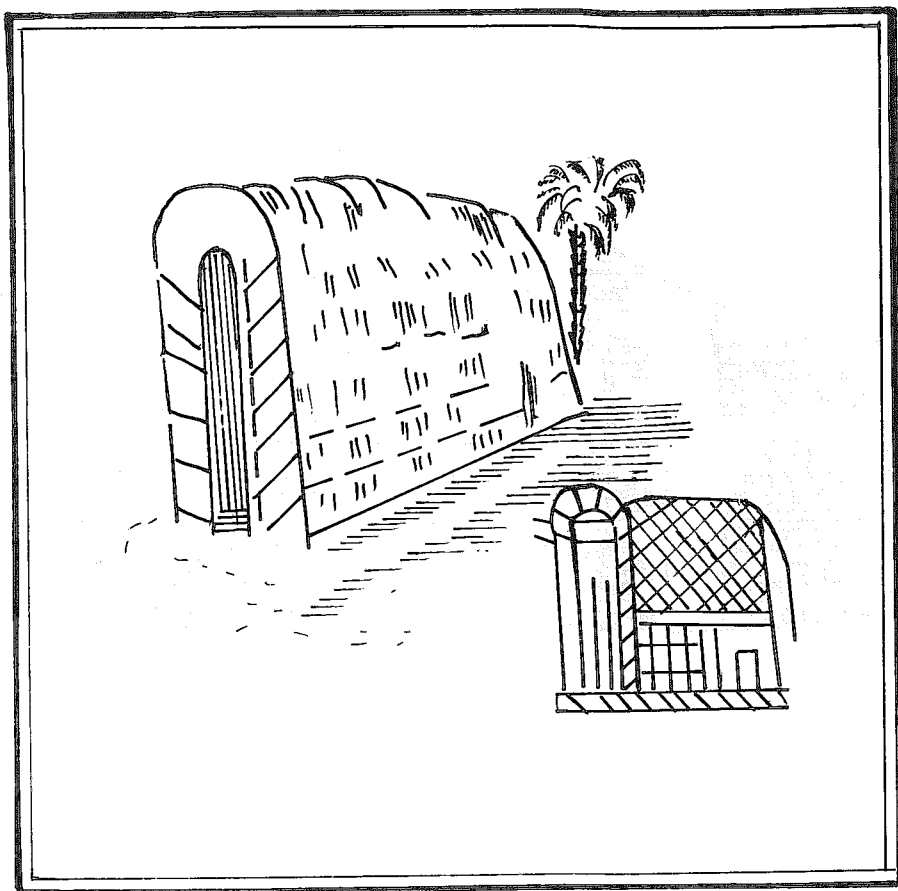
شکل ۲۲

- ۲۸۶ -



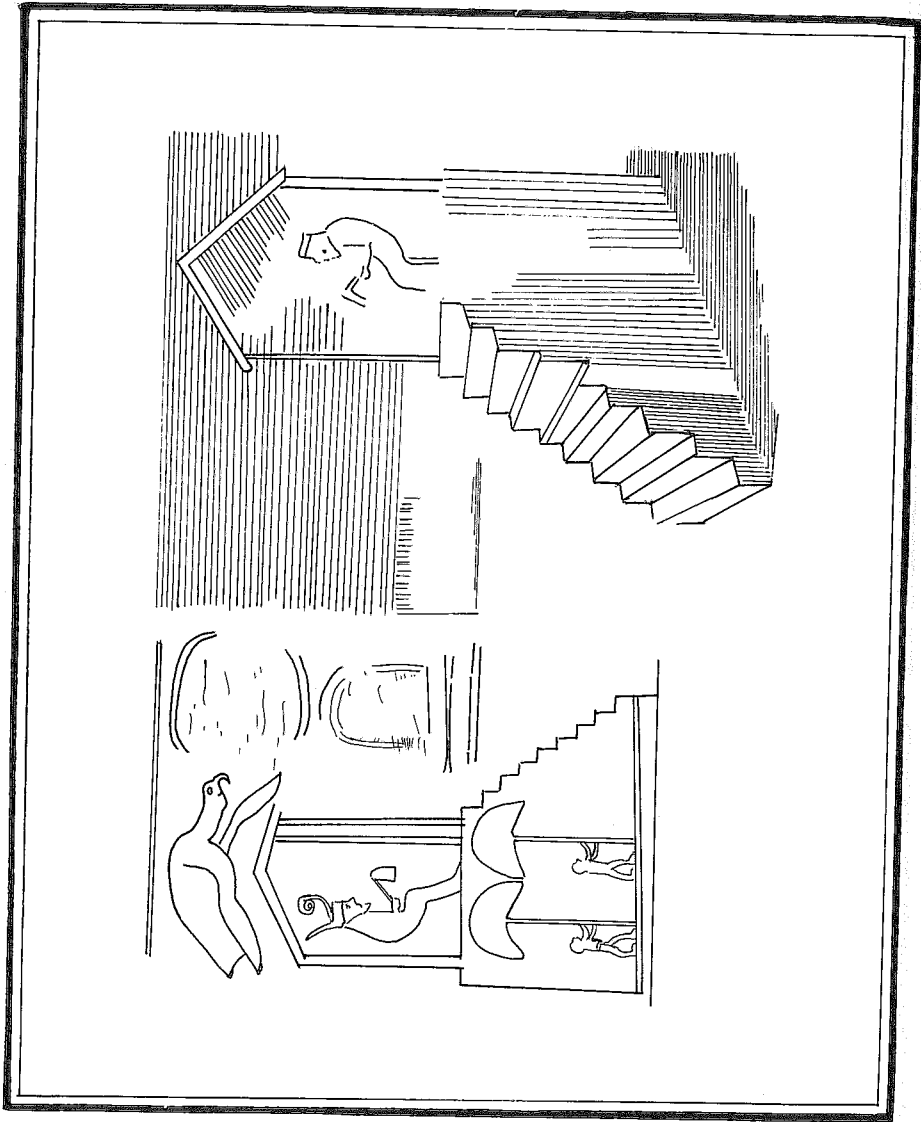
شکل ۲۳

- ۲۸۷ -

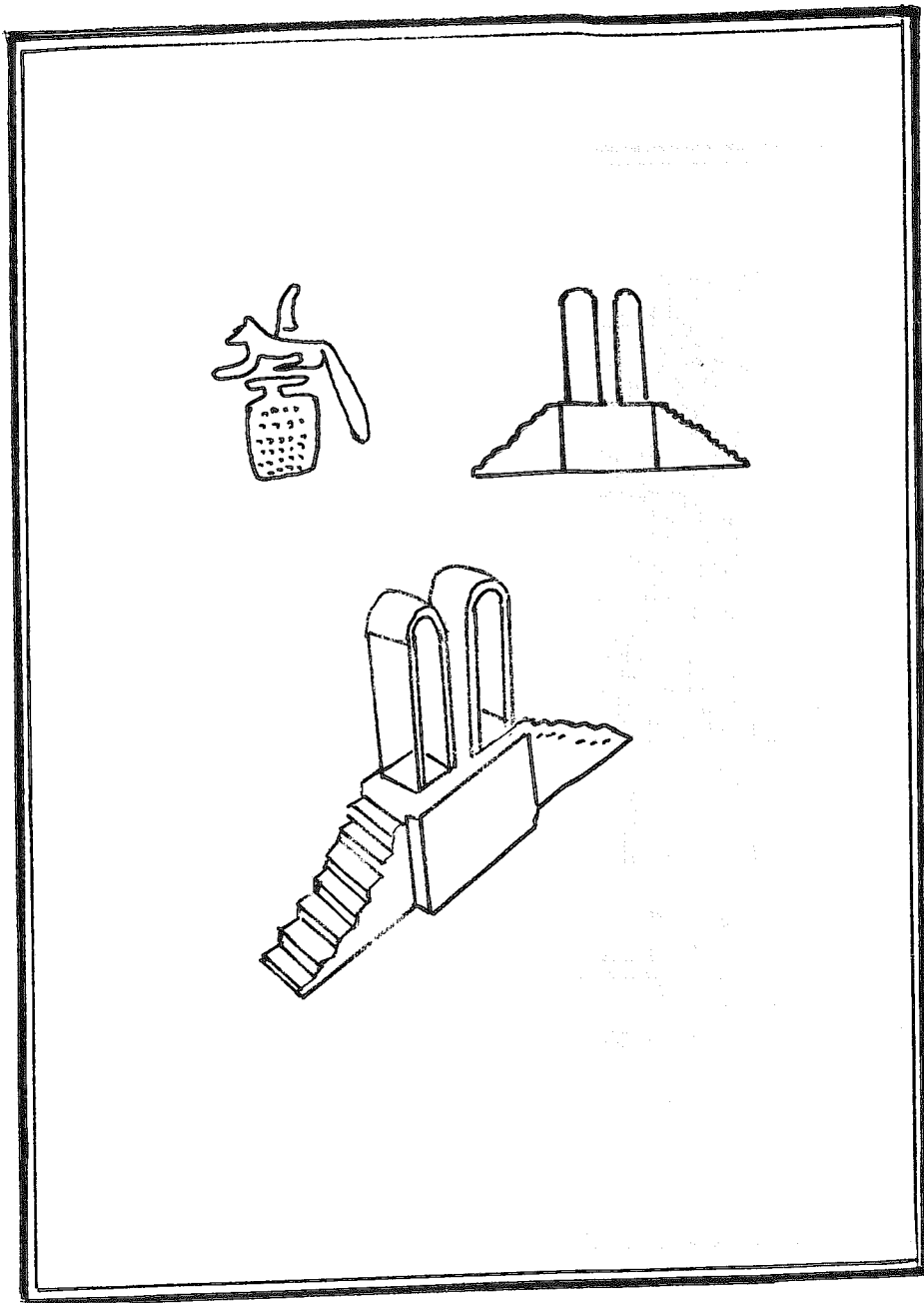


شکل ۲۴

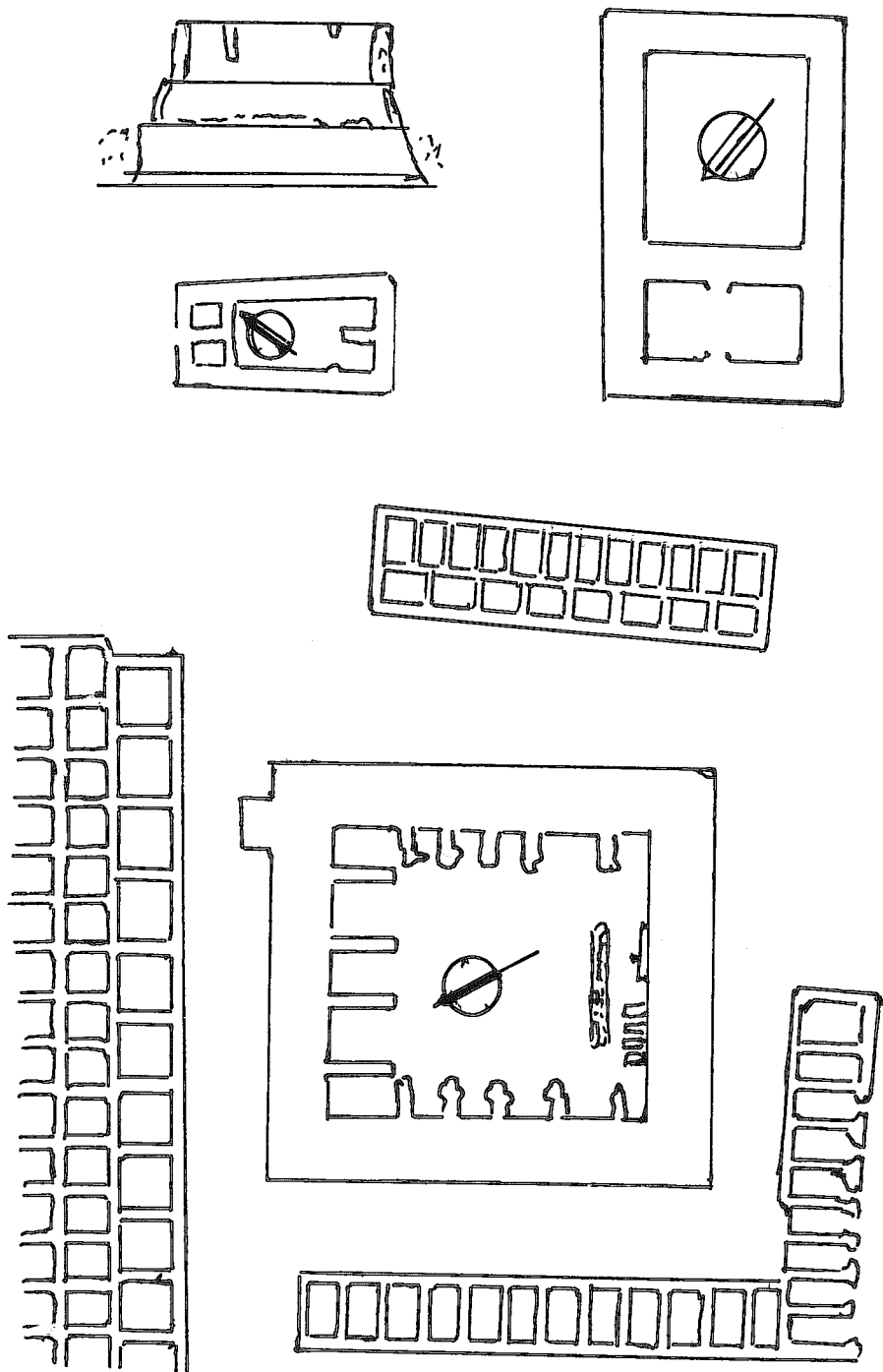
- ۲۸۸ -



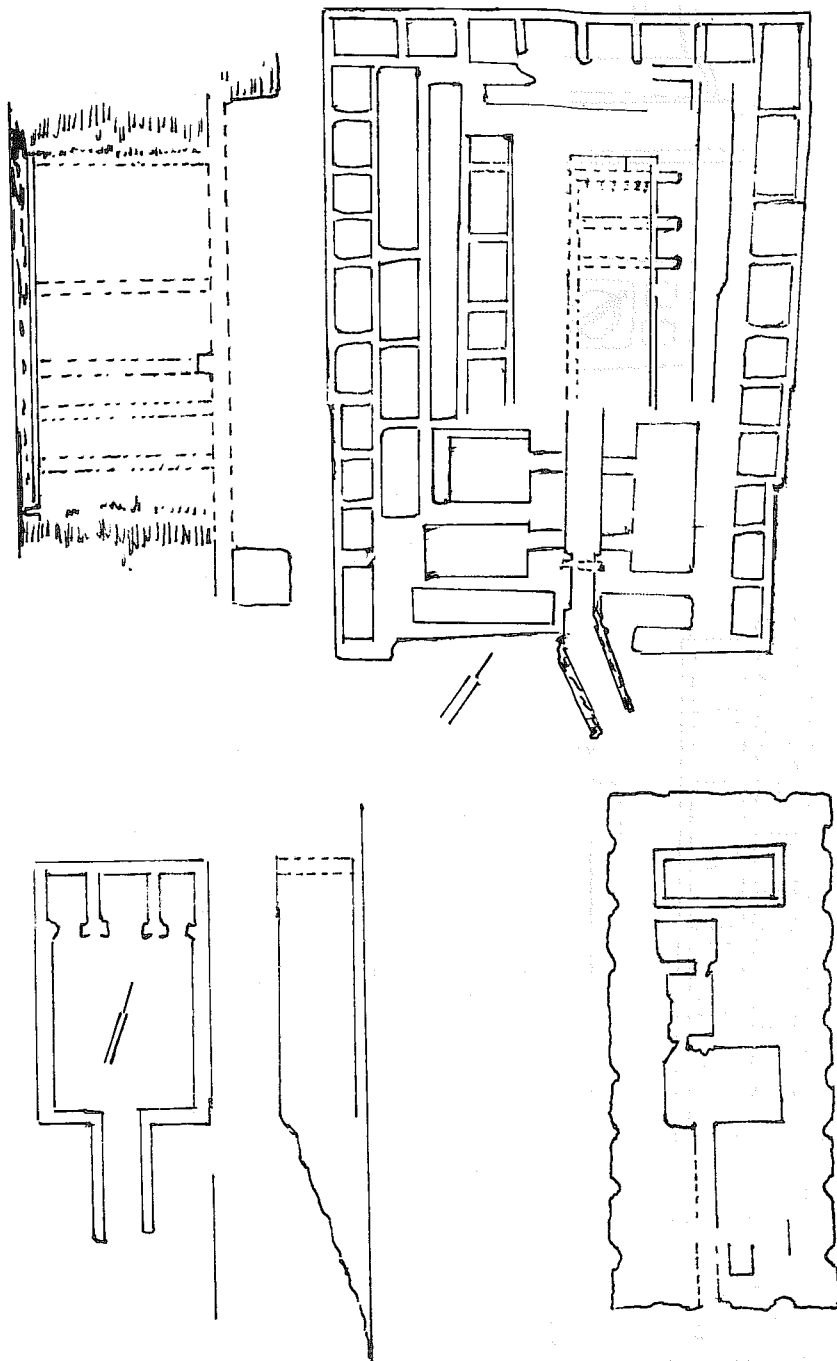
شکل ۲۵



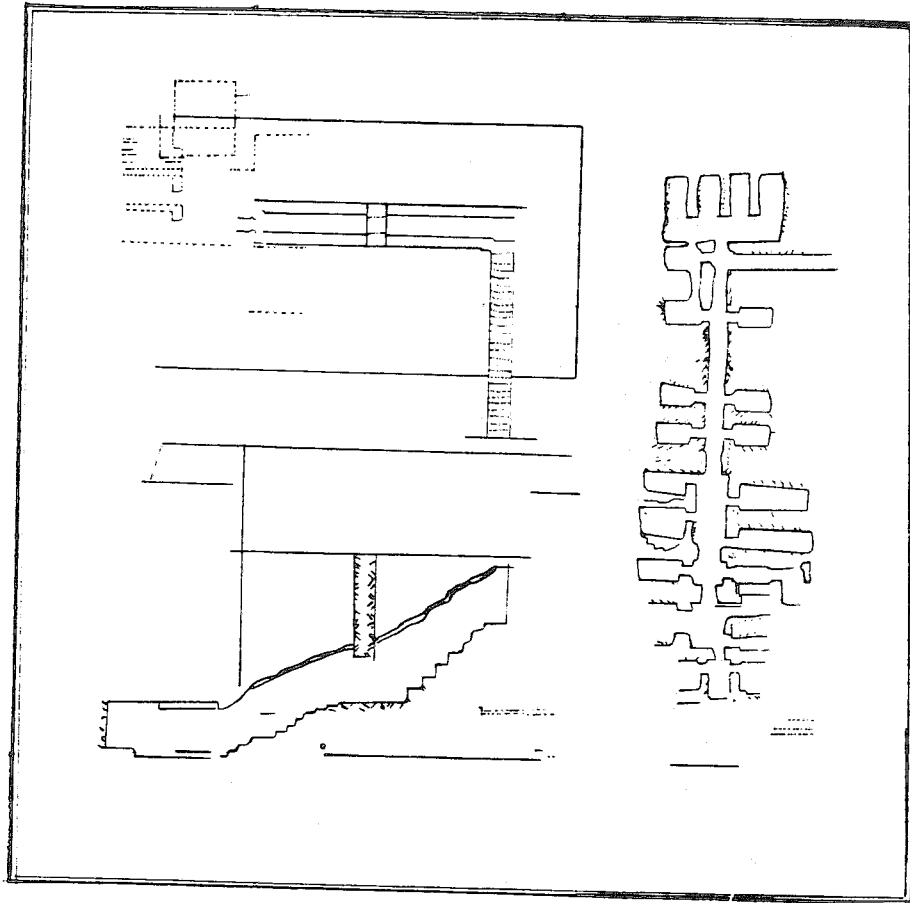
شکل ۲۶



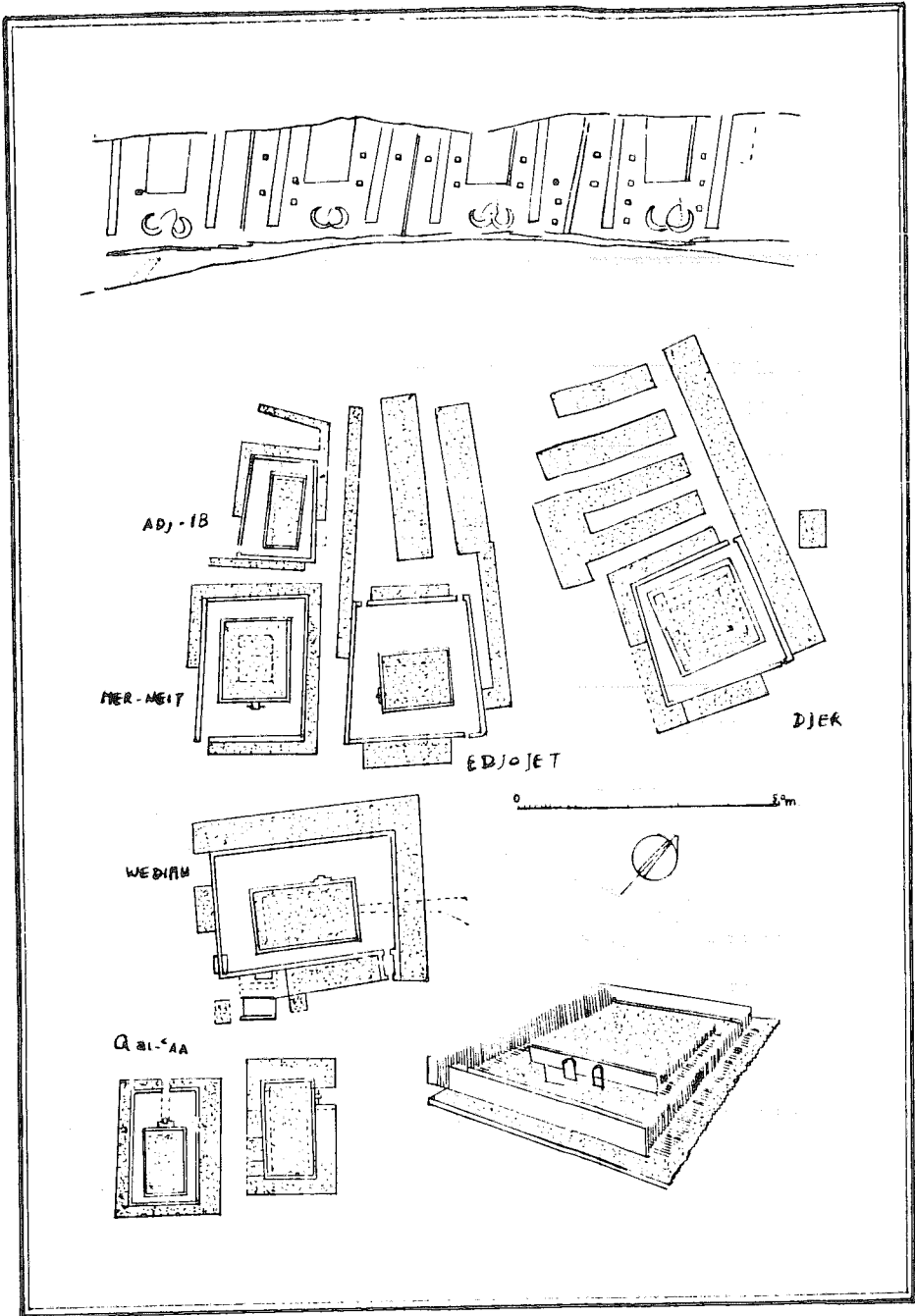
شکل ۲۷



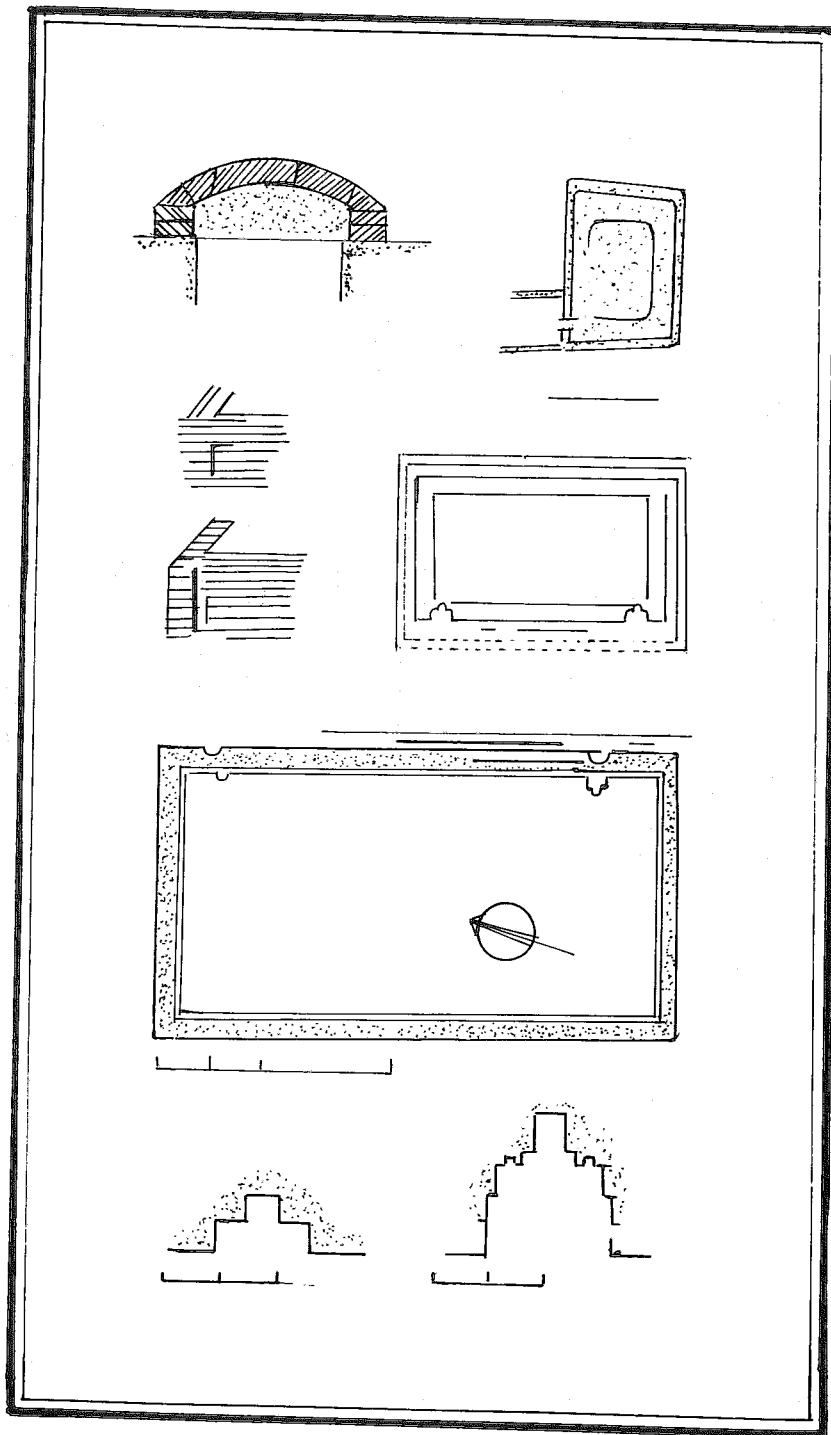
شکل ۲۸



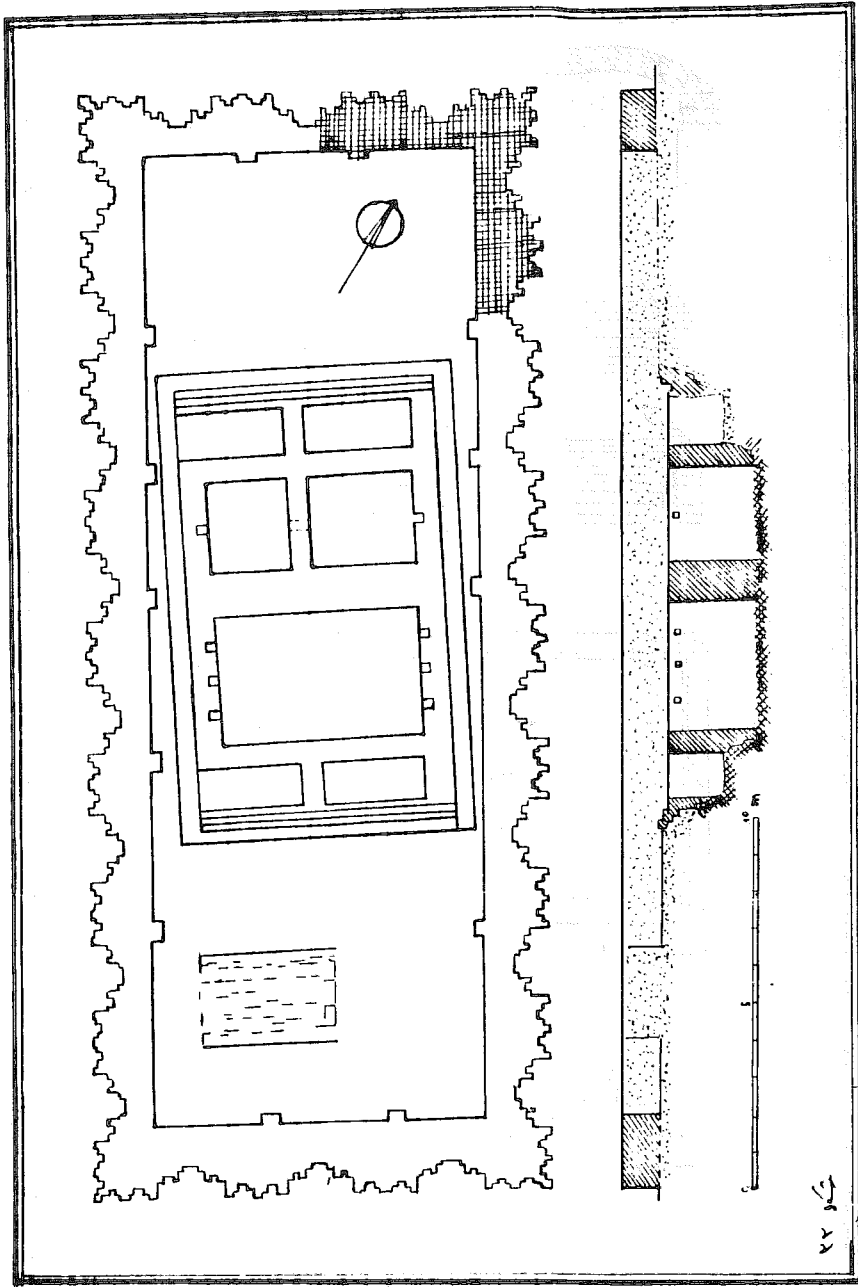
شکل ۳۰



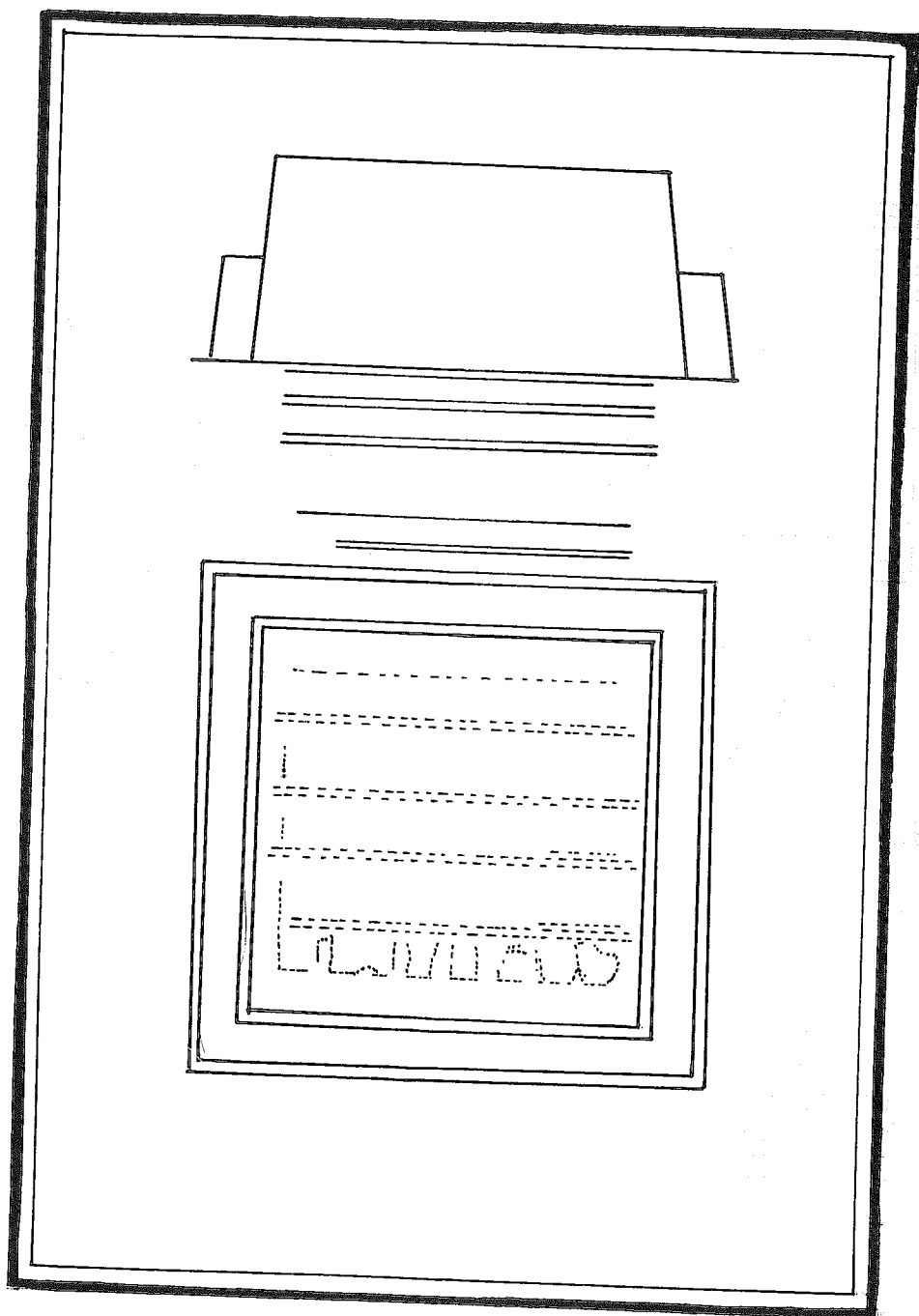
شکل ۳۱



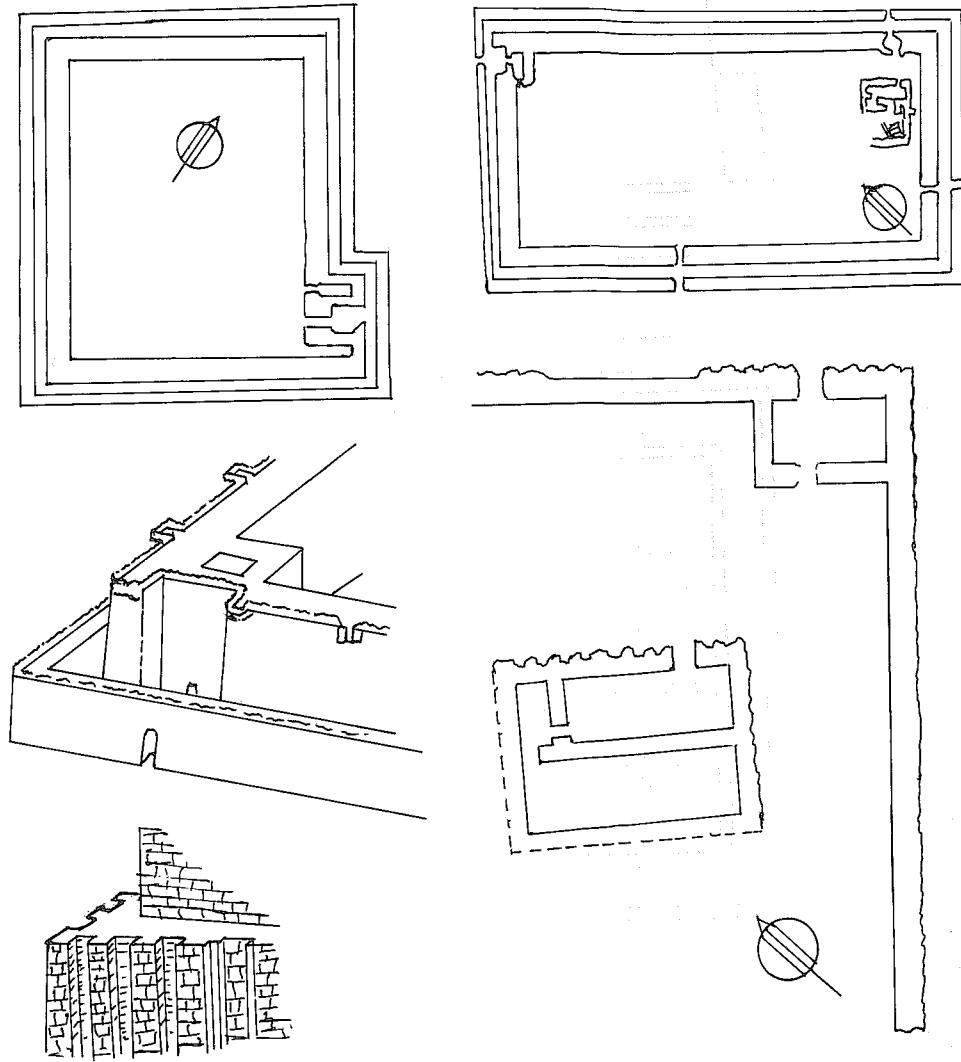
شکل ۳۲



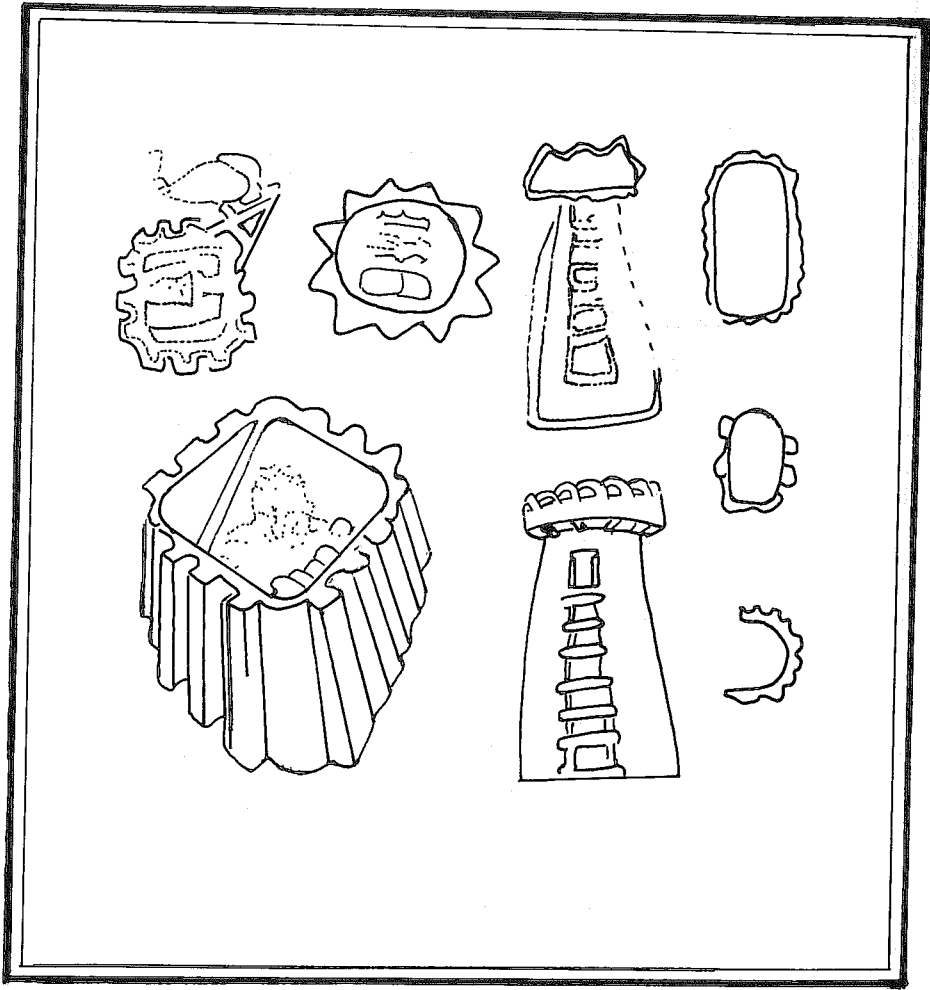
شکل ۲۲



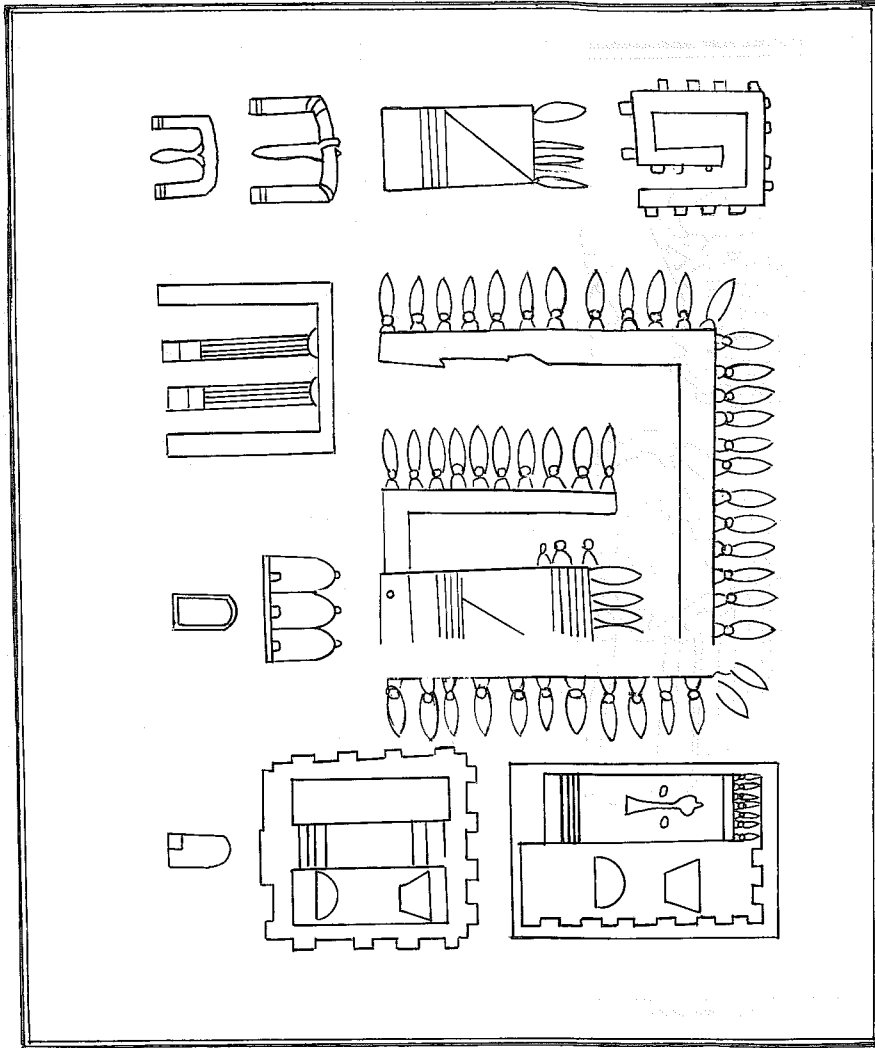
شکل ۳۴



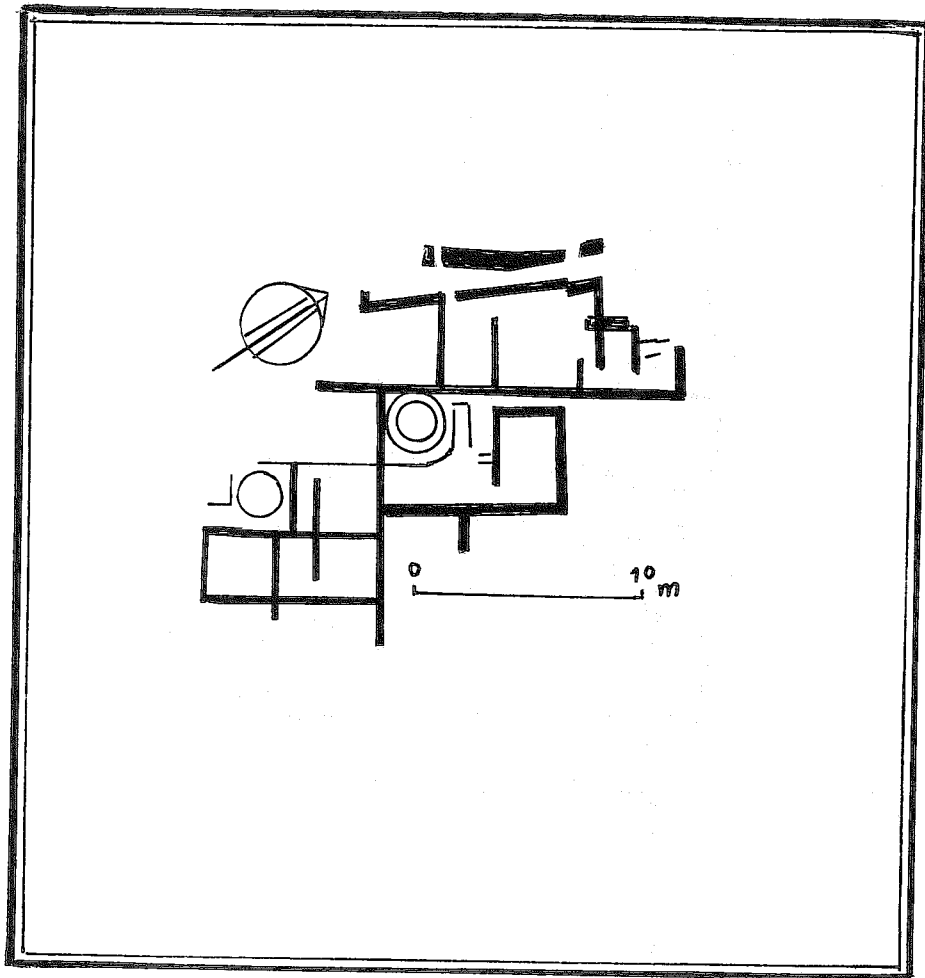
شکل ۳۵



شکل ۳۶

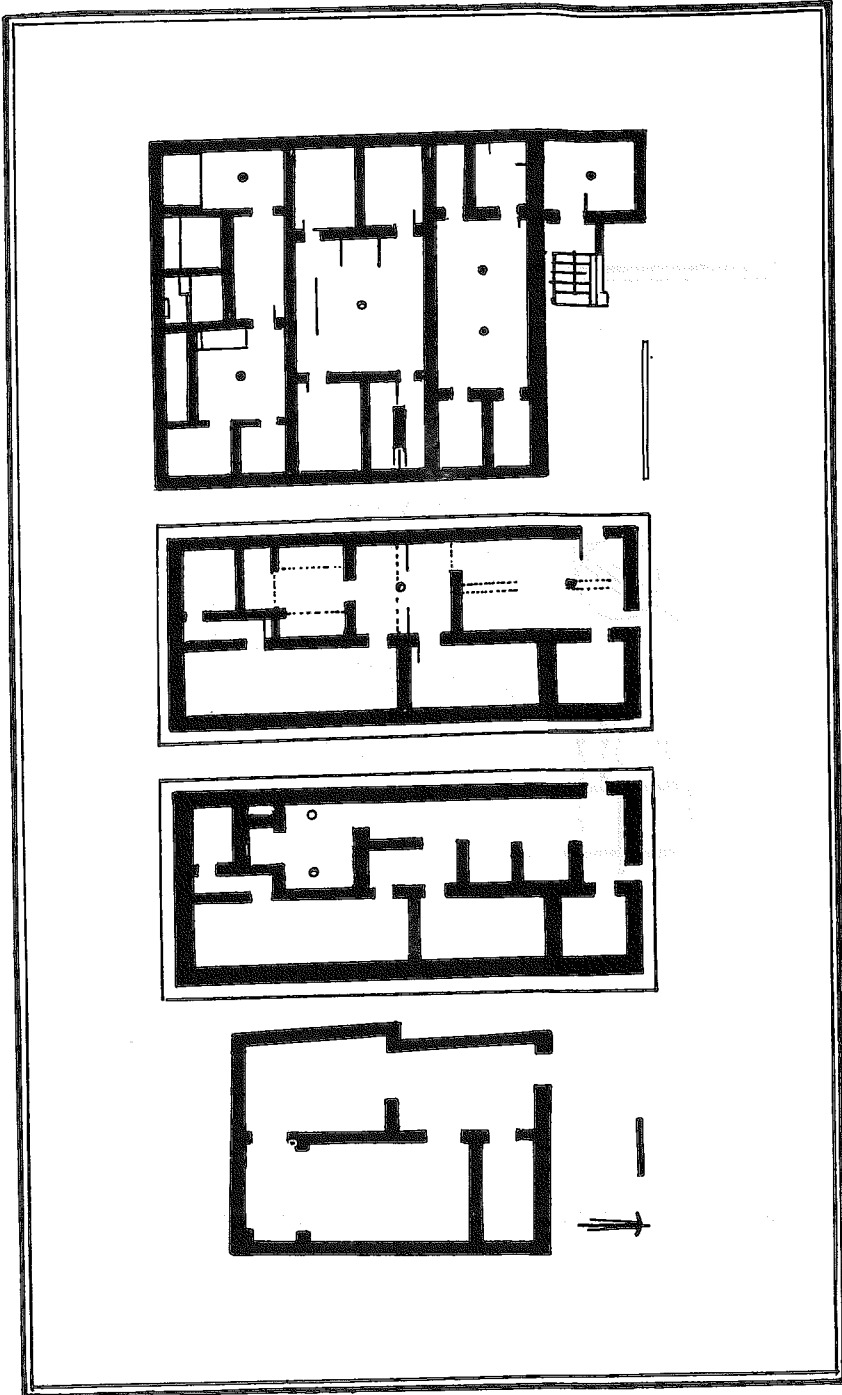


شکل ۳۷

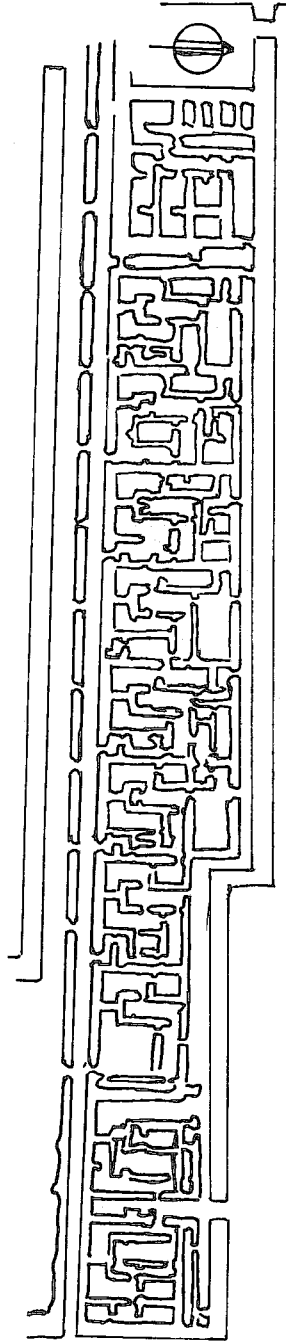


شکل ۳۸

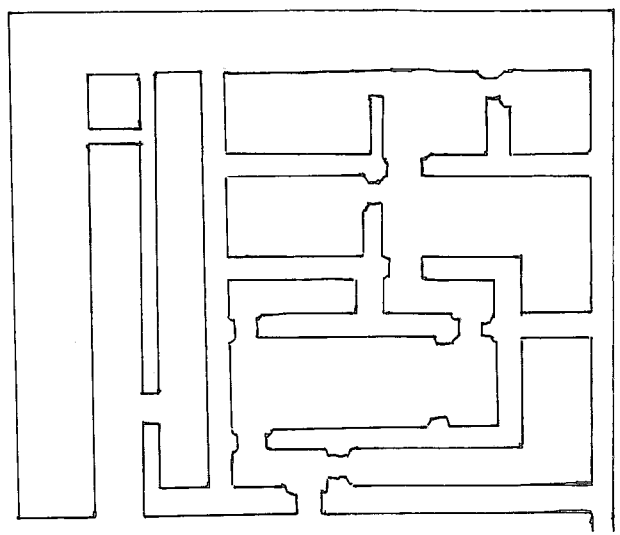
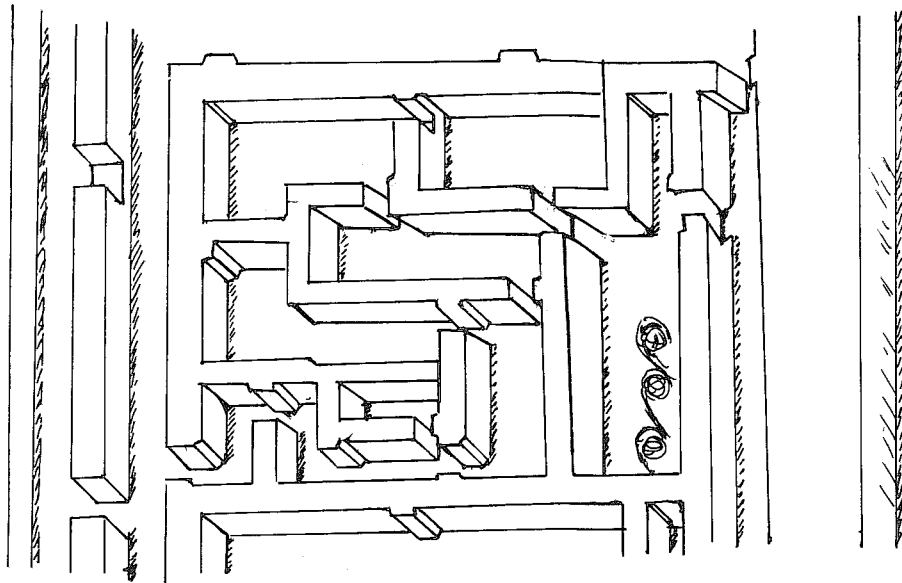
- ۳۰۱ -



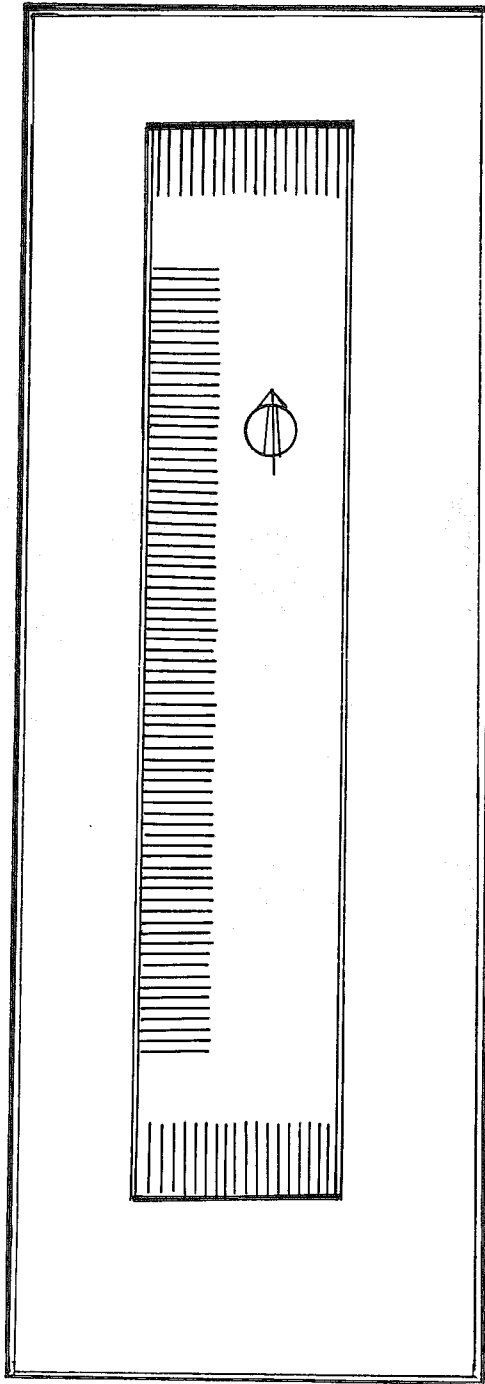
شکل ۳۹



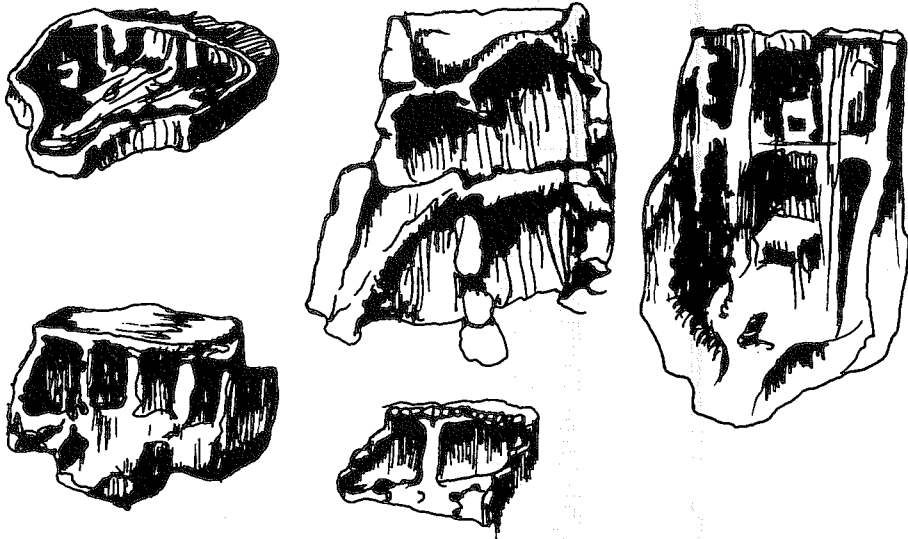
شکل ۴۰



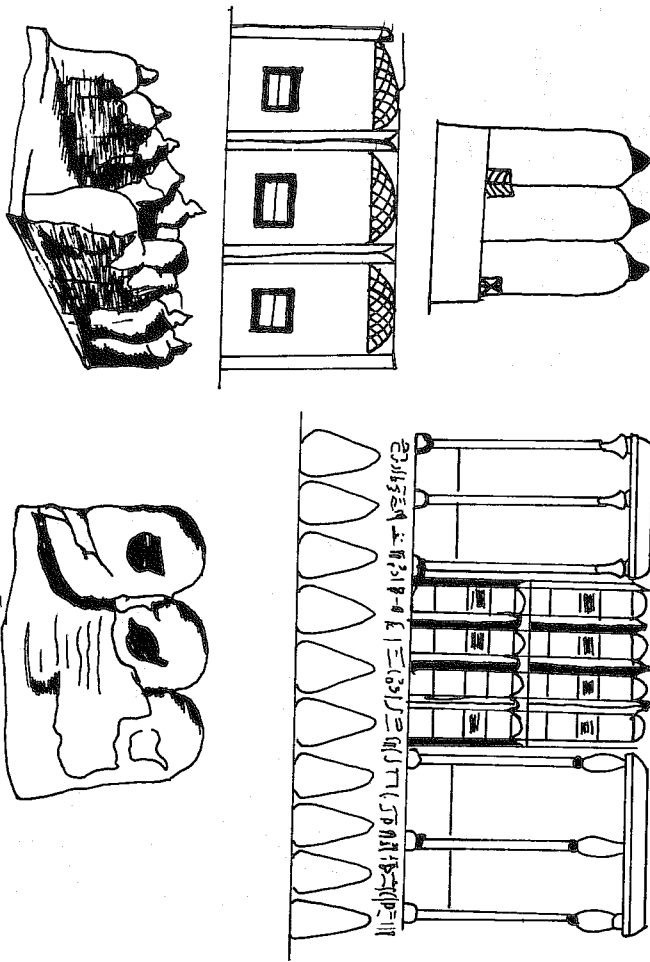
شکل ۴۱



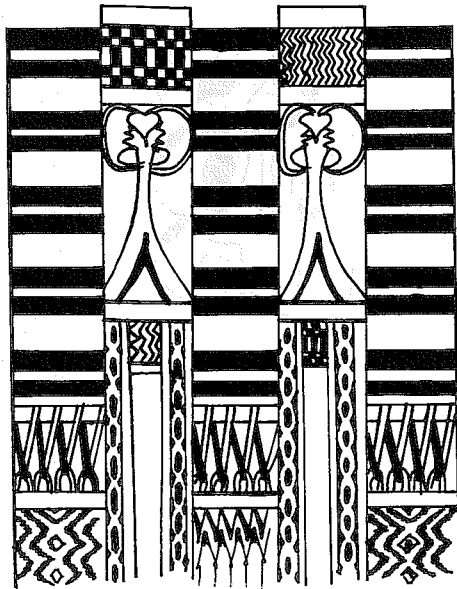
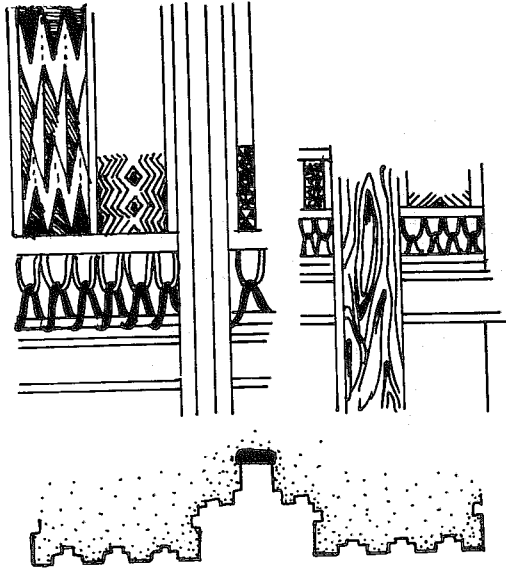
شکل ۴۲



شکل ۴۳



شکل ۴۴



شکل ۴۵

بسم الله الرحمن الرحيم

مراجعة العدد الماضي

ضم العدد الثامن من مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء، إحد عشر بحثاً ودراسة من مختلف التخصصات العلمية، ابتداءً من الآثار والتاريخ والجغرافيا والأدب العربي والفلسفة، ودراسة أدبية باللغة الانجليزية. وتستوعب هذه الدراسات جميع التخصصات بالكلية تقريباً، وتمثل هذه الدراسات جميعاً جهوداً علمية إيجابية تتسم بالأصالة والابتكار. وتنطوي جميعها على إضافات علمية وإسهامات فكرية جادة تليق بطموح كلية الآداب بجامعة صنعاء، وتنم عن حرص أعضاء هيئة التدريس على مواكبة التطور والإسهام الجاد في تقدم وتطوير اختصاصاتهم. ونشير في عجالة إلى هذه الدراسات:

أولاً فيما يتعلق بالدراسات الأثرية في هذا العدد هناك دراستان مستفيضتان تتصدى الأولى منها للفنون الإسلامية في عهد الدولة الإسلامية. وقد تضمنت الدراسة التعريف بهذه الفنون، كما ألحق بها لوح مصور لنماذج من هذه الفنون. أما الدراسة الثانية فتتناول تاريخ العمارة في مصر القديمة فترة ما قبل التاريخ والعصر العتيق، وهي بدورها دراسة مفصلة موثقة بالمراجع. وقد قدمت صورة متكاملة للعمارة في مصر القديمة في فجر تاريخها. كما تضمنت الدراسة أيضاً رسوماً توضيحية تعين القارئ على استيعاب ما جاء بها.

ثانياً فيما يتعلق بالدراسات التاريخية فقد تضمن هذا العدد دراستين، الأولى عن الحملة الأبلجنسية: دراسة في الفكر الكنسي المعارض وهي دراسة مفصلة تستغرق قرابة الخمسين صفحة، ويذيلها الباحث بعدد هائل من المراجع العربية

والانجليزية والفرنسية، ويقدم فيها الباحث المدقق دراسة دقيقة لدور الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى.

أما الدراسة الثانية فعنوانها «نظام الاقطاع في الدولة العثمانية»، ويستطيع الدارس أن يجد فيها عرضاً مفصلاً ودقيقاً لهذا النظام في الدولة العثمانية.

بعد ذلك تأتي الجغرافيا حيث تضم المجلة دراسة عن مدينة صنعاء ومسيرة التطور الاستيطاني الحضاري؛ وتتميز هذه الدراسة بوجود عدد وافر من الخرائط التفصيلية لمدينة صنعاء منذ بداية إنشائها ابتداء من مرحلة الوجود الحضاري لمدينة صنعاء قبل الإسلام ثم صنعاء في عهد الإسلام، ثم بعد ذلك صنعاء في القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر الميلادي؛ وتصل الخرائط التفصيلية لهذه المدينة حتى عام ١٩٨٠، كذلك تتضمن الدراسة ثبناً للتطور السكاني لهذه المدينة في الفترة ما بين ١٩٧٢ حتى ١٩٨٠.

وبعد الجغرافيا يجيء دور دراسات الأدب العربي وتحتوي هذه الدراسات على بحثين أولهما عن: «البيئة العربية القديمة في الأعلام» وهي دراسة تتميز بثراء هائل في مراجعتها ومصادرها الأساسية، كما تتميز بالدقة والصرامة في التوثيق. ويجد فيها الباحث وفرة هائلة من مفردات اللغة العربية ومعانيها.

أما الدراسة الثانية فهي عن «نظرية أبي تمام في الفن الشعري» وتقدم للقارئ عرضاً وافياً لنظرية هذا الشاعر المرموق فيما يتعلق بالفن الشعري. وقد تضمنت العديد من النماذج الشعرية. كما حرص صاحبها على تزويدها بعدد هائل من الهوامش العربية والفرنسية.

وبعد ذلك يأتي دور الفلسفة التي حظيت بالعدد الأكبر من الدراسات وترتيبها كما يلي: الدراسة الأولى: «الفلسفة المصرية المعاصرة بين أزمة المنهج ومشكلة الممارسة»، وهي دراسة جادة ومتعمقة رغم إيجازها، وتطرح قضايا المنهج والممارسة في ضوء ما وصل إليه الفكر الفلسفي الحديث من عمل واجتهاد. كذلك زودها صاحبها بالمصادر الأساسية التي لا يستغنى عنها الباحث في هذا المجال.

وبعد ذلك دراسة «الفلسفة المفترى عليها» وهي دراسة تجمع بين أقصى درجات الوضوح وأدق درجات الفهم العميق لقضايا الفلسفة وفروعها ودراساتها؛

وهي تصلح مرجعاً لكل باحث جاد يرغب في الوصول إلى فهم عام ودقيق لطبيعة الفلسفة.

أما الدراسة التالية في الفلسفة فهي دراسة بالانجليزية:

The Distinction between the Phenomenal and the Noumenal World in the Critique of Pure Reason.

وهي دراسة متخصصة في مجال الفلسفة الحديثة وبصفة خاصة أشهر الفلاسفة المجددين وهو «كانت» وكتابه الأشهر «نقد العقل الخالص».

وأخيراً تأتي دراسة في اللغة بالانجليزية يتناول فيها كاتبها بعض الجوانب الفنية في الشعر اليميني الحديث. ويستشهد في هذه الدراسة بنماذج من شعر الشاعر اليميني المعروف الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح.

وهكذا يتبين للقارئ ما انطوى عليه العدد السابق من جهد شاق ومضن. وتتمنى هنا هيئة التحرير أن يوفقها الله سبحانه وتعالى إلى العمل الجاد على هذا الدرب في الأعداد القادمة.

والله المستعان.

م. ر. فرج أحمد فرج

م. ر. محمود عبد الرازق

قيام الجمعية الجغرافية اليمنية

يسرّ مجلة كلية الآداب أن ترحّب بقيام الجمعية الجغرافية اليمنية التي نرجو أن يتحقّق على يديها نشاط جغرافي متميّز للجغرافيين اليمنيين وأن ترفد العلم الجغرافي بالدراسة الجادّة عن اليمن عموماً والعلم الجغرافي خصوصاً.

وقد عقد المؤتمر التأسيسي الأول للجمعية في قاعة الزعيم جمال عبد الناصر في كلية الآداب وحضره أعضاء الجمعية العمومية وانتخبوا الهيئة الإدارية للجمعية على النحو التالي:

- ١ - حسين الذماري - رئيساً
- ٢ - أحمد محمد شجاع - نائباً للرئيس
- ٣ - عبد الملك السوسوه - أميناً عاماً
- ٤ - فيصل هزاع - مسؤولاً مالياً
- ٥ - أحمد عبد الرب - مسؤولاً اجتماعياً
- ٦ - حازم شكري - مسؤولاً للعلاقات والاعلام
- ٧ - عثمان الحميدي - مسؤولاً ثقافياً

وقد ألقىت بهذه المناسبة الكلمات التالية ترحيباً بهذه المناسبة السعيدة:

كلمة رئيس اللجنة التأسيسية للجمعية الجغرافية

الدكتور أحمد محمد شجاع الدين

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله الطيبين الطاهرين
الأخ/ الدكتور عبد العزيز المقالح - عضو المجلس الاستشاري ومدير جامعة
صنعاء
الأخوة/ أعضاء الجمعية العمومية .
الأخوة الحضور جميعاً

يسرني باسم اللجنة التأسيسية للجمعية العلمية للجغرافيين اليمنيين أن أعبر
لكم عن خالص الشكر وعظيم التقدير لتفضلكم بالحضور في هذا الحفل بمناسبة
انعقاد المؤتمر العام الأول التأسيسي للجمعية العلمية للجغرافيين اليمنيين إذ أن
وجودكم معنا قد أعطى برهاناً على الاهتمام الذي تولونه لهذه الجمعية وما تشابهها
من الجمعيات العلمية والتي تأتي في هذه المرحلة من تاريخ شعبنا والتي تميزت
بإفصاح المجال لكل التجمعات المهنية الحرفية والعلمية من أجل أن تنمي
مهاراتها وتنشط قدراتها وتسهم من خلال الأطر النقابية والمنظمات الجماهيرية في
خدمة المجتمع وتعزيز المسيرة التنموية لبلادنا.

إن تأسيس الجمعية العلمية للجغرافيين اليمنيين يعتبر إضافة جديدة في بناء
الصرح الديمقراطي وستسهم إسهاماً فاعلاً ومؤثراً في المجالات التنموية بصفتها
العلمية وخاصة المجال الجغرافي الذي يتميز عن سواه من العلوم الإنسانية والطبيعية
كونه يتعامل بالأخذ والعطاء مع كل العلوم. إننا نعيش المنجزات الاستراتيجية في
بلادنا سواء في المجال الديمقراطي باتساع قاعدة المشاركة الشعبية في العمل السياسي
أو في المجال التنموي من خلال التخطيط والبرمجة وتنفيذ المشاريع الزراعية

والصناعية والخدمية كإنشاء السدود واستثمار الثروة النفطية، والتي تشكل منعطفاً تاريخياً هاماً من تاريخ الشعب اليمني عبر مسيرته الثورية السبتمبرية المجيدة. وجدير بنا أن ننوه بأبرز حدث ديمقراطي يعيشه شعبنا اليوم والمتمثل في اجراءات الانتخابات العامة الحرة والمباشرة لمجلس الشورى ويعود الفضل في تحقيق كل هذه الإنجازات والعطاءات التنموية والديموقراطية إلى يقظة الشعب ونضاله الدؤوب من أجل الحياة الأفضل وإلى توجه القيادة السياسية الواعية والمتمثلة في الأخ/ الرئيس القائد الأمين العام للمؤتمر الشعبي العام.

لقد عملت القيادة السياسية على فسخ المجال لكل التجمعات المهنية الحرفية والعلمية لأن تنمي مهاراتها وتجمع قدراتها وطاقاتها لتسهم من خلال الأطر والقنوات الشرعية في إثراء التجربة الديمقراطية لخدمة المجتمع، وإذا كانت الجمعية العلمية للجغرافيين اليمنيين تعد إضافة جديدة في بناء الصرح الديمقراطي فهي بصفتها العلمية في المجال الجغرافي ستعمل على إقامة الدراسات المختلفة عن الوطن ضمن دائرة معرفتها وستسهم في سبيل إبراز دور الجغرافيين اليمنيين سواء في خطط الدولة المستقبلية أو في رفع مكان ودور الجغرافيين اليمنيين على مستوى الوطن اليمني أو على مستوى بقية البلدان العربية التي يوجد فيها جمعيات جغرافية مماثلة.

لذلك كله فإن الجمعية بالتعاون مع كل الهيئات والمؤسسات المعنية بالتخطيط والبرمجة سوف تسهم اسهاماً فاعلاً ومؤثراً في خدمة التنمية.

أيها الأخوة

لعبت الجغرافية دوراً لا يستهان به في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة وقد شهدت تطورات هائلة عبر تاريخها، فانتقلت من المرحلة المبكرة البسيطة إلى المرحلة الوصفية في العصور الوسطى ومن مرحلة التحليل الوصفي والاستكشافات الجغرافية في القرنين الماضيين التي كان لها أكبر الأثر لتتأججها على مستوى العالم كله حيث كانت البداية لانفتاح العالم على بعضه ووجود الثورة الصناعية وتقدم العلوم التطبيقية وأخيراً وصلت الجغرافيا في عصرنا هذا وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية إلى المرحلة التطبيقية وهي المرحلة التي جعلت من الجغرافيا كعلم تطبيقي يسهم في معالجة المشاكل البيئية والأقليمية والقومية والدولية.

وهكذا نجد أن الجغرافيا بمفهومها ووظائفها التطبيقية قد ضاعفت من مسؤوليات ومهام الجغرافي اليمني. وبحكم ظروف التخلف التي عاشتها بلادنا قبل الثورة من ناحية وبحكم التغيرات السريعة والمتلاحقة التي أحدثتها الثورة في حياة السكان والعمران وفي الاستهلاك والإنتاج من ناحية أخرى تغدو مسؤولية الجغرافي اليمني بحكم كل تلك الظروف والتغيرات مسؤولية أكثر أهمية وتتطلب منه المزيد من البذل والجهد بدون حدود.

أيها الأخوة

إن الجمعية العلمية للجغرافيين اليمنيين وهي في بداية الطريق لن تألو جهداً في العمل والتنسيق مع كافة المؤسسات العلمية والمنظمات الجماهيرية على رفع وتطوير مستوى فعالية العمل في هذه المنظمات والمؤسسات لترقى إلى المستوى الذي يمكنها من خدمة الأهداف والطموحات التي يتطلع إليها أبناء هذا الوطن المعطى وفي الانجاز الذي يحقق آمال المجتمع اليمني في التطور والنمو.

وستعمل الجمعية على وضع الأسس لإقامة صلات علمية مع كل الجمعيات والمؤسسات المماثلة في الوطن العربي والعالم وعلى رأسها اتحاد الجغرافيين العرب ونأمل من خلال هذه الصلات إيجاد تنسيق مشترك لتبادل الخبرات والتجارب والاستفادة من تجربة بعضنا بعضاً.

وأخيراً فإن الجغرافيين اليمنيين وهم يعقدون مؤتمرهم الأول التأسيسي لا يسعهم إلا أن يجيؤوا صمود أبناء الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني ويقفوا إلى جانب ثورتهم الشعبية العارمة. إن هذه الثورة قد أعطت أبعاداً أخرى للقضية ولأسلوب المقاومة فل هذه الثورة الشعبية نكهة أخرى وإيجابيات عديدة فقد أسقطت وإلى غير رجعة عنصر الرهبة والخوف من المحتل الصهيوني وشجعت على الوقوف بكل كبرياء في وجهه. ومن ناحية أخرى أوجدت هذه الانتفاضة الخلافات في صفوف الكيان الصهيوني. إن استمرار الثورة الشعبية ضد المحتل الصهيوني قد أثبتت أنها ليست ثورة عشوائية ولكنها ثورة شعبية منظمة، وقد جعلت جماهير الشعب الفلسطيني تتصدى يوماً دون خوف لعصابات المستوطنين.

من هنا من صنعاء صانعة المجد نقف ونحيي هذه الثورة الظافرة.

أشكركم مرة أخرى على الحضور وأشكر كل من أسهم بالفكرة أو الرأي
والجهد في مؤازرة جهد اللجنة التأسيسية لإخراج هذه الجمعية إلى حيز الوجود
وإنجاح هذا المؤتمر.

وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة رئيس قسم الجغرافية

الدكتور شاكر خصباك

يسرني أن أشهد مولد الجمعية الجغرافية اليمنية، وأدعو الله أن يكون مولداً مباركاً، وإنه ليملاً نفسي غبطة أن أرى هذا العدد الكبير من الجغرافيين اليمنيين وهم مجتمعين للمرة الأولى. ولا شك أن هذا التجمع سيثمر قوة للعلم الجغرافي وسيعود على البلاد بالخير.

ودعونا نتساءل: هل هناك مبرر فعلاً للاهتمام بمولد الجمعية الجغرافية اليمنية، وهل يستحق هذا الحدث حقاً اهتمامنا؟

والجواب على هذا السؤال: نعم إنه حدث يستحق الاهتمام، فقد يكون مولد الجمعية الجغرافية المنطلق الحقيقي لتطوير العلم الجغرافي في اليمن. وهذا ما حدث بالضبط في بلدان أوروبا وأميركا.

فمن المعلوم أن الجغرافية لم تحظ بالاهتمام في بداية عهد النهضة الأوروبية حيث انصب الاهتمام على العلوم الصرفة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء. ولم تنل الجغرافية نصيبها من الرعاية إلا في مطلع القرن التاسع عشر، بل تأخر الاهتمام بها في بعض الأقطار الأوروبية لغاية أواخر القرن التاسع عشر.

ومثال ذلك أن بلداً متقدماً كبريطانياً لم تكن الجامعات فيه تعترف بالجغرافيا كتخصص علمي مستقل شأنه شأن التخصصات الأكاديمية الأخرى، كالتاريخ مثلاً، وكانت أول جامعة في بريطانيا تنشئ كرسيًا للجغرافية هي جامعة أوكسفورد في نهاية القرن.

ولكن ما أن بدأ الاهتمام بالعلم الجغرافي في أوائل القرن التاسع عشر حتى أخذت البلدان الأوروبية، بل وأحياناً مدن البلد الواحد، تتسابق في إنشاء الجمعيات

الجغرافية. فأصبحت هذه الجمعيات عنواناً للاهتمام بالجغرافيا وحافزاً لتطويرها. وبما أن فرنسا وألمانيا كانتا في مقدمة الدول الأوروبية التي أولت الجغرافية اهتمامها، لذلك نجدهما سباقتين في إنشاء الجمعيات الجغرافية.

ويمكن القول أن الجمعية الجغرافية الفرنسية التي أنشأت عام ١٨٢١ كانت أولى الجمعيات المتخصصة في العالم، ثم أعقبتها الجمعية الجغرافية البرلينية في عام ١٨٢٨، ثم الجمعية الجغرافية الانجليزية المسماة بالجمعية الجغرافية الملكية عام ١٨٣٢. أما الجمعيات الجغرافية الأخرى التي تلت الجمعيات الثلاث المذكورة فكانت الجمعية الجغرافية المكسيكية عام ١٨٣٣ والجمعية الجغرافية الروسية عام ١٨٤٥ والجمعية الأميركية عام ١٨٥٢.

وما أن شارف القرن التاسع عشر على نهايته (في حدود عام ١٨٨٥) حتى كان هناك في العالم ٩٤ جمعية جغرافية بلغ عدد أعضائها ٥٠,٠٠٠ عضواً. وكان ٨٠ جمعية منها في أوروبا من ضمنها ٢٦ جمعية في فرنسا عدد أعضائها ١٨,٠٠٠ عضواً تنشر ٣٤ مجلة، و٢٤ جمعية في ألمانيا بلغ عدد أعضائها ٩٣٠٠ عضواً، تنشر ٢٨ مجلة. وهذه المناسبة كان لنا نحن العرب نصيب في هذه الجمعيات الجغرافية تمثل بالجمعية المصرية الخديوية التي أصدرت أولى منشوراتها في القاهرة عام ١٨٧٥.

وبطبيعة الحال كانت معظم تلك الجمعيات تصدر مجلات أو نشرات سنوية أو فصلية تساهم في تطوير العلم الجغرافي.

ولكي لا تُضللوا أبادر إلى القول إنه لم يكن هدف جميع تلك الجمعيات خدمة العلم الجغرافي، وأن العديد منها كانت أدوات للتوسع الاستعماري ولا سيما في البلدان الثلاث فرنسا وبريطانيا وألمانيا.

فمثلاً كان من جملة أهداف الجمعية الجغرافية التجارية التي أنشأت في باريس عام ١٨٧٦ (كما جاء في أديباتها) تطوير التجارة الفرنسية على نطاق عالمي، وتشجيع الرحلات التي يمكن أن تفتح طريقاً أمام التجارة والصناعة الفرنسية، ودراسة الموارد الطبيعية في البلدان الشرقية، وتقييم إمكانات الاستعمار والمهجرة لفرنسا والفرنسيين.

بل إن جمعية جغرافية فرنسية أخرى (هي الجمعية المارسييلية) تفتخر بأنها هي

التي شجعت فرنسا على استعمار الشمال الأفريقي بما هيأته من معلومات جغرافية شاملة عن تلك البلاد.

ولكن مهما قلنا عن مساهمة بعض تلك الجمعيات الجغرافية في النشاطات الاستعمارية للدول الكبرى في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، فلا يمكننا أن ننكر الجانب الإيجابي في نشاطاتها التي أدت إلى تشجيع الكشوف الجغرافية وإلى تنشيط البحوث الجغرافية الخاصة ببلدانها وبلدان ما نسميه في الوقت الحاضر بلدان العالم الثالث.

والحقيقة أن ما كتبه الجغرافيون الأوروبيون والأميريكيون من كتب عن بلدان أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ما تزال تشكل المصادر الأساسية في بحوثنا الجغرافية، ولم نستطع نحن أبناء هذه البلدان للأسف الشديد أن نتفوق عليهم حتى اليوم إلا في النادر.

إذن فأهمية الجمعيات الجغرافية ودورها في تطوير العلم الجغرافي أمر لا يقبل النقاش. وإذا كانت قد فقدت دورها الاستعماري في أوروبا في العهد الحاضر فإن ذلك قد ضاعف من أهميتها العلمية الجغرافية الصرفة. وإنما لتلعب في الوقت الحاضر دوراً قيادياً في تطوير العلم الجغرافي - بالإضافة إلى الكليات والمعاهد المختصة - بما تقدّمه من أبحاث وما تنشره من كتب. ومن الأدلة على هذا القول منشورات الجمعية الجغرافية الأميركية أو ما تسمى (بالاتحاد الجغرافي الأمريكي)، فما يصدره هذا الاتحاد من مجلة ومن كتب أو حوليات سنوية ANNALS تعتبر مؤشرات أساسية لتطور العلم الجغرافي.

بل إن الخطب السنوية لرؤساء تلك الجمعيات كثيراً ما تُعتبر مؤشرات للاتجاهات الجديدة في العلم الجغرافي. وهذا ما كان يحدث دائماً بالنسبة للجمعية الجغرافية الأميركية.

أرجو أن أكون قد وفّقت بهذه العجالة إلى أن أقدم لكم صورة عن أهمية الجمعيات الجغرافية، وإن اهتمامنا اليوم بمولد الجمعية الجغرافية اليمينية له ما يبرره حقاً.

فنحن نأمل أن يتمكن الجغرافي اليمني من تبوأ مركزه بين الجغرافيين العرب -

على الأقل - بمساعدة هذه الجمعية. إذ من المفترض أنها ستخلق له فرص البحث - بما تموله من مشاريع البحث - وتبيء له فرص نشر المؤلفات الجغرافية - التي يحجم الناشرون التجاريون عن نشرها إلا في نطاق الكتب المنهجية، كما ستشيط العلم الجغرافي بما تعقده من مؤتمرات ولقاءات وما تصدره من مجلة خاصة بها.

وصدقوني ما أحوج اليمن إلى جهودكم وأبحاثكم أيها الجغرافيون اليمنيون. فاليمن ما يزال بلداً بكرأ بالنسبة للجغرافيين، وما أحرى بأبنائه الجغرافيين أن يأخذوا على عاتقهم هذه المهمة ويقدموا للعالم كتباً تكشف عن جغرافية اليمن في شتى جوانبها.

وفقكم الله، والسلام عليكم.

كلمة مصلحة المساحة

ألقاها الأخ/ عبد الملك السوسوه مدير عام الخرائط وعضو اللجنة التأسيسية
للجمعية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه الراشدين

الأخوة الضيوف

الأخوة أعضاء المؤتمر التأسيسي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من هذا الموقع الذي اخترتموه ليكون مكاناً لانعقاد هذا المؤتمر، ومن رحاب جامعة صنعاء الذي يشع من أرجائها نور العلم والمعرفة، أوجه إلى مؤتمركم التحية باسم كل العاملين في مصلحة المساحة مسؤولين وإداريين ومهندسين وفنيين مباركين للأخوة الجغرافيين اليمنيين انعقاد مؤتمرهم التأسيسي متمنين لهم النجاح لتحقيق الأهداف التي من أجلها أنشئت الجمعية العلمية للجغرافيين اليمنيين. والتي ما كان لها أن تنشأ لولا توافر المناخ الطيب الذي تستظل به بلادنا في عهد الثورة السبتمبرية المجيدة، وفي هذه المرحلة الميثاقية المتميزة باتساع قاعدة المشاركة الشعبية وفي أطر المنظمات الجماهيرية التي شملت كل الفئات العلمية والمهنية والحرفية والبالغ عددها اليوم أكثر من مائتين منظمة في شكل نقابات واتحادات وجمعيات، مما يؤكد ويدل على مصداقية واستمرارية هذا التوجه الوطني الديمقراطي لبلادنا بقيادة الأخ الرئيس القائد الأمين العام للمؤتمر الشعبي العام العقيد/ علي عبدالله صالح.

ولعل من أهم الفعاليات ذات الأهمية على مستوى الدولة والشعب هو ما

نشاهد، اليوم حول انتخابات مجلس الشورى وعلى أسس ديمقراطية حرة ومباشرة.
أيها الأخوة:

إن إنشاء الجمعية العلمية للجغرافيين اليمنيين هي أيضاً خطوة متقدمة على طريق إثراء الحياة العلمية والفكرية في بلادنا. كونها ستمثل نافذة جديدة يستطيع الجغرافيون اليمنيون من خلالها أن يطلعوا ويتعرفوا على التقدم الهائل الذي واكب مسيرة الفكر الجغرافي العالمي، ومراحل تطوره كعلم تجاوز المرحلة الوصفية والسرد العشوائي، والتأمل الذاتي للكون والحياة. إلى المرحلة التطبيقية والتحليل العلمي والعمل الميداني واستخدام أو توظيف الوسائل الإحصائية والعلوم الرياضية لتشخيص ومعالجة المشكلات التي تواجه المجتمع الإنساني، وخاصة في هذا العصر الذي ازدادت فيه حدة المشكلات وبلغ عددها كما تشير إلى ذلك إحصائيات (دائرة معارف المشكلات الدولية) بحوالي عشرة آلاف وثلاثمائة وثلاثين مشكلة دولية. تقع معظمها على خارطة العالم الثالث في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وهي في الغالب مشكلات ذات طابع جغرافي أبرزها مشكلة الانفجار السكاني مع موارد اقتصادية متواضعة، والنمو الحضري في ظل خدمات محدودة. وإقدام وإسراف في الاستهلاك مع إحجام وتهاون في الإنتاج وصراعات اقليمية ودولية على حدود أو نفوذ أو سيطرة وهكذا.

أيها الأخوة...
الحفل الكريم...

إن الجغرافيا والجغرافيين في بلادنا شأنهم في ذلك شأن غيرهم في بلدان العالم الثالث وفي البلدان العربية بالذات فهي حتى الآن لم تصل إلى المستوى الذي بلغته الدول المتطورة. وإذا كانت هناك بعض المؤشرات الجغرافية في البلدان العربية والدالة على وجود بوادر طيبة فهي قد تجسدت في اهتمامات البعض من الباحثين والفكرين الجغرافيين العرب بالقضايا والمشكلات التي تهم الوطن العربي أرضاً وإنساناً. وكان لهم أيضاً إسهامات في كثير من الندوات والمؤتمرات المخصصة لدراسة بعض القضايا المتعلقة بحاضر الأمة العربية ومستقبلها.

ومن أمثلة ذلك ندوة (التنمية الاقتصادية في الوطن العربي) التي أشرف

عليها المؤتمر الجغرافي العربي الثاني المنعقد في بغداد عام ١٩٧٦ م وندوة (البترو
العربي والآفاق المستقبلية لمشكلة الطاقة) المنعقدة في الرباط بالمغرب عام ١٩٧٧ م .
وندوة (مشكلة الغذاء في الوطن العربي) المنعقدة بالكويت عام ١٩٧٨ م . وندوة
حول (تنميط الأسماء الجغرافية في البلدان العربية) والمنعقدة في الرباط عام
١٩٨٥ م .

وكذلك أسهم الجغرافيون العرب بالبحوث والدراسات لأوضاع العالم
الإسلامي في المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول المنعقد بالرياض عام ١٩٧٩ م . ومع
أن هذه المؤشرات تعد من المنظور الجغرافي وعلى مستوى الوطن العربي إيجابية، إلا
أنه يمكن القول بأن معطيات الحاضر ومتطلبات المستقبل واحتمالاته تتطلب من
الجغرافي العربي بشكل عام ومن الجغرافي اليمني بشكل خاص المزيد من البذل
والعطاء فكرياً وعملاً لكي يبرز إلى السطح دور الجغرافي الرائد واسهاماته الفاعلة
والمؤثرة على خريطة الواقع الاجتماعي والتنموي للوطن وحتى تتبوأ الجغرافيا المكانة
اللائقة بها كدعامه من دعائم التخطيط والتنمية على المستوى الوطني والقومي .

الأخوة الضيوف...

الأخوة أعضاء المؤتمر...

إن مصلحة المساحة وهي تشارككم فعاليات مؤتمركم هذا لتؤكد لكم بأنها
سوف لن تألو جهداً في التعاون مع جمعيتكم الفتية والدفع بها لتسير في الاتجاه
الذي يخدم المصلحة العليا للوطن وفي إطار السياسة العامة للدولة الهادفة إلى
التعاون والتنسيق والتكامل بين كل المؤسسات الرسمية والشعبية من أجل الدفع
بعجلة التنمية وتحقيق الآمال والطموحات الوطنية في التقدم والرخاء . ومن الجدير
أن نقول بأن الجغرافي بحكم تخصصه يعد من أكثر الفئات الاجتماعية التصاقاً بهموم
الوطن وطموحاته وآماله . فالوطن الأرض والإنسان هو محور الدراسات الجغرافية إذ
أن خلاصة مفهوم الجغرافيا ومعناها هو (العلم الذي يدرس العلاقة بين الأرض
والإنسان) ورغم الصفة العالمية للجغرافيا إلا أن الجغرافي ينظر ويخلق في آفاق
الكون من منطلق البيئة التي نمت وترعرعت مداركه فيها وطنياً ثم قومياً وعالمياً .
وهذا ما يضاعف من حجم المسؤولية الملقاة على الجغرافي اليمني في العمل على بث

وتوسيع نطاق الوعي الجغرافي وبلورة المفاهيم الجغرافية وتوظيف علومها ومعارفها في الاتجاه الذي يدعم من قوة الوحدة الوطنية والسعي لوحدة الأمة العربية ومن أجل أن يسود العالم كل العالم الحب والائخاء والسلام.

أيها الأخوة...

لعل في تزامن فعالية هذا المؤتمر مع الثورة الشعبية العارمة في الأرض المحتلة فرصة لكي نؤكد من جديد على موقف بلادنا المبدئي والثابت بزعامة الأخ الرئيس القائد العام الأمين العام / العقيد/ علي عبدالله صالح تجاه كل القضايا العربية الإسلامية والدولية وهو الموقف المناصر للحق والعدل والسلام وتأتي على رأس تلكم القضايا قضية الشعب العربي الفلسطيني الذي أثبت أبنائه في الأرض المحتلة وعلى مدى أربعة أشهر عزمهم الذي لا يلين وإيمانهم الذي لا يتزعزع على السير في طريق انتزاع حقوقهم المغتصبة التي كاد العالم أن يتجاهلها لولا صوت الثورة الهادر الذي انطلق من واقع المعاناة والقهر. من الأرض المحتلة ليقول للعالم كله بأن الشعب الفلسطيني شعب حي وأثبت ذلك بروح استشهادية سجلت ولا زالت تسجل كل يوم ملحمة بطولية رائعة يسطرها الأطفال والشباب بالدماء والأحجار. تحدياً للمعتدين الصهاينة والاستكبار العالمي. وتحدياً لكل المؤامرات التي تستهدف النيل من الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني في التحرير والعودة.

فتحية للثورة الشعبية الفلسطينية الباسلة وتحية لكل الرجال المقاتلين والمناضلين ضد الكيان الصهيوني في لبنان والجولان. وتحية لكل المناضلين من أجل الحرية والاستقلال في كل مكان من العالم.

ختاماً نرجو لمؤتمركم التوفيق والنجاح والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

النظام الأساسي للجمعية الجغرافية اليمنية

الباب الأول

تعريف:

مادة(١): يكون للألفاظ التالية في هذا النظام المعاني الموضحة إزائها.

- أ - الجمعية: تعني الجمعية الجغرافية اليمنية.
- ب - المقر الرئيسي: صنعاء وللجمعية أن تنشئ فروعاً في جميع مدن المحافظات إذا توفرت الشروط القانونية.
- ج- نطاق عمل الجمعية: الجمهورية العربية اليمنية.
- د - الجهة الإدارية المختصة: وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

الباب الثاني

أهداف الجمعية:

مادة(٢): للجمعية طبيعة علمية (نظرية وتطبيقية) تهدف إلى المساهمة في التنمية عن طريق بلورة الآراء وتقديم الدراسات وتبني الندوات العلمية والمحاضرات في إطار تخصصها الأكاديمي. كما تهدف الى التفاعل مع تطور العلوم الجغرافية على الصعيد المحلي والأقليمي والدولي عن طريق إقامة العلاقات المتخصصة مع الجمعيات والهيئات والجامعات ومراكز البحوث ودور الكتب عن طريق استضافة المحاضرين من ذوي الخبرة والتخصص، وعن طريق الاشتراك في الدوريات والمجلات العلمية المتخصصة.

وعلى وجه الخصوص فإنها تهدف إلى :

- أ - الاهتمام بالمعارف الجغرافية بمختلف فروعها والعمل على نشرها بالوسائل المختلفة.
- ب - تبني الأبحاث والمحاضرات والندوات والمؤتمرات محلياً وعالمياً في مختلف المجالات الجغرافية.
- ج- المشاركة في الدراسات التنموية وإثرائها بالملاحظات التي تساعد على إنشاء مكتبة علمية لخدمة الباحثين والدارسين.
- د - إصدار مجلة دورية تهتم بالدراسات والأبحاث الجغرافية.
- هـ - الاشتراك في الدوريات والمجلات العلمية المتخصصة.
- و - العمل على تطوير الفكر الجغرافي ونشره بالوسائل المتاحة بغرض خلق وعي جغرافي عام.

الباب الثالث

العضوية وشروطها

مادة (٣) : شروط الانضمام :

أولاً : العضوية العاملة :

- أ - تمنح لكل الأشخاص الحاصلين على درجة علمية (ليسانس أو بكالوريوس) وما فوق من الكليات والمعاهد المتخصصة.
- ب - للأشخاص الحاصلين على درجات علمية في تخصصات أخرى ويعملون في المجال المتعلق بالجغرافيا لمدة لا تقل عن سنتين.

ثانياً: العضوية الشرفية:

- أ - تمنح للأشخاص من ذوي التخصص وللعاملين في جامعة صنعاء أو المعاهد المتخصصة.
- ب - للأشخاص غير اليمنيين الذين تكون لهم إسهامات في مجال التأليف أو الكتابة الجغرافية ولهم اهتمامات خاصة بجغرافية اليمن.
- ج - للأشخاص اليمنيين ذوي المؤهلات والخبرات العملية ذات العلاقة بالجغرافيا أو من المهتمين بعملية التنمية.

الباب الرابع

حقوق وواجبات الأعضاء

مادة(٤): يتمتع أعضاء الجمعية بالحقوق التالية:

- أ - يمارس كافة الأعضاء كامل الحرية في التعبير عن آرائهم فيما يتعلق بنشاطات الجمعية.
- ب - يتمتع الأعضاء (العاملون) بحق التصويت على انتخابات أعضاء الهيئة الإدارية وعلى كل ما يطرح على الجمعية العمومية للتصويت.
- ج - يتمتع الأعضاء (العاملون) بحق ترشيح أنفسهم للهيئة الإدارية وفي اللجان الفرعية للجمعية.
- د - يحق لكافة الأعضاء استخدام مكتبة الجمعية والمراجع التي تتوفر فيها للاستفادة منها في أغراض البحث والدراسة.
- هـ - يحق لكافة الأعضاء ترشيح أنفسهم للمشاركة في الندوات والمؤتمرات التي تنبأها أو تشارك فيها الجمعية طبقاً للائحة الداخلية.
- و - عضوية الجمعية دائمة إلا إذا اتخذ قرار بشأنها من قبل الجمعية العمومية.

ز - حصول العضو على العون والمساعدة من قبل الجمعية في حالة تعرضه لظرف يستدعي ذلك كالمريض أو التعرض لنكبة أو الفصل التعسفي من قبل أرباب العمل.

مادة (٥): واجبات الأعضاء:

- أ - الالتزام بنظام الجمعية ولوائحها الداخلية وكل ما يقره المؤتمر العام للجمعية.
- ب - العمل على تحقيق أهداف الجمعية وتطورها.
- ج - المساهمة في أنشطة الجمعية والحفاظ على سمعتها الأدبية والعلمية.
- د - تسديد رسم الاشتراك الشهري.

الباب الخامس

تكوينات الجمعية

مادة (٦): تتكون الجمعية من:

- أ - المؤتمر العام.
- ب - الهيئة الإدارية.
- ج - اللجان الفنية المتخصصة.
- د - الفروع.

مادة (٧): المؤتمر العام:

- ١ - المؤتمر العام هو أعلى سلطة تشريعية للجمعية ويتكون من جميع الأعضاء العاملين والمنتسبين المسددين رسوم الاشتراك.
- ٢ - ينعقد المؤتمر العام للجمعية مرة كل سنتين لمناقشة نشاطات الجمعية وميزانيتها كما يمكن انعقاد الاجتماعات غير الاعتيادية بناءً على طلب من رئيس أو أمين عام

الجمعية أو ثلثي أعضاء الجمعية وذلك لمناقشة قضايا غير عادية مع اشعار الجهة المختصة.

٣ - تتخذ قرارات المؤتمر العام بأغلبية ثلثي الأعضاء شريطة الإعلان للحضور قبل ثلاثة أيام من موعد انعقاد المؤتمر.

مادة (٨): الهيئة الإدارية:

١ - تتكون الهيئة الإدارية من سبعة أعضاء يتم انتخابهم بالاقتراع السري من قبل المؤتمر العام وتكون اختصاصاتهم:

١ - الرئيس .

٢ - نائب الرئيس

٣ - أمين عام

٤ - المسئول المالي

٥ - المسئول الثقافي

٦ - المسئول الاجتماعي

٧ - مسئول العلاقات العامة

وثلاثة أعضاء احتياط .

وتحدد اللائحة الداخلية موعد وعدد الاجتماعات الدورية وتتخذ القرارات بالأغلبية المطلقة وإذا تساوى الطرفان رجح الطرف الذي صوت فيه الرئيس .

مادة (٩): مهمات واختصاصات الهيئة الإدارية:

أ - مسؤولة أمام الجمعية العمومية عن تسيير شؤون وأنشطة الجمعية بما يحقق أهدافها .

ب - مسؤولة عن وضع اللائحة الداخلية وعرضها على الجمعية العمومية وتحديد اختصاصات أعضاء الهيئة الإدارية .

ج - تقديم التقرير السنوي عن أعمال الهيئة الإدارية ونشاطها إلى الجمعية مع صورة منه إلى الجمعية المختصة متضمناً ميزانية الجمعية وحسابها الختامي .

د - مدة العضوية في الهيئة الإدارية سنتين.

مادة (١٠): اختصاصات الرئيس:

- أ - المسؤول الأول في الجمعية .
- ب - المشرف على تنفيذ أنشطة الجمعية وبرامجها .
- ج- يرأس اجتماعات الجمعية العمومية والهيئة الإدارية .
- د - يوجه الدعوة الى عقد اجتماع الجمعية العمومية .
- هـ- يمثل الجمعية أمام الجهات الأخرى .
- و - التوقيع على الشيكات الى جانب الأمين العام والمسؤول المالي .
- ز - أية مهام أخرى تحددها اللائحة الداخلية .

مادة (١١) اختصاصات نائب الرئيس:

- أ - في حالة وجود الرئيس تحدد اختصاصات النائب اللائحة الداخلية .
- ب - في حالة غياب الرئيس يتولى كافة صلاحياته .

مادة (١٢): اختصاصات الأمين العام:

- أ - يشرف على تنفيذ الأعمال اليومية .
- ب - يتولى مسؤولية المكاتبات الداخلية والخارجية .
- ج- يوجه الدعوات للمشاركة في الندوات والاجتماعات .
- د - التوقيع على أوامر المصرف .
- هـ- التوقيع على الشيكات بجانب المسؤول المالي ورئيس الهيئة .
- و - أي مهام توكل إليه من قبل الرئيس أو نائبه .
- ز - أي مهام أخرى تحددها اللائحة الداخلية .

مادة (١٣): اختصاصات المسؤول المالي:

- أ - التوقيع على الشيكات الى جانب الرئيس أو نائبه والى جانب الأمين العام .
- ب - يتولى عملية التنظيم المالي وتسجيل المصروفات والإيرادات في دفاتر وسجلات محاسبية وتنظيمية .
- ج- حفظ الوثائق المالية والتدقيق في عملية الصرف والإيراد .

- د - وضع التقارير الدورية عن حسابات الجمعية ومركزها المالي.
- هـ - إعداد الوثائق الخاصة بالحساب الختامي وتقديمه إلى اجتماع الجمعية العمومية السنوي.
- و - أي مهات أخرى تحددها اللائحة الداخلية.
- مادة (١٤): بقية اختصاصات المسؤولين الآخرين تحددها اللائحة الداخلية.

الباب السادس

- مادة (١٥): تتكوّن موارد الجمعية من:
- أ - رسوم التسجيل عند التقدم بطلب العضوية ومقدارها مائة ريال.
- ب - الاشتراك الشهري من الأعضاء وقدره خمسون ريالاً.
- ج - الهبات والتبرعات التي تتلقاها الجمعية من أفراد أو جهات يمنية بعد موافقة الهيئة الإدارية على قبولها وإبلاغ الجهة الإدارية.
- د - الهبات والتبرعات والإعانات الخارجية غير المشروطة بعد موافقة الهيئة الإدارية المختصة بحسب القانون.
- هـ - أية مساعدات أو دعم من الحكومة.
- مادة (١٦): إيداع وصرف أموال وممتلكات الجمعية يكون حسب ما يلي:
- أ - يفتح حساب باسم الجمعية في إحدى البنوك الوطنية بعد أخذ إذن من الجهة الإدارية المختصة.
- ب - يتم الصرف من حساب الجمعية بثلاثة توقيعات توقيعي الأمين والمسؤول المالي بالاشتراك مع رئيس أو نائب رئيس الجمعية.
- ج - في حالة تصفية الجمعية الجغرافية اليمنية فإن الجمعية العمومية هي التي تقرر بالأغلبية المطلقة الجهة التي ستؤول إليها صافي ممتلكات الجمعية، وفي حالة تعذر ذلك يكون العمل بموجب قانون الجمعيات رقم (١١) لسنة ١٩٦٣ م.

أحكام عامة

مادة (١٧): على الجمعية العمومية اختيار شعار يرمز إلى الجمعية وعلى الهيئة الإدارية استخدام ذلك الشعار في كل مطبوعات الجمعية.

مادة (١٨) يشكل من بين أعضاء الجمعية لجان نوعية تساعد الهيئة الإدارية على تحقيق أهداف الجمعية وتتبع هذه اللجان الهيئة الإدارية ويتولى رئاسة كل لجنة عضو من الهيئة الإدارية.

مادة (١٩): تصدر الهيئة الإدارية بطاقة عضوية لجميع الأعضاء.

مادة (٢٠): لا يجوز للجمعية أن تنتسب أو تشارك أو تنظم إلى جمعية أو هيئة أو نادي مقره خارج الجمهورية قبل إبلاغ الجهة الإدارية المختصة كما لا يجوز للجمعية أن تتسلم أو تحصل على إعانات مالية من أشخاص أو جمعية أو هيئة أو نادي خارج الجمهورية وأن لا ترسل شيئاً مما ذكر إلى أشخاص أو منظمات في الخارج إلا بإذن من الجهة الإدارية المختصة وذلك فيما عدا المبالغ الخاصة التي تشمل الكتب والمجلات العلمية والفنية.

مادة (٢١): أي تعارض قد ينشأ عن السهو أو الخطأ في هذا النظام وأحكام قانون الجمعيات يتم البت فيه وفقاً للقانون العام.



- Modern Arabic Literature** (Three Continents Press, Washington, D.C., 1980), pp. 47-60.
- (4) Tayeb Salih, **Season of Migration to The North** (Heinemann Educational Books Ltd., London, 1981), pp. 1-2.
 - (5) *Ibid.*, p. 137.
 - (6) *Ibid.*, p. 42.
 - (7) *Ibid.*, p. 30.
 - (8) *Ibid.*, p. 31.
 - (9) *Ibid.*, p. 156.
 - (10) Muhammed Siddiq, "The Process of Individuation in Al-Tayyeb Salih's Novel **Season of Migration to the North**", p. 69. In **Journal of Arabic Literature**, Vol. IX, (Leiden, 1978), pp. 68-104.
 - (11) **Season of Migration to the North**, pp. 32-33.
 - (12) *Ibid.*, p. 33.
 - (13) Norman Daniel, **The Cultural Barrier** (Edinburgh, 1975), p. 36.
 - (14) **Season of Migration to the North**, p. 67.
 - (15) **The Cultural Barrier**, p. 28.
 - (16) **Season of Migration to the North**, p. 66.
 - (17) Susan A. Gohlman, "Women as Cultural Symbols in Yahya Haqqi's **Saint's Lamp**", p. 123. In **Journal of Arabic Literature**, Vol. X, (Leiden, 1979), pp. 117-127.
 - (18) *Ibid.*, p. 123.
 - (19) **The Cultural Barrier**, p. 19.
 - (20) John C. Condon & Fathi Yousef, **An Introduction to Intercultural Communication**, (Indianapolis, 1976), p. 265.
 - (21) Yahya Haqqi, **The Saint's Lamp and Other Stories** (Leiden, 1973), p. 24.
 - (22) *Ibid.*, p. 25.
 - (23) *Ibid.*, p. 26.
 - (24) "Women as Cultural Symbols in Yahya Haqqi's **Saint's Lamp**", p. 125.
 - (25) **The Saint's Lamp and Other Stories**, p. 27.
 - (26) **The Cultural Barrier**, p. 19.
 - (27) M.M. Badawi, **Modern Arabic Literature and The West** (London, 1985), p. 92.
 - (28) **The Saint's Lamp and Other Stories**, p. 37.
 - (29) *Ibid.*, p. 37.
 - (30) **Modern Arabic Literature and the West**, p. 94.
 - (31) Tawfiq al-Hakim, **Usfur min al-Sharq**, pp. 172-73. The edition used is that of *Kitab al-Hilal*, No. 77 (Cairo, p. 157).
 - (32) Hilary Kilpatrick, **The Modern Egyptian Novel**, (London, 1974), p. 49.

man civilization. In another work, *Zahrat al-umr*, Al-Hakim expounds his views on East-West relationships. Here he suggests explicitly "a synthesis between the realism of the West and the idealism of the East, both of which need each other"⁽³²⁾.

IV Conclusion

The foregoing discussion focuses on some of the most important issues in East-West relationships as reflected in the novels under consideration. Al-Tayyeb Salih ends his novel with an earnest plea for a more balanced crosscultural understanding. Mustafa Saeed finally realizes that his political and historical grievances against the West cannot be redressed by perverted vengeful means. Though he realizes that he may not be able to overcome his ill-feeling, he hopes that his children will be able to transcend this state of mind with proper cultural orientation to guard them against the potential dangers of crosscultural infection. On the other hand, Yahya Haqqi concentrates on some conflicting values between the East and the West. Ismail's failure to readjust himself in his own community is attributed to his inability to reconcile his western-acquired scientific knowledge with the deeply-rooted Islamic values of his fellow citizens. Finally, Al-Hakim focuses on the spiritual aspects of the confirmation between East and West. Muhsin experiences crosscultural difficulties and disappointments while in France which prompt him to develop a self-defensive mechanism against what he perceives as the «opportunism and excessive materialism» of the West. Muhsin, however, finally realizes that spiritualism alone could hardly account for the diversity and richness of the human civilization. His recognition of the interdependent nature of various art forms underscores the concept of a three-fold source of Western Culture of which one part is Arabian.

NOTES

- (1) Peter Mansfield, *The Arabs* (Penguin Books, England, 1983), p. 497.
- (2) *Ibid.*, p. 501.
- (3) Issa J. Boullata, "Encounter Between East and West: A Theme in Contemporary Arabic Novel", p. 48. In Issa J. Boullata (ed.), *Critical Perspectives on*

Saeed and Ismail — Muhsin develops a romantic relationship with a French girl, Suzie, which is meant to crystallize the crosscultural encounter and as such to polarize the novel's pervasive theme. Suzie at first responds to Muhsin's advances when she temporarily breaks up with her French boy friend. Muhsin, however, is kept in the dark about the true motive of Suzie and continues to believe that his partner is genuinely in love with him. To his dismay, Suzie wastes no time in dropping him when she is finally able to reconcile with her old French boy friend. To this end, the story is presumably meant to amplify the contrast between the unquestionable dedication of the man from the East and "the calculated utilitarianism of the woman from the West"⁽³⁰⁾. This dark image of the West is accentuated with the introduction of the hero's friend — Ivanovitch — who consistently reflects on the superlative qualities of life in the East when compared to the West. Al-Hakim invents this character to augment his early convictions about the purity of the East and to confirm his fears about the potential corrupting effects of the West on the moral standards of the East. Unlike Mustafa Saeed, neither Mohsin nor the self-exiled Russian philosopher attempts to strike at the west physically. Instead, they speculate on what they perceive as the potential corruption of the East by the West. Their criticism, however, is marred by a tendency to theorize and generalize with insufficient insight into the conditions under discussion. **A Sparrow From The East** therefore is criticized for lacking actual experience to qualify for the sweeping value — judgments embodied in the novel. Towards the end of the novel, Al-Hakim realizes that his call for total rejection of the West is unwarranted. He sees the necessity for building crosscultural bridges. Despite his bitter attack on the materialism and lax morality of the West, Al-Hakim finally softens his position through Muhsin's conversation with Ivanovitch in which the latter surprisingly admits the interdependence of the various arts: "I realized that there was no way of understanding an art-form other than through knowledge of the rest of the arts". With this acknowledgment, Al-Hakim contrives intellectually to balance his early sweeping value-judgements by admitting the necessity for East and West to complement each other for the potential good of hu-

ness. For weeks, Ismail wonders why he has failed. He has become disenchanted with his outstanding academic and medical records. He even sells his books and medical equipment and confines himself to seclusion once again. In his solitude, Ismail starts to experience an irresistible inner call to reach for and reconcile with the Square and its people. Failing to resist this inner drive, he starts to show sympathy and express appreciation for what his culture stands for. Ismail now realizes why he failed. He "has nursed his pride and rebelled; he attacked and, over reaching himself, he fell"⁽²⁷⁾. Now Ismail realizes that his new knowledge must be viewed as a complement to and not a substitute for his own culture. Towards the end of the story, we see Ismail going back to his science and medicine, "but this time fortified by faith"⁽²⁸⁾. Applying both the scientific knowledge of the west backed by the spirituality and faith of the east, Ismail finally succeeds in helping Fatima regain her sight.

The *Saint's Lamp* therefore does not call for a rejection of western culture. Instead, the novel appeals for a reasonable synthesis between the East and the West. Though the author categorically shows the disruptive impact of western cultures on eastern ideals, he nevertheless emphasizes the need for adaptation and cooperation to ensure the survival and wellbeing of Arab culture. With this view, Ismail becomes a success.

He performed many a difficult operation successfully using means which would make a European doctor gasp in a amazement. He only held to the spirit and basis of his science, abandoning all elaborate instruments and techniques. He relied first upon God, and secondly on his learning and the skills of his hands⁽²⁹⁾.

3. Sparrow From The East

Unlike the *Saint's Lamp*, Al-Hakim's novel *Sparrow From The East* Presents the strongest of reactions against the west and allows little possibility for crosscultural accommodation and synthesis. The novel is set in Paris where a young Egyptian student — Muhsin — is studying French literature and culture. In Paris — like Mustafa

Though Ismail has known from childhood that the oil from Umm Hashim's Lamp has the special power to cure the eye ailment of those who are true believers, he, being culturally disoriented, reacts violently to such firmly held beliefs. He snatches the bottle of oil from his mother and throws it out the window.

Like an angry bull before which a red cloth was being waved, Ismail thundered, "It's your Umm Hashim here who will rob the girl of her sight. You will see how I shall treat her, and how at my hands she will get the cure she has sought in vain from Umm Hashim"⁽²³⁾.

Ismail, after years of cultural and educational indoctrination in the west, has done "nothing more than substitute one form of mystery worship for another: nature and art have merely replaced religion"⁽²⁴⁾. Being pragmatically oriented, Ismail decided to strike at the very source of Umm Hashim's spiritual power.

He grew more agitated... and made for the front door. On his way he picked his father's walking stick... and ran out of the house. He was determined to deal to ignorance and superstition a mortal blow, even if that should cost him his life⁽²⁵⁾.

Ismail is finally able to get to the mosque and to strike at Umm Hashim's Lamp though at a very heavy cost. He is beaten up and nearly torn apart by the people in the mosque; Sheikh Dardiri, however, is able to bail him out by telling the crowd that Ismail is obviously possessed.

After this tragic experience, Ismail goes into seclusion and introversion. Occasionally, he entertains nostalgically the idea of going back to Britain away from the land that has ironically become totally unbearable and alien to him. Ismail is plagued by the disease of cultural imperialism. He has become, unfortunately, of no value to either culture as he fails to realize that his "new knowledge of the host culture must be added to, and not substituted for, his own culture"⁽²⁶⁾. Later on, however, Ismail starts to regain confidence in himself and decisively plans to resolve Fatima's ailment. To his dismay, all his scientific and medical methods fail to cure Fatima's eyes. In fact, her situation worsens to the point of complete blind-

life can be achieved only through self-actualization and that the value of the human person can be realized only through diversity, mobility and greater personal freedom. Unable to maintain his equilibrium and value — orientation system, Ismail finally gives in. His failure to maintain his cultural identity alludes to the inadequacy of the crosscultural contact. Norman Daniel argues that a situation like this is normally harmful to any crosscultural contact “unless it conduces to communication, and this can only happen if the visitor retains full sympathy for his home culture”⁽¹⁹⁾. Clearly, Ismail fails to meet this qualification. His failure is attributed primarily to his inability to realize the difference between cultural appreciation and indoctrination; the difference between active participation in a foreign culture and passive acceptance of that. Mary can be held partially responsible for Ismail’s disorientation as she fails to exercise any sort of “caution, even humility, in comparing values and in urging changes in other cultures”⁽²⁰⁾.

The biggest question for Ismail is how to adjust once again to the cultural patterns of his homeland. After seven years of overseas education, Ismail has certainly acquired an alien culture to a substantial degree. Unlike Mustafa Saeed, he experiences substantial difficulties in handling himself both personally and professionally.

Ismail stole a glance from the corner of his eyes at the house. It was much smaller and darker than he could remember. Did his people still use an oil lamp. The old pieces of furniture scattered in the rooms seemed, in spite of the long years of companionship, as if they were strangers in a land of exile. Ismail wondered why the stone floor was not covered with carpet⁽²¹⁾.

He is outraged later to learn that his mother is using oil from Umm Hashim’s lamp to cure Fatima’s long contracted eye disease.

“What is that, Mother?” asked Ismail.

«It is oil from Umm Hashim’s Lamp», replied his mother... As if stung by an adder, Ismail jumped to his feet. Wasn’t it strange that on the first night of his return he, an eye-specialist, should see how some diseased eyes were treated in his own country⁽²²⁾.

mething meaningful alongside many other meanings of deeper significance⁽¹⁶⁾.

(2) The Saint's Lamp

The potential impact of the West on the East has been given differing literary formulations by different authors. While some of the most celebrated contemporary works, such as al-Tayyeb Salih's *Season of Migration to the North*, have cautioned against the possibility of cultural domination, others call for accommodation and synthesis and for the adaptation of whatever is culturally transferable. Among the latter group comes Yahya Haqqi's celebrated novella *The Saint's Lamp*. In chronicling the rise and development of its protagonist, Ismail, *The Saint's Lamp* emphasizes cultural commitment and crosscultural adjustment as keys to success and happiness. As a son of a grain seller, Ismail grows to seek a fulfillment of his father's desire to become a successful medical doctor. Despite the tremendous sacrifice made by his family to access him to the privilege of private education, Ismail — to the dismay of his family — didn't do well enough to enter the School of Medicine. His father, acting on a friend's advice decided — with great reluctance — to send him to England. Seven years later, Ismail completes his studies and becomes a qualified ophthalmologist. While in England, Ismail undertakes a heavy dose of cultural transformation. Contrary to his early upbringing of simple piety and spirituality, Ismail starts to experience a strong urge to challenge and to a certain degree to despise some of the wellrooted beliefs and assumptions in his own society. During his apprenticeship in England, Ismail has the opportunity to meet Mary who, in the words of Susan A. Gohlman, "symbolizes all of those western values which Ismail lacked, but who is nonetheless believable as a character despite her obviously symbolic function⁽¹⁷⁾. Mary acts as a catalyst as Ismail progresses along the scale of acculturation. She tries consistently to guard Ismail against laying too much emphasis on the spiritual aspects of life. She explicitly teaches him that "beauty belongs to the things of this world, not to the next"⁽¹⁸⁾. Furthermore, Mary struggles to convince Ismail that fulfillment and happiness in

Mustafa Saeed is torn apart between two cultures. He is suffering from xenophobia. In this state of mind, Mustafa Saeed's behavior can only be explained as, "a normal exercise of the cultural filter" which is "a valuable function of the defense mechanism"⁽¹³⁾. His holographic will stands in testimony to his inability to resolve the crosscultural conflict which has marred his vision and inflicted his life:

It's futile to deceive oneself. That distant call still rings in my ears. I thought that my life and marriage here would silence it. But perhaps I was created thus, or my fate was thus — whatever may be the meaning of that I don't know. Rationally I know what is right: my attempt at living in this village with these happy people. But mysterious things in my soul and in my blood impel me towards far away parts that loom up before me and cannot be ignored. How sad it would be if either or both my sons grew up with the germ of this infection in them, the wander-lust⁽¹⁴⁾.

This testimony lends credibility to Professor Maxwell's argument that Mustafa Saeed, though intellectually capable of absorbing western civilization, is nevertheless emotionally incapable of digesting it. Mustafa Saeed like any other Arab intellect is seeking possible ways to restore posture and dignity after a long period of indignation at the hands of western colonial powers. He is imbued with a profound sense of his glorious past but he is equally outraged at the dependency, backwardness and decline in power of his nation in relation to the west. The nub of the question for Mustafa Saeed is, "Whether it is possible to modernize without westernizing; to develop without acculturation to the dominant societies; the problem is to discover the cost of modernizing"⁽¹⁵⁾. Though Mustafa Saeed is emotionally incapable of resolving this predicament, he hopes that his children with proper cultural orientation would be able to overcome this crosscultural impasse:

If they grow up imbued with the air of this village, its smells and colours and history, the faces of its inhabitants and the memories of its floods and harvestings and sowings, then my life will acquire its true perspective as so-

the course of events»⁽⁹⁾. This attitude causes Saeed a great agony and precipitates a deep emotional reaction in him. He threatens to kill Jean Morris, which in the end he does. Mustafa Saeed's violent reaction brings the novel to its climax and invites a great deal of interpretations and criticism.

Several critics comment on Mustafa Saeed's personality and specifically on his psychological reactions to women. Muhammed Siddiq notes that «Mustafa Saeed himself, while masquerading as the puppeteers, seems to be no more than a puppet driven by forces and impulses he can neither understand nor control»⁽¹⁰⁾. Siddiq goes on to assert that Saeed is fully aware of his «perverse attitude towards women» but denies him any ability to understand the underlying motives behind his behavior. Such interpretation of the novel, though interesting, fails to account for the very basic philosophy permeating the novel. That is Mustafa Saeed's determination to settle his quarrel with the West — to subjugate, if at least temporarily, the country which had for decades assaulted his culture and plundered his homeland's natural and human resources. In the court room, his British lawyer makes this point distinctively clear. He tells the court jury that

... Ann Hammond and Sheila Greenwood were girls who were seeking death by every means and that they would have committed suicide whether they had met Mustafa Saeed or not. Mustafa Saeed, gentlemen of the jury, is a noble person whose mind was able to absorb western civilization but it broke his heart. These girls were not killed by Mustafa Saeed but by the germ of a deadly disease that assailed them a thousand years ago⁽¹¹⁾.

There is no doubt in my mind that the «germ of a deadly disease» referred to in Professor Maxwell's court defense is an implicit indictment of western expansionism — a frank and open admission that historical conflicts across cultures can only be resolved through tolerance, considerable love and mutual understanding. In line with this, Mustafa Saeed himself makes the following remarks, «Professor Foster Keen turned the trial into a conflict between two worlds, a struggle of which I was one of the victims»⁽¹²⁾.

and genius to bring the historical grievances of his contrymen to the attention of the British public audience. In his lectures and publications, Saeed exposes the cruelty and depravity of British imperialism in Africa. His list of publications includes titles such as: **The Economics of Colonialism, Colonialism and Monopoly, The Cross and the Gunpowder** and **The Rape of Africa**⁽⁵⁾.

Mustafa Saeed's relationship with English women involves the political history of lies, exploitations and unfulfilled expectations which marked the relationship between the Sudan and the British Colonial rule. While in Britain, Saeed uses his talents to seduce English women into sexual contact with him which will lead to their eventual destruction. The English women who come in contact with him are attracted by the exotic mystery of Africa and the East. Isabella Seymour, for instance, is being enticed by Mustafa Saeed's mystical history:

Doubtless one of my forefathers was a soldier in Tarik Bin Ziyad's army. Doubtless he met one of your ancestors as she gathered in the grapes from an orchard in Seville. Doubtless he fell in love with her at first sight and she with him. He lived with her for a time, then left her and went off to Africa. There he married again and I was one of his progeny in Africa, and you have come from his progeny in Spain⁽⁶⁾.

Ann Hammond sees in Mustafa Saeed a fulfillment of her yearnings for «tropical climes, cruel suns, purple horizons. In her eyes I was a symbol of all her hankerings. I am South that yearns for the North and the Ice»⁽⁷⁾. Like Isabella, Ann Hammond is unable to bring her relationship with Saeed to fruition — she finally commits suicide leaving behind a note that says, «Mr. Saeed may God damn you»⁽⁸⁾. The last woman Mustafa Saeed has an affair with is Jean Morris. Unlike the other women, she hesitantly agrees to marry Saeed and persistently tries to deny him love and affection. She even despises him and casually admits her infidelity. In retrospect, Saeed realizes that Jean Morris is «brazen in word and deed, she abstained from nothing — stealing, lying and cheating; yet against my will, I fell in love with her and I was no longer able to control

home countries after a long period of humiliation at the hands of superior Western powers. Another equally pressing question facing Arab intellectuals is how to unlock the secrets of Western powers without falling prey to Western domination and acculturation. Several Arab novelists have wrestled with these issues by «placing their protagonist in the West, then tracing his behavior there and upon his return to his Arab homeland»⁽³⁾. Following this tradition, Al-Tayyeb Salih presented his remarkable novel **Season of Migration to the North**.

III. The West in Contemporary Arabic Fiction

(1) Season of Migration to the North

Like every celebration work of Art, Al-Tayyeb Salih's novel **Season of Migration to the North** wrestles with the problem of identity and the quest for roots in alien circumstances of extraordinary complexity and uncertainty. The novel profoundly reflects the impact of Western Colonialism on an eastern intellect. One of the major characters in the novel, Mustafa Saeed, is presented as consistently attempting to assert his identity and prove his worth and genius in Britain — a country which had «raped» and «prostituted» Saeed's homeland for decades. The opening lines of the novel provide some suggestive clues to the theme of encounter between the East and the West:

It was, gentlemen, after a long absence — seven years to be exact, during which time I was studying in Europe — that I returned to my people. I learnt much and much passed me by — but that's another story..., and I experienced a feeling of assurance. I felt not like a storm — swept feather but like that palm tree, a being with a background, with roots, with a purpose.⁽¹⁾

Mustafa Saeed seems to be instinctively equipped with exceptional powers and genius. He proves his brilliance as he successfully moves from his elementary school in the Sudan, to a secondary school in Cairo and from there to Oxford University where at the age of twenty four he becomes a professor of Economics at the University of London. As a professor, Saeed utilizes his knowledge

gly western condemnation of the East for its lack of practical achievement. Islam became a subject of vicious attack and cynical ridicule because after nearly dominating the world it had entered a period of stagnation and physical decline. This gave rise to a popular belief in the West during the late nineteenth century that the East was lacking in capacities for self-government. This rationale made it possible for Western powers to partition the Middle East in the years following the First World War. This period marked the beginning of Western imperialism and thus ignited even more suspicions of the motives and intentions of the West. The struggle between East and West was once again at its full cycle as the prolonged wars for independence and self-determination spread throughout the Arab World. This was a new cause of ill-feeling between the Arabs and the West. For the Arabs the colonial era marked a long period of suffering and subjugation to foreign rule during which their very character and faith was put in question in various campaigns of humiliation and derogation. Western colonial powers viewed the violent reaction of the Arab World to the 'mandate system' as treachery and ingratitude — an evidence of the Arabs, «perverse failure to appreciate the benefits that had been bestowed upon them by the imperial powers»⁽¹⁾.

The Arab-Israeli conflict which has its origins in the Balfour Declaration of 1917 is another obstacle to crosscultural understanding between the East and West. Whereas Western literature has generally showed a great deal of sympathy for other races struggling for their independence, it remained cool or even hostile towards Arab aspirations for freedom and nationhood. Arabs are convinced that Zionist influence over vital aspects of Western intellectual life is detrimental to their relations with the West. Peter Mansfield in his remarkable book *The Arabs* inscribes a final note on the East — West conflict. He notes that, «the struggle between Christendom and the Word of Islam has never really ended, although it is being fought on different battle fields and with new weapons»⁽²⁾.

One of the most agonizing questions facing Arab intellectuals at large is how to restore status and dignity to themselves and their

play in enhancing or possibly complicating human relationships across cultures. Reasons for potential misinterpretation of a literary text will also be expounded. The impact of this on crosscultural understanding will in turn receive adequate consideration throughout this paper.

II. Literature and Culture: Where does the antipathy lie?

It is widely assumed that literature can be used as a social mirror to delineate popular beliefs in any given community at any given time. In most cases popular fiction reaffirms the social and moral values found among its respective readers and in some cases it may challenge the individual's ideas about himself, his society and the world. It is equally valid to argue that popular fiction is capable of fostering stereotypical images and of heightening sensitivity to racial and ethnic prejudices in any given community. Since popular fiction is geared towards the widest possible audience, its impact on popular attitudes is of great magnitude. Taking this view in mind, I will examine in the following pages the image of the west as projected in contemporary Arabic fiction. The novels under consideration are selected solely because they project human drama in crosscultural contexts. Accordingly, three widely acclaimed Arabic novels are selected. These are al-Tayyeb Salih's **Season of Migration to the North**, Yahya Haqqi's **The Saint's Lamp**, and al-Hakim's **Sparrow From the East**.

The history of crosscultural contacts between the east and the west has always been marked by a great deal of mutual suspicion, hatred and hostility. The long and often bloody struggle between Western Christendom and the Islamic World during the Medieval and Renaissance periods was a conflict between compatible enemies. There was mutual animosity but, equally important, there was mutual respect. This, however, changed in the eighteenth and nineteenth century, when the West achieved overwhelming technological and material power. The balance of power between East and West has been affected since then. Mutual hatred from the past which was tempered with respect has been replaced by an increasin-

EAST AND WEST IN CONTEMPORARY ARABIC FICTION: THE CROSSCULTURAL IMPASSE

I. INTRODUCTION

Any Western reader or student of Literature who embarks on an attempt to understand the contemporary Arab world through literature is confronted by a set of formidable difficulties. The same holds true for any Arab reader who struggles to arrive at a better understanding of the Western culture through literary sources produced either in the East or the West. At the superficial level both readers encounter a wide range of stereotypical images of the East and the West. A more complex problem is that most readers on either side are unaware that they suffer from prejudice towards the other side. All these prejudices limit communication because of the hostility they engender, and because of the misinterpretation of ordinary actions to which they give rise. The fundamental reason for prejudice is the apparent failure of most people in this world to accept that other people might be different. Unfamiliarity with the social and cultural context of a literary text creates misunderstanding, and misunderstanding suspicion which might lead to hatred and fear — a situation which can only be described as potentially dangerous to crosscultural congeniality and understanding.

The primary purpose of this paper is to examine the validity of the notion that literature can serve as an intellectual barometer for a culture. Towards this end, a careful analysis of selected novels and short stories from contemporary Arabic Literature is conducted. The main discussion is focused on the role which literature can



**EAST AND WEST IN CONTEMPORARY
ARABIC FICTION:
THE CROSSCULTURAL IMPASSE***

By:

Abdelrahman A. Abdrabou

* This research was made possible in part by a Fulbright research grant during the period from September 1987 through May 1988.





UNIVERSITY OF SANAA

**JOURNAL
OF
FACULTY OF ARTS**

N,9 1989



UNIVERSITY OF SANAA

**JOURNAL
OF
FACULTY OF ARTS**

N,9 1989